شؤون فلسطينية

٧٢

تشرين الثاني "نوفمبر" ١٩٧٧

شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : محمود درويش
سكرتير التحرير : الياس خوري

٧٢ تشرين الثاني "نوفمبر" ١٩٧٧

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين ٠

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت ـ لبنان ، ص٠ب ١٦٩١ ٠ تلفون : التحرير ٣٥١٢٦١ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ،

برقيا مرابحاث ، بيروت ٠

مدير التوزيع : **غازي دانيال**

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل٠ل٠ في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل٠ل٠ في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل٠ل٠ في اوروبا ، ١٢٥ ل٠ل٠ في بقية بلدان العالم

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل٠ل٠ في جميع الدول غير غير العربية ٠

الغلاف بريشة :
مؤيد الراوي

المحتويات

الصفحة		
٤	محمود درويش	طريق الرمل ٠
٦	شفيق الحوت	على هامش الدورة الحالية للامم المتحدة : الحرب والسلام توأمان ٠
١٤	يحيى رباح	يوميات العرقوب ٠
٢٩	غازي الخليلي	قراءة في الوضع السياسي الراهن ٠
٤٥	سمير كرم	الثابت والمتغير في مبادىء السياسة السوفياتية ٠
٤٧	جيروم شاهين	اتحاد اليسار الفرنسي والصراع على السلطة ٠
٨٢	معين بسيسو	دفاتر فلسطينية (٣) ٠
١٠٢	اليزابيت ماتيو	اسرائيل وجنوب افريقيا ٠
١٥٠	خليل بركات	المؤامرة مستمرة في الجنوب ٠
١٣٢	محمد عبد الرؤوف سليم	التجارة اليهودية في فلسطين حتى قيام دولة اسرائيل ٠
١٥٧	تقارير	الندوة العالمية حول السلام والفلسطينيين ، عباس مراد
١٦٧	مراجعات	الفلسطيني بين التيه والدولة ، ناشي طه ٠ حرب يوم الغفران ، رشاد راشد ٠ السياسة العربية الفلسطينية ، ع٠م٠

الصفحة

١٨٣ شهريات : **المقاومة الفلسطينية** . بلال الحسن · **المناطق المحتلة** . عبد الحفيظ محارب ·

١٩٨ شؤون أدبية

الياس خوري : **حين تكتمل الدائرة** ·
يحيى يخلف : **الدمية** (قصة) ·
صالح هواري : **وردة الجرح تشهد** (شعر) ·
أتيلا جوزيف ، الشاعر الذي مر عليه قطار البيروقراطية ·

٢٢٨ كتب : **خربة خزعة** ، توفيق فياض · **العشاق** ، احمد دحبور · **التراث الفلسطيني والطبقات** ، علي حسين خلف ·

٢٤٠ مروان حميد : **جدول العمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية ١١ـ٩ـ٧٧ ـ ٩ـ١٠ـ٧٧** ·

طـــريق الرمـــل

طريق الرمل ، طويل كالنهايات التي تدافع عن ذاتها · فيه اسئلة واسئلة لا تنتهي الا باستيلاء البديل على قواه وطريقه · كأن العجز الطافي على هذا الوقت يمتلك البراهين على انه عجز امة · يطير سقف المحرمات ، كل شيء جائز في طريق الرمل ·· الاحتماء بأسلحة العدو تجربة قابلـــة للاجتهاد · وطريق الرمل ممتد كأنه قدر لا يقاوم · يمتد من حرب الى حرب ويستأنف تعرجاته وأحتمالات السطوة · وبين النصر والهزيمة خيط لا يرى الا بدليل وعصا جنرال · تخرج الناس من حزيران ممتلئة بالبرق الساطع وعناد الارادة ـ هكذا تتحول الهزائم الى تجربة تؤسس مقومات نصر · وتخرج الناس من تشرين ممتلئة بالدهشة والضياع واستلاب الارادة ـ هكذا تتحول امكانية النصر الى هزيمة اختيارية · ويمتد طريق الرمل · يستأنف تعرجاته · ينتهي ولا ينتهي · كأن الايام حبات من الرمل لا تمكث بين الاصابع · الى أين ·· الى أين ؟ نوع اخر من السراب واسوأ ، لانه يفتقر الى حيوية المحاولة والانتظار فلا يعبيء الرحلة بزخم الفرح الانساني او زخم العذاب الانساني · ان الوقت يبذر بالمجان ، والدم يسيل من جرح لا يوجع الدولة · والنفط الذي يكسر المفاهيم يتبخر في سماء تبتعـد سنين قليلة ، ولا احد يرى أبعد من جيبه في طريق الرمل · وطريق الرمل مزدحم بالذاهبين الى السدى · الهدف قريب ولا احد يصل · صارت جنيف ام المدن ومستشفى الجراح العربية · يأتيها المسافر من أقرب مكان : من خمسين الف ضحية واكثر ، ومن سجون بلا عدد ، من التسامح مـــع الاعداء ، ومن الاعتذار عن لغة جيل كامل · من استبدال العدو بالصديق والارض بالطائرة الشخصية ، ومن رفع اسعار الطحين والسكر وانتشار الكوكاكولا والأمية والمرض · ويأتيها المسافر من اي مكان : من منع الكتابة الى محاصرة الحلم الفلسطيني، من نزع الحجاب عن وجه الطبقـة الى فرض الحجاب على وجوه النساء · جنيف ام المـــدن · ولا يدري الكثيرون انها هنا ·· في الكثير من العواصم العربية · جاهزة لاستقبال الوفود التي جهزت نفسها لاستيعاب الشـــروط · لقـد تمت التسوية في الشوارع والعلاقات وبرامج التعليم والاذاعة والصحافة · تمت تمت ·

ولكن احدا لم يصل الى جنيف المحصلة ، لان العدو الاسرائيلي ينتظر مزيدا من السخاء العربي · ولماذا نعرف ، لماذا نعرف ان ما يصبه العرب في معدة الولايات المتحدة الامريكية يغذي شرايين الشره الاسرائيلي الذي لا ينتهي ، لا ينتهي بتصريحات الشطرنج التي يلعبها رئيس اميركي دائم الابتسامة ؟· لماذا نعرف ما دام الكل يعرف ان الحماسة الاميركية لتحرير الارض العربية لاتعرف حدودا في طريق الرمل · اسئلة واسئلة تضع البديهيات في حجم المعجزة · وجنيف ام المدن ليست الا مرآة لعلاقات القوى على ارض الصراع · العاجزون عن خوض الحرب هم العاجزون عن انجاز السلام · والقوي في الحرب قوي في السلم · وطريق الرمل طويل الى ان يلتئم طرفا الدائرة ونعود الى نقطة البداية · سنعود الى كدح البرهنة على ان القضية الفلسطينية والارض الفلسطينية والثورة الفلسطينية والثورة العربية وحدة لا تتبعثر ، مهما كانت الرؤية شاقة على عيون الذاهبين في طريق الرمل ، ولم يعد من السهل عليهم ان يروا موكبهم الواحد · كل واحد على هواه والرمل كثير والوقت طويل والعمر قصير · ومع ذلك ، مع ذلك ، فان احدا لم يصل الى ام المدن · يأتيها المسافر من طريق العودة الى الوراء ، فلا يصل · يأتيها من واشنطن فلا يصل · يأتيها من اعتقال احلام الامة فلا يصل · جنيف بين يديه ولا يصل · وحين سيصل في نهاية هذا العام او العام الذي يليه ، او بعد اختيار هزيمة ترضي اميركا ، فانه سيكون مرهقا ، خاليا من شروط سلامه · وسيكون العدو مستعدا اكثر لخوض حرب جديدة يفرض فيها سلامه · وهذا هو سلامه : لا انسحاب من الارض · لا اعتراف بالفلسطينيين · لا دولة فلسطينية · فماذا سيفعل المسافر المتعب في طريق الرمل ؟ سيسعى الى حل ثنائي اخر · ويكتشف الجميع ان جنيف ليست ام المدن ، وسنختلف مرة اخرى ، وتندلع حرب اخرى في الداخل العربي · وتواصل فلسطين سيرها الذي لم يتوقف في طريق الثورة · ويصحو الجميع من حالة الرمل ·

محمود درويش

على هامش الدورة الحالية للأمم المتحدة

الحرب والسلام توأمان

على الرغم من كل ما اذيع وما نشر عن المؤشرات السياسية التي افرزتها الدبلوماسية السرية والعلنية لاطراف الصراع في ازمة الشرق الاوسط وقضية فلسطين ، والتي شهدتها اروقة الامم المتحدة وكواليسها ، فان الملامح النهائية والحاسمة لصورة « المحصلة » التي انتهى اليها وعندها صراع الارادات المتباينة والمتناقضة لا تزال غامضة وغير متفق عليها ٠

وعلى الرغم من كل ما اذيع وما نشر من تحليلات وتقييمات لهذه المؤشرات ، سواء من مواقع المتفائلين والراغبين في عقد مؤتمر جنيف وتمرير حل سياسي سلمي ، او من مواقع المتشائمين الرافضين لهذا كله ، فانها لمغامرة خطرة الرهان على اي من الموقفين ٠

فالطريق الى جنيف غير سالكة ، وكذلك الطريق الى الحرب ٠ وبقدر ما يسعى البعض لتعبيد الطريق الى السلام ، فانه يجد نفسه ـ أمام تناقضات المواقف ـ وكأنه يعبد الطريق الى الحرب ٠

ان « الحرب والسلام » بالنسبة لازمة الشرق الاوسط وقضية فلسطين ، في اطار الظروف والملابسات الحالية ، يبدوان كتوأمين سياميين لا يصعب فصلهما وحسب ، بل وهناك من يريد بقاءهما على هذه الحالة تكريسا لمصالحه وسياسته ٠

وقد يكون من قبيل التفاؤل ، المبالغ به ، ان نتوقع استكمال الملامح النهائية والحاسمة لصورة « المحصلة » لصراع الارادات خلال الاسابيع الستة القادمة ، اي بعد طرح قضية فلسطين على الجمعية العامة للامم المتحدة ، وان

كان من الممكن اعتماد ما قد يصدر عن المنظمة الدولية مؤشرا جديدا يضاف الى مجموعة المؤشرات السابقة ويساعد الى حد ما في عملية المراجعة المطلوبة للاستراتيجية العربية المتبعة منذ نهاية حرب تشرين ١٩٧٣ ٠

غير ان المؤشر الاهم هو ما قد يصدر عن مجلس الامن وليس عن الجمعية العامة ، لان ما يصدر عن الاخيرة وان كان يمثل الى حد بعيد « الضمير الدولي » ، فان ما يصدر عن مجلس الامن يمثل « الارادة الدولية » وخصوصا اذا كان موضع اتفاق الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، ويخدم سياسة الوفاق بينهما ولا سيما بالنسبة لموضوع الحد من انتاج الاسلحة النووية الاستراتيجية ٠

مع ذلك تبقى لهذه الدورة من دورات الامم المتحدة اهمية خاصة ، لانها جاءت في اعقاب التحركات المكثفة التي قامت بها ادارة الرئيس الاميركي جيمي كارتر الذي اوحى لجميع اطراف الصراع العربي ـ الاسرائيلي بأنه يعتمد تفكيرا واسلوبا جديدا لحل ازمة الشرق الاوسط وقضية فلسطين ٠ وبعد زيارة وزير خارجيته سايروس فانس الى المنطقة ، وما رافق تلك الزيارة من ملابسات وارتباكات ، اتفق على استئناف الاتصالات خلال انعقاد الدورة الراهنة ٠ لذلك كان هذا الحشد من وزراء الخارجية من جميع دول العالم الذين يهمهم ويقلقهم الوضع المتوتر في الشرق الاوسط ، فجاؤوا ليكونوا على مقربة من الاتصالات الجارية ، خصوصا وان الرئيس الاميركي قد اعلن عن عزمه زيارة المنظمة الدولية والقاء خطاب في جمعيتها العامة ٠

والواقع ان ما كان يجري في فندق « «يو٠ ان٠ بلازا » الواقع على الرصيف المقابل لمقر الامم المتحدة ، حيث كان يقيم الرئيس الاميركي ومعاونوه ، أهم بكثير مما كان يجري في مقر المنظمة الدولية ٠ فهناك التقى الرئيس الاميركي بممثلي اطراف الصراع ، كما قابل غيرهم من المعنيين بهذا الصراع ، بالاضافة الى الاتصالات المستمرة مع السوفيات باعتبارهم « الرئيس المشارك » لمؤتمر جنيف والقادرين وحدهم على نسف او دعم المساعي المبذولة لعقد المؤتمر المذكور ٠

وكانت الاخبار التي ترشح عما يجري داخل فندق « يو٠ ان٠ بلازا » عن طريق البيانات الرسمية ، او عن طريق الهمسات والوشوشات الدبلوماسية ، تنزل على المتربصين والمراقبين ، ولاسيما على ممثلي اطراف الصراع ، كمياه الحمامات التركية : طاسة سخنة وطاسة باردة ، لدرجة حملت بعض الدبلوماسيين على الاعتقاد بأن هذا التشويش والارباك ليس عفويا وانما هو مقصود بحد ذاته . تاركا للدبلوماسية السرية ان تتحرك بمعزل عن اصداء الضجيج الذي كان يعم المقر الدولي حتى مدينة نيويورك بأسرها ٠ ونيويورك ليست مدينة عادية كغيرها ، فبالاضافة الى كونها احد أهم مراكز الاعلام

في العالم ، فهي المدينة الاميركية التي يسكن فيها من اليهود ما يعادل عـدد سكان اسرائيل مضروبا باثنين ٠

ولما لم يكن بين منظمة التحرير الفلسطينية والادارة الاميركية اي اتصـال مباشر ، فلقد كانت اخبار الوفد الفلسطيني عما يجري في الفندق المذكور ، أو ما يجري في واشنطن بعد ذلك ، مستقاة من الاشقاء والاصدقاء من اصحاب الاتصال المباشر ٠ ومهما كان الراوي صادقا في روايته ، فان الصورة غيـر المباشرة تبقى باستمرار بحاجة الى التدقيق والتمحيص حتى يتم تحييدها عن مشاعر الراوي ومصالحه ٠ ويزداد الامر صعوبة وتعقيدا عندما تكون الصورة المنقولة بحد ذاتها ، وفي اصلها وتركيبها ، معقدة وغير واضحة ، وخاضعـة لعملية المساومة والمراوغـة ٠

ومن موقع المسؤولية ، كمشارك في الوفد الفلسطيني ، وكمراقب عـربي لما كان يجري في الساحة الدولية ، استطيع تسجيل الملاحظات التالية دون ان الزم غيري بها ، فسردي لها في هذا المجال لا يمنحها اية حصانة رسمية ، رغم التزامي بمسؤوليات امام منظمة التحرير بجميع مؤسساتها ٠

اولا : الموقف الاميركي

اذا اعتمدنا المعلن من الموقف الاميركي ، يصعب علي ان لا اعترف بأنه ليس هناكمن « جديد » في هذا الموقف ٠ وقد وصل هذا « الجديد » ذروته فـي البيان السوفياتي ـ الاميركي الذي صدر في خضم الاتصالات والمساجـلات والحرب الكلامية ، عندما سجل الاميركيون على أنفسهم الاعتراف « بشعب فلسطين وحقوقه المشروعة » ٠ وهذه هي المرة الاولى حسب معلوماتي التـي شمل فيها تصريح يصدر عن واشنطن الاعتراف بالشعب الفلسطيني وحقوقه المشروعة ٠ قبل ذلك ، كان كل ما صدر يتحدث عن « اللاجئين » ثم تطور فتحدث عن « الفلسطينيين » ٠ اما تعبير « الحقوق المشروعة » فكان يستعاض عنه بالحديث عن « الطموحات » الفلسطينية او « المصالح » الفلسطينية ٠

والذين اخذوا على البيان السوفياتي ـ الاميركي المشترك انه سجل تراجعا في الموقف السوفياتي غاب عنهم انه كان يستحيل على السوفيـات استدراج واشنطن على التوقيع على بيان يتضمن كامل بنود الموقف السوفياتي المعروف من قضيتي الشرق الاوسط وفلسطين ، ولا سيما فيما يتعلق بالفهم السوفياتي « للحقوق المشروعة » لشعب فلسطين والتي تتضمن حقهم في تقرير المصير والعودة واقامة الدولة الفلسطينية المستقلة ٠

اكثر من ذلك كل شعوب المنطقة تدرك ، ولاسيما بالنسبة للجانب العربي ،

ان المشكلة على مستواها الدولي لم تكن تعاني من الموقف السوفياتي وانما من الموقف الاميركي بسبب انحياز هذا الاخير الى الجانب الاسرائيلي وتبنيه لمعظم ما رسمته حكومة تل أبيب من سياسة عدوانية توسعية كولونيالية ٠

كان لا بد من هذا الايضاح حتى يستقيم ميزاننا في تقييم المواقف ونعطي لكل ذي حق حقه ٠

اذن هناك « جديد » في السياسة الاميركية المعلنة ، وهو « ايجابي » رغم تحفظ بعض رفاقنا في الثورة الفلسطينية حول هذا التعبير ٠ ويهمني هنا ان اوضح كذلك بأن « الايجابية » هي قضية نسبية وتقاس بالنسبة لما سبق لصاحب الموقف واتخذه من مواقف في الماضي ٠ فالمقارنة هنا ليست بين موقف موسكو او واشنطن ، وانما بين موقف واشنطن خلال عشرين سنة خلت وموقفها الحالي في هذه المرحلة من عهد الرئيس كارتر ٠

ان الدقة في التعابير هنا مطلوبة ، ولا يجوز تلبيس اي كلمة اكثر مما يحتمل معناها ٠

و « الجديد الايجابي » في الموقف الاميركي لا يعني ولا بشكل من الاشكال ان الولايات المتحدة قد تبنت مطالب شعبنا او حتى اقتربت منها مسافة ملموسة ٠ كما انه لا يعني ان ذلك «الجديد الايجابي » قد توثق بما فيه الكفاية واصبح سياسة « ثابتة » للبيت الابيض الاميركي ٠

واعتقد انه ضمن هذا الفهم للموقف الاميركي تعاملت قيادة منظمة التحرير ووفدها في الامم المتحدة مع الحكومة الاميركية عبر التصريحات والاتصالات غير المباشرة عبر الاصدقاء والاشقاء ٠

ويمكن تلخيص ذلك بالقول « هذا موقف جديد وايجابي نسبيا ، ولكنه غير كاف ولا بد من استكماله حتى تصبح فرص السلام واردة في الشرق الاوسط»٠

وكان واضحا ان المنظمة ووفدها حرصا على توضيح وترسيخ التباين بين الموقفين الاسرائيلي والاميركي لكي يشهد العالم كله ان اسرائيل في تعنتها وغطرستها اخذت تختلف مع الصديق الوحيد الهام لها في العالم وهو الولايات المتحدة ٠ وهذا ما ألمح اليه بكل الوضوح الاخ فاروق قدومي في جوابه على الكلمة التي ألقاها موشيه دايان امام الجمعية العامة ٠

واذا كان « الجديد الايجابي » في الموقف الاميركي قد ظهر وبان عبر التصريحات الرسمية على لسان الرئيس كارتر ووزارة خارجيته ، فلقد ظهر وبان على نفس المستوى ما يمكن اعتباره تملصا من هذا « الجديد الايجابي » واكثر من ذلك فلقد اتضح من الممارسات الاميركية خلال اتصالاتها مع اطراف الصراع بأنها لا تزال تقف الى جانب اسرائيل سواء بالنسبة للتمثيل

الفلسطيني في مؤتمر جنيف ، او بالنسبة لمصير الضفة الغربية والقطاع ٠

اي ان الولايات المتحدة تقف مع اسرائيل في القضايا الاجرائية ، وقضايا المادة السياسية ، بالنسبة لقضية فلسطين ٠

كفلسطيني لا يمكنني اغفال هذه الحقيقة رغم كل محاولات التطمينات غير المباشرة التي تحاول ، وعن طريق الارباك بالتصريحات والتصريحات المضادة، انفاذ المسيرة الاميركية في البحث عن حل سياسي سلمي ينقذ سمعتها اولا ، وينقذ من راهنوا على المسيرة بأنها وحدها القادرة على فرض الحل « العادل » في المنطقة ٠

وقبل ان تفوتني الفرصة اود ان اسجل هنا ، اجتهادي الخاص ، باعتبار ان قضية « التمثيل الفلسطيني من خلال منظمة التحرير » ليست قضية اجرائية كما سبق واشرنا على لسان غيرنا ، وانما هي في صلب المادة السياسية ٠ لان اي محاولة لقسمة التمثيل الفلسطيني بين منظمة التحرير واية جهة اخرى ، انما تستهدف في حقيقتها اما الايحاء بأن هناك اكثر من موقف سياسي فلسطيني يتعلق بمصير الضفة والقطاع ، واما خلق ذلك بالفعل وايجاد سقف جديد للمطالب الفلسطينية هو دون ذلك السقف الذي اعتبرته منظمة التحرير يمثل الحد الادنى من مطالبها للقبول بالمشاركة في الجهد السياسي المبذول على طريق مؤتمر جنيف ٠

بقي ان نقول كلمة حول « الموقف الاميركي » ، ولاسيما ذلك « الجديد والايجابي » منه : يقول البعض ان كارتر قد اعطى الفلسطينيين ، وبالتالي لقد اعطى العرب ما لم يعطهم اياه اي رئيس اميركي من قبل ٠ وانه لا بد بالتالي من دعم الرئيس الاميركي في مخططه الجديد ، لا سيما وانه يتعرض الان لحملة قاسية من « اللوبي الاسرائيلي » ومختلف مجموعات الضغط الصهيونية ٠ ويوحي هؤلاء بأن الدعم يأتي عن طريق اظهار المزيد من المرونة والتنازلات ٠

والحقيقة ان المطلوب ، ومن أجل تحقيق نفس الهدف ، اي دعم كارتر ضد الهجمة الصهيونية عليه ، هو المزيد من الضغط والتصلب ٠ وفي اجتهادي الخاص ان اي ضغط عربي جاد ، ولاسيما في مجالي المال والنفط ، يعتبر هدية للرئيس الاميركي باعتبارها ورقة هامة يستطيع ان يلوح بها الى الاميركيين مذكرا اياهم بمصالحهم الضخمة في الشرق العربي ٠

واذا كان باستطاعة المنظمات الصهيونية ان تحول مشكلة فلسطين الى مشكلة اميركية داخلية ، فمما لا شك فيه انه باستطاعة العرب الرد على هذه المحاولة وبأبسط مما يتصور الكثيرون ٠

أما المرونة والتنازلات العربية ، فان من شأنها اضعاف مركز كارتر واظهاره

بمظهر المفرط بالرصيد الاسرائيلي دون اي داع · ودليل الصهاينة على ذلك ، عندئذ ، هو التنازلات العربيـــة ·

ثانيا : الموقف السوفياتي

ليس هناك من جديد يمكن تسجيله بالنسبة لما أصبح معروفا وواضحا وثابتا بالنسبة للموقف السوفياتي من القضية العربية بشقيها الفلسطيني المتعلـق بمصر وسوريا · فالسوفيات لا يزالون عند موقفهم فـــي تفسيرهم لقرار ٢٤٢ ولاسيما بالنسبة للانسحاب الكامل من الاراضي العربية ، كما انهم عند موقفهم من قرار ٣٢٣٦ القاضي بمنح الفلسطينيين كامل حقوقهم الوطنية بما في ذلك تقرير المصير والعودة واقامة الدولة المستقلة ·

ولست في موقع من يجوز له الكلام عن العلاقات السوفياتية ـ العربية ، وما يجري بينهما من اتصالات حول الموقف من مؤتمر جنيف ومن الموقف الاميركي ـ الاسرائيلي المشترك ، ولكني استطيع القول بأن السوفيات اعلنوا لمنظمة التحرير قيادة ووفدا الى الامم المتحدة ، بأن موسكو لا يمكن ان تشارك في مؤتمر جنيف ان لم يتضمن جدول اعمال المؤتمر ما يشير الى حقوق شعب فلسطين الثابتة ، وان لم تشترك منظمة التحرير في المؤتمر ، كممثل شرعي وحيد لشعب فلسطين ، وعلى قدم المساواة مع جميع الاطراف المعنية · اكثر من ذلك لقد وقف السوفيات كذلك مع الموقف العربي الرافض للورقـــة الاسرائيلية ـ المشتركة بالنسبـــة للاتفاقيات الثنائية المنفردة ·

واذا كان لاي جهة عربية ما تقوله بصدد الموقف السوفياتي فـان الجانـب الفلسطيني لا يستطيع الا ان يسجل بالتقدير موقف هذا الصديق العظيم ، الذي لا يزال لثقله الدولي اكبر الاثر في تحييد الموقف الاميركي وموازنته ·

ثالثا : الموقف العربـــي

كان الموقف العربي في الامم المتحدة انعكاسا لمجمل المواقف العربية التـــي نعرفها جميعا · وهي دون ما نتمنى ويتمنى اي مواطن عربي ·

وعلى ذمة الرواة ، ومن بينهم العرب انفسهم ، ان الولايات المتحدة قـد وجدت اكثر من ثغرة في الموقف العربي عرفت كيف تستفيد منه وتستثمره لصالح حليفتها الاستراتيجية اسرائيل ·

ومن المؤسف فعلا ان تصب هذه الثغرات جميعها في بند فلسطين ، وفـــي المجالين الاجرائي والسياسي · وعلى الرغم من وعينـــا دسائس الاستعمار ومؤامرات الصهاينة في تفتيت الموقف العربي عن طريق الاشاعات والاكاذيب ،

الا انه من خداع النفس الا نعترف بأنه لو لم يكن هناك من « تباين » في المواقف لما استطاعت تلك الشائعات ان تجد سبيلها الى مستوى الاخبار ٠

وكما يقولون على لسان البسطاء من ابناء شعبنـــا وامتنا ان « التطـــرف الاسرائيلي الصهيوني » يبقى في النهاية الضمانة الكبرى لتوحيد الموقف العربي ولاسيما عندمـــا يكتشف الجميع انه ليس هناك في الافق ما يبشر بأي تنـــازل صهيوني عن شبر أرض او « فقرة » حق ٠

رابعا : الموقف الاسرائيلي

بعيدا عن كل التفاصيل التي باتت معروفة والتي تشكل كل « كلمة » فيها عقبة على طريق الحل السياسي ، فانه يكفي لتوضيح الموقف الاسرائيلي ما ورد على لسان موشيه دايان حينما خاطب الجمعية العامة ، فقال « ان قلب المشكلة يكمن في رفض العرب الاعتراف بحق اسرائيل في السيادة والاستقلال فوق وطن الاجداد التاريخي للشعب اليهودي » ٠

هل هناك ما هو أوضح من ذلك ؟

الرجل يريد اعترافا « بدولة « ما بين النيل والفرات » ثمنا للسلام مـــع العرب ٠ فما قيمة الحديث بعد ذلك عن « ضم » الضفة والقطاع ، او « اسباغ الشرعية » على مستوطنات الارض المحتلة !

اذا كان هذا هو جوهر المشكلة كما يطرحه موشيه دايان ، لاننا لم نعترف له بحق السيادة والاستقلال فوق بغداد والبصرة ودمشق واللاذقية وعمـــان ودلتا مصر وتبوك السعودية ، فأي قيمة لاي حديث معه حول مصير القـــدس وشرم الشيخ ومرتفعات الجولان ؟

وبعـــد ،

بعد هذا العرض المغالي في ايجازه لمواقف أطراف الصراع ، ما زالت هـــذه المؤشرات بانتظار المؤشر الذي ننتظره بعد اسابيع عند طرح قضية فلسطين على الجمعية العامة وربما على مجلس الامن ٠

فاذا اتخذ مجلس الامن قرارا يستكمل القرار ٢٤٢ ويشير الى المشكلـــة الفلسطينية وحقوق شعب فلسطين الوطنية فقد يكون ذلك مؤشرا ايجابيا بالنسبة لمؤتمر جنيف ٠ حتى لو اكتفى المجلس ، في حال استحالة اتخاذ القرار المشـــار اليه ، بتبني البيان السوفياتي ـ الاميركي الاخير بعد اعتباره وثيقة دولية ، فان ذلك ايضا قد يعتبر مؤشرا ايجابيا ٠

ولكن من يضمن ذلك ؟ ليس من ضمانة على الاطلاق ولا سيما من الجانـــب

الاميركي الذي قد يستعمل حق الفيتو ضد اي محاولة من هذا النوع ٠

مع ذلك ، هل اصبح الحل السياسي السلمي امام جدار مسدود ، واصبحت جنيف بالتالي وهما من الاوهام ؟ واننا بالتالي اصبحنا امام الخيار الوحيد : الحرب ؟

في ظني ، وهذا اجتهاد ، ان الطريقين ، الىجنيف والى الحرب ، غير سالكتين ، وان جميع الاطراف ، ولكل اسبابه وتمنياته ، يراهن على ما ستترتب عليه الاوضاع نتيجة لانسداد الطريقين ٠

الحرب والسلام ، في الشرق الاوسط ، كما قلت ، توأمان سياسيان ، وجراحتهما خطرة ، وغرفة العمليات غير مهيأة ٠

يحيى رباح

يوميّات العرقوب

١ ـ

فتحوا بوابة للاسرائيليين ، واغلقوا كل البوابات في وجه التاريخ ، هذا هو وضع الانعزاليين في قرية القليعة الحدودية ، ثم انهم بعد ذلك ، راحوا يحاولون نفي التهمة عن انفسهم ٠

كيف ؟؟

راحوا يصرخون بأعلى الصوت

ـ خائفون

ـ العالم من حولنا يكرهنا

ـ كل الطرق مقطوعة ٠٠ الا طريق اسرائيل سالكة ٠

وكان ضابط الاستخبارات الاسرائيلي الذي يعرف نفسه لهم باسم « ابو داهود » يتحدث اليهم في بادىء الامر باللغة العربية ، ولكنه صار يتحدث اليهم الآن باللغة العبرية ٠

وكان المطران بولس في مرجعيون ينادي بأعلى صوته :

ـ هؤلاء الناس الذين في قرية القليعة ، بارعون جدا ٠٠ بارعون في الانتحار ٠ ولكي ينفي الانعزاليون التهمة عن انفسهم ، فانهم قصفوا المطرانية ، ونهبوا محتوياتها بعد ذلك ، كان ذلك في اشتباكات شهر تشرين الاول من العام الماضي ٠

وكان الدكتور شكر الله كرم يقول لكل من يسأله :

ـ يجب حماية هؤلاء الانعزاليين من انفسهم · ولكي ينفي الانعزاليون التهمة عن انفسهم ، فانهم اطلقوا عليه النار ، ثم علقوا جثته فوق عمود للكهرباء ، على حافة الشارع الرئيسي في الخيام ، كان ذلك في اشتباكات شهر نيسان من العام الحالي ·

الدكتور شكر الله كرم ، طبيب مسيحي من بلدة الخيام ، كان اول رئيس للبلدية ، اختارته بلدة الخيام ، تلك البلدة الحدودية المسلمة ، بالاجماع · وطوال خمسة وثلاثين عاما ، ظلت عيادته ، التي في داخل بيته ، تستقبل العرقوبيين من الخيام وابل السقي وكفرشوبا وراشيا الفخار والماري وعرب الجسر وحلتا وكفر حمام والهبارية وغيرها ، كان الرجل محبوبا من اهل العرقوب جميعا ، من المزارعين ورعاة الماعز وباعة الخضار وصيادي العصافير وباعة السجائر المهربة ، كان محبوبا من عناصر الحركة الوطنية ومن الفدائيين ، وعندما علقوه جثة مثقوبة بالرصاص فوق عمود الكهرباء ، كان هذا علامة على ان الاصابع الانعزالية تتحرك بنبض الارادة الاسرائيلية ، تماما مثلما تتشنج روح شريرة في جسد فاقد الارادة ·

فتحوا بوابة للاسرائيليين ،

واغلقوا كل البوابات في وجه التاريخ ،

وراحوا يحاولون نفي الاتهام عن انفسهم ،

هذا هو وضع الانعزاليين ودورهم في الجنوب اللبناني وفي العرقوب بوجه خاص ·

وخلال الستة شهور الاخيرة على وجه التحديد ، انخرط الانعزاليون والاسرائيليون في الجنوب وفي العرقوب في لعبة خطرة وعنيفة ويائسة ، اسمها لعبة تبادل الاقنعة ، الاسرائيليون يتغلغلون في الجنوب ، ويباشرون العمليات العسكرية لاخلاء السكان ، وابادة الحياة ، واخراج مقاتلي الحركة الوطنية والفدائيين ، يفعلون كل ذلك وهم يختفون وراء القناع الانعزالي ، والانعزاليون بدورهم يهددون ، ويطرحون موضوعة تحرير الجنوب من اهله واشجاره وبيوته ، يفعلون كل ذلك وهم يختفون وراء القناع الاسرائيلي ·

ولكن العرقوب ضد التداخل ،

ولكن العرقوب اوسع من ان تناسبه لعبة تبادل الاقنعة ·

فالمواطن العرقوبي يقول :

ـ من هنا تبدأ المشكلة عادة ·· وليس هنا تنتهي ·

ومقاتل فلسطيني صغير السن في الخيام اسمه فايز يقول :

ـ ان ميثاقنا المكتوب على الورق ، والمحفوظ في الذاكرة يتلخص في جملة واحدة ٠٠ اينما وجدت اسرائيليا ٠٠ اطلق عليه النار ٠

والواقع الموضوعي يقول ان العرقوب ليس تفاحة يمكن ان يأكلها احد في غفلة من الناس اجمعين ٠

٠٠ وحين لا تبتعد المسافة بين الرصاصة والهدف ، تسقط الاقنعة ، وتسقط لعبة الاقنعة ، ويضطر كل طرف ان يكشف عن نفسه ، الانعزاليون يكشفون عن حجمهم ، والاسرائيليون يكشفون عن دورهم ، والفدائيون يكشفون عن تلك المساحة الشاسعة التي يمكن ان يصل اليها بأشكال شتى ، انفجار النيران ٠

هنا العرقوب ،

في شهر آب الماضي ، انطلقت اشاعة لا يستطيع احد ان يجزم بمدى دقتها ، ان اكثر من عشرين امرأة من نساء قرية القليعة ، عبرن البوابة المفتوحة ، وذهبن للولادة في المستشفيات الاسرائيلية ، وان تلك النساء عدن وكل واحدة منهن ، تحمل على ذراعها طفلة ٠٠ لقد سرق الاسرائيليون الاطفال الذكور من نساء القليعة ٠

[هذه الاشاعة تناقلها الناس وتحدثوا بها في قرى القليعة ومرجعيون ودير ميماس بوجه خاص ، وفي بقية قرى المنطقة بوجه عام ، وهي قد لا تتصف بالدقة ٠٠ ولكنها تكشف عن القلق] ٠

هنا العرقوب ،

افادت معلومات مؤكدة ، ان الرائد سعد حداد قائد قوات الانعزاليين في القليعة ومرجعيون ، يعاني من ازمة حادة ، بسبب انهيار الروح المعنوية لدى جنوده الانعزاليين ، وانه عقد اجتماعا لهؤلاء الجنود في الاسبوع الاول من ايلول الماضي ، ودعا الى الاجتماع عددا من الضباط الاسرائيليين ، ليستعين بهم في تنشيط الحالة المعنوية المتدهورة لجنوده ٠

هنا العرقوب ،

ليس في الامكان دائما ، ان تضبط قتالا على قدر مساحة قاع فنجان القهوة ، الطائرات الاسرائيلية بعيدة المدى ٠٠ وكذلك الصواريخ ومدافع الـ ١٧٥ مم ومدافع الدبابات ، وفي نفس الوقت فان الدوريات الفلسطينية بعيدة المدى هي الاخرى ٠

يتركز الهجوم الاسرائيلي الانعزالي على تلة الشريكي ، في محاولة للاستيلاء على الخيام وابل السقي واقتطاع العرقوب الاعلى ، ويجد الاسرائيليون ان الاشتباكات وصلت الى كريات شمونة وصفد ، وخليج عكا ٠

العرقوب ليس صغيرا

العرقوب هو نقطة التماس ،

وحين تشتعل النار ، فان حدوده تصل الى قاعة الجمعية العامة للامم المتحدة ، والى طاولة الحوار الهادىء بين كارتر ودايان ، بل وتصل حتى الى كل العواصم العربية التي اتكأت على وسادة السلم ، لتستيقظ على هاجس الحرب ٠

هنا العرقوب ،

في السادس عشر من ايلول الماضي ، اشتعلت في العرقوب على نحو ما حرب صغيرة ، اعترف الاسرائيليون بخسائرهم وتورطهم وانسحبوا ، واعترف الانعزاليون بضآلتهم فسكتوا ٠

ويصرخ مذيع من محطة اذاعة الانعزاليين :

ـ ماذا يريد الفلسطينيون ؟؟؟

لا تهم التفاصيل ، المهم ان لا تبتعد المسافة بين الرصاصة والهدف ، وان يظل العرقوب نقطة التماس الاولى ٠٠ هذا هو جوهر المسألة ٠

---

٢ ـ

تقول احدى الحكايات التي يتناقلها الرجال الطاعنون في السن في العرقوب ، ان امرأة من نساء الزمن القديم اسمها « الشعوانة » ، اختارت لنفسها مكانا قصيا فوق قمة الجبل ، وكانت تقول للناس الذين يتوافدون اليها ، من متعبدين ومتعبين ومستضعفين :

ـ ان الايمان يصنع المستحيل ٠

وكانت تقول لكل من تراه مترددا :

ـ وطد عزمك الآن ، واحسم الامر مع نفسك ، وخذ هذه السلة الشبكية واملأها ماء من قاع النهر ، واصعد بها الى قمة الجبل ٠

ـ ولكن ٠٠ ؟

ـ ولكن ان آمنت انك قادر على ذلك ، فسوف تصنع المستحيل ٠

وقد حدث ذات مرة كما تقول الحكاية ، ان رجلا مترددا ، حسم امره مع نفسه واستطاع ان يصعد الجبل ،وهو يحمل سلة شبكية مملوءة بالماء ٠

هذا هو العرقوب في عصر الخرافة ، وفي عصر الواقع ٠

العرقوب بجباله وتلاله ونتوءات الصخور ،

العرقوب بالنهر والوادي والينبوع والشجر المثمر والشوك الدامي ، بمطره وثلجه وصيفه الحارق ،

العرقوب حقيقي للغاية ،

العرقوب ضد السهولة ،

العرقوب ضد التداخل ،

وفي العرقوب اما ان تكون في القمة او تكون في القاع ، اما ان تكون تحت سيطرة رصاص العدو ، او يكون العدو تحت سيطرة رصاصك ٠

وفي العرقوب اما ان تكون قريبا الى حد التماس والحضور ، او تكون بعيدا الى حد الغياب والتلاشي ٠

وكمثال على ذلك ،

فان ابناء العرقوب الذين لم يستطيعوا ان يقيموا ائتلافا مع الثلج والشمس ، والمسارب الضيقة والنتوءات الصخرية الحادة ، والزيتون والشوك ، الذين لم يستطيعوا، هاجروا الى اطراف الارض البعيدة ، وبقي القادرون ٠

وكمثال آخر ،

فانه حين كان الفدائيون يتواجدون في رويسات العلم « قاعدة التحدي » كان العدو تحت وطأة رصاصهم وانه حين حدث العكس ، صار لحم الفدائيين تحت وطأة رصاص العدو ٠

وكمثال ثالث ،

فان ثوار الصالونات ومقاهي الرصيف ٠٠ الذين يعلقون اليافطات الثورية ، ويكتبون البلاغات ووصف المعارك من وراء مكاتبهم ، لم تطأ اقدامهم ارض العرقوب ، في حين استطاع الثوار الحقيقيون ان يعطوا للعرقوب ملامحهم ، وان يقترن باسمهم العظيم ، فيصبح اسم العرقوب « ارض فتح » ٠

وفوق ذلك كله ،

فالعرقوب بوابة لفلسطين ، وبرج مراقبة لسهل الحولة ، ومخفر انذار متقدم لجبهة عربية واسعة لو قدر ان تكون ٠

وكل الذين مروا الى فلسطين ، مروا من هنا ، الصليبيون وصلاح الدين ، الاتراك والانجليز والفرنسيون والصهاينة الذين كان الاقطاعيون الكبار ينظمون قوافل تهريب لهم ، ليسكنوهم في الارض التي باعوها لهم ، والفدائيون في

عبورهم الى فلسطين يمرون من هنا ايضا ٠

كانت الموجة الاولى في الاشهر الاخيرة من عام ١٩٦٨ ، حين جاء ابو علي اياد ، ونعيم وجواد ، وطه الخليلي ، وعمر زكي العسولي وصلاح ٠

تسربوا على اقدامهم عبر مسارب جبل الشيخ ، عرنة ، حيث اشتهر هذا الممر بعد ذلك ، وعرف باسم طريق عرفات ٠ فانتقلت اخبارهم عن طريق رعاة الماعز ، والقرويات اللواتي يجمعن الزيتون ، واجهزة اللاسلكي الموجودة في مراصد الجيش الاسرائيلي ٠

ـ وصل الفدائيون ،

ـ الفدائيون في الاحراش ،

ـ الفدائيون في المغر والكهوف ،

وحينئذ ابتسم سهل الحولة الفسيح ، وتمرد كثير من الصبية على ذويهم في قرى كفرشوبا والهبارية وراشيا الفخار وشبعا وكفر حمام والخيام وميمس وعين قنية وعين عطا والفريديس وشويا وعين حرشا وبكيفا والعقبة ، واضيف الى ميزانية الجواسيس بند جديد ، اسمه مطاردة الفدائيين ، وبدأ المستوطنون الصهاينة في المطلة والخالصة وكفار جلعادي وكفار يوفال وبقية المستعمرات الشمالية ، يوسعون الملاجىء ويضيفون اسلاكا جديدة الى خط الاسلاك الشائكة ٠

وحينئذ ،

صارت تلك البقعة الصغيرة من الارض العربية التي اسمها العرقوب ، الواقعة بين نهر الحاصباني غربا ، وقمة جبل الشيخ شرقا ، وقرية العقبة شمالا ، وقرية كفرشوبا جنوبا ، صارت تلك البقعة نشيدا من اناشيد العاصفة ، وساحة الاشتباك الاول ، ونقطة التماس الاولى ، وطموح الثوار بأن تتوحد الارض العربية في جبهة للقتال والتقدم ، وصار العرقوب اشهر آلاف المرات من العواصم المكتظة بالبشر ، المزدحمة بالوزارات والسفارات ، المحشوة بالبضائع الامريكية ٠

هنا العرقوب

فدائي وبندقية وعملية ، وخيمة وخندق وحفرة ، ومدفع وقذيفة وطائرة وقصف وانفجار ، ودخان وحرائق وشظايا وحطام ، ودم واشلاء وموت ٠

هنا العرقوب ،

اشتباك ، فتنهار ملايين الاشياء ، ابتداء من طريقة صياغة الخبر في الجريدة اليومية ، وانتهاء بطريقة ترتيب القائمة الانتخابية ٠

هنا العرقوب ،

اشتباك تتسع عيون الاطفال رعبا ، ثم تتسع دهشة لان العالم كله يتحدث عنهم ، تتصاعد حدة النقاش في الاجتماعات الحزبية ، يغير الحكام في خطاباتهم المعدة سلفا ، تتراجع كل البرامج السياسية ، لتفسح مكانا لبند سري سيكون فيما بعد هو البند الاول ، فحواه ان كل شيء ، ابتداء من تخفيض سعر حليب الاطفال وزيادة وزن الرغيف ، وانتهاء باقامة نظام ديمقراطي وتحرير ارض ، وتوحيد امة ، يحتاج الى اعتماد البندقية ٠

---

٣ ـ

منذ زمن بعيد ، وبفعل الناس ، والاحداث ، والموقع ، والفقر ، حدد العرقوب انتماءه للعروبة ، وحدد انتماءه للثورة ، يمثل العرقوب الآن نقطة التقاء الحدود السورية الفلسطينية اللبنانية ، ولكن قبل ان تكون الحدود ، كان العرقوب نقطة في وسط الارض ، وكان اهل العرقوب فصيلا في قلب الثورة المستمرة ٠

الشيخ سعد كليب من قرية العقبة ، عمره الان ٧٨ عاما ، حارب ضد الاتراك عام ١٩١٦ ، وكان قائد فصيل في الثورة السورية الكبرى ضد الفرنسيين عام ١٩٢٥ ، ولكن الذي حدث ان الفقراء الذين كانوا مادة كل تلك الثورات ، صاروا اكثر فقرا ، فانضم الشيخ سعد كليب مع صديق عمره فؤاد علامة ، اخذا يقومان بتشليح الاغنياء الذين سمسروا للترك ثم للفرنسيين ، واعطاء الفقراء ، سجنوه ٦٠ يوما ، وضربوه ٤٧٠ جلدة لكي يعترف عن صديقه فؤاد علامة ، لكنه لم يعترف ٠٠

يقول سعد كليب بمرارة :

ـ في عام ١٩٢٥ قدمت العقبة ٨٤ شهيدا ٠ في قتالها ضد الفرنسيين ، وفي عام ١٩٧٦ قدمت العقبة ٨٤ مطلوبا لانهم مع الثورة ٠

وفي قرية راشيا الفخار اعاد جورج معلوف « ابو فارس » بناء بيته الذي حوله الاسرائيليون الى انقاض ، اعاد بناء البيت بطريقة جديدة ، غير وبدل في اماكن كل الاشياء ، باستثناء شيء واحد وهو مكان الشرفة ٠

ذلك انه حين يكون ابو فارس جالسا في شرفة بيته في راشيا الفخار ، تكون فلسطين امامه بكل ايقاعاتها الخاصة ، قريبة الى حد الملامسة في النهار مضاءة في الليل ، مبهورة وسط حالة من القسوة والفرح في كل الفصول ٠٠

ابو فارس عاد الى قريته راشيا الفخار من البرازيل حيث يملك والده هناك املاكا واموالا كثيرة ، قال للذين استغربوا عودته :

ـ يا اخي ٠٠ كل واحد يغني على ليلاه ٠٠ هناك ناس يحبون ان يجاوروا مهد المسيح ، او قبر الرسول محمد ٠٠ انا في العرقوب اجاور فلسطين ٠

ثم بعد ذلك انهمك ابو فارس في زراعة اغراس الزيتون والعنب . ثم حين زادت وطأة الفقر على العرقوبيين . نبتت في رأسه فكرة . ان يرسل يوسف « المع ابنائه » الى احدى الجامعات ليدرس الزراعة . ويشتري ارضا واسعة . ليقيم فوقها جمعية زراعية تعاونية كبيرة يشرف عليها يوسف ٠٠ تعاونية زراعية كبيرة . تتيح العمل لكل القرويين في قريته ٠٠ وتوفر لهم الطعام والكرامة ٠٠ ولكن الحرب في لبنان اندلعت وتوسعت . وذهب يوسف جورج معلوف . ليقاتل الانعزاليين في المتن . استشهد يوسف . ولم يتمكن ابو فارس من تنفيذ مشروعه الكبير . كل ما حدث انه كان يزرع اغراسا من الزيتون والعنب في العرقوب . ولكنه زرع هذه المرة غرسة من الدم في الجبل ٠

فى السنوات الاخيرة في العرقوب . اصبح من غير الممكن ان تكتب اسم من تحب . على جذع زيتونة او بلوطة او سنديانة ٠٠ او على جدار بيت ٠٠ ومن غير الممكن ايضا ان تقيم الحسابات بناء على ما تتوقعه من محاصيل الشتاء والصيف ٠٠ في العرقوب تتغير التفاصيل بسرعة مذهلة تثير الغضب احيانا . والبكاء احيانا اخرى ٠٠ تأتي الطائرات المغيرة ٠٠ وتأتي القذائف ذات المدى البعيد . فتجتث الاشجار . وتتهدم البيوت . ولا يبقى شيء بعد ذلك . سوى الاشياء ككل ٠٠ يبقى العرقوب كله . والشعب كله . والثورة والفدائي والبندقية ٠

في العرقوب تجف بعض ينابيع الماء في الصيف . فتتضاعف المسافات . ويسقط الثلج فتقطع خطوط الاتصال . وتقصف القرية فتتحول الى مظاهرة احتجاج . ويتشرد الناس فيتحولون الى اعتصام . ويحدث الاشتباك فيتوهج الدم . وينتهي الاشتباك فتتضاعف حواجز الجيش . ويكثر الاعتقال . ويدور القتال فتسقط المؤتمرات . وتعقد المؤتمرات فيتحول العرقوب بكل ناره وموته الى طبق شهي على مائدة السماسرة ٠ وفيما مضى . كانت الخالصة هي سوق القرويين في العرقوب . وكانت حيفا هي مدينة عملهم وبيروت ظلت بعيدة ٠٠ الان اصبحت الخالصة كريات شمونة . واصبحت حيفاء ميناء اسرائيليا ٠٠ وبيروت ظلت بعيدة . وقال منظرو النظام وهم يفركون بجذل اياديهم السمينة :

ـ في الضعف قوة ٠٠

ـ كن ضعيفا حتى لا يهاجمك الاقوياء بقسوة ٠٠

ويصرخ اهل العرقوب :

ـ ولكن الاسرائيليين يهاجموننا بقسوة ٠٠

ـ ٠٠٠٠

ـ احتل الاسرائيليون ارضا لنا ٠٠ لماذا لا تعلنون ذلك ؟

ـ ٠٠٠٠

ـ سننتقـــم ٠

ـ كيـف ؟

ـ ستجر التهمة اليكم رغما عنكـم ٠٠٠

وبعد معركة كفرشوبا في مطلع عام ١٩٧٥ ، اعتصم اهل القرية في مدرسة مرجعيون ٠ جاء ضباط كبار ووزراء لمقايضتهم ٠٠

ـ اعلنوا انكم ضد الفدائيين ٠

ـ ولكن الاسرائيليين هم الـــذين دمروا قريتنـــا ، ونحن نعلن اننـــا ضد الاسرائيليين ٠ وفشلت عملية المقايضة ، ولم يدفع لاهل كفرشوبا قرش واحـد من التعويضات ٠

ولكن العرقوب كان يصنع من دمه ، ومن اشلاء ابنائه وحطام بيوته ، واغصان اشجاره ، عبوات ناسفة وحارقة ، يقذفها في كل اتجاه ليحطم كل شيء ويشعل النار العظيمة ٠

---

٤ ـ

في الايام الاربعة الاخيرة من شهر شباط عام ١٩٧٢ ، كان العرقوب مسرحا لقتال عنيف بين الفدائيين والقوات الاسرائيلية ، التي تذفقت بالدبابات مـن عدة محاور ، تحت ستار عنيف من القصف المدفعي وقصف الطائرات التـي واصلت قصفها الى اخر حدود القاطع الشرقي ضمن ما سمي وقتذاك بسياسة الارض المحروقـة ٠

وكان الفدائيون قد تكاثف وجودهم في العرقوب وفي السفوح الغربية لجبل الشيخ ، اثر قرار شجاع وذكي اتخذه ابو عمار بان « يتعربش » الفدائيون بالجبل ، وذلك بعد ان فقدت الثورة ساحتها الرئيسية في الاردن بعد مجـازر ايلول والاحراش ، والتاكد من ان كثيرا من الحكام العرب اعلنوا عن عجزهم عن تحمل مسؤولية وجود البندقية الفلسطينية مستقلة الارادة ، وكانت افواه كثيرة تستعد لابتلاع الثورة واحتوائها وفرض الوصاية عليها ٠

كان قائد الكتيبة الاولى يرفع علم فلسطين على سارية عالية بالقرب من مقـر قيادته ، حاصره القصف ، وانفجر صاروخ من الحجم الكبير على بعد أمتار قليلة منه ، فوجد نفسه تحت قطعة صخرية ثقيلة تضغط فوق صدره بفعل ضغط الانفجار ، ثم انفجر صاروخ اخر بالقرب منه ، فانزاحت الصخرة عن صدره بفعل الانفجار الثاني ، حدث ذلك كله ، مثل الوميض كانت أعمدة النار والدخان والغبار تتصاعد ، واختلطت اشلاء المقاتلين مع فروع الاشجار المهشمة المحترقة ،

أفاق من صدمة الموقف ، كان اول شيء فعله انه نظر الى سارية العلم ، كان علم فلسطين هو وحده الذي ظل يخفق فوق ساريته ، وسط حصار الموت والدخان والحرائق ، وقال معلقا بفرح أخاذ :

ـ ليقصفوا ٠٠ ليحرقوا ٠٠ المهم ان علم فلسطين ما زال عاليا في السماء ٠

وكان قائد المنطقة الجنوبية ، قد اصدر اوامره متخذا كافة الترتيبات باشعال الجبهة الممتدة من السفوح الشرقية لجبل الشيخ حتى وادي الرقاد والحدود الاردنية ، وذلك لتخفيف الضغط عن مقاتلينا في العرقوب والقطاع الشرقي ، وتولى قيادة العمل قادة محليون برزوا كأبطال حقيقيين امثال محمد علي والحاج حسن ، وغيرهم من كوادر الثورة العسكريين ، وفي القطاع الغربي استطاع الفدائيون فتح ثغرة مهمة في حزام الامن الاسرائيلي ، وان يتدفق من هذه الثغرة عدد كبير من المقاتلين الى داخل فلسطين المحتلة ، فلقد كان واضحا ان العمل العسكري الواسع الذي بدأه الاسرائيليون في العرقوب يستهدف هرس وابادة قواتنا لفتح الباب امام مشروع المملكة المتحدة الذي اعلنه الملك حسين في ١٥ آذار من نفس العام ٠ في اليوم الاول من آذار امتد قوس القصف الاسرائيلي ليشمل جميع مواقعنا في جلين ، وادي الهرير ، غزالة ، النعيمة ، ثم توسع بعد ذلك ليشمل قواعدنا في كل منطقة حوران ، والسويداء ، وطرطوس على الشاطيء السوري ، بالاضافة الى مواقعنا في لبنان ، والمقاتلون جميعا علقوا فوق قواعدهم وعلى لحم صدورهم شعارا يقول « لنفتح ثغرة في الحصار الشامل » وكان ثمة سباق مع الزمن ، والطائرات المغيرة ، والموت ٠٠ أبو عادل يقطع وادي الرقاد ، يقترب من مواقع العدو ، يقصف بمدفع الـ ٧٥ مم ، ثم يعود ٠٠

قالت الاذاعة الاسرائيلية : « ان رجلا يضع حول عنقه كوفيه ، هاجم احد المواقع ، واتجه صوب الحدود السورية ، ويعتقد انه احد المخربين » ٠

ضحكنا ٠٠ الرجل هو ابو عادل وكنا في انتظار عودته ، دقائق قليلة لاحقته قذائف المدفعية ، وخرجت طائرات اخذت تصنع خطوطا بيضاء متقاطعة في السماء بدوي مجنون ، ضحكنا ايضا ، رغم التوتر الناجم عن انتظار القصف ، ما اعظم ان يتمكن رجل واحد ،من اشغال سرب من الطائرات ٠

كان ذلك في خريف عام ١٩٧٢ ، حيث أقام محمد علي قائد الوحدة الجنوبية قاعدة داخل الحدود ، وحيث اصر المقاتل الذي فقد ساقه في احدى العمليات وركب ساقا اصطناعية ، ان يشترك في دورية مقاتلة ، ويعبر وادي الرقاد ، وينفذ عملية ناجحة ، وحيث ترك الشبل ربيع قاعدته ذات يوم قائلا :

ـ سأحمل سلاحي ، واهيم في الارض ، واطلق النار على الاعداء اينما وجدتهم ٠

ثم انه استشهد بعد ذلك بأيام قليلة . خلال اشتراكه في احدى الدوريات . حدث ذلك في خريف عام ١٩٧٢ ، حيث كانت الطائرات الاسرائيلية تخرج لتستطلع . ثم تخرج لتقصف . ثم تخرج ثالثة لتقصف سيارات الاسعاف التي تحاول ان تلملم اشلاء المقاتلين . والاذاعات في نشراتها الاخبارية لا تعلق على ما يحدث .. والقرويون عند بحيرة المزيريب يضربون كفا بكف . واطفال المدارس يسألون مدرسيهم :

ـ كيف تقصف الطائرات الاسرائيلية مواقع الفدائيين ولا تقصف مرابض الجنود .

ـ لانها دقيقة .

ـ ومتى ترد مدافعنا ؟

ـ عندما يتحقق التضامن العربي .

ـ ومتى يتحقق التضامن العربي ؟

ـ عندما تتوقف المؤامرة .

ـ ومتى تتوقف المؤامرة ؟

ـ عندما يتوقف القتال .

واذكر في ذلك الخريف . ان الطائرات الاسرائيلية قصفت مواقعنا في قرية طقس . فأصيب عدد كبير من تلاميذ المدارس . واذعنا في اذاعة العاصفة من درعا خبرا يقول :

ـ لم يصب احد من مقاتلينا .

ونجم عن ذلك احتجاج ضد الاذاعة . لان اذاعة الخبر على هذا النحو يشكل استفزازا . في ذلك الخريف كان عدم موت الفدائيين يشكل استفزازا للجميع .

---

٥ ـ

ابو قاسم مواطن من قرية كفرشوبا . هرقلي الجسم . شديد الايمان . طيب الملامح . صادق الفاس والعمل والتعب منذ بداية عمره . يقول ابو قاسم :

ـ أنا لما بانحني فوق المنكوش . واضرب الارض . أقول يا رب . أنا صادق معك . باشتغل بكل قوتي وعرقي . يا رب اعطيني على قد الصدق .

ابو قاسم له ابن اسمه تيسير . يوشك ان يبلغ العشرين من عمره . اصيب بمرض خطير . مرض في القلب على ما اعتقد . وقال الاطباء . اذا بلغ تيسير

العشرين من عمره ، فمعنى ذلك انه سيعيش ، ومنذ ذلك اليوم ، صار للساعات والايام والشهور ، طعمها الخاص عند ابو قاسم الذي تصادق مع الفأس والتعب منذ بداية عمره ، واصبح الرهان يدور على سنة ١٩٧٦ ، ان عبرها تيسير بسلامة ، يكون قد تخطى جسر الموت ٠

في يوم ١٩٧٦/٥/١١ ، استطاعت قذيفة اطلقها الانعزاليون ، ان تصيب تيسير الذي حمل سلاحه وكان يقاتل في الجبل ، وان تحسم الرهان لصالح الموت ، جاهد ابو قاسم بكل قواه حتى لا ينفجر باكيا ، قال وكأنه يخاطب الله وجها لوجه :

ـ يا رب ٠٠ أنا صادق معك ـ دايما اعطي كل قوتي وعرقي ٠٠ واليوم اعطيت ابني ٠٠ يا رب ٠٠ اعطيني على قد الصدق ٠

ابو قاسم مع عائلته ، ليس الا نموذجا للقرويين من العرقوب الذين بدأوا يتدفقون على مرجعيون في السنوات الاخيرة ، قرويون من كفرشوبا ، وكفر حمام ، والهبارية ، وشبعا ، يعملون باعة خضار وسجائر وماسحي احذية ، وعمال بناء ، وخدم في المقاهي ، وجنود في الجيش ، ولكن مدينة مرجعيون ظلت ترفضهم ، تطحن جلدهم طيلة اليوم ، ثم في المساء تقذف بهم خارجا ٠٠ في حي التعمير على الطرف الغربي ، او في حي العريض على الطرف الشرقي او في الاقبية الشبيهة بالحظائر والاسطبلات هنا وهناك ، وفي عام ١٩٧٤ قدم مشروع لهدم حي التعمير حيث يتكوم الحيادرة والعرقوبيون ، لاقامة حديقة وقاعة احتفالات على انقاض البيوت المكتظة بالاطفال ، وكان ذلك على وشك ان يحدث لولا ان حدث الطوفان ، ذلك انه في السابعة والنصف من مساء يوم ١٩٧٥/١/١١ ، بدأت معارك كفرشوبا ٠٠ او تلك الحرب الصغيرة التي اسمها حرب العرقوب ، استمرت المعركة سبعة أيام ، الاف القذائف المدفعية وقذائف الدبابات انهالت على القرية ٠٠ استشهد صبحي الذي كان بطلا ، واحمد عبد الكريم الذي كان يستعد للزفاف ، ومحمد عبد الرزاق الذي قاتل الاسرائيليين على بعد أمتار ٠٠ وفتحي البنا الذي كان يفتح طريق الالغام امام القرويين ، ودمرت كل بيوت القرية٠٠ واعتصم الاهالي في مدرسة مرجعيون ثم تغلغلوا بعد ذلك كالريح القوية في جوفها ، وكشف الاسرائيليون في تلك المعركة عن عجز فاضح ، حتى اننا وجدنا مع قتلاهم قطعا من الاوراق والعلب الفارغة اخذوها من مزبلة القرية ليؤكدوا لقيادتهم انهم وصلوا اليها ، كان عنوان هذا العام كما اعلنه ابو عمار في ندائه للمقاتلين ، عام التصعيد والتلاحم الثوري ، وكان شعارنا في كفرشوبا : « صامدون في العرقوب ولن نتراجع » ٠ وكان ابو فراس قائد السرية قد قاد معركة المواجهة فى كفرشوبا ببسالة نادرة ، وعندما وصل النازحون الى مرجعيون ، حاولوا ان يقايضوهم ٠

ـ استنكروا وجود الفدائيين ٠

ـ ولكنهم ماتوا دفاعا عن قريتنـا ٠

وهكذا قام الجنود باطلاق النار على مظاهرة اهل كفرشوبا ، اصابوا احـد عشر منهم بجراح ، ولكن مرجعيون اعترفت اخيرا بحزب الفقراء العرقوبيين ، واعترفت ايضا ان هؤلاء اصبح لهم الان في حياتها الدور الاول ٠

هذه العزة التي حدثت في العرقوب لم تحدث للمرة الاولى ، بل انها تكررت خلال المئة عام الاخيرة ٠

في احداث ١٨٦٠ ، ١٩٢٠ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦٩ ، وها هي تتكرر الان ، وخلال ذلك كله كانت رقعة الشعب في العرقوب تتقلص او تتمدد ، تغير الشرائـع الاجتماعية مواقعها ، وتغير المدن والقرى لافتاتها ٠٠ ومرجعيون ظلت طوال الوقت مغلقة ٠٠ وهي الان مفتوحة ٠٠ وملايين التفاصيل الاخرى تغيرت باتجاهات مختلفة ، لكن آخر صبغة ثبتت في العرقوب انـه ارض الفـدائيين والفقراء ، صار التفريق مستحيلا حتى ان اذاعة اسرائيل قالت في تعليق لها على ما حدث خلال معارك كفرشوبا ان امرأة خدعت الجنود الاسرائيليين حين اوهمتهم انها سلمت لهم هي وبقية النساء ، ولم يكن هذا سوى فخ حيث جـاء « المخربون » فأطلقوا النار على الجنود ، واكثر من ذلك فان اصحاب البنايات رفضوا تأجير الشقق لاهل كفرشوبا والعرقوب خوفا على بيوتهم من القصف ، وخوفا على حياتهم من القلاقل وقال هؤلاء :

ـ حيث يوجد ابن العرقوب ، يوجد الفدائي ٠ وتحت مظلة القصف اليومي ، والتشريد والموت ، والتوقيف على حواجز الجيش ، والتحقيق في أقبية المكتب الثاني ، والخطف عنوة من قبل الدوريات الاسرائيلية كان السؤال يلف العرقوب من قاع الحاصباني الى قمة جبل الشيخ :

ـ ما هو الحـل ؟

ـ ما هو طريـق الخـلاص ؟

ـ السلطـة تقـول :

ـ استنكروا وجود الفدائيين ٠

ـ والاسرائيليون يقولون :

ـ اطردوا المخربين من أرضكم ٠

ورد العرقوبيون في كل المناسبات :

ـ نحن جزء من هذه الارض التي يدور عليها الصراع ، خلاصنا يكون مـع خلاص فلسطين ، دعونا نأخذ الهوية الفلسطينية ، دعونا نحمل البندقية ٠

- ٦ -

لا أحد يذكر متى جاء ابو علي الحيدري الى مدينة مرجعيون ، ولا كم كان عمره حين جاء ، كل ما يعرفه الناس ان شابا اسمر البشرة ، متوهج العينين قوي الجسم ، جاء الى مدينتهم وانخرط على الفور في صفوف عمال البناء وسفلتة الشوارع ، ترتفع الجدران والدور والقصور وتتوالى السنوات ، وابو علي الحيدري يضع مع كل لبنة جزءا من عمره وشبابه ٠

وفي آخر النهار يأكل طعاما رخيصا ، او يشرب كأسين من العرق الردىء في مقهى على طرف الساحة ، ثم ينام تحت سقف البناء الذي يعمل فيه ولم يكتمل ، وذات يوم فقد ساقه عندما هرستها مدحلة ضخمة من النوع الذي يستخدم في سفلتة الطرق ، لم يكن نظام العمل يسمح بأي تعويض ٠

وثبت من خلال التحقيق المبدئي انه هو المخطيء وهكذا فقد مكانه بين عمال البناء وساعده رفاقه بأن دفعوا له من اجورهم الرخيصة ثمن ساق خشبية تصطدم بالارض حيث يمشي ، فيتضخم الصوت في وجدانه ، فيمتليء بالغيظ احيانا ٠٠ وبالبكاء احيانا كثيرة ٠

وحمل ابو علي صندوقا وجلس في ساحة مرجعيون ، وصار ماسح احذية ٠ وحين تكاثر الفقراء مثل الطحالب في بحر مرجعيون ، تكاثرت البنادق ايضا ، وحصل هو على بندقية ، وكان يداعب الفدائيين علنا عند مرورهم بساحة المدينة ، نهره جنود الجيش عدة مرات ، بل ان ضابط الاستخبارات في المنطقة ، دعاه لشرب فنجان من القهوة في مكتبه ، ورفض ، وكان ابو علي يعرف ان الذين سلبوا منه ساقه واستبدلوها بساق خشبية ، يتراجعون الان ، يختبئون مثلما تختبيء الصراصير في الشقوق الضيقة المظلمة ، وكان هذا يسعده كثيرا لكن العرقوب صار محاصرا ٠

من الجنوب والشرق ، ومن الشمال والغرب ٠

صار العرقوب محاصرا ، لم يبق سوى فتحة صغيرة هي عرض الشارع الرئيسي الذي يمر بين مرجعيون والقليعة ، وهناك في مرجعيون من يحبسون انفاسهم انتظارا ، وكان توسع القتال في الماضي ، وتوقع الهجوم الشامل على بيروت وصيدا في الفترة الاخيرة قد استنفد كل المقاتلين ، فصار وجودهم في العرقوب محدودا ٠

في يوم ١٩٧٦/١٠/٢٠ دخلت الدبابات الاسرائيلية مع الانعزاليين مدينة مرجعيون ، كان آخر من قاتل فيها ، ابو عرب الذي فقد ذراعه ، وحسين الاسمر الذي اصيب بقذيفة مباشرة فاستشهد على الطريق ، واصبح ابو علي الحيدري وحيدا ، استفردوا به وقتلوه ، واغلقت الطريق ، واصبح العرقوب من جديد ،

نقطة وسط دائرة من الحصار الشامل ٠

الاسرائيليون والانعزاليون ، احرقوا حي التعمير حيث يسكن الحيادرة ، وفتشوا بيوت العرقوبيين بيتا بيتا ثم اضرموا فيها النيران ٠

والفدائيون عادوا من جديد يتسربون عبر الجبال والاودية ، يحملون السلاح والذخائر والبطاطين على ظهورهم ، وكفرشوبا تمتليء بيوتها المهشمة بالحياة من جديد ، وكل قرى العرقوب تشهد الان عودة جديدة اليها كأنه الانبعاث ثانية ٠

ها هي النبوءة تتحقق ، بان العرقوبيين الذين تم تجاهلهم طيلة السنوات ، قد اشعلوا النار الكبيرة في كل اتجاه وعادوا ، تتحدث نشرات الاخبار عن اقتراب الحل ، عن بداية الهدوء ، عن استعداد لبنان كله للنوم ، بعد استيقاظ متوتر دام قرابة عامين ، انطلقت الصيحة الاولى من العرقوب في شتاء ١٩٦٨ ، واندلعت الشرارة الاولى من العرقوب في معارك كفرشوبا في مطلع ١٩٧٥ ، ويقال ان لبنان يستعد للنوم ، وان الاشتباك يوشك ان يتوقف ، لكن في العرقوب ، المدافع الاسرائيلية سجلت اهدافا جديدة ، والطائرات الاسرائيلية ترسم خطوطا بيضاء في السماء كل يوم ، والدوريات الاسرائيلية تتحرك فوق التلال وعلى مشارف القرى ترسل التهديدات تارة ، وترسل الوعود تارة اخرى ٠

في العرقوب ، عاد الناس بسلاحهم ، وبتجربة قتال ، وبانتماء اقوى ، وعاد الفدائيون كذلك ، وفي العرقوب الاشتباك مستمر ٠

غـــازي الخليـــلي

قراءة في الوضع السّياسي الرّاهن

ما هي اهم مؤشرات الوضع السياسي الراهن ، وما هي احتمالاته ، الان ، والى سنة ، او سنتين قادمتين ؟ مؤتمر جنيف اذا عقد ، هل سيدفع باحتمـــالات انجاح مساعي التسوية وصولا الى التسوية الشاملة أو شبه الشاملة ، ام سيدفع باحتمالات حرب اخرى ؟ الدولة الفلسطينية المستقلة هـــل أصبحت مشـــروعا ممكنا ، ام لا تزال في اطار الاحتمالات ؟

تلخص هذه الاسئلة كثيرا من الاسئلة الفرعية والتفصيلية التي تثار في هذه الفترة لدى معظم الاوساط العربية والدولية ، الرسمية والشعبية · وهي اسئلة اكبر من ان يتناولها مقال واحد ·· وسنحاول في هذا المقال الاجابة على بعض جوانب هذه الاسئلة ، باستقراء ما يجري من أحداث وتحركات ، وصولا الـــى محاولة فهم ما يجري ، دون تشويش او ارباك ·

وقائع ومعطيات

احدى أهم النتائج التي اسفرت عنها حرب تشرين ، انها دفعت بالصـــراع العربي ـ الاسرائيلي ـ لاول مرة في تاريخه ـ الى ارض التسوية · لقد تحطمت كل احتمالات الوصول الى تسوية لهذا الصراع قبل حرب تشريـــن ، لاسبـــاب دولية ، وعربية واسرائيلية · ولكن بعد هذه الحرب ، حرب قطع اول خطـــوة في طريق التسوية ـ وهي طريق لا يملك احد التنبؤ منذ الان الى اين وكيـــف ستنتهي · كذلك فقد تم بعد هذه الحرب ، صياغات عربية لموضوعات التسويـــة تختلف كليا عن أية صياغات سابقة · وهي صياغات لم تستقر بعد ، ولم تتحدد اشكالها النهائية ، ولن تتحدد هذه الاشكال الا على ارض الواقع ، اذا كان هناك

امكانية لان تخرج الى حيز الواقع ٠

لقد اقتضى دفع الصراع العربي ـ الاسرائيلي الى ارض التسوية ، حربا اوحت لبعض العرب ان انتصارا عربيا ما قد حدث في هذه الحرب ٠ واقتضى قطع خطوة صغيرة من التسوية ، جهود سنتين من الدبلوماسية العلنية والسرية مكللة ومجللة « بانتصارات » حرب تشرين ٠ وانقضى عامان آخران حتى الان بحثا عن منافذ جديدة للتسوية ، واخراجا لها من اخر محطة توصلت اليها ٠ وعلى هذا ، فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : كم من السنوات ستمضي ايضا قبل الوصول الى تسوية شاملة او شبه شاملة ، اذا تابعنا المسير على خطى « استراتيجية السلام العربية » ؟

لن نركض الى الاجابة السهلة ، سنترك معطيات الواقع تعطينا الاجابة ، وتحدد لنا الاحتمالات ٠

معطيات الوضع الدولي

ثمة وقائع برزت مؤخرا في الوضع الدولي ، تؤثر ـ بشكل او بآخر ـ على مجريات الصراع العربي ـ الاسرائيلي ٠ وابرز هذه المعطيات هي :

١ ـ ثمة ادراك متزايد في الاوساط الدولية المختلفة ، بضرورة الوصول الى تسوية للصراع العربي ـ الاسرائيلي ٠ فان لم يكن بالامكان الوصول الى تسوية شاملة ، فعلى الاقل الوصول الى تسوية لبعض جوانب هذا الصراع ، تهدئه ، وتحول دون اندلاع حرب جديدة ٠ حيث أن حربا جديدة ، قد لا تبقى محدودة ، وقد تخرج عن امكان السيطرة عليها ، وتتطور الى حرب عالمية مدمرة ٠ ويعيد بعض هذه الاوساط الدولية الى الاذهان استنفار الولايات المتحدة لقواتها النووية في الايام الاخيرة لحرب تشرين لمواجهة اية احتمالات ممكنة لتطور هذه الحرب خارج نطاقها المحلي ٠

٢) ثمة شعور متزايد في الاوساط الدولية ايضا ، ان صيغة قرار مجلس الامن ٢٤٢ ورديفه ٣٣٨ لم تعد كافية للتعامل مع كل جوانب هذا الصراع ٠ والشعور يتبلور بشكل أوضح من أي فترة مضت ، بضرورة الوصول الى صيغة جديدة تأخذ المتغيرات الجديدة التي ولدها النهوض الوطني الفلسطيني بعد حرب حزيران ٠ وهناك تفاوت ، وتناقض ، في رؤية الاطراف الدولية المختلفة ، ولا سيما المؤثرة في مجريات الصراع ، لهذه الصيغة ومضمونها ، واقصى ما تم الاتفاق عليه ، حتى الان وبشكل معلن ، هو ما ورد في البيان السوفياتي ـ الاميركي الاخير عن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وضرورة اشراك ممثليه في جهود التسوية ، دون تحديد لمضمون هذه الحقوق او لمن هم ممثلو الشعب الفلسطيني ٠

ولا شك ان صياغة عامة كهذه ، وان حملت تطورا ما ، الا انهـــا قابلـــة لتفسيرات عدة لدى التنفيذ ، على ضوء موازين القوى بين اطراف الصـــراع المشتركة في التسوية ٠

٣) ثمة مصالح متعددة في وطننا العربي ــ امـــن استراتيجي ، طـــرق مواصلات ، نفط ومواد خام ، اسواق تجارية ــ تتجاذبها أطراف دولية عديدة ، وبشكل خاص الاطراف الدولية المؤثرة في العالم ٠ وبحكم هذه المصالح ، فـان عالمنا العربي لا يعيش بمعزل عن صراع هذه القوى او الاطراف الدولية ، بـــل سيظل يحمل امكانات التأثر والتأثير في صراعات هذه الاطراف ٠ وبالتالـــي فان نوع وطبيعة تحالفاتنا الخارجية ــ كدول عربية ــ ستؤثر سلبا أو ايجابـــا على مجرى ، صراعنا مع العدو الصهيوني ، وعلى احتمالات الوصول الـــى تسوية معه ٠

أميركا والرهان على التسوية

اذا استثنينا الاتحاد السوفياتي ومنظومة الدول الاشتراكية ، كدول صديقة تؤيد وتدعم نضالاتنا وقضايانا الوطنية ، فان الولايات المتحدة تبـرز كأكثـــر الاطراف الدولية تأثيرا في مجريات الصراع العربي ــ الاسرائيلي ٠

وفي هذه الفترة ، تتحرك الولايات المتحدة باعتبارها الطرف صاحب القرار الاول في التحكم في مجريات الصراع والتسوية ٠ وعلى الرغم مـــن البيـــان السوفياتي ــ الاميركي الاخير ، والذي حدد درجة وحدود التفاهم الاميركـي ــ السوفياتي حول موضوعات التسوية ، الى الان ، فان الولايات المتحدة لا تـزال تبدر وتتصرف ، باعتبارها قائدة عربة التسوية والمتحكمة في اتجاهاتهـــا ٠ وطبيعي انه لم يكن للولايات المتحدة ان تلبس « هذا الدور لولا التهافت » الـذي أبداه بعض العرب على الاميركيين ، وهو تهافت يجد تعبيره في قـــول بعض العرب « ان ٩٩٪ من أوراق اللعبة بيد الاميركان » ٠

لقد راجت قبيل وبعد حرب تشرين أوهام احداث تغيير في الموقف الاميركـي ازاء الصراع العربي ــ الاسرائيلي ٠ وقد روج لهذه الاوهام ، بعد حـــرب تشرين ، بعض العرب الذين اندفعوا الى اميركا بقوة ، واضعين كل بيضهم فـي سلتها لانجاح مساعي التسوية ٠ واخذ هذا البعض من العرب يروج لمفاهيـم جديدة في العلاقات والتحالفات الدولية ، تبريرا وتفسيرا لتوجهاتهم الجديدة ٠ واخذت اوساط عربية ــ في الحكم وخارجه ــ تروج لصورة أميركا الجديدة ! ودعت لاسقاط صورة اميركا ، الدولة الامبريالية ، عدوة العرب ، واستبدالها بصورة أميركا ، الصديقة ، واحيانا الحليفة ٠ وكانت حجة هذه الاوساط ، أن المواجهة مع اميركا كدولة امبريالية لا تجدي ، في حين ان الاقتـــراب مـــن اميركا ، صاحبة المصالح في المنطقة العربية ، هو الذي يجدي اذا اعطيناهـــا

الضمانات الكافية في الحفاظ على مصالحها !

وهكذا اقتربت البوصلة العربية من أميركا ، وهكذا نما الرهان على الدور الاميركي ٠

ولكن هل حقا ان اعطاء الضمانات بالحفاظ على المصالح الاميركية يغير الموقف الاميركي ؟

قبل الاجابة على سؤال كهذا لا بد من التأكيد اولا ، ان نهج الحفاظ على المصالح والتحالف بدل المواجهة والعداء ، تعبر عن مصالح الطبقات السائدة ، التي تسيطر على مقاليد الحكم في أكثر من بلد عربي ٠ وهي مصالح لا يمكن ان تنمو الا في استمرار التبعية للامبريالية ٠ ولذا فان الحفاظ على المصالح والتحالف ، هو ، حفاظ وتحالف ، لصالح هذه الطبقات واستمرارها قابضة على مقاليد السلطة ٠

ونحن لا ننكر على هذه السلطات نهجها هذا ، لانه من طبيعتها ، ولكن ما ننكره عليها ادعاءها ان نهجها هذا يجعل الموقف الاميركي من الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، اكثر اقترابا للحق العربي منه للاغتصاب الصهيوني ٠ فلنبرهن على ذلك باستخدام النهج نفسه ، اي نهج التحالف بدل المواجهة ، على الرغم مما في ذلك من خطأ نحن نقره ـ مبدئيا ٠

اسرائيل والمصالح الاميركية

تتركز مصالح الولايات المتحدة في المنطقة العربية، في ان هذه المنطقة تشكل جانبا مهما من امنها الاستراتيجي ، وقد ازدادت اهمية المنطقة الامنية مع ازدياد اعتماد الولايات المتحدة على النفط المستورد منها ، وبشكل خاص من السعودية ٠ ولهذا فان الامن الاستراتيجي للولايات المتحدة لم يعد مرتبطا فقط بالمحافظة على اوضاع مؤاتية وموالية لها في بلدان النفط ، بل وفي السيطرة على طريق امدادات النفط من منابعه الى الولايات المتحدة والبلدان الرأسمالية ٠ ولهذا ارتبطت احداث جنوب افريقيا والقرن الافريقي بالامن الاستراتيجي للولايات المتحدة ، وهو ارتباط سيكون له انعكاسات واضحة وبعيدة المدى على الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، واحتمالات تطور هذا الصراع مستقبلا ، تسوية ام حربا ٠

الى هنا ، قد نجد من يقول ، طالما الامر كذلك ، فاننا باعطاء الولايات المتحدة ضمانات لمصالحها وحاجتها من النفط ، فانها ستعيد النظر كليا في موقفها من اسرائيل ! ولكن ، هل هذا ممكن ؟ هذا ممكن ـ نظريا ـ اذا كانت اسرائيل مجرد دولة تابعة ، مجرد مركز جغرافي ، لا يهم من يسيطر عليه طالما كان مواليا للولايات المتحدة ٠ فهل هذه حقيقة اسرائيل ؟ وهل هذا هو الدور

المنوط باسرائيل فقط ؟

ان اسرائيل لا تدخل في استراتيجية الامن الاميركية باعتبارها مركزا جغرافيا ، بل باعتبارها ، حلقة ، وحلقة هامة جدا ، في شبكة العلاقات الامبريالية على الصعيد العالمي · والتزام اميركا بالدفاع عن اسرائيل وعن امنها ، ليس التزاما اخلاقيا ، او التزاما لاكتساب بعض اصوات الناخبين ؛ انه اكبر من ذلك بكثير ، انه التزام بالمصالح الاميركية المباشرة : فاللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة لا يرتبط باسرائيل « الوطن » بل يرتبط باسرائيل المصالح الاقتصادية والاستراتيجية ·

لماذا ؟

لان هناك قانونين مختلفين يحكمان تطور الاوضاع ـ مستقبلا ـ في كل من اسرائيل والبلدان العربية · فاسرائيل **محكومة بقانون المزيد من الارتباط مع الامبريالية الاميركية** ، وبمزيد من الذوبان في شبكة العلاقات الامبريالية على الصعيد العالمي ، على الرغم مما يبدو من تضارب في الآراء بين الدولتين حول هذه المسألة او تلك · وهو تضارب ينبع من سعي اسرائيل لتوسيع دورها وتنبيره ، او على الاقل المحافظة عليه كما كان سابقا ، كحلقة في شبكة العلاقات الامبريالية ، ومن سعي الولايات المتحدة الى لجم هذا الطموح واستيعابه ضمن الحركة العامة للاستراتيجية الاميركية ، اي منعه من الانفلات والخروج من دائرة السيطرة المباشرة ·

اما القانون الذي يحكم تطور الاوضاع في البلدان العربية ، فهو **قانون الانفلات من الهيمنة الامبريالية** ، والصراع معها ، على الرغم مما يبدو الان من محاولة اميركا احكام سيطرتها على هذه البلدان ، ولا تملك الولايات المتحدة ولا الطبقات الحليفة لها ، ايقاف مفعول هذا القانون ، قد تملك امكانية وضع العراقيل ، امكانية تأجيل بعض الانفجارات الاجتماعية ، ولكنها لا تملك امكانية منع هذا القانون من التعبير عن نفسه وعن فعله ، والى مداه النهائي ·

باستيعاب هذين القانونين ، تحاول الدبلوماسية الاميركية ان تلتقط اللحظة الراهنة ، اللحظة الراهنة بالمفهوم التاريخي والتي قد تمتد سنوات ، تطول او تقصر · فهي لن تضحي باسرائيل كرصيد استراتيجي لها ، ولن تتلكأ في استيعاب التطورات الاخيرة في البلدان العربية ، فشجعت ودعمت هذه التطورات وتقدمت للدخول الى ازمة الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، فارضة شروطها ، او لنقل طارحة شروطها ـ على الاقل ·

١ ـ اميركا هي صاحبة الكلمة الاولى والاخيرة في أي حل ·

ب ـ لا تخل اطلاقا عن دعم اسرائيل ٠

جـ ـ دعم العلاقات الاميركية ـ العربية ، بخطوات داخلية « اجتماعية واقتصادية » وخارجية « تحالفات » ، تصلب هذه العلاقات ، وتسد اية ثغرات فيها ٠

د ـ ضمان مصالح وامن الولايات المتحدة في المنطقة العربية ٠

كارتر والتسوية في مرحلتها الجديدة

لقد كانت سياسة « الخطوات الصغيرة » التي هندسها كيسنجر ابرز تعبير عن هذه السياسة الاميركية ، فهي لا تورط الدبلوماسية الاميركية في تصادمات كبيرة في الرأي مع اطراف الصراع المحليين ، كما تولد انطباعا ان قطار التسوية يسير ولو ببطء ، وان هناك « شيئا ما » باعه الاميركيون للعرب ٠

لكن سياسة « الخطوات الصغيرة » استنفدت اغراضها ★ مع اقتراب التسوية من مسائل الصراع الاساسية : المسألة الفلسطينية ، الحدود ، طبيعة التسوية ٠ ولقد كان بريجزنسكي مهندس السياسة الاميركية للتسوية في مرحلتها الجديدة : مفهوم عام للتسوية يحدد اطرا عامة لمعالجة المسائل الاساسية وينفذ على مراحل ٠ وخلال التنفيذ او التفاوض الذي سيستمر سنوات ، تجري معالجة التفاصيل ، والتفاصيل هنا ، قد تعني ما هو بدرجة المسائل الاساسية من الاهمية ٠

الانتقال الاميركي بالتسوية من الخطوات الصغيرة الى المفهوم الشامل لها ، فرض على الولايات المتحدة ان تحدد مواقف او ترسم تصورات على الاقل للمسائل الاساسية الثلاث ، وفي هذا الاطار جاءت تصريحات كارتر عن الحدود : الحدود المفتوحة والدفاعية ، وعن طبيعة التسوية : علاقات طبيعية ـ اقتصادية وثقافية ودبلوماسية ٠ وعن المسألة الفلسطينية : وطن فلسطيني ـ دون تحديد لهذا الوطن ٠

وكانت المرحلة التالية للدبلوماسية الاميركية بعد هذه التحديدات العامة هي البحث في الخطوات الاجرائية ، مؤتمر جنيف او اطار اخر ٠ مؤتمر جنيف يصطدم بعقبة اساسية ، وهي التمثيل الفلسطيني ٠ فمن يمثل الفلسطينيين ٠ منظمة التحرير الفلسطينية مرفوضة ، الاردن لا يملك حق التمثيل وان ادعاه ، وحضوره ممثلا عن الشعب الفلسطيني قد يعقد المسألة بدل ان يحلها ٠ اطراف فلسطينية اخرى غير موجودة ، وان وجدت فأنها مرفوضة من الشعب الفلسطيني ٠

حاول فانس في رحلته الاخيرة ، ان يلتف على عقدة التمثيل الفلسطيني ،

★ انظر : المسألة الفلسطينية بين احتمالات التسوية والحرب، شؤون فلسطينية العدد ٦١

واقترح مؤيدا من بعض الاطراف العربية ، اطارا اخر : مجموعة عمل عربية ـ اسرائيلية برعاية الولايات المتحدة تلتقي في نيويورك · وسقط اقتـــراح فانس ، وعادت الامور من جديد الى مؤتمر جنيف ·

ومنذ اكثر من شهر والدبلوماسية الاميركية ناشطة لتذليل العقبات الاجرائية لعقد المؤتمر · ولا يبرز من العقبات الا عقبة التمثيل الفلسطيني · اسرائيـــل واضحة وصريحة : لا لمنظمة التحرير الفلسطينية ، لا لدولة فلسطينية ولـــو ارتبطت بعلاقات فدرالية مع الاردن · فقط فلسطينيون من الضفة الغربية ضمن الوفد الاردني ·

الوفد العربي الموحد ، الذي لاقى قبولا من كل الاطراف العربية على الرغـــم من معارضة البعض في البداية ، والذي وافقت عليه اسرائيل بشروطها ، لـــم يذلل العقبة ، وبقيت المسألة معلقة : منظمة التحرير الفلسطينية ، ام اطـــار اخر ، الدول العربية تبدو مستعدة للتنازل عن هذه المسألة ، وتجري محـــاولات « لتبليغ » المنظمة قبول حضور اشخاص واخرين ترضى عنهم وغير بارزيـــن كأعضاء في المنظمة ، نيابة عنها · مدعية ان هذه خطوة اجرائية ، ولن ينتـج عن القبول بها اي مساس بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ·

هذه صورة الموقف حتى الان · ومن ظاهر هذه الصورة نلمس ان قطـــار التسوية يكاد ان يتابع سيره وان عقبة التمثيل الفلسطيني لن تقـــف عثـــرة وسيجري التغلب عليها · ولكن هل هذه هي حقيقة الموقف ؟

الدبلوماسية الاميركية وسياسة كسب الوقت

يبدو لنا ، ان الدبلوماسية الاميركية تنطلق في تحركها من نقطتين اثنتين :

(١) ان قطع خطوة اخرى كبيرة من التسوية ، امر تكتنفه صعوبات عديـدة ، ومعطيات الوضع القائم حاليا وربما الى سنتين قادمتين ، لا تبشر بامكانيـــة الوصول الى خطوة كهذه · وان اقصى ما تطمح اليه الدبلوماسية الاميركيـــة خلال هذه الفترة هو كسب الوقت بابقاء التوجه نحو التسوية حيا وقويا ، وجعل اطراف الصراع المحليين مشدودين الى هذا التوجه بخيوط توجه اميركية ·

(٢) الممكن في هذه المرحلة هو قطع خطوة اجرائية ، كعقد مؤتمر جنيـــف ، ينقذ الدبلوماسية الاميركية من مواجهة الحكم بفشلها ، ويعطي الدول العربيـة « شيئا ما » قد تحقق او انجز · اضافة الى ذلك فان اللجان المختلفة التـــي ستنبثق عن المؤتمر في حال انعقاده ، ستغرق المشاركيـــن باشكالات عديدة ، وبتفاصيل كثيرة ، تستنفذ الكثير من الوقت والجهد ، وتبطىء التفكير بالبحـث عن خيارات اخرى ، خارج نطاق المساعي الدبلوماسية ، وبهذا اضافة الـــى

اشكال اخرى من العمل ـ يمكن السيطرة على الوضع ، ومنعه من الانفجار ٠

ولعل هذا ما يفسر لنا التركيز الكبير الذي توليه الدبلوماسية الاميركية لعقد مؤتمر جنيف قبل نهاية العام الحالي كما أشار الى ذلك البيان السوفياتي ـ الاميركي الاخير ٠ وهو تركيز جعل من الدبلوماسية الاميركية تبدو وكأنها في «سوق عكاظ» عصري تغدق التصريحات المختلفة ، تبيع هذا الطرف تصريحا ما، تبيع ذاك الطرف نقيضه ٠ تتقدم خطوة لتتراجع خطوتين ٠ ثم تعود فتجمع ما القت ، في « سلة مهملات» التسوية ، من تصريحات وبيانات ، وتقدم بضاعتها بشكل جديد ٠ والهدف هو الوصول الى جنيف ٠ اما ما يمكن ان يترتب من نتائج عن عقد هذا المؤتمر ٠ فهذا ليس مهما الان ٠ وقد عبر عن ذلك فانس مؤخرا عندما قال « انه سيكون من التهور التكهن بان معاهدات السلام ستوقع في السنة المقبلة » ٠

وفي هذا السياق من الحركة الاميركية ، جاءت تصريحات المسؤولين الاميركيين الاخيرة حول المسألة الفلسطينية ٠ وهي تصريحات لا تشكل جديدا من حيث المضمون ، فقد جاءت تعبيرا عن المحاولة الاميركية لحل اشكالات عقد مؤتمر جنيف ٠ ولذا فان الدبلوماسية الاميركية لم تدمج نفسها بشيء محدد ـ حتى الان ـ بصدد المسألة الفلسطينية ٠ مجرد تصريحات ومواقف عامة وغامضة جدا عن الوطن الفلسطيني والحقوق الشرعية لشعب فلسطين ٠ وهي مواقف يجري اختزالها في اضيق نطاق ممكن حتى لا تتعارض مع الاتجاهات العامة للتسوية ٠

الموقف الاسرائيلي

ما هي اتجاهات الموقف الاسرائيلي وما هي مساراته بعد صعود الليكود الى السلطة ؟ هل ستحكم اسرائيل ـ بيغن بنفس الخيارات والاحتمالات التي حكمت اسرائيل ـ رابين ام لا ؟

على الرغم من اختلاف واقع اسرائيل بعد صعود الليكود الى السلطة على انقاض حزب العمل ، فاننا نرى ان اي حكومة في اسرائيل لا تزال محكومة بمواجهة مأزق التسوية ، وهو مأزق قد لا يفيد فيه كثيرا الهروب الى الامام ، بل لا بد في النهاية من مواجهة الحقائق او الوقائع المحيطة ٠ ويبدو لنا ان اسرائيل في ظل اي حكومة كانت ، محكومة بعدة اعتبارات وهي تواجه مأزق التسوية ، واهم هذه الاعتبارات هي :

١) الالحاح العربي على ضرورة الوصول الى تسوية ، ان لم تكن شاملة ، فعلى الاقل قطع بعض الخطوات ٠ فالانظمة العربية المعنية مباشرة بالتسوية لا تستطيع الانتظار سنوات اخرى ، دون ان تقدم شيئا لجماهيرها ٠ واذا ما

تعنتت اسرائيل ، فان تعنتها قد لا ينتج عنه الا المزيد من الاضطرابات والصعاب امام هذه الانظمة · وهي اضطرابات وصعاب قد تحمل تغييرات كبيرة في الواقع العربي ، ستؤثر سلبا على الوضع الاسرائيلي برمته ·

٢) الالحاح الاميركي حول بيع « شيء ما » للدول العربية مقابل الانجراف العربي الكبير نحو أميركا · ولا تستطيع اميركا الارتهان بشكل كبير الى التعنت الاسرائيلي ، لان ذلك يفقد الدبلوماسية الاميركية بعض القدرة على الحركة ، ويجعلها تدور في حلقة مفرغة · وعلى الرغم من بعض التهديدات الاسرائيلية في الوقوف امام اي ضغط اميركي ، فتقديرنا ان اسرائيل ، التي باتت تعتمد أكثر فأكثر على الولايات المتحدة ستبدي مرونة اكبر في التعامل مع التحرك الاميركي ، ولكنها مرونة ستجبر اسرائيل ان لا تكون خارج اطار التنازلات الشكلية والتي لا تمس المواقف الاساسية لها · وهذا ما برز مؤخرا في محادثات دايان ـ كارتر الاخيرة ·

٣) مواجهة المسألة الفلسطينية . فعلى الرغم من مواقف اسرائيل المعلنة والواضحة ، والمحددة جدا من المسألة الفلسطينية : لا لمنظمة التحرير حتى لو اعترفت بقرار ٢٤٢ وباسرائيل ، لا لدولة فلسطينية ولو ارتبطت فدراليا مع الاردن · على الرغم من هذه المواقف المعلنة ، فان اسرائيل مضطرة أن تقدم اجوبة لمسألة باتت تعكس نفسها على المجتمع الاسرائيلي نفسه ، وحتى الان يبدو ان اللاءات الاسرائيلية هي الجواب ، ولكن هذه اللاءات ليست اكثر من مهرب ، ولا تعتبر جوابا · وهي أشبه بلاءات الخرطوم العربية ـ مع الفارق ·

أمام هذه الاعتبارات ، كيف ستكون مسارات الموقف الاسرائيلي ؟

يبدو لنا ، ان حكومة بيغن لن تخرج عن اطار سياسة حكومة حزب العمل السابقة ، وهي **المناورة لكسب الوقت** ، التنازل في الامور الشكلية والثانوية ، والتصلب في المسائل الرئيسية · وهي في هذا تلتقي مع الموقف الاميركي في **بعض** جوانبه ، ولا تصطدم معه · ترضي بعض الالحاحات الاميركية ، دون ان تتنازل عن المسائل التي تعتبرها تمس « أمنها » واستراتيجيتها · وضمن هذا الاطار فنحن لا نستبعد مرونة اسرائيلية في عقد مؤتمر جنيف دون ان تكون ملزمة بالاعتراف ، ان وفدا عن منظمة التحرير الفلسطينية قد حضر المؤتمر · ستغض الطرف عن حضور ممثلين محسوبين على منظمة التحرير الفلسطينية ، ولكنها ستكون حازمة وصارمة في رفض الحضور المحدد والواضح لمنظمة التحرير الفلسطينية كممثلة الشعب الفلسطيني · وهذا ما تم الاتفاق عليه مؤخرا بين كارتر ودايان ·

ولكن الى مى ستنلل اسرائيل تناور لكسب الوقت ؟

هنا لا نرى الامور من منظارها الاسرائيلي فقط ، بل ومن منظارها العربي

واندولي · فطالما ان الاوضاع العربية القائمة لا تشكل تهديدا مباشرا لاسرائيل، فانها لن تشعر بأي حرج او ضيق ، ولكن في الوقت الذي ستجد فيه ان هذه الاوضاع تتطور باتجاه اخر ، فانها ستكون ملزمة باتخاذ احد الخيارين التاليين :

(١) مرونة اكبر باتجاه التسوية لامتصاص التطورات المحتملة للاوضاع العربية ، وتنفيسها في خطوات جديدة نحو التسوية ، وهذا خيار نستبعده ، أو نراه ضعيفا جدا ·

(٢) اللجوء الى الحرب الوقائية ، بشن هجوم واسع لتحطيم قدرة القوات العربية قبل ان تستكمل قدرتها القتالية على شن الهجوم ، وذلك بهدف كسب الوقت · وهذا الخيار هو الاوضح والاقوى · ولكن ما يجعل احتمال لجوء اسرائيل الى خيار الحرب صعبا بعض الشيء ، هو ارتباط قرار الحرب الاسرائيلي بموافقة أميركية ، او بضوء اميركي اخضر على الاقل ·

ولكن الى اي مدى تلتزم حكومة بيغن بهذا الارتباط بين قوارها بالحرب والموقف الاميركي ؟ ثمة مؤشرات تؤكد لنا ان احتمالات انفلات اسرائيل بموقف لشن الحرب على دول عربية ، ممكنة وليست مستحيلة ، او مستبعدة كليا · وهو انفلات تجد اسرائيل من يدافع عنه داخل الادارة الاميركية نفسها ، كما تجد ايضا ، داخل الادارة الاميركية نفسها ، من يعطيها التقديرات للموقف الاميركي قبل وبعد شن الحرب ، دون ان يترتب على ذلك اي التزام اميركي رسمي بالموقف الاسرائيلي ·

معطيات الوضع العربي

باستثناء بعض المواقف العربية الرافضة للتسوية ، او تلك البعيدة عن المشاركة في جهود التسوية ، فان الوضع العربي السائد ، هو وضع يضع رجليه في ركاب التسوية ومحاولات انجاحها · ونميز في هذا الوضع اربعة معطيات رئيسية :

١) الافتقار الى « استراتيجية نحو السلام » عربية موحدة · فعلى الرغم مما يبدو من وحدة او تقارب في الموقف العربي بصدد التسوية ، فان الملاحظ ان هذا الموقف لا يستند الى استراتيجية موحدة تصوغ موضوعات التسوية وشروطها ، ولذا فان الموقف العربي الموحد يظل رخوا ويفتقر الى التماسك · ولقد برز عدم التماسك هذا ، في الموقف من الوفد العربي الموحد · ففي حين ايدت اطراف عربية فكرة الوفد الموحد ، فان اطرافا اخرى رفضت الفكرة في البداية ، ولم تؤيدها او تقرها ، الا بعدما تأكدت ، ان الوفد الموحد لن يحد من

حرية حركتها ومناورتها الخاصة ٠

ولا شك ان الافتقار الى الموقف العربي الموحد ، لا يعود الى تناقضات وصراعات الحكومات العربية فقط ، بل وايضا ، الى شعور بعض الاطراف العربية انها تملك فرصا افضل من غيرها لقطع خطوة اخرى من التسوية ـ منفردة ـ اذا تعقدت مساعي التسوية ، او اذا تعقد الوصول الى خطوة مشابهة مع الاطراف الاخرى ٠

٢) الرهان على اميركا لانجاح مساعي التسوية ٠ « فعرب التسوية » القوا بكل اوراقهم في الجيب الاميركية ، ووضعوا كل ثقلهم في العربة الاميركية لانجاح مساعي التسوية ٠ ويبدو لنا ان ارتهان « عرب التسوية » بهذا الشكل الى أميركا ، جعل عليهم من الصعب البحث عن خيارات اخرى خلال فترة قصيرة ، او في المدى المنظور اذا تعقدت مساعي التسوية او تعثرت ٠ ذلك ان الرهان المطلق على أميركا ، ليس موقفا سياسيا فقط ، بل وجاء تعبيرا عن مجموعة من التغييرات داخل انظمةالحكم العربية ، شملت جميع برامجها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وحتى الثقافية ٠ فالرهان على الاميركيين كان تعبيرا عن انقلاب كبير في بنية هذه الانظمة وفي مجمل علاقاتها وتحالفاتها الدولية ٠

٣) عدم الثبات على موقف واضح ومحدد ازاء المسألة الفلسطينية ٠ فعلى الرغم مما يعلن من هذه العاصمة العربية أو تلك عن الالتزام بقرارات الرباط حول المسألة الفلسطينية ـ مضمونا وشكلا ، فان محاولات جادة تجري للالتفاف على قرارات الرباط هذه واغتيالها ، ولا سيما عندما يبرز الالتزام بقرارات الرباط كعقدة او كعقبة امام تقدم مساعي التسوية ٠

وليس سرا اذا قلنا ان ضغوطا مورست من هذه العاصمة العربية او تلك على قيادة منظمة التحرير ، لتكون اكثر اعتدالا ! وتتنازل عن بعض مواقفها ، اذا ما شاءت ان يبقى بعض العرب على التزامهم بالمسألة الفلسطينية ! وتحاول بعض الدول العربية ممارسة « الخديعة السياسية » على منظمة التحرير الفلسطينية لكي تبدي بعض التنازلات ٠

٤) الالحاح على انجاح مساعي التسوية او قطع خطوة اخرى منها على الاقل ٠ ويعود هذ الالحاح الى شعور « عرب التسوية » ان الخيوط قد تفلت من أيديهم اذا لم تنجح مراهنتهم على التسوية ٠ فاكثر من دولة عربية لا تستطيع تحمل استمرار حالة اللاحرب واللاسلم فترة اخرى ٠ ويبدو لنا ان هذا الالحاح العربي كان محل ابتزاز اميركي واسرائيلي ، ويبرز هذا الابتزاز اكثر ما يبرز علاقات طبيعية بين الدول العربية واسرائيل ، اي علاقات كاملة سياسية في اصرار اسرائيل ـ تؤيدها اميركا ـ على ضرورة ان ترتبط التسوية باقامة

واقتصادية وثقافية ، كما هي بين اي دولتين متجاورتين وصديقتين ٠

تؤكد لنا هذه المعطيات ان الوضع العربي بسياساته السائدة ، لا يملك القدرة على الصمود امام الابتزاز الاسرائيلي والاميركي ، فالنهج السائد لا يعطي لاي طرف عربي اوراقا للمساومة ، او قدرة على الضغط ، ولذا فاننا نرى ان السير قدما باتجاه التسوية ، في شروطها الراهنه ، يحمل تراجعا عربيا للقبول بالشروط الاسرائيلية والاميركية ، ليس حول طبيعة التسوية فقط ـ العلاقات الطبيعية والمفتوحة ـ بل وحول الحدود والمسالة الفلسطينية ٠ وحول اجراءات التسوية نفسها ٠ والموافقة على ورقة العمل الاميركية ـ الاسرائيلية ليست الا بداية ٠

الموقف الفلسطيني : الصلابة والتفاعل

على ضوء كل هذه المعطيات الدولية والعربية والاسرائيلية ، كيف نرى مسارات الموقف الفلسطيني ، واقعا واحتمالات ٠ هل نخشى ان تضيع البوصلة الفلسطينية اتجاهها ، بين هذا الجسر من مرونة الاعتدال ، وهذا الجسر من الصلابة المرنة ، بين محاولات الانسجام مع ما يجري او التفاعل معه ، بين المناورة بالموقف والمناورة على الموقف ؟

تساؤلات كهذه ، وكثير غيرها ، تثار الان بكثرة ، وبطريقة لا تخلو من الحذر في التعامل مع ما يجري من احداث ، وما يطرح من حلول ٠ فلاول مرة تدخل المسألة الفلسطينية باب احتمالات التسوية بهذا الالحاح ، ولاول مرة تأخذ المسألة الفلسطينية هذه الاهمية وهذا الجهد في دبلوماسية مساعي التسوية ٠

لقد بات من المؤكد انه اذا اريد انجاح مساعي التسوية ـ كأجراءات وكمضمون ـ فلا بد من استيعاب المسألة الفلسطينية ضمن ما يطرح من حلول وما يرتب من اجراءات ٠ والتعارضات لا تزال كبيرة بين اطراف الصراع المختلفة حول هذه المسألة والحلول الممكنة لها ٠ وحتى الان ، ورغم ما صدر من بيانات وما طرح من تصورات لحلول ممكنة ، يمكن القول بكل ثقة ، ان المسألة الفلسطينية ضمن اشتراطات الموقف الوطني الفلسطيني ، لا تزال عاملا غير قابل للذوبان في معادلة التسوية ٠ فالموقف الوطني الفلسطيني حدد بكل وضوح الحد الادنى الممكن القبول به في هذه المرحلة : منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ، حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني بما فيه حقه في اقامة دولته الوطنية المستقلة على ارضه ، حق العودة ، عدم الاعتراف باسرائيل ٠

هذه هي حدود الموقف الوطني الفلسطيني ، كما جرى الاجماع عليها

فلسطينيا ، وكما جرى تأكيدها عبر اوسع تأييد دولي ، عبر عن نفسه في قرار ٣٢٣٦ الصادر عن الجمعية العامة للامم المتحدة ٠

وهذه الحدود ، مقدسة ، لا يمكن لاي جهة الالتفاف عليها او اختراقها ، وهي تمثل الحد الادنى الممكن ٠ واذا ما جرى اختراقها او الالتفاف عليها ، سواء بداعي المناورة ، او بدواعي مواجهة ما يعترضنا من ضغوطات ، فان الموقف الفلسطيني ، سيفقد تماسكه ، وتبدا مسيرة العد العكسي في اغتيال انجازات نضالات السنوات السابقة ٠

انسجام ام تفاعل

ثمة اوهام تسود بعض الاوساط حول ضرورة الانسجام مع ما يجري من احداث وتحركات ، حتى لا يجد الموقف الفلسطيني نفسه خارج « اللعبة » او خارج التاثير بها ، وتعديل مساراتها ٠ والانسجام هنا ، لا يعني الا مزيدا من التوريط للموقف الفلسطيني ، ليجد نفسه في النهاية محاصرا بسلسلة من التنازلات المبدئية ، فيفقد قدرته ليس على المساومة فقط ، بل وعلى الحركة وعلى الفعل في مجريات الاحداث ٠ ان المناورة السياسية ممكنة ، بل ومطلوبة للتفاعل مع ما يجري ، ولكن المناورة بالمواقف المبدئية ، المناورة بمواقف الحد الادنى الممكن ، تخرج عن كونها مناورة ، وتصبح تنازلا ، تصبح انزلاقا نحو مواقف جديدة ، مغايرة كليا لمواقف الانطلاق ٠

وعلى هذا ، فان الذين يتحدثون او يتحركون بلغة « حتى لا يفوتنا القطار » اما انهم واهمون ، واما انهم متورطون ومتواطئون ٠ وفي كلا الحالتين يغتالون الموقف الوطني الفلسطيني عن وعي او عن غير وعي ٠

ان الوضع السائد وان اتسم بشيء من التعقيد والارباك ، الا انه ليس سيئا الى هذه الدرجة التي تفرض علينا التسرع دون تبصر ، ودون رؤية المستقبل ، دون رؤية الحاضر بعيون المستقبل ، وعيون الآتي من الايام ٠ فهناك عوامل قوة ، تشد الموقف الوطني الفلسطيني ، منها ان هذا الموقف لا يقف على ارض رخوة ، بل على ارض صلبة مدعومة بنضالات ما يزيد عن عشر سنوات ، وهي نضالات فرضت على كل الاطراف التعامل مع المسألة الفلسطينية كقضية وطنية ، وكقضية شعب لا بد له وطن ولا بد له من دولة ، ومنها هذا الاجماع الوطني الفلسطيني على الالتزام بحدود واشتراطات الحد الادنى الوطني في هذه المرحلة ٠ وليس ادل على ذلك من اجماع جماهير الاراضي المحتلة وقوفهم بصلابة وحزم ضد كل الاصوات التي تحاول الانتقاص من وحدانية وشرعية تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية للشعب الفلسطيني في جميع أماكن تواجده ٠ ومنها ايضا ، تأييد اوسع القوى الدولية لنا في موقفنا هذا ، وايضا

منها ، وقوف القوى الوطنية والديموقراطية العربية معنا ، وهي قوى وان لم تبرز الى حيز الفعل حتى الان ، الا انها قوى موجودة ، ويمكن تلمس بدايات حركتها على مسرح الاحداث في المنطقة العربية ٠

وطبيعي ان تحاول اطراف الصراع الاخرى تطويق ومحاصرة عوامل القوة هدد ، او الالتفاف عليها ٠ فالموقف العربي الرسمي لا يتسم بالثبات ، ويحاول بشيء من الذبذبة ، وبشيء من المواربة والخداع ، ان يسهل شروط انعقاد التسوية ، بتوجيه كل السهام نحو الموقف الوطني الفلسطيني ، ليتم **تاكله** خلال فترة زمنية قصيرة ٠ اي حل ازمة الانظمة العربية مع العدو الصهيوني على حساب المسألة الفلسطينية وعلى حساب الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ٠

أما الدبلوماسية الاميركية ، فانها حين فشلت في استبعاد المسألة الفلسطينية كقضية وطنية في مجال حركتها ، تحاول اغتيال الموقف الوطني الفلسطيني ، بشيء من المواربة ، وبالقاء « بعض العظم » في الطريق ٠ فاعترفت بالمسألة الفلسطينية كقضية وطنية ، ولكنها تحاول أن تبهت هذا الاعتراف ، وان تختزله في اشكال وتعابير عاجزة ، لا يشكل استيعابها في معادلة التسوية ، اي خطر على هذه التسوية او على نتائجها المحتملة ٠

وتحاول اسرائيل أن تلتقط كل هذه المعطيات ، فتبدي مرونة في بعض القضايا لجر الموقف العربي الى ناحيتها ، وتبدي تعنتا في المسألة الفلسطينية ٠ وذلك لابعاد « السهام » العربية عن اسرائيل باعتبار موقفها عقبة امام استئناف مسيرة التسوية ، وتوجيه هذه السهام الى الجبهة الفلسطينية ٠ وهذا ما يبدو انها نجحت فيه جزئيا ٠ عندما وافقت اطراف عربية ، على ورقة العمل الاميركية ـ الاسرائيلية لانعقاد مؤتمر جنيف قبل نهاية العام الحالي ٠

اجراءات التسوية ومضامينها

وفي هذا الاطار يجري ما نشاهده من فصل تعسفي لاجراءات التسوية عن مضامينها ٠ وهو فصل القصد منه الالتفاف على الموقف الوطني ، باختزال التمثيل الفلسطيني في مساعي التسوية الى مسألة أجرائية ، للايهام ان التنازل فيها لا يؤثر على مضمون التسوية ٠ فهل هذا صحيح ؟

لن نعيد الى الاذهان الصراعات والخلافات التي كانت تحتدم بين اطراف الصراع حول من يحق له التمثيل عند انتقال هذا الصراع من المواجهة المسلحة الى المفاوضات ٠ ودائما تواجه الحركة الوطنية مسألة تمثيلها او عدم تمثيلها عن الطرف الاخر ـ الوطني ٠ ودائما تواجه بانها لا تمثل مجموع هذا الطرف ٠ جرى ذلك لدى بدء مفاوضات باريس حول الفيتنام عندما اصر ثيو على عدم

حضور وفد جبهة التحرير الوطنية الفيتنامية ، وجرى ذلك لدى بدء المفاوضات الفرنسية ـ الجزائرية ، عندما ادعت فرنسا ان جبهة التحرير الجزائرية لا تمثل مجموع الشعب الجزائري ٠

لقد كان دائما التمثيل يرتبط بمضامين المفاوضات ، وليس فقط باجراءاتها واشكالها ٠ فلو وافقت جمهورية فيتنام الديموقراطية على ادعاءات ثيو وأميركا في عدم تمثيل جبهة التحرير الوطنية الفيتنامية والاكتفاء بفيتنام الديموقراطية كممثلة لاختلفت نتائج المفاوضات ، ولو وافقت جبهة التحرير الجزائرية على ادخال اطراف اخرى معها خلال المفاوضات لاختلفت نتائج المفاوضات ٠

وما يجري بالنسبة للتمثيل الفلسطيني يتسم بسمات اكثر خطورة وتعقيدا ، نسبة الى مفاوضات باريس او مفاوضات ايفيان ٠ فما يطرح بالنسبة للتمثيل الفلسطيني ، ليس اشراك اطراف او قوى اخرى الى جانب منظمة التحرير الفلسطينية كممثلة شرعية للشعب الفلسطيني ، بل استبعاد المنظمة كليا ، والاستعاضة عنها بأشكال او اطر ليس لها علاقة بالنضال الوطني الفلسطيني ، وولاءاتها ليست للقضية الوطنية الفلسطينية ٠ كذلك فانه ما يطرح بالنسبة لهذا التمثيل يتجاوز الشكل الى المضمون ٠ اي الى مضمون الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني واشكال التعبير عنها ٠ فاستبعاد المنظمة ـ كقيادة وطنية للشعب الفلسطيني ، يعني استبعاد التعبيرات الوطنية للحقوق الفلسطينية ، والاستعاضة عنها **بالكيانية الفلسطينية** الهزيلة التي يمكن استيعابها بمشروعات « التقسيم الوظيفي » الاسرائيلية وبمشروعات « المملكة العربية المتحدة » الاردنية والمطعمة بزخرفات عربية ٠

اضافة الى ذلك فاننا نرى ان هذه المناورة بالتمثيل الفلسطيني ، تستهدف وإلى حد كبير ، ابتزاز الموقف الوطني الفلسطيني ، لكي يتنازل عن اشتراطاته، حتى يصبح بالامكان استيعابه عبر منظمة التحرير الفلسطينية في اطر التسوية٠ اي ان تقبل المنظمة كما اعلن كارتر ، بقرار ٢٤٢ ورديفه ٣٣٨ ، وتعلن صراحة اعترافها باسرائيل ، اذا كان لا بد لها من تمثيل الشعب الفلسطيني في اطر التسوية ٠

وعلى الرغم من ان اسرائيل اغلقت الابواب جميعها ، امام احتمالات بروز موقف فلسطيني كهذا ، بتأكيدها ان المنظمة غير مقبولة حتى لو اعترفت باسرائيل وبقرار ٢٤٢ ، فاننا لا نستبعد ايضا ، ان الموقف الاسرائيلي هذا ، لا يعدو كونه مناورة ، يستهدف ان لا تضطر اسرائيل الى دفع ثمن كبير مقابل موقف فلسطيني كهذا ، اذا ما اعلن ٠

نستخلص من كل هذا العرض جملة من النتائج منها :

(١) ان ما يعرض بصدد المسألة الفلسطينية لا يثير شهية احد ، ليس هذا

فقط بل ولا يلبي الحد الادنى من مطالب الذين يسمون معتدلين ومرنين ٠

(٢) ان جزءا كبيرا مما يقال ويعلن هو من مقتضيات المناورة السياسية والحرب الدبلوماسية الجارية ، لسبر الغور واكتشاف المواقف واحتمالات تطورها ٠

(٣) ان التسوية الشاملة أو شبه الشاملة لا تزال امرا بعيد الاحتمال ، على الرغم مما يطرح عن اتفاقات جرى التفاهم عليها مسبقا ٠ وهي اتفاقات نشك فيها لانها تطرح التفاصيل ، وتفاصيل التفاصيل ٠ والاحتمال الممكن ـ بنظرنا ـ لقطع خطوة اخرى من التسوية ، هو اتفاق اخر مصري ـ اسرائيلي ، على غرار اتفاق سيناء الماضي ٠ ولعل هذا الاحتمال ، هو ما جعل مصر تتحفظ بالنسبة للوفد العربي الموحد ٠ وضمن هذا الاطار فان احتمالات عقد مؤتمر جنيف قبل نهاية العام الحالي تبدو كبيرة ٠ ولكن انعقاد المؤتمر لن يكون اكثر من انعقاد احتفالي ٠

(٤) لقد فرضت المسألة الفلسطينية نفسها على كل اطراف الصراع ، ولا نرى ان هذه الاطراف قادرة على تجاوز هذه المسألة بشروطها الوطنية ، اذا ما حافظ الموقف الفلسطيني على تماسكه وصلابته ، ولم يتعثر « بالعظم » الملقى على طريقه ٠

(٥) اننا ما زلنا بعيدين عن مرحلة « استراحة المحارب » ٠ فالمرحلة القادمة مرحلة صراعية ، اكثر تعقيدا وخطرا من اي مرحلة سابقة ، انها اشبه ما تكون بـ « عض اصابع » دبلوماسيا وبالسلاح ٠

سمير كرم

الثابت والمتغير في مبادئ السياسة السوفياتية

قد يبدو للباحث ـ من الوهلة الاولى ـ ان تحديد الثابت والمتغير في السياسة الخارجية للاتحاد السوفياتي عمل ايسر كثيرا من تحديدهما بالنسبة للسياسة الخارجية لاي دولة اخرى في العالم · ذلك ان الاتحاد السوفياتي يلتزم فلسفة عامة معينة تشكل طبيعة وابعاد نظرته الى العالم ـ وهي الفلسفة الماركسية ـ اللينينية · ومن ثم فليست هناك صعوبة في تحديد الايديولوجية ، التي تشكل اطر سياساته ومواقفه من القضايا الانسانية المختلفة ، بما في ذلك قضايا العلاقات الدولية ، وهي التي تعنى بها تحديدا السياسة الخارجية · وفضلا عن ذلك فانه بالنسبة للاتحاد السوفياتي يتوفر عدد لا يستهان به من الوثائق النظرية والسياسية التي تعد مرجعا ملزما للسياسة الخارجية السوفياتية على نحو لا يتوفر للدول الاخرى ، وخاصة تلك التي لا تدين بفلسفة عامة محددة ، ولا تتبع منهجا واضح المعالم في مواجهة المشكلات واتخاذ القرارات · واخيرا من الناحية العملية ـ فان ممارسات الاتحاد السوفياتي على صعيد السياسة الخارجية ـ العلاقات الدولية ـ تعكس للباحث ـ دون عناء ـ استمرارية واضحة منذ السنوات الاولى لقيام السلطة السوفياتية بقيادة لينين ·

وقد تغري هذه الاعتبارات بالاندفاع نحو استنتاج بان هناك « ثوابت » فقط في السياسة الخارجية السوفياتية ، ما دامت تلك السياسة تستند الى فلسفة عامة ونظرية علمية محددة وايديولوجية ثابتة ، وبالتالي ان وجود « متغيرات في هذه السياسة هو امر نادر ان لم يكن معدوما · ولكن « تاريخ » السياسة الخارجية السوفياتية على مدى الاعوام الستين الماضية ـ منذ قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية ـ كما يشهد بوجود « ثوابت » واضحة في السياسة الخارجية في

الحقب المختلفة التي تقلبت فيها العلاقات الدولية طوال هذه السنوات الستين ـ يشهد بوجود « متغيرات » متعددة · وما كان يمكن ان يكون الامر غير ذلك حتى بحكم كون السياسة الخارجية للدولة السوفياتية تهتدي بالفلسفة الماركسية ـ اللينينية وبالنظرية اللينينية في الثورة الاشتراكية وبايديولوجية بناء الشيوعية في العالم ·

بل الحقيقة ان الكتابات النظرية العديدة الصادرة في الاتحاد السوفياتي نفسه عن السياسة الخارجية السوفياتية لا تبتعد عن هذه النتيجة نفسها ، وهي وجود متغيرات ، وتقدم تفسيراتها النظرية والسياسية لهذه المتغيرات ·

ولابد لاي بحث في مباديء السياسة الخارجية السوفياتية ان يعنى في مقدمته بالاسس النظرية لهذه السياسة كما يعبر عنها السوفيات انفسهم · على الا يعني ذلك اخذ هذه الاسس في ذاتها كمسلمات دون مضاهاتها على واقع الممارسة العملية لهذه السياسة ، على الاقل لتحديد المسافة بين النظرية والممارسة ، ان لم يكن لتحديد مدى قابلية نظرية السياسة الخارجية السوفياتية للتطبيق عمليا ·

ويجدر بالملاحظة في هذا الصدد ان هناك نموا هائلا في الاهتمام بالدراسات النظرية للسياسة الخارجية بين الاكاديميين ورجال السياسة والايديولوجيين ، وكذلك الدبلوماسيين ، في الاتحاد السوفياتي منذ بداية السبعينات ، وهي ظاهرة يمكن ارجاعها الى مقولة رئيسية يؤكدها المنظرون السوفيات منذ بداية حقبة « الانفراج الدولي » ، وهي ان الصراع الايديولوجي ـ صراع الافكار ـ قد ازداد وستتزايدحدته باطراد بين المعسكرين الاشتراكي (بقيادة الاتحاد السوفياتي) والرأسمالي الامبريالي (بقيادة الولايات المتحدة) في هذه الحقبة التي تتلاشى فيها مظاهر الحرب الباردة وتتقلص احتمالات الحرب الساخنة بين الكتلتين ·· حيث لا يبقى غير مجال الصراع الايديولوجي في ساحة « الحرب » بينهما ·

ومن الطبيعي ان يكون مجال السياسة الخارجية والعلاقات الدولية من اوسع واعقد مجالات هذا الصراع الايديولوجي المحتدم · بل ان مجال السياسة الخارجية يتسع في الواقع ليشمل مجالات عديدة بحيث اصبح صراع الافكار فيه لا يقتصر على المشتغلين بالدبلوماسية وشئون العلاقات الدولية ، وانما يشمل ايضا علماء الاجتماع والاقتصاديين والمؤرخين ومعظم المشتغلين بالعلوم الانسانية ، فضلا عن المشتغلين بالاستراتيجية والعلوم العسكرية وشؤون الدفاع والتسلح ·

علم السياسة الخارجية

ويشمل مجال السياسة الخارجية بطبيعته كل العوامل المتشابكة التي تحت تأثيرها تتكون السياسات الخارجية للدول ، وعلى رأسها ـ بطبيعة الحال ـ السياسة الداخلية · وهذه العوامل تشمل الصراعات الطبقية السياسية ، ومستويات التطور الاقتصادي ـ الاجتماعي بين الدول المختلفة ، ومواقعها الجغرافية ، وتقاليدها التاريخية ··· الخ · **ولهذا فان المنظرين السوفيات يعتبرون ان « علم السياسة الخارجية » (وهذه ايضا تسمية سوفياتية) واحد من اعقد العلوم المعاصرة ، ويوجهون انتقادات عديدة الى الكتاب السياسيين الغربيين (البورجوازيين) لانكارهم كون السياسة الخارجية علما ، وانكارهم ضرورة قيام السياسة الخارجية على اساس فهم علمي متماسك للعلاقات الدولية ، واحيانا انكارهم من الاساس وجود شيء محدد اسمه « السياسة الخارجية » لدولة ما !**

[في هذا الصدد يسوق الكاتب السوفياتي ساناكوييف مقالا جديرا بالملاحظة، يبين ان الدكتور هنري كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة السابق ، الذي كان استاذا للعلوم السياسية في جامعة هارفارد قبل ذلك ، هو واحد من الكتاب البورجوازيين الذين ينكرون « السياسة الخارجية » ، اذ ينقل عنه قوله ـ في كتاب كيسنجر الذي يحمل عنوان « قراءات في السياسة الخارجية الاميركية » ـ ١٩٧٣ ـ انه حاول دون جدوى اقناع الفرنسيين بأنه لا يوجد شيء اسمه السياسة الخارجية الاميركية ، وان سلسلة من التصرفات التي تؤدي الى نتيجة معينة يحتمل الا تكون بالضرورة مصممة لكي تؤدي الى هذه النتيجة] ·

اما النظرية السوفياتية ـ على النقيض من ذلك تماما ـ فتقوم على اساس ان « علم السياسة الخارجية » يدرس ويعمم العمليات التي تتم في العالم الرأسمالي ، ويحلل المجموعة الكاملة من المشكلات الداخلية والخارجية في هذا العالم ، كما يحلل المجموعة الكاملة من المشكلات والعمليات في العالم الاشتراكي ، ويدرس ويحلل النشاط السياسي الثوري في كلا العالمين وفي العالم الثالث بالمثل · وتعترف النظرية السوفياتية في السياسة الخارجية ـ في الوقت نفسه ـ بالطبيعة الايديولوجية للسياسة والدبلوماسية · وترى ان الماركسية ـ اللينينية ـ وهي النظرة العامة البروليتارية الى العالم ـ قد وضعت لاول مرة في التاريخ دراسة مشكلات السياسة الخارجية على أساس علمي ، واوجدت تعاليم متكاملة حول مسائل العلاقات الدولية ، مثل الحرب والسلام ، وقدمت نظرية في علم السياسة الخارجية تقوم بأكملها على اساس قوانين التطور التاريخي ·

وهكذا اصبح هناك وجود لـ « علم السياسة الخارجية » السوفياتي القائم على

اساس النظرية الماركسية ـ اللينينية في صراع الطبقات ، وفي تناقضات الرأسمالية وازماتها ، وفي الطبيعة العدوانية للرأسمالية الاحتكارية ، وفي انهيار النظام الرأسمالي ، والثورة الاشتراكية ، والتضامن البروليتاري والاممية البروليتارية ٠

ويرد منظرو « علم السياسة الخارجية » السوفياتي جذور هذا العلم الى مؤسسي المادية التاريخية ماركس وانجلز ، ثم الى تعاليم لينين ـ حتى السابقة ـ على قيام ثورة اكتوبر عام ١٩١٧ ، وان كان « تاريخ السياسة الخارجية الاشتراكية » قد بدأ بقيام هذه الثورة ، وقيام اول دولة يحكمها العمال في العالم ٠ فعلى اثر انتصار الثورة واجهت السلطة السوفياتية مباشرة مهمة تحديد برنامج سياستها الخارجية ، ووضع استراتيجية وتكتيكات تلك السياسة ٠ وقد اعلن لينين انه « **منذ البداية الاولى لثورة اكتوبر ، كانت السياسة الخارجية والعلاقات الدولية هي المسائل الرئيسية التي واجهتنا** » ٠ وهكذا ظهرت بعد قيام الدولة الاشتراكية سياسة خارجية جديدة تماما ، تستمد قيمها من مبادىء فلسفة محددة هدفها اقامة الاشتراكية ثم بناء الشيوعية عبر النضال من اجل ازالة اشكال الاستغلال المختلفة ، بما فيها الاستغلال في العلاقات بين الدول والشعوب ٠

ولهذا كانت اول قاعدة نظرية للسياسة الخارجية السوفياتية هي « الاساس الطبقي للسياسة الخارجية » ٠ ذلك ان محتوى اي سياسة تحدده اماني الطبقة التي تعكس هذه السياسة مصالحها ٠ وتتبدى المصالح الطبقية ـ وفقا للنظرية الماركسية ـ اللينينية ـ في مجموع وجهات النظر والآراء التي تجسد فهم طبقة معينة للعمليات الاجتماعية ، ولمكانتها في المجتمع ، وللاهداف والمثل العليا ـ او الايديولوجيا ـ التي تتخذها اساسا لنشاطها السياسي ٠ وتذهب هذه النظرية الى انه بانقسام العالم الى نظامين يجسدان الطبقتين الرئيسيتين المتطاحنتين في المجتمع الحديث ، اتضح اكثر الاساس الطبقي للسياسة الخارجية للدول ، واتضحت بالتالي الايديولوجيتان اللتان توجهان نمطين مختلفين من السياسة في العلاقات الدولية ٠

وعلى هذا الاساس يمكن القول بأن « الثابت » الاساسي الاول في السياسة الخارجية السوفياتية هو كونها سياسة تعبر عن مصالح البروليتاريا (الطبقة العاملة) التي تعتبرها النظرية الماركسية ـ اللينينية الطبقة الاكثر تقدما ، في صراعها ضد البورجوازية ، وذلك على نطاق العالم كله ، وفي صراعات العلاقات الدولية وتعقيداتها ٠

الاممية البروليتارية

ويتمثل هذا « الثابت » الاول في مبادىء اساسية تمثلها السياسة الخارجية

السوفياتية منذ اللحظة الاولى لقيام السلطة السوفياتية · واعم هذه المبادىء واكثرها اهمية **مبدأ الاممية البروليتارية** ، والتضامن البروليتاري · وهو يعد في اولويات المبادىء السياسية السوفياتية حجر الزاوية للسياسة الخارجية للدول الاشتراكية ، والمعبر عن محتواها الطبقي ، وعن اتجاهها الطبقي · وعلى اساس هذا المبدأ تقوم القاعدة التي صاغها لينين والقائلة بأن على الحزب الشيوعي « **ان يبذل اقصى ما يمكن في بلد واحد من اجل تطور وتأييد وايقاظ الثورة في كل البلدان** » · وقد جاء هذا المبدأ اول تطبيق عملي له في تحديد طبيعة العلاقات بين روسيا السوفياتية وباقي الجمهوريات السوفياتية · ولكن التطبيق الاممي الاوسع له تمثل اساسا في « **مرسوم السلام** » ، الذي اصدره لينين في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ ، والذي توجه باقتراح السلام ليس فقط الى الدول المتحاربة في ذلك الوقت وانما الى « **العمال الواعين في اكثر امم العالم تقدما : بريطانيا وفرنسا والمانيا · وقد نص « المرسوم » على ان العمال في تلك البلدان قدموا اهم اسهام في قضية التقدم والاشتراكية ·· ان كل امثلة البطولة البروليتارية والعمل التاريخي انما هي وعد بأن عمال البلدان المذكورة سيتفهمون الواجب الذي يواجهونه ، واجب انقاذ البشرية من فظائع الحرب وعواقبها ، وان هؤلاء العمال ـ بعمل شامل ، مصمم ، وقوي لاقصى حد ، سيساعدوننا على تحقيق السلام بنجاح ، وفي الوقت نفسه تحرير الجماهير العاملة والمستغلة من شعوبنا من كل اشكال العبودية وكل اشكال الاستغلال** »(١)

وهكذا فان اول وثيقة للسياسة الخارجية السوفياتية تعكس هذا الخط الطبقي، وتؤكد في الاساس مبدأ الاممية البروليتارية ، حيث طرح لينين ـ الذي صاغ هذا المرسوم ـ مسألة الحرب والسلام من زاوية تقوية تضامن الطبقة العاملة في البلدان الاجنبية المختلفة ، في الصراع من اجل الحفاظ على سلطة العمال في روسيا ، ومن اجل تحرير الشعب العامل في كل البلدان ·

ومنذ ذلك الوقت والدولة السوفياتية حريصة على ان تؤكد التزامها بمبدأ الاممية البروليتارية والتضامن البروليتاري ، وخاصة في مضمار العلاقات بين الدول الاشتراكية ، حيث يطلق عليه اصطلاح « الاممية الاشتراكية » ، الذي يعتبره المتطرفون السوفيات اثراء لمحتوى مبدأ الاممية البروليتارية ، واساسا اقوى للسياسة الخارجية السوفياتية ·

كذلك فان المبدأ نفسه يحكم العلاقات بين الاتحاد السوفياتي والطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية ، والعلاقات بينه وبين حركات التحرر الوطني في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية ، والعلاقات مع البلدان الصغيرة التي تناضل لتحقيق استقلالها الاقتصادي ودعم سيادتها الوطنية ، الامر الذي يؤكد توجه الاتحاد

---

(١) لينين : المؤلفات الكاملة · المجلد ٢٦ ، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ ·

السوفياتي في علاقاته الدولية نحو دعم الطبقة العاملة في كل بلدان العالم والتضامن معها ، على الرغم من ان الممارسات السياسية قد لا تكون في صورتها المباشرة متجهة نحو هذا الهدف بالذات · فحين يقيم الاتحاد السوفياتي علاقات مع الدول البورجوازية ـ كبيرة كانت او صغيرة ـ فانه يضع نصب عينيه هدف دعم الطبقة العاملة فيها ، وان لم يتمكن بحكم الظروف السائدة في تلك الدول او بحكم طبيعة العلاقات التي تربطه بها من تقديم الدعم المباشر ، باقامة علاقات وصلات مباشرة مع قيادات الطبقة العاملة او التنظيمات المعبرة عنها ·

وعلى سبيل المثال فان علاقات الاتحاد السوفياتي مع البلدان العربية التي تلقت منه عونا اقتصاديا وفنيا ذا حجم هائل على مدى السنوات العشرين الماضية ، في صورة مشروعات اقتصادية كبيرة ، كالسد العالي او سد الفرات او المجمعات الصناعية ، لم تكن الا من خلال قنوات السلطة القائمة في هذه البلدان · ومع ذلك ففي تقدير واضعي السياسة الخارجية السوفياتية ان هذه المساعدات من شأنها بالدرجة الاولى ان تقوي الطبقة العاملة في تلك البلدان ، وتعزز دورها وقدراتها ووعيها ، بصرف النظر عن موقف السلطة فيها من دور الطبقة العاملة وتنظيماتها واحزابها ·

كذلك فقد كان لمبدأ « الاممية البروليتارية » وجه آخر كثيرا ما اثار مشكلات عديدة في وجه السياسة الخارجية السوفياتية · لقد كان لينين يؤكد انه « **ينبغي على اشتراكيي الامم المضطهدة المظلومة ان يدافعوا بخاصة عن الوحدة التامة والمطلقة مع عمال الامة المضطهدة المتسلطة ، وان يحققوا هذه الوحدة بما فيها وحدة التنظيم ، وبدون ذلك يستحيل الدفاع عن سياسة البروليتاريا ، عن سياستها المستقلة وتضامنها الطبقي مع بروليتاريا البلدان الاخرى** ··· » **(١)**

كان موقف لينين في هذا الصدد مبنيا على قناعة عقائدية ماركسية بأن عمال الامم المتقدمة لا يرضون باضطهاد عمال شعوب اخرى ، وانه في حال انتصار الثورة في دولة متقدمة مثل المانيا او انجلترا ، فمن المؤكد ان السلطة الثورية (دكتاتورية البروليتاريا) ستعلن حرية الشعوب التي يضطهدها الالمان او الانجليز ·

ولم تكن الامور دائما على هذا النحو من البساطة والمباشرة · وكانت الحالة الاولى البسيطة والمباشرة التي تحقق فيها هذا الموقف هي كشف السلطة الثورية السوفياتية ـ في اعقاب ثورة اكتوبر مباشرة ـ كل المعاهدات والاتفاقات التي كانت حكومة روسيا القيصرية طرفا فيها ، والتي كانت تنطوي على اجحاف بحقوق الشعوب او تقسيم لاراضيها او انتهاك لحقها في تقرير مصيرها · وكان

---

(١) لينين : مختارات (الطبعة العربية) ـ موسكو ـ الجزء الاول ـ ص ٢٥٥ ·

بين الوثائق التي كشفتها السلطة السوفياتية في ايامها الاولى بأمر من لينين « اتفاقية سايكس ـ بيكو » الشهيرة ، وغيرها من الوثائق السرية لـــدول الوفاق · وكان ذلك شيئا جديدا تماما في عالم العلاقات الدولية منذ عـــرف التاريخ هذه العلاقات · فلم يكن العالم قد عرف دولة كبرى لا تريد استعمارا وانما تقف بالتزام الى جانب القوى التحررية في العالم ·

ومنذ ذلك الوقت سارت السياسة الخارجية السوفياتيـة في طريـق شـــن الهجمات المستمرة على سياسات الامبريالية ، وقد انتهجت هذه السياسة حتى في مراحل كانت الدولة السوفياتية فيها لا تزال ضعيفة · وقد عبر لينين عـن هذه الحقيقة في خطاب له امام « المؤتمر التاسع لسوفييتات عموم روســـيا » (كانون الثاني ١٩٢١) حين قال : « **لقد استطعنا ، ونحن محاطين ببلدان اكثر قوة منا بكثير اقتصاديا وعسكريا ، بلدان عداؤها الصريح لنا متاخم دائمـــا لحدود الجنون ، ان نرى انهم كانوا عاجزين عن تحطيم روســيا الســوفياتية مباشرة وفورا ـ وهو امر انفقوا عليه الكثير للغاية من مصادرهم وقوتهم على مدى ثلاث سنوات ··· اننا من الناحية المادية ـ اي اقتصاديا وعســكريا ـ ضعاف للغاية ، ولكننا معنويا ـ ولست اعني بهذا بالطبع المعنويات المجـردة ، وانما تحالف القوى الحقيقية لكل الطبقات في كل البلدان ـ نحن الاقوى بيـن الجميع** » · (١)

فهل يمكن ان نستنتج من هذا ـ بطريقة تلقائية آلية ـ ان الاتحاد السوفياتي ، وهو اليوم اقوى اقتصاديا وعسكريا بما لا يقاس بما كان عليه في عهد لينين ، يواجه وضعا اقل تعقيدا او خطورة في تطبيق سياسته الخارجية ؟ ·

لقد قوي الاتحاد السوفياتي وقوي تأثير سياسته الخارجية على العلاقـات الدولية على مدى الاعوام الستين الماضية ، بصورة لا نظير لها · ولكن ـ الى جانب هذا ـ تعاظمت قوة الدول الامبريالية وتعقدت وتشعبت اساليبها ليس فقط في مواجهة الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي وحركات التحرر الوطني ، بل في مواجهة تناقضاتها وتنافساتها . كما في مواجهة ازماتها الداخلية ·

معاهدة بريست ـ ليتوفسك

ونتيجة لهذا فان تطبيق مبدأ التضامن البروليتاري والاممية البروليتارية من جانب الاتحاد السوفياتـي تحكمه وتحده عوامل ومتغيرات ليست خاضعة لارادة الاتحـاد السوفياتـي وحـــده · وهذه الحقيقـــة ليست وليـــدة التـطورات الاحدث في العلاقات الدولية او الصراع الذي يحـدده تطـور التكنولوجيـــا العسكرية والنووية الحديثة ·· بل انها حقيقة اصطدمت بها الدولة السوفياتية

---

١١) لينين : المؤلفات الكاملة · المجلد ٢٣ ـ ص ١٤٤ ·

ايضا في سنواتها الاولى · فما ان صعدت الطبقة العاملة الى السلطة في روسيا حتى وجدت الدولة الجديدة نفسها تسبح في بحر من العداء يحيط بها من جميع الجهات ، محاطة بالكامل بالعالم الرأسمالي في مواجهة من نمط مواجهة معارك الحياة او الموت · واضطرت السلطة السوفياتية في تلك الظروف ان توقع معاهدة بريست ـ ليتوفسك الشهيرة (التي لم تستغرق في الحقيقة في اعدادها وتوقيعها فالغائها الا الفترة من كانون الاول ١٩١٧ الى تشرين الثاني ١٩١٨) · وقد واجه توقيع هذه المعاهدة معارضات قوية داخل روسيا وخارجها، ربما لم يواجهها اي من قرارات السياسة الخارجية السوفياتية على مدى السنوات الستين التي مضت منذ ثورة اكتوبر · واذا كان « **مرسوم السلام** » هو حجر الزاوية للسياسة الخارجية السوفياتية ، فان معاهدة بريست ـ ليتوفسك كانت بمثابة « **التعميد بالنار** » لهذه السياسة ، حسب تعبير الاكاديمي السوفياتي فلاديمير بتروف (١) · اذ كانت المعاهدة اول تجربة للسياسة الخارجية السوفياتية مع « الحلول الوسط » · وكان من ردود لينين على معارضي المعاهدة في ذلك الوقت قوله انهم « **ربما يعتقدون ان مصالح الثورة العالمية تمنع صنع اي سلام على الاطلاق مع الامبرياليين ··· وخطأ هذه النظرة واضح وضوح النهار · ان جمهورية اشتراكية محاطة بدول امبريالية لا تستطيع ـ من هذه الزاوية للنظر ـ ان توقع اية معاهدات اقتصادية ، ولا تستطيع ان توجد كلية ، دون ان تطير صوب القمر** » (٢) · وتساءل لينين في هذا الصدد ايضا : «**هل نستطيع ان نعول على اسقاط الامبريالية العالمية بمجرد القوة قبل ان تكون البروليتاريا في تلك البلدان الامبريالية قد وصلت الى المرحلة الضرورية من التطور ؟** » (٣) · واجاب على هذا السؤال : « **انه لمن العبث والحماقة ان نستخدم سياسةالعنف في ظل تلك الظروف وان نخفق اخفاقا كاملا في فهم الشروط التي تحتها يمكن ان تكون مثل هذه السياسة ناجحة** » ·

بل الواقع ان لينين استخدم اصطلاح « الحل الوسط » بالتحديد ، اذ قال « **ان كل منعطف متعرج في التاريخ هو حل وسط · حل وسط بين القديم ، الذي لم يعد قويا بدرجة تكفي لكي يسلب الجديد سلبا كاملا ، والجديد ، الذي لم يصبح بعد قويا بدرجة تكفي لكي يسقط القديم كله** » (٤) · وفي صدد الدفاع عن معاهدة « بريست ليتوفسك » بوجه خاص قال لينين : « **ان رفض الحلول الوسط ـ من حيث المبدأ ـ ورفض السماح بالحلول الوسط على وجه العموم ، بصرف**

---

(1) Petrov , v. , The Sources of Leninist Diplomacy , International Affairs , Moscow , June 1975 .

(٢) لينين : المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٧ ، ص ٧١ ·

(٣) لينين : المؤلفات الكاملة « المجلد ٢٩ ، ص ٦٠ ·

(٤) لينين : المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٣ ، ص ٢٣ ·

النظر عن نوعها ، ضرب من الطفولية ، يصعب اخذه حتى مأخذ الجد ٠ ان زعيما سياسيا يرغب في ان يكون مفيدا للبروليتاريا الثورية لا بد ان يكون قادرا على التمييز بين الحالات المحسوسة من الحلول الوسط التي لا يمكن انتحال المعاذير لها والتي هي تعبير عن انتهازية وخيانة ، يتعين عليه ان يوجه كل قوة النقد ، والفضح الحاد الكامل بلا رحمة ، والحرب التي لا هوادة فيها ، ضد هذه الحلول الوسط المحسوسة ٠٠٠ وهناك انواع مختلفة من الحلول الوسط ٠ ويتعين على المرء ان يكون قادرا على تحليل الموقف والشروط المحسوسة لكل حل وسط ، او لكل نوع من الحل الوسط » (١) ٠ وبوضوح في موضع آخر ـ رد لينين على الاتهام الذي وجه بأن الحكومة السوفياتية توصلت الى حل وسط مع الامبريالية الالمانية بتوقيع هذه المعاهدة ، حيث قال : « نعم لقد قمنا بحل وسط ، كما فعلنا من قبل الشيء نفسه عندما توصلنا الى حل وسط مع القيصر بدخولنا مجلس الدوما الرجعي المقزز ، ودمرناه من الداخل » ٠ (٢)

وعلى مدى سنوات عمر السلطة السوفياتية الستين فرضت متغيرات دولية معينة على السياسة الخارجية للاتحاد السوفياتي اللجوء الى حلول وسط ٠ ويمكننا ـ على سبيل المثال ـ ان نذكر ازمة الصواريخ السوفياتية في كوبا في عام ١٩٦٢ كمثال على المرونة في تطبيق مبدأ « الاممية البروليتارية » ، بالدخول في حل وسط لا يلغي المبدأ ، ولكنه يحقق ما تتصوره السياسة الخارجية السوفياتية الفائدة الاكبر لقضية الطبقة العاملة في العالم ، ولقضية صون السلام ، ولقضية كبح جماح الامبريالية ، وفي الوقت نفسه الحفاظ على المكاسب الاشتراكية ٠ او ان نذكر ملامح تضامن الاتحاد السوفياتي مع نضال الشعب الفيتنامي ضد الحرب العدوانية التي شنتها عليه الامبريالية الاميركية طوال الفترة من ١٩٦١ الى ١٩٧٣ ٠ فمما لا شك فيه ان مقاومة الشعب الفيتنامي وصموده وانتصاره في النهاية على الحرب العدوانية الاميركية قد استفادت كثيرا من المساعدات التي قدمها الاتحاد السوفياتي للشعب الفيتنامي وفقا لمبدأ الاممية البروليتارية ٠ الا ان المتغيرات الدولية التي لا تخضع كلها لارادة الاتحاد السوفياتي وحده ، جعلت ممارسة هذا المبدأ في هذه الحالة مختلفة مثلا عن ممارسته ازاء احداث تشيكوسلوفاكيا في عام ١٩٦٨ ٠ فقد كانت الظروف السياسية والاستراتيجية وحتى الجغرافية لحرب فيتنام تشكل وضعا مختلفا عن الظروف نفسها لاحداث تشيكوسلوفاكيا ، على الرغم ان الخطر كان واقعا في الحالتين على بلد ينتمي لمجموعة « المنظومة الاشتراكية العالمية » ٠ وفي الحالتين

---

(١) لينين : المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣١ ص ٣٧ ـ ٣٨ ٠

(٢) لينين : المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٩ ، ص ٦٠

كان المبدأ الذي اهتدت به السياسة الخارجية السوفياتية هو مبدأ الاممية البروليتارية ٠

الموقف من القضية العربية

ولعل من المناسب ان نذكر مثلا اقرب الى واقعنا العربي ٠ فالاختلاف الذي استشعره المواطن العربي بين موقف الاتحاد السوفياتي ازاء العدوان الثلاثي الامبريالي ـ الصهيوني على مصر عام ١٩٥٦ ، وموقفه ازاء العدوان الامبريالي ـ الصهيوني على مصر وسوريا والاردن عام ١٩٦٧ يشكل نموذجا لكيفية تأثير المتغيرات الدولية على ممارسة السياسة الخارجية السوفياتية لمبدأ « الاممية البروليتارية » ، وهو كما قلنا لا يحكم فقط علاقات الاتحاد السوفياتي بالدول الاشتراكية ، بل علاقاته ايضا بالامم المناضلة من اجل استقلالها وحريتها ، وبحركات التحرر الوطني في العالم الثالث ٠ وينبغي الا يغيب عن ذهننا ان اهم هذه المتغيرات ما يتعلق منها بموقف الطرف الذي تمارس ازاءه هذه المساعدة نفسها ٠ فلم يكن الموقف الدولي وحده اكثر ملاءمة للدعم السوفياتي للعرب عام ١٩٥٦ منه عام ١٩٦٧ ، بل ان الموقف العربي نفسه كان اكثر ملاءمة لهذا الدعم في الحالة الاولى اكثر منه في الحالة الثانية ٠

بل ان متغيرات السياسة الخارجية السوفياتية ازاء **القضية الفلسطينية** تعطي مثالا واضحا على ما نريد التدليل عليه بشأن الثابت والمتغير ، بين المبدأ وممارسته في هذه السياسة ٠ لقد كان للاتحاد السوفياتي ـ بحكم اعتبارات ايديولوجية عامة ثابتة ـ موقف سلبي من الصهيونية من البداية ، بوصفها حركة رجعية ترتبط بالغرب الامبريالي (١) ٠ ولم يتغير هذا الموقف المبدئي على المستوى الايديولوجي منذ نشأة الصهيونية ، الا ان متغيرات عديدة طرأت على مواقف السياسة الخارجية السوفياتية من النشاط الصهيوني في فلسطين ٠ في البداية كانت دعوة السوفيات للبروليتاريا اليهودية الى القضاء على الغول الصهيوني ، واستمرت المعارضة السوفياتية لنشاط الصهيونية ضد فلسطين ، فشملت فكرة التقسيم التي طرحت لاول مرة ضمن مقترحات لجنة بيل عام١٩٣٧٠ الا ان مشاركة اليهود في نشاط المقاومة ضد النازي ، في الوقت الذي بدأ فيه تعاطف عربي ـ غير مبرر ولا عقلاني ـ مع دول المحور ، وظهر تعاطف زائف من جانب دول المحور تجاه النضال العربي ضد الصهيونية، ادى هذا الى موقف حرج للسياسة الخارجية السوفياتية ، بدا في صوره فتور في مهاجمة الاتحاد

---

(١) لمزيد من التفصيلات حول هذه النقطة ، انظر ماهر الشريف : قضية فلسطين ومناقشات المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية ، شؤون فلسطينية ، ٧٠ ، ص ١١٩ ـ ١٤٤ ٠

السوفياتي للنشاط الصهيوني في فلسطين ، ثم في صورة قبول بقرار التقسيم ٠ وهو ما اعتبر ـ من الجانب العربي ـ موقفا ايجابيا ازاء الصهيونية من جانب السياسة الستالينية ٠ ولكن الحقيقة ان هذا الموقف الذي بلغ ذروته بالاعتراف بالدولة الصهيونية لم يقدر له العيش الا لفترة قصيرة للغاية ، ثم تبدل تحت تأثير احداث داخلية في الاتحاد السوفياتي خاصة بالولاء اليهودي ، ثم تحت تأثير تحولات تقدمية في العالم العربي (خاصة بعد ثورة ٢٣ تموز ١٩٥٢) افقدت اسرائيل صورة القاعدة المناهضة للاستعمار الانجليزي ، ثم تحت تأثير افتضاح علاقات اسرائيل الخاصة مع الامبريالية الاميركية ٠ وبشكل عام لقد انتقل مركز النضال ضد الامبريالية في المنطقة الى الامة العربية ، فسحب هذا الوضع الجديد البساط تماما من تحت اقدام الدولة الصهيونية التي رسمت صورتها قبل ذلك على انها دولة مستقلة ديمقراطية متحررة واشتراكية ٠ وساهمت المعارك العربية ضد مشاريع الاحلاف العسكرية الامبريالية في الشرق الاوسط في تقريب السياسة الخارجية السوفياتية اكثر الى القضية العربية ٠ فقد كانت تلك الاحلاف موجهة ضد الاتحاد السوفياتي بقدر ما كانت موجهة ضد حركة التحرر العربية ٠

التعايش السلمي

والمبدأ الاساسي الثاني في ايديولوجيا السياسة الخارجية السوفياتية هو مبدأ « التعايش السلمي بين البلدان ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة » ٠ وهذا المبدأ يرد نظريا الى الفلسفة الماركسية ـ اللينينية ، وان كان يبدو في حقبة سياسة الانفراج الدولي الاخيرة وكأنه متلازم معها ، وليس سابقا عليها ٠

وينبع مبدأ « التعايش السلمي » مباشرة من جوهر نظرية لينين في التطور غير المتوازن للرأسمالية ، وعن نظريته في الثورة الاشتراكية بوصفها تحولا جذريا في العلاقات الاجتماعية يقيم نظاما اجتماعيا جديدا نتيجة حركة جماهيرية قوية وعمليات اجتماعية جبارة ، وليس نتيجة هوى شخصي ٠ فالثورة هي نتيجة تطور داخلي في هذا البلد او ذاك ، وليس نتيجة تدخل من الخارج ٠ فلقد اكد لينين ان الثورة تنشأ « عن نمو حدة التطاحنات الطبقية التي تولد الثورة »، وليس نتيجة لدفعها من الخارج ، فتصدير الثورة مستحيل ٠ وعلى هذا الاساس يتفرع مبدأ عدم التدخل في الشئون الداخلية للبلدان الاخرى ٠

وفي نظرية السياسة الخارجية السوفياتية ان مبدأ التعايش السلمي لا يتناقض مع حق الشعوب المضطهدة في النضال من اجل حريتها بجميع الوسائل التي تعتبرها ضرورية ـ بما فيها الوسائل المسلحة وغير المسلحة ـ ولا تعني

مطلقا دعم الانظمة الرجعية · كما ان هذا المبدأ لا يعني تجميد الواقع الاجتماعي والسياسي ولا اضعاف النضال الايديولوجي ، بل انها تنشط تطور النضال الطبقي ضد الامبريالية على النطاق الوطني والعالمي ، وذلك على اساس ان النضال ضد الامبريالية هو من شروط نجاح سياسة التعايش السلمي · كما ان هذه السياسة تخلق ظروفا اكثر ملاءمة لمتطلبات نضال الطبقة العاملة ، وكل الشعب العامل ، في البلدان الرأسمالية من اجل حياة افضل وضد الاستغلال الرأسمالي · وتذهب نظرية السياسة الخارجية السوفياتية الى ان مناخ التوتر الدولي واضفاء الطابع العسكري على الحياة الاجتماعية ، وسيادة جو جنون الحرب يتيح بشكل خاص قمع الحقوق والحريات الديمقراطية ، وفي هذا المناخ تزداد قوة آلة العنف في يد البورجوازية ، الامر الذي لا يخدم ولا يساعد نضال التحرر الوطني للشعوب المقهورة ، ولا نضال التقدم والتحرر الاجتماعي في المجتمعات الرأسمالية ·

ويعني مبدأ التعايش السلمي في نظرية السياسة الخارجية السوفياتية : الامتناع عن الحرب بوصفها وسيلة لحل القضايا المتنازع عليها بين الدول ، وحلها عن طريق المفاوضات ، والامتناع عن استخدام القوة او التهديد باستعمال القوة ، وعدم التدخل في الشئون الداخلية ، والاعتراف لكل شعب بالحق في تقرير جميع شئون بلاده بنفسه ، وحرمة الحدود ، واحترام السيادة والمساواة والاستقلال لجميع البلدان ، وتطوير التعاون الاقتصادي والعلمي والتقني والثقافي ·

ولعل المقولة الابرز والاهم من مقولات مبدأ التعايش السلمي بالنسبة للاتحاد السوفياتي هو الدفاع النشيط عن السلام · فان السياسة الخارجية السوفياتية تعلق اهمية لا تفوقها اهمية اخرى على « **النضال من اجل تصفية بؤر العدوان ودرء نشوب حرب عالمية جديدة ، من اجل السلام الدائم والامن في العالم بأسره** » · وهي مقولة ترجع ايضا الى وقت لينين وليست وليدة انتهاج سياسة الانفراج الدولي الحديثة · فهو الذي قال : « **نحن نعلم ، ونعلم جيدا جدا ، اية بلايا رهيبة تجرها الحرب على العمال والفلاحين** « (١) ·

هجوم السلام

وقد انعكس هذا الاهتمام بالسلام في البرنامج الذي اقره المؤتمر الرابع والعشرون للحزب الشيوعي السوفياتي المسمى « برنامج الدفاع النشيط عن السلام » (والذي وصف بعبارة « هجوم السلام السوفياتي ») · وقد اوضح فيه

---

(١) لينين : تقرير عن السلام ، موسكو (الطبعة العربية) ١٩٧٠ ، ص ٢٨٦

« ان الاتحاد السوفياتي يعارض السياسة العدوانية للامبريالية بسياسة الدفاع النشيط عن السلام وتوطيد الامن الدولي » · ويقوم هذا البرنامج على اساس ان السلم لا بد منه لبناء الشيوعية ، وضروري لكل البلدان الاشتراكية ولشعوب كل الدول ، ولهذا فان « الاتحاد السوفياتي سوف يتصدى في المستقبل لسياسة العدوان ، ويسهم في تصفية الظروف التي تولد الحرب العدوانية في العالم كله » · ولكلمة « العدوانية » هنا مغزاها · فان السياسة الخارجية السوفياتية حريصة دائما على التأكيد بأن سياسة التعايش السلمي لا تعني الوقوف موقف اللامبالاة من نضال الشعوب ضد الامبريالية · وفي هذا الصدد قال **ليونيد بريجنيف** الامين العام للحزب الشيوعي السوفياتي : « **ان الجهود** التي تبذلها الامبريالية لتقود مسيرة التاريخ باتجاه ملائم لمصالحها مكتوب لها الفشل ، وهذا لا يحتمل اي شك بالنسبة لنا · الا اننا نعرف جيدا ـ نحن الشيوعيين ـ **ان** آخر شيء هو ان نبقى مكتوفي الايدي وننتظر · فالذين يحاربون الاضطهاد الرأسمالي يجدون امامهم آخر ـ ولكن اقوى ـ الانظمة الاستغلالية التي يشهدها التاريخ ··· »

ويلاحظ بريجنيف في الموضع نفسه ان تطلع الاتحاد السوفياتي نحو السلم والتعايش السلمي ليست له أية علاقة بـ « السلمية » و « عدم استخدام العنف » بوجه المصائب التي تسببها الامبريالية للشعوب ··· ويضيف : « **عندما يتعلق** الامر بسياسة التعايش السلمي والتعاون السلمي بين البلدان بصرف النظر عن نظامها الاجتماعي يسألوننا دائما ـ نحن الشيوعيين ـ ما اذا كانت هذه السياسة تتوافق والمبادىء الثورية · اود ان اذكركم ان لينين ، اكبر ثوريي العالم ، قال ان الثورات لا تصنع ، لا حسب الطلب ، ولا بعد تفاهم مسبق ، ويمكننا ان نضيف في هذا الموضوع ان الثورة والصراع الطبقي وحركات التحرر لم يعد بالامكان ازالتها حسب الطلب ، او نتيجة اتفاق مسبق ··· اننا ضد تصدير الثورة ، لكن الحزب الشيوعي السوفياتي وحكومتنا وكل الشعب السوفياتي يعلنون في الوقت نفسه ، صراحة ودون مواربة ، تضامنهم مع اشقائهم الطبقيين الذين يناضلون في الخارج ، وتضامنهم مع حركات التحرر المعادية للامبريالية · وليس هناك اي تناقض مع الصراع في سبيل السلم ، والتعاون السلمي لكل البلدان » · (١)

وفي الواقع العملي فان سياسة التعايش السلمي سياسة متهمة من الجميع · « الثوريون » يعتبرونها سياسة ضعف التنازلات تقدمها السياسة الخارجية السوفياتية للامبريالية والرأسمالية عموما · و « البورجوازيون » يعتبرونها

---

(١) بريجنيف ، ل : السياسة الخارجية للحزب الشيوعي السوفياتي والدولة السوفياتية · موسكو ١٩٧٣ ، ص٥١٧ ·

سياسة مراوغة وتمويه من جانب الاتحاد السوفياتي لتغطية اهدافه التوسعية في العالم ولخدمة مصالحه الاستراتيجية والاقتصادية · وهناك اتجاه ثالث يعتبر التعايش السلمي بمثابة « سياسة تنازلات متبادلة » بين العالمين الاشتراكي والرأسمالي ، جاءت نتيجة « تقارب » بين الاشتراكية والرأسمالية ، وان هذا « التقارب » الايديولوجي نشأ بدوره عن تقارب احدثته « الثورة التكنولوجية » في المستويات الاقتصادية بين الدول الرأسمالية والاشتراكية ، وخاصة الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ·

ويذكر المنظرون السوفيات فكرة التقارب على أساس ان الانتصارات التي حققتها سياسة التعايش السلمي في الفترة الاخيرة في مضمار العلاقات الدولية ليست وليدة « حسن نية » الدول الامبريالية ، وانما اضطرارها للتسليم بتعاظم قوة المعسكر الاشتراكي ، وخاصة الاتحاد السوفياتي ، استراتيجيا واقتصاديا وسياسيا · وبالتالي فان الجانب الذي يقدم تنازلات هو المعسكر الامبريالي ، الذي اضطر للتخلي عن احلام القضاء على الدولة الاشتراكية الاولى ، وللتسليم بتأييد شعوب العالم ـ بما فيها شعوب الدول الامبريالية نفسها ـ لسياسة التعايش السلمي لالتقائها مع مصالح جميع الشعوب ·

ويصف المنظرون للسياسة الخارجية السوفياتية التعايش السلمي بأنه « **شكل نوعي من اشكال الصراع الطبقي يشن في جميع انحاء العالم ، ويجري في المجالات الاقتصادية والسياسية والايديولوجية** » (١) · ويبدو التعايش السلمي بشكل خاص ، وبقوة خاصة ، في المجال الايديولوجي حيث لا يمكن في هذا المجال ايجاد حلول وسط · « **ان التعايش السلمي لا يشمل الميدان الايديولوجي ولا ميدان الصراع الطبقي** » · ولهذا يولي واضعو السياسة الخارجية السوفياتية اهمية اكبر باستمرار لما يعتبرونه جهود الامبريالية لشق صفوف البلدان الاشتراكية واضعاف وحدتها ، حيث « **يبحث الامبرياليون عن الحلقات الضعيفة في الجبهة الاشتراكية ويطبقون سياسة التشويش الايديولوجي في البلدان الاشتراكية ، ويحاولون ان يؤثروا على تطورها الاقتصادي ، وان يزرعوا الفوضى ويدقوا الاسافين فيما بينها ، وان يحركوا ويؤججوا المشاعر والاتجاهات القومية ، وان يعزلوا بلدانا اشتراكية ليشدوا الخناق عليها فيما بعد واحدة واحدة** » · (٢)

ولعل مثال احداث تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ يدل دلالة قاطعة على ان الاتحاد السوفياتي يضع في قمة اولويات سياسته الخارجية الا يفهم العالم

---

(1) Morkovinkov , S. , Soviet Foreign Policy : A Factor for Peace and Progres , International Affairs , Moscow Nov. 1974 .

(٢) بريجنيف : المصدر السابق ، ص ٣٣٢ ·

الامبريالي من سياسة التعايش السلمي ان لدى الاتحاد السوفياتي اي استعداد للمهادنة في وجه اي خطر يتهدد النظام الاشتراكي في دولة متاخمة للاتحاد السوفياتي ، عضو في حلف وارسو ، تحتل موقعا استراتيجيا هاما في قلب القارة الاوروبية · واذا سرنا مع هذا المثل نفسه وجدنا وجها آخر لهذه الحقيقة ، وهو ان المعسكر الامبريالي ـ برغم الضجيج الشديد الذي احدثه ابان ازمة تشيكوسلوفاكيا ـ قد ابتلع غصته ، ولم يتوقف عن تقديم « التنازلات » للمعسكر الاشتراكي بعد ذلك مباشرة ·· وهي تنازلات تمثلت في الاعتراف نهائيا بالدولة التي اوجدتها نهاية الحرب العالمية الثانية في اوروبا ، وفي الاعتراف بجمهورية المانيا الديمقراطية ـ حتى من جانب المانيا الاتحادية (الغربية) ـ وفي التوصل الى اتفاقات للتعاون الاقتصادي والتكنولوجي ··· وكلها وغيرها خطوات لم تكن متصورة الى ما قبل سنوات قليلة من اتخاذها ·

الواقعيون ·· والعدوانيون

وتعتمد السياسة الخارجية السوفياتية في اطار مبدأ التعايش السلمي التمييز بين اجنحة « واقعية معتدلة » واخرى « عدوانية » بين الدول البورجوازية · ويرجع هذا التمييز الى لينين ايضا · فقد كان يقول : « **لا يمكن ان نكون غير مبالين لمسألة معرفة ممثلي المعسكر البورجوازي الذين يميلون الى حل عسكري للمشكلة ، والذين من بينهم يميلون الى السلمية** » (١) · ويردد بريجنيف المعنى نفسه في عبارة اخرى : « **اننا نميز في المعسكر الرأسمالي جناحا اكثر اعتدالا ، وممثلوه ـ مع بقائهم اعداء طبقيين وايديولوجيين لنا ـ يقيمون بشكل واضح نسبة القوى الحالية في العالم ، ويميلون الى البحث عن حلول مقبولة من الطرفين للمسائل العالمية المختلف عليها · وتأخذ دولتنا هذه الاتجاهات بعين الاعتبار في تطبيق سياستها الخارجية** » (٢) · وفي عبارة ثانية يذهب الى حد القول : « **ان الدور الحقيقي والوزن السياسي لدولة ما يقاس اليوم بقدرتها على ادراك الاهمية التي يرتديها الحفاظ على السلم وتعزيزه ، وبأعمالها الملموسة لحل هذه المسألة الاكثر الحاحا في عصرنا · ولا نستطيع في هذا المجال الا ان نقدر رجال الدولة في البلدان الرأسمالية الذين يحاولون تخطي جمود الحرب الباردة والانخراط في طريق جديد ، طريق الحوار السلمي مع دول النظام الاجتماعي الآخر** » ·

وهكذا تظهر اثناء ممارسة مبدأ التعايش السلمي اعتبارات تتعلق بمتغيرات تفصيلية، كهذا المتغير الذي يتوقف على تقييم مواقف دول معينة او قادة ورجال

---

(١) لينين : المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣ ، ص ٢٦٨

(٢) بريجنيف : المصدر السابق ، ص ١٩١

دولة معينين في المعسكر الامبريالي والرأسمالي ، وما اذا كانت تلك المواقف سلمية ام لا · ومرة اخرى فان الامور لا تكون عادة بهذه الدرجة من البساطة · فان رئيسا للولايات المتحدة مثل ريتشارد نيكسون ابدى اقصى الاستعدادات ، بالمقارنة بغيره ، فيما يتعلق بسياسة الانفراج الدولي ، وكان صاحب اكثر قرارات الحرب العدوانية في فيتنام تطرفا ودموية ·

وفيما يتعلق بالقضية العربية فان الاتحاد السوفياتي ـ في هذا الجانب نفسه ـ قد عرض نفسه لكثير من التحفظات ـ ان لم نقل الاتهامات ـ لانه كانت له رؤية تسلم بضرورة الحل السلمي ، فيما بدا ان من المستحيل في ظل الموازين القائمة في الشرق الاوسط ، ارغام الدولة الصهيونية ومن ورائها التأييد الامبريالي ، على القبول بحل سلمي يقر بالحقوق المشروعة للامة العربية ، وفي مقدمتها حقوق الشعب الفلسطيني · كما كانت له رؤية تسلم بوجود دولة اسرائيل، على الرغم من مناقضة ذلك للاعتبارات الايديولوجية الماركسية التي ترفض قيام كيان ـ دولة ـ وطن على أسس عرقية او دينية ·

وهنا فان المسافة بين التأييد الذي قدمته السياسة الخارجية السوفياتية للقضية العربية في الممارسة العملية ، وبين ما انتظر منها على أسس نظرية مجردة تحولت الى سلاح في أيدي القوى التي تعمل لابعاد الدور السوفياتي عن المنطقة ، سواء لقناعات ايديولوجية او طبقية او استراتيجية او سواء كانت هذه القوى تنتمي للمنطقة نفسها او تقع خارجها ·

ومع ذلك فانه من الجدير بالملاحظة ونحن نمس هذا « المتغير » في اتجاهات السياسة الخارجية السوفياتية ان نعي كيف استمر التأييد السوفياتي للقضية العربية مبدئيا ، برغم تقلبات عديدة تعرضت له سياسات بلدان المنطقة ونظمها نحو الاتحاد السوفياتي نفسه ، ومصالحه الاستراتيجية والاقتصادية · وعلى سبيل المثال فان موقف التأييد الذي اتخذه الاتحاد السوفياتي من العرب ابان حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ جاء في اعقاب اجراء اضر ـ ولو معنويا ـ بالاتحاد السوفياتي بصورة عميقة ، وهو اجراء اقصاء الخبراء السوفيات من مصر في تموز (يوليو) ١٩٧٢ ، بل ان استجابة الاتحاد السوفياتي السريعة لهذا القرار نفسه حين صدوره كانت تأكيدا لمبدئية السياسة الخارجية السوفياتية ، فيما يتعلق بعدم التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الاخرى ·

وقبل ذلك فان تأييد الاتحاد السوفياتي للبلدان العربية في أعقاب الهزيمة العسكرية في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، وكان أهم جانب فيه هو الدعم العسكري والمساهمة الكبيرة في عملية اعادة بناء القوات المسلحة المصرية والسورية ، كان تأكيدا لتبعية « التغير » في الموقف السوفياتي لعامل قدرة

الطرف المقصود بالمساعدة على الاستفادة منها ، وعلى التماسك سياسيا في مواجهة الضغوط الامبريالية برغم الهزيمة العسكرية ٠

ولا يزال الاتحاد السوفياتي ، رغم التهجمات الكبيرة التي تتعرض لها سياسته في اقطار عديدة من الوطن العربي ، محتفظا بموقف التأييد المبدئي للقضية العربية ٠٠٠ وان كانت قد طرأت « متغيرات » غير أساسية على مواقفه ازاء بعض النظم التي تشارك في هذه التهجمات ، او التي اختارت التعاون مباشرة مع الامبريالية الاميركية ، ليس فقط في البحث عن « تسوية » لازمة الشرق الاوسط ، بل في حرب العداء للشيوعية وللاتحاد السوفياتي ، بمستويي هذه الحرب : العسكري والايديولوجي ٠

ويمكننا ان ندرج هذه الانواع من « المتغيرات » تحت بند واحد ، يشمل المتغيرات التي يفرضها مستوى نمو ونضوج حركة التحرر الوطني او التحرر الاجتماعي في هذا البلد او ذاك ، في هذه المنطقة او تلك من العالم ٠

ويدرك واضعوا السياسة الخارجية السوفياتية بوضوح حقيقة انه « **لا يتعلق كل شيء في السياسة الخارجية بالاتحاد السوفياتي وحلفائه فقط ٠ ولا نتقدم دائما ، وفي اي مكان كما نريد وبقدر ما نريد ٠ لكن حصيلة السياسة الخارجية السوفياتية واضحة ٠٠ فمواقع الاتحاد السوفياتي الدولية هي أقوى وامتن ٠ ونفوذه اكبر ، وهناك حماية لجهد السوفيات السلمي** » ٠ (١)

نجاح الاستراتيجية ٠٠ وفشل التكتيك

وتعني هذه العبارة ، بين ما تعنيه ، ان متغيرات السياسة الخارجية السوفياتية مرهونة بعوامل خارجية بالدرجة الاولى ٠ ويصف بريجنيف « اسلوب » ممارسة هذه السياسة في مواجهة الامبريالية في هذه العبارة : « **تبين التجربة ، انه من أجل الانتصار على عدو بقوة الامبريالية وبمكرها ، يجب ـ بالاضافة الى الحزم وارادة النضال التي لا تتزعزع ، التصدي له بالحساب السياسي المنطقي وبضبط النفس وبرودة الاعصاب ٠ فالشيوعيون يواجهون هذا العدو باستراتيجية تستند على التحصيل العلمي لميزان القوى داخل البلاد وعلى الصعيد العالمي ٠ يواجهونه بتكتيك واشكال ووسائل للنضال تأخذ بعين الاعتبار الظروف المحسوسة بقدر الامكان** » ٠ (٢)

ويستطيع المرء ان يعثر في عبارة بريجنيف هذه على رد ـ يبدو وكأنه مباشر

---

(1) Zagladin, V. The Leninist Strategy of Soviet Foreign Policy , Social Sciences , Moscow , No. 4 , 1974 .

(٢) بريجنيف : المصدر السابق المذكور « ص ١١٥ ٠

ومقصود ـ على النقد الذي يوجه غالبا الى « اسلوب » السياسة الخارجية السوفياتية ـ حتى من قبل بعض اصدقاء الاتحاد السوفياتي والمؤمنين بمبدئية سياسته ـ وهو النقد القائل بأن هذا الاسلوب يشوبه بطء الاستجابة ، وخاصة بالمقارنة بسرعة التصرف لدى القوى الامبريالية والقوى اليمينية عموما في صراعاتها ضد المعسكر الاشتراكي وضد حركات التحرر الوطني والحركات الاجتماعية التقدمية · ويمكننا ان نجد في عبارة بريجنيف تبريرات او تفسيرات لهذه الظاهرة ، تتمثل في استخدامه جملا مثل « ضبط النفس » و « برودة الاعصاب » و « الاستناد الى التحليل العلمي لميزان القوى » · فالذي يعتبره منتقدو اسلوب السياسة الخارجية السوفياتية احد عيوب « البيروقراطية » في النظام السوفياتي ، تفسره عبارة بريجنيف بأنه ضرورة يمليها التناول العلمي التحليلي الموضوعي المجرد من الانفعالات ·

فهل يمكن اعتبار هذا « الاسلوب » احد ثوابت السياسة الخارجية السوفياتية ؟

يذهب بعض التفسيرات الى ان الاتحاد السوفياتي يركز في وضع قرارات سياسته الخارجية على المسائل الاستراتيجية ـ البعيدة المدى ـ التي تستغرق بطبيعتها وقتا وجهدا ولا تعطي نتائج سريعة ، وانما تأتي نتائجها في فترات لاحقة · وان هذا هو السبب في ان الاتحاد السوفياتي يخسر كثيرا ـ ولو على المستوى الدعائي فحسب ـ في كثير من المواجهات التكتيكية مع الامبريالية ، بل حتى في مواجهات مع قوى اصغر · وان هذا يؤدي في المحصلة النهائية ـ في بعض الاحيان ـ الى التأثير على نتيجة المواجهات الاستراتيجية · وهو امر ينطوي على اخطاء حسابية في تقدير اهمية ما هو تكتيكي ·

ويعتبر مثال العلاقات السوفياتية ـ المصرية في السنوات الاربع الاخيرة المثال النموذجي عندما تذكر هذه الفكرة عن اهتمام السياسة الخارجية السوفياتية بالاستراتيجية دون التكتيك · فقد خسر الاتحاد السوفياتي الكثير من مواقعه في مواجهات تكتيكية خلال تدهور هذه العلاقات ، ولكنه لا يزال يبني مواقفه في المدى الاستراتيجي على أساس ان تأييده ـ الاستراتيجي ـ للشعب العربي في مصر ، في قضاياه القومية والاجتماعية ، وما سبق ان قدمه من مساعدات واتخذه من مواقف يشكل رصيدا يعتمد عليه بالنسبة لمستقبل العلاقات العربية ـ السوفياتية · وبطبيعة الحال فانه تتدخل هنا عوامل واعتبارات اخرى خلاف اعتبار الاولوية التي يعطيها السوفيات للاستراتيجية على التكتيك ·· عوامل واعتبارات خارجة عن تأثيرات السياسة الخارجية السوفياتية نفسها · مثل عوامل تنامي الدور الاميركي ، والدور العربي التقليدي المناهض بل المعادي للسوفيات والذي نما مع تعاظم دور النفط العربي ـ عربيا وعالميا ـ وكذلك العوامل الذاتية التي لا يمكن اغفالها والتي تدل

الظواهر على انها تلعب دورا بالنسبة لتحديد سياسات بعض القادة ازاء الاتحاد السوفياتي والشيوعية ٠

العرب ٠٠ وافريقيا ٠٠ وآسيا

على انه رغم كل تلك العوامل يبدي مخططو السياسة الخارجية السوفياتية ـ ويؤيدهم في ذلك محللون سياسيون حتى في الغرب ـ ثقة كبيرة بأنه عندما لا يعود أمام العرب من خيار الا الحل العسكري ، فان طريق الحرب سيقودهم حتما مرة اخرى نحو موسكو ٠ (١)

وربما ينطبق على أفريقيا ما ينطبق على العرب ، وهو ما انطبق **قبل ذلك على آسيا ٠٠ حيث وجهت الانتقادات نفسها الى السياسة الخارجية السوفياتية ازاء حروب الهند الصينية : فيتنام ولاوس وكمبوديا ٠ طوال الفترة التي استغرقتها تلك الحروب ضد العدوان الاميركي كان الاتحاد السوفياتي متهما بالمهادنة ، او السلمية ، او على اقل تقدير منتقدا ببطء الاستجابة ٠ وظل تشاؤم مكتوم ـ غير معبر عنه غالبا ـ سائدا بين معظم ممجدي البطولات الفيتنامية حتى وهم يعبرون عن ثقتهم الاكيدة في ان انتصار فيتنام في النهاية آت لا ريب فيه ٠ وكان مصدر التشاؤم اعتقاد بأنه بدون موقف اكثر هجومية من جانب الاتحاد السوفياتي فان حرب فيتنام قد لا تنتهي ابدا ٠ ولكن السياسة الخارجية السوفياتية كانت تمارس مبادئها الاساسية واسلوبها ، بثوابتها ومتغيراتها. ، محكومة باعتباراتها الايديولوجية والاستراتيجية والسياسية ، ومحكومة ايضا باعتبارات عالمية ، ربما كان أهمها تأثير عامل النزاع السوفياتي ـ الصيني** ٠ وهو احد العوامل التي اسهمت في اطالة زمن المأساة ـ البطولة الفيتنامية كأحد الصراعات الاساسية التي سادت السنوات الاخيرة حتى انتهت الى نتيجتها الايجابية ٠

وللسياسة الخارجية السوفياتية تقسيم محدد لانواع الصراعات الباقية في العلاقات الدولية في الوقت الحاضر ، اي في زمن النجاح النسبي لمبدأ التعايش السلمي ولسياسة الانفراج الدولي ٠ فهناك خمسة انواع من الصراعات :

- الاول ، الصراعات الناشئة عن التناقض الرئيسي في الحقبة الحاضرة ، **بين الاشتراكية والرأسمالية** ٠ وفيها يكاد ينحصر الصراع في المجال الايديولوجي ٠
- الثاني ، الصراعات الناشئة عن التناقضات **بين الامبريالية وحركة التحرر**

(1) Dawisha , Dr. Karen , Soviet Union in the Middle East . Setback or Comeback ? Middle East , monthly , London , July 1977 .

الوطني، وفيها تحاول الامبريالية ان تحل التناقض بواسطة الحروب الاستعمارية المحدودة والاقليمية ٠

● الثالث ، صراعات مصدرها التناقضات القائمة بين **الدول الامبريالية ، والدول المتقدمة عامة من ناحية ، والدول المستقلة النامية ـ دول العالم الثالث ـ من ناحية اخرى** ٠ وتحاول الامبريالية حل هذه التناقضات لمصلحتها ايضا عن طريق اساليب الهيمنة الاقتصادية على اختلاف اشكالها ، واخطرها في الوقت الحاضر الشركات المتعددة الجنسية ٠

● الرابع ، صراعات تنشأ عن **صعود قوى شوفينية ـ قومية ضيقة الافق ومتعصبة ـ الى السلطة** في بعض البلدان ، مما يجعلها تتخذ خطا سياسيا معاديا لخط السياسة الخارجية للدول الاشتراكية ، وتعمل على اثارة واستفزاز الصراعات العسكرية والسياسية المحلية ٠ والمثال الاساسي الذي ترى فيه السياسة الخارجية السوفياتية نموذجا لهذه القوى هو الصين بسياساتها الحالية ٠

● الخامس ، صراعات تنشأ عن تناقضات حادة ومتفجرة في العلاقات الدولية تتحول في المواجهة بين بعض الدول الى صدامات مسلحة ، وهي صدامات تسبقها عادة ازمات اقليمية تنشأ عن **سياسة قوى عدوانية ورجعية** ٠ والمثال عليها هو اسرائيل ، وحروبها العدوانية ٠

الصراع الاول والاخير

ومما لا شك فيه ان النوع الاول من الصراعات ـ التناقضات يحتل مكان القمة في اولويات السياسة الخارجية السوفياتية ٠ ذلك ان هذا النوع من الصراعات كان يتصل بشكل مباشر في المراحل السابقة بالحفاظ على الدول الاشتراكية الاولى ، ثم بصيانة امن مجموعة الدولة الاشتراكية ، التي ظهرت اثر الحرب العالمية الثانية وتحت تأثير انتصار الاتحاد السوفياتي ونمو نفوذه الدولي ٠ وهو يتصل بشكل مباشر ايضا في المرحلة الحالية بالحفاظ ـ على الاقل ـ على التوازن الاستراتيجي بين قوى المعسكرين ، وخاصة الاتحاد السوفياتي من ناحية ، والولايات المتحدة من ناحية اخرى ٠

وهكذا فان من ثوابت السياسة الخارجية السوفياتية اعطاء الاولوية لمشكلات الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية ٠ ولكن ضمن هذا الاطار الثابت ظهرت متغيرات في استراتيجية الاتحاد السوفياتي في تحقيق اهداف سياسته ٠ فنجد انه في اطار الحرب الباردة التي اتسمت بمجابهات حادة اتجهت الاستراتيجية السوفياتية اولا الى تثبيت وتقوية النظم الاشتراكية التي تشكل خط الدفاع الاول

عن الاتحاد السوفياتي نفسه ، عن طريق سلسلة من المعاهدات الثنائية الطويلة الاجل مع كل من هذه الدول ، مع حرص شديد على الالتزام الايديولوجي لدى هذه النظم · ثم اتجهت الاستراتيجية السوفياتية ـ في تغيير اخر ـ الى اقامة حلف جماعي كبير هو حلف وارسو ليكون الاداة الرئيسية للمواجهة ضد حلف الاطلسي ·

وخلال الفترة التي شهدت تغيرات في الاستراتيجية السوفياتية الامنية كانت تحدث تغيرات اخرى في فهم الوضع العالمي للكتلتين · فتحول الاتحاد السوفياتي عن تصوره السابق ـ المخالف للواقع ـ بأن العالم الامبريالي على وشك الانهيار تحت ضغط التناقضات الحادة التي كانت تتفاعل في كيانه او بفعل الاستنزاف الاقتصادي ، والافلاس العقائدي الذي عانى منه العالم الامبريالي في اعقاب الحرب ونتيجة لها ·

والحقيقة انه كان هناك تصور مخالف للواقع ايضا ومواكب لهذا التصور السوفياتي ، لدى المعسكر الامبريالي ، تصور بأن « الكتلة السوفياتية كانت محكومة بالحديد والنار وان ضغط الغرب عليها بالحصار الاقتصادي والاحتواء الاستراتيجي والهجوم الدعائي كان من المفترض ان ينتهي على الاقل بانهيار التحالف بين اوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي ، الامر الذي يسهل بعد ذلك استفراد الغرب به والقضاء عليه » ·

ويميل معظم المنظرين الغربيين لان يعزوا هذا التغير ـ الذي يعكسه الفرق بين ممارسات الاتحاد السوفياتي السياسية الخارجية في عهد ستالين وممارساته في عهد ما بعد ستالين ـ الى « المتغير التكنولوجي » ، وخاصة المتغير المتمثل في التطور النووي الهائل لدى الكتلتين (١) · ولكن هناك متغيرات اخرى لعبت دورها ، منها اتساع وتعمق النزاع السوفياتي ـ الصيني ، وازدياد قوة النفوذ السياسي العالمي لجبهة عدم الانحياز ، وقد كان تأثيرها ايجابيا لصالح الاتحاد السوفياتي في مرحلة، ثم اخذ هذا التأثير الايجابي ينحسر عنه في مرحلة تالية·

ومع التغيرات الايجابية والتغيرات السلبية على السواء ، وان كان رأي الاتحاد السوفياتي دائما ان التغيرات على المدى البعيد هي ايجابة لصالح الطبقة العاملة ، والشعوب المناضلة من أجل الحرية والتقدم ، فان هذه التغييرات في رأي صانعي السياسة الخارجية السوفياتية ، « **لا تعني ابدا ان التناقض بين نظامين اجتماعيين ، الاشتراكية والرأسمالية ، قد توارى · فالدول البورجوازية تبقى بورجوازية ، والاشتراكية اشتراكية · فلا يمكننا ان ننسى ان هناك دولا**

(1) Kissinger , H. , Nuclear Weapans and Foreign Policy , New York 1963 , PP. 224 — 253 .

حيث القوى النافذة فيها تريد ان يكون العالم دائما عرضة للتوتر ، وان تزداد مخصصات الحروب ، وان يستمر سباق التسلح » ٠ (١) ويتضح ان الاتحاد السوفياتي ، خاصة منذ ان اصدر برنامجه من أجل السلام الذي عرف باسم « هجوم السلام » ابان انعقاد المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي في عام ١٩٧١ ـ لا يعطي اولوية لقضية السلام فحسب ، بل انه يعتبر ان هذا « الهجوم » يتقدم بنجاح وان البرنامج يجري تطبيقه خطوة خطوة٠

واذا كانت نظرية السياسة الخارجية السوفياتية متمثلة في هذا البرنامج تعتبره برنامجا يعكس بأمانة ايديولوجية الماركسية ـ اللينينية ومبدأ الاممية البروليتارية ومبدأ التعايش السلمي ، فان النظرية نفسها تعتبر انه « **من قبيل التبسيط المخل ان نحاول ان نرى تنفيذا مباشرا لقضايا ايديولوجية في كل فعل دبلوماسي محسوس ، وان نتطلع الى مبدأ متصور تصورا مسبقا في كل قرار من قرارات السياسة الخارجية ٠ ان الايديولوجيا تحدد فقط نقطة الانطلاق العامة والاتجاه العام للسياسات الخارجية التي تنتهجها الدول والحكومات ٠ أما الطرق المحسوسة لتنفيذ السياسة فتعتمد على ظروف كثيرة** » ٠ (٢)

ان دولة اشتراكية مثل الاتحاد السوفياتي يمكن ان تخطط اقتصادها تخطيطا شاملا وتفصيليا لادق الحدود ، وفق ثوابت ومتغيرات محددة يملك العلم الاقتصادي قدرة التنبؤ بها ٠٠ ولكن السياسة ـ حتى لدى من يصوغونها علما وفق منهج علمي وفلسفة موضوعية ـ لا تزال تستعصي على التخطيط بمثل هذا المعنى الذي يعنيه التخطيط الاقتصادي ٠

---

(١)بريجنيف : المصدر السابق ، ص ٥٦١ ٠

(2) Voronov , A. op. cit.

جيروم شاهين

اتحاد اليسار الفرنسي والصراع على السلطة

الصراع السياسي على الساحة الفرنسية يحتدم اكثر فأكثر ويوما بعد يوم · فمعركة ربيع ١٩٧٨ الانتخابية على الابواب · وجبهة الاحزاب اليسارية الثلاثة تبدو وكأنها تشعر مسبقا بضمانة نجاحها في الانتخابات البرلمانية التي ستجري في ربيع ١٩٧٨ · المؤشرات التي تدعم مثل هذا الشعور عديدة · منها ما هو بعيد ومنها ما هو قريب · « فوحدة اليسار » التي تمت في ١٢ اذار ١٩٧٢ وتوصلت الى اتفاق حول « برنامج مشترك » يكون منهاجا للحكم ، كانت اول مؤشر لامكانية تنظيم جبهة قوية تستقطب حولها الجماهير وتتمكن من رسم خطة تصل بها الى سدة الحكم ، ومن ثم الى تحويل المجتمع الفرنسي الى مجتمع اشتراكي · تلا ذلك مؤشر اخر وهو عدد الاصوات التي نالها فرنسوا ميتران مرشح اليسار في انتخابات رئاسة الجمهورية في أيار ١٩٧٤ · فقد نال جيسكار ديستان في الدور الثاني ، في ١٩ ايار ١٩٧٤ ، (٨١ر٥٠٪) بينما نال ميتران (١٩ر٤٩٪) من اصوات المقترعين · أما في الدور الاول ، في ٥ أيار ١٩٧٤ ، فقد نال ميتران (٢٤ر٤٣٪) وديستان (٦٠ر٣٢٪) وتوزع سائر الاصوات عشرة مرشحين اخرين · أما المؤشر الاخير فهو انتصار جبهة اليسار في الانتخابات البلدية العامة في ربيع ١٩٧٧ حيث نالت الجبهة ٥٢ بالمئة من المقاعد ·

غير ان شعور الجبهة اليسارية بامكانية انتصارها في انتخابات ربيع ١٩٧٨ قد فجر التناقضات التي تعشش داخل وحدة صفها الظاهري · فما ان انتهى المؤتمر السنوي الاخير للحزب الاشتراكي في حزيران ١٩٧٧ في مدينة « نانت » حتى بدأت معركة داخلية ضمن صفوف الاتحاد اليساري شغلت وما

القائم · هذا الوصف اتى في سياق خطابه الطويل الذي ألقاه ابان انعقاد مؤتمر الحزب الاشتراكي العام ، لهذه السنة ، في مدينة « نانت » الفرنسية · قال : « لقد احصيت بمنتهى الدقة والامانة مجموع ما وعدت به الشعب ، منذ ثلاث سنين ، الاحزاب المسؤولة ، بما فيها وعود رئيس الجمهورية · وهكذا فان « برنامج (اليمين) المشترك » سوف يجر عجزا في الموازنة العامة يقدر بـ ٥٥ مليار فرنك فرنسي سنة ١٩٧٨ ، و١١٧ مليارا سنة ١٩٨٠ ، و ١٥٤ مليارا سنة ١٩٨١ » (··) ثم يصل ميتران الى النتيجة التالية : ان هذا الامر يؤول الى « عجز يحتم مضاعفة الضرائب على المدخول · يتدهور الاقتصاد من جراء ذلك · وتتساقط قيمة الفرنك الشرائية ويزداد التضخم المالي بمعدل ١٥٪ على الاقل · وتوضع مصداقية فرنسا موضع شك على المستوى الدولي · وتمسي فرنسا في عجز عن ان تفي بتعهداتها ضمن اطار السوق المشتركة » (١) ·

جميع هذه الظواهر تعني ان أزمة الرأسمالية تتعمق ، تجر وراءها سيلا من الالام والمصاعب والمتاعب : صرف عمال وموظفين ، افلاسات ، غلاء معيشة ، بطالة ، وبالنسبة للعدد الاكبر قلقا متزايدا ويأسا لدى صفوف الشبيبة ·

هذه الازمة التي هي ، في الوقت نفسه ، أزمة مجتمع ، وعلى الصعيد العالمي أزمة الرأسمالية ، تجد اليمين الحاكم عاجزا عن حلها او عن الحد من تفاقمها ·

ضمن هذا الاطار نجد ان ميزان القوى المتصارعة على الساحة يحمل في كفتيه : القوى اليمينية والقوى اليسارية ·

فمن جهة هناك **الجبهة التاريخية البورجوازية** : هيمنت ما بعد الحرب ، وهي اليوم تتقهقر رويدا رويدا تحت ضغوط البورجوازية الدولية الجديدة المرتبطة مباشرة بالمصالح الامبريالية الاميركية ، عبر محطاتها في اوروبا الغربية في سياق تدويل الرأسمال بطريقة ثابتة · لكن ، هذا لا يعني ان سياسة البورجوازية الدولية لم ولن تلاقي عقبات في تحقيق اهدافها (يكفي ان نذكر في هذه العقبات التناقضات الخاصة المعششة في الجمهورية الفرنسية «كالديغولية» في بعض ظواهرها لا سيما في انسحابها من « الاوتان » OTAN وفي نظرتها الى دور فرنسا والى استقلاليتها الوطنية) · غير ان مجيء بومبيدو الى الحكم ، خاصة ، ديستان ، حسن في مواقع هذه البورجوازية الدولية · فالتحالف التقليدي ، اي تحالف البورجوازية الكبرى ، والبورجوازية الوطنية والطبقات الوسطى (الفلاحون ، التجار الصغار ، الحرفيون ، الخ ··) هو في موقع اعادة نظر جدية · اعادة النظر هذه ترغمه على اعادة بناء البورجوازية على نمط حديث يراعي المعطيات الجديدة ·

فالبورجوازية الدولية المهيمنة تسعى لكسب طبقات اخرى في نمو مضطرد عدديا (التقنيون : كوادر الشركات المتعددة الجنسيات ، والموظفون الكبار المتأثرون بالتحديث على الطريقة الاميركية « Made in U. S. A. »وكذلك المثقفون

الذين وقعوا تحت تأثير الثقافة الاميركية) بينما هي ، في الوقت نفسه ، تناور لتحتفظ لها ، اكثر ما تستطيع ، بمساندة الطبقات الوسطى التقليدية ٠

ومن جهة اخرى هناك **الجبهة التاريخية الجديدة** : فالطبقة العمالية تشكل جبهة طبقية في اتحادها مع الطبقات الوسطى والطبقات الجديدة المتجهة اكثر فأكثر الى وعي بروليتاري (الموظفون والتقنيون الصغار ايضا) ٠

هنا ، يجدر الحديث ، بايجاز ، عن استراتيجية اليمين في وضع كهذا ، فالانقسامات الاجتماعية هذه تحتم توحيد استراتيجيات مختلف الاقطاب في السلطة : فاليمين يحلم بخلق « اشتراكية ـ ديمقراطية » و « على نمط فرنسي » مستوحى ، ان لم يكن مستوردا الى حد ما ، من النمط الالماني ٠ والطريق لتحقيق هذا الحلم يمر عبر تحالف الطبقات الوسطى ، وعبر قسم من الطبقة العاملة الواقعة تحت سيطرة النقابات « المتعلقة » وعبر البورجوازية ٠ مثل هذا التحالف قد يفسح المجال للحصول على اجماع او اتفاق اجتماعي ضروري لاعادة بناء النظام وترسيخه ٠ هدف هذا النظام ، كما قلنا سابقا ، هو صهر المجتمع الفرنسي في مجتمع اوروبا الغربية الرأسمالية من دون نشاز او خطر اشتراكية تأتي من الجنوب ، في مقابل بعض تنازلات معينة (اصلاحات على صعيد انظمة الطلاق ، وحق الانتخاب ، ووضع ضريبة على فائض القيمة ٠٠)٠

فلعبة اليمين ، اذن ، تقوم زمنيا على تفسيخ جبهة اليسار ، وسياسيا ، اليوم ، على تفسيخ اتحاد اليسار ٠ فهل يجد اليمين في قلب وحدة اليمين العوامل الكافية لتفسيخ وحدته ضده ؟

وزن وايديولوجية الحزبين اليساريين الكبيرين في الساحة الفرنسية

ان اتحاد اليسار الفرنسي في جبهة واحدة تضم الحزب الاشتراكي والحزب الشيوعي وحركة الراديكاليين اليساريين ، يشكل قوة كبيرة اذا حافظت على تماسكها ونجحت في رسم سياسة فعالة ، وفي الوقت نفسه ، تحالفا قد يفشل بسبب اختلاف ايديولوجية كل من اعضاء الاتحاد ٠ هذا وان المرحلة الراهنة تشهد ، من جهة ، بوادر انقسام في اليمين بالرغم من ان لحمته ووحدة صفه يبقيان الهاجسين الاكبرين عنده لمواجهة اليسار ولمنع وصوله الى الحكم في انتخابات ١٩٧٨ ، ومن جهة اخرى هناك قناعة اصبحت ثابتة وجلية لدى القوى اليسارية قوامها انه لا بد من اتحادها لكسب المعركة ، وبالتالي فلن يستطيع الحزب الاشتراكي بمفرده ، او الحزب الشيوعي ، كسب الرهان ٠

من هنا نفهم قسوة الانتقادات التي يوجهها اليمين الى اليسار ، والحملات التي يشنها ارباب الحكم القائم ليدخلوا ، ليس فقط في ذهن الشعب بل حتى في اذهان اعضاء الحزبين ، ان اتحاد اليسار مسألة يشك ـ ويجب ان يشك ـ

بجديتها ، وانها مجرد تكتيك انتخابي لا اكثر ، ويحاولون ما استطاعوا ان يبرزوا الفوارق الايديولوجية ما بين الحزبين اليساريين الفرنسيين الكبيرين ٠

وفي الواقع فان الحزب الشيوعي يختلف ، في تكوينه وقاعدته وايديولوجيته وممارسته ، عن الحزب الاشتراكي الى حد لا يستهان به ٠ فلا عجب بأن يعمل اليمين ما في وسعه لافتعال قطيعة ما بين الشيوعيين والاشتراكيين ٠

فالحزب الاشتراكي الفرنسي ، اذ يمثل تيار « الاشتراكية ـ الديمقراطية » ، وفيما هو عضو في الاممية الثانية ، يعتبر اهم الاحزاب اليسارية غير الشيوعية ٠ غير ان وضع الحزب الاشتراكي الفرنسي وضع خاص وطريف ، اذا صح التعبير ، بالنسبة « للاشتراكية ـ الديمقراطية » الاوروبية :

ـ فهو ايديولوجيا ، الاكثر ماركسية ، نسبيا ، ما بين الاحزاب الاشتراكية الاوروبية ٠ وتطوره الاخير ادى به الى اتجاه يساري اكبر ، بعكس ما ادت اليه الاحزاب الاشتراكية في المانيا وايطاليا مثلا ٠

ـ مع هذا ، فانه يبقى حزبا اصلاحيا ، او هكذا يعتبر ٠ وتعتبره هكذا ليس فقط الحركة الثورية الفرنسية ، ولكن يعتبره كذلك ايضا حليفه الحزب الشيوعي الفرنسي ٠

ـ من الثابت انه يقع على يمين الحزب الشيوعي ٠ ومنذ اكثر من اربعين عاما كانت مشكلته الرئيسية بالنسبة للنظام السياسي الفرنسي هي مشكلة تأرجحه بين تحالف مع الشيوعيين وبين استراتيجية وسطية تحمله على التحالف مع الراديكاليين اليمينيين والديمقراطيين المسيحيين ٠ غير ان الحزب الاشتراكي الفرنسي يؤكد منذ عام ١٩٦٥ انه انتقى الصيغة الاولى ، اي صيغة التحالف مع الحزب الشيوعي ٠ وقد جاءت الانتخابات البلدية الاخيرة العامة ، في شهر نيسان المنصرم ، تؤكد جدية هذا التحالف ٠ لاسيما ان هذه الانتخابات اعطت نتيجة تثبت جدوى مثل هذا التحالف في الظروف الراهنة ٠

لنذكر اهم المراحل التي مر بها النهج الاشتراكي ـ الشيوعي الفرنسي :

أ ـ منذ ١٨٠٣ وفرنسا تشهد تيارات « اشتراكية » تتصارع فيما بينها ٠ غير ان تيارين مهمين ظهرا سنة ١٩٠١ ابان المؤتمر الثالث للمنظمات الاشتراكية في مدينة « ليون » الفرنسية ٠ التيار الاول يشمل المستقلين المعادين للخط الماركسي ، بالاضافة الى عناصر جذرية ، نوعا ما ، تناضل في سبيل الطبقة العاملة وتعطي الاولوية للعمل النقابي ٠ والتيار الثاني هو ماركسي ، يعارض بالاطلاق الاشتراك مع اي حكم بورجوازي اصلاحي ٠

ب ـ واتت الاممية الثانية سنة ١٩٠٥ لتوحد هذين التيارين في حزب واحد يسمى الـ S. F. I. O. (القسم الفرنسي للدولية العمالية) ٠ او الحزب

الاشتراكي الموحد ، « حزب صراع الطبقات » ، المعارض « جذريا وبدون هوادة لمجمل الطبقة البورجوازية وللدولة التي تمثل اداة في يد هذه البورجوازية » (من البيان التأسيسي) ٠

ان ما ذكرنا يختصر تاريخ الاشتراكية الفرنسية في مراحلها اللاحقة ، في تناقضاتها ، اي : تأرجح بين خط راديكالي وخط احلامي ، انقسامات تعقبها تحالفات ، تستتبع بانقسامات ثم تعود الى اتحادات اخرى ٠ ونتيجة لهذه التأرجحات نرى القوى الاشتراكية تمر تارة في عهود تكون فيها قوية ، وطورا ، في عهود تتبعثر فيها قواها ، وتضيع مصداقيتها وفعاليتها ٠

ج ـ الانقسام الاول حصل سنة ١٩٢٠ في مؤتمر « تور » ٠ فما بين ٢٥ و ٣١ كانون الاول من هذه السنة ، عقد مؤتمر في مدينة « تور » للنظر في مسألة الانضمام الى الاممية الشيوعية التي نشأت عن ثورة ١٩١٧ ٠ هنا ينقسم الاشتراكيون ٠ فبينما تقبل الاكثرية بالشروط الـ ٢١ التي وصفها البلشفيك للانضمام الى الاممية الثالثة ، ترفض الاقلية هذه الشروط ٠ وهكذا تنشيء الاكثرية **الحزب الشيوعي الفرنسي** وتبقى صحيفتها (الاومانيته) ، ويقدر عدد المنتسبين انذاك بـ (١٣٠٫٠٠٠) وتبقى الـ S. F. I. O. بقيادة ليون بلوم ويقدر عدد المنتسبين اليها بـ (٢٠٫٠٠٠) فقط ٠

د ـ ومنذ سنة ١٩٢٠ حتى سنة ١٩٧١ حيث توحد الحزب الاشتراكي واصبح على ما هو عليه اليوم ، مرت الاشتراكية الفرنسية في هبوط وصعود ، في انشقاقات ومشاريع توحيد عديدة ٠ فعدا عن الحقبات التي كان فيها الحزب الاشتراكي مهيمنا في الحكم بفضل تحالفاته تارة مع اليسار وطورا مع اليمين ، شهد تضعضعا في صفوفه وانتكاسات عديدة ٠

هـ ـ في ١٢ اذار ١٩٧٢ تم الاتفاق بين الاحزاب اليسارية الفرنسية الثلاثة حول « برنامج مشترك » يكون هو البرنامج الذي سيطبقونه في حال وصولهم الى الحكم ٠ ويعالج هذا البرنامج باختصار كل النواحي في المجتمع الفرنسي ، ويرسم بالتالي وباختصار ايضا سياسة لكل من هذه النواحي ، على جميع الاصعدة ٠

اما اذا ألقينا نظرة كاشفة ، ولو خاطفة وخارجية ، على الحزبين الشيوعي والاشتراكي ، فانه يتضح لدينا الفرق ما بين طبيعة هذين الحزبين وندرك ، بالتالي ، ان الخلاف قد ينشأ ما بينهما في أية لحظة لاختلاف سياستهما العقلية٠

فالحزب الاشتراكي ، من حيث التنظيم ، بقي ، حتى أمد قصير ، غير منظم ، ويعود هذا ، الى حد ما ، الى خوف الفرنسيين من الوقوع في البيروقراطية ، والى نفورهم من المركزية المتحجرة ، والى تعلقهم بالاساليب الديمقراطية المرنة جدا ٠

ومنذ نشأة الحزب ، أيام الـ SFIO، لا ينفك خصوم هذا الاخير عن نعته بحزب « البورجوازية الصغيرة » · لذا فاننا نرى ان عدد المنتسبين فعليا الى الحزب لا يعكس العدد الكبير من الفرنسيين الذين يقترعون له ويساندونه· فبينما يبلغ اعضاؤه اليوم حوالي الـ (١٦٠) الف عضو يبلغ عدد اعضاء الحزب الشيوعي الفرنسي حوالي الـ (٥٠٠) الف عضو · ومعروف عن هذا الاخير انه منظم تنظيما دقيقا ، بينما الاول ، تتنازعه من جهة التيارات ، ومن جهة اخرى ، تتأرجح سياسته في معظم الاحيان ، كما يحتوي على طبقات اجتماعية مختلفة من بورجوازيين الى مثقفين الى عمال زراعيين الخ ··

في تحقيق قامت به مؤسسة « ايفوب » IFOP لمجلة « لو بوان » Le Point الفرنسية عن كوادر الحزب الاشتراكي التي اشتركت في هذا العام (وتشير الدراسة الى انه بالامكان تعميم نتائج التحقيق هذا ليس فقط على الكوادر المذكورة بل ايضا على المنتسبين الى الحزب) يتبين ما يلي (٢) :

١ ـ ان الحزب الاشتراكي الفرنسي يتألف بشكل رئيسي من الرجال وليس من النساء اللواتي يبلغن نسبة (١٥٪) فقط · بينما نسبة النساء المنتسبات للحزب الشيوعي الفرنسي سنة ١٩٧٦ تبلغ (٣١٪) ، علما بأن نسبة النساء المقترعات للحزب الاشتراكي تفوق نسبة المقترعين الرجال ·

٢ ـ نسبة الشبيبة في الحزب الاشتراكي ضئيلة (١٥٪) فقط هم دون الثلاثين بينما نسبة الذين هم دون الثلاثين في الحزب الشيوعي تبلغ (٤٨٪) ·

٣ ـ اعضاء الحزب الاشتراكي يتجددون باستمرار : (٤٤٪) منهم انتسبوا اليه منذ عام ١٩٧٢ فقط · بينما (٣٠٪) لا اكثر ، من اعضاء الحزب الشيوعي الحاليين كانوا قد انتسبوا الى هذا الاخير في السنة نفسها المشار اليها اعلاه ·

٤ ـ معظم اعضاء الحزب الاشتراكي الذين اشتركوا في مؤتمر « نانت » الاخير هم اجتماعيا من الكوادر العليا (١٩٪) وخاصة من المدرسين (٣٦٪) و (٥٪) فقط من العمال ، مقابل (٤٦٪) من العمال الذين اشتركوا في مؤتمر الحزب الشيوعي الاخير ، مع العلم أن نسبة العمال المقترعين في الحزب الاشتراكي تبلغ (٣٦٪) ·

٥ ـ معظم الكوادر الاشتراكيين ينتسبون الى النقابات (٨٤٪) · وقد تميزت الحقبة الاخيرة بدخول اعضاء كثيرين من الحزب الاشتراكي في النقابات · كما ان تصاعده في الاوساط المسيحية ملحوظ · فهناك (٤٠٪) من الاعضاء الذين اشتركوا في مؤتمر « نانت » الاخير كانوا من الكاثوليك · ونسبة الذين يصرحون بأنهم لا يدينون بمعتقد ديني تهبط ٧ درجات كل سنة ·

كل ذلك يشير الى ان منتسبي الحزب الاشتراكي يختلفون عن مقترعية ، مما يبقيه ، بالرغم من الجهود المبذولة ، حزب مقترعين اكثر منه حزب جماهير ٠

ارتكازا على ما سبق لا نعجب اذا ما رأينا ان الحزب الشيوعي الفرنسي يعرف القليل من الاتجاهات ضمنه وبالتالي من الخطوط الايديولوجية ، بينما الحزب الاشتراكي يكاد ينقسم الى تيارات عديدة واجنحة مختلفة ٠ هذا وان مثل هذه المسألة يحسن التوقف عندها والتوسع بها بعض الشيء ٠

فرنسوا ميتران الرمز

ما تجدر الاشارة اليه ، قبل الكلام عن أجنحة الحزب الاشتراكي ، هو ان شخصية فرنسوا ميتران السكرتير الاول للحزب هي التي تقف الى حد ما مانعا دون انقسامات جديدة في صفوف الحزب ٠ ففرنسوا ميتران بشخصيته القوية ، ولباقته ، وبالشهرة التي يتمتع بها لدى الكثيرين من الفرنسيين ، وخاصة ، بفضل نجاحه الكبير في كسب الاصوات في انتخابات الرئاسة عام ١٩٧٤ (حتى ولو لم يصل الى سدة الرئاسة) ، كل هذا يجعل منه رمزا يجمع حوله اتجاهات عديدة تنضوي تحت لوائه ، لكونها تعرف جيدا ان مصلحتها تتم في ابراز ميتران كربان ماهر باستطاعته ان ينقذ السفينة الفرنسية من الغرق ، لاسيما بعد فشل سياسات رؤساء الجمهورية الفرنسية الذين تعاقبوا على الحكم في السنوات الاخيرة ، وبسبب تفاقم وازدياد المشاكل الاقتصادية والاجتماعية ٠

هذا وان صعود الحزب الاشتراكي ، في تقرير الرأي العام الشعبي ، يعود لاسباب عديدة ، منها ، بدون شك ، خيبة امل الفرنسيين من حكامهم الحاليين ، وعجز هؤلاء الحكام عن حل المشاكل المتفاقمة ، وبالتالي، حاجة الفرنسي العادي الى افق تغييري يحسن اوضاعه دون ان يتخلى عن ايديولوجية ونسق حياته تخليا جذريا ٠ وهذه الرغبة بدأت تنصب على الحزب البديل لليمين الحاكم ٠ والحزب البديل سيكون بدون شك الحزب الاشتراكي لا الحزب الشيوعي ٠ وربما ان فرنسوا ميتران كزعيم يمكن ان يشكل نموذجا ناجحا ، ورمزا موحيا لمكانة الحزب البديل لليمين ٠ ذلك يعود لمكانة الحزب الاشتراكي وطبيعته ودوره ، فهو، من جهة ، يعد بالتغيير المرتجى ، ومن جهة ثانية لا يذهب بعيدا في طرح اسس ومضامين وابعاد التغيير ٠ وهكذا يحفظ للفرنسي التقليدي نوعا من الطمأنينة ٠ حتى انه يصح القول عنه ما يقول خصوم الحزب المنشقون عنه ، اي « الحزب الاشتراكي الموحد » (PSU) اذ ينعتون الحزب بأنه اصلاحي يدور في فلك « الاشتراكية ـ الديمقراطية » التقليدية التي تعد الجماهير باصلاحات جذرية وتدغدغ الاحلام بالتغيير فيما هي تبقيهم في حالة استغلال ، ولو حسنت اوضاع هذه الجماهير بعض الشيء من الجهة المادية ٠ ويشبه احد اعضاء الـ PSU صورة الحزب الاشتراكي بصورة « الاب » الذي يوحي ويؤمن الامان والطمأنينة

لاولاده · فقد كتب مارسيل كوستيل في العدد ١١٩ ـ اذار ١٩٧٧ في مجلة الـ PSU الداخلية ما يلي : « ان ظاهرة نجاح الحزب الاشتراكي تعود الى طبيعة النظام البورجوازي الذي يرتكز ، فيما يرتكز عليه ، على حاجة الشعب ضمن اطار النظام البورجوازي الى وجود « الاعيان » الذين يؤدون الخدمات الشخصية للمواطنين على مختلف الاصعدة ، ويرعون هؤلاء ويتعهدونهم كما يتعهد الاب ابنه » · ويضيف الكاتب : « هذا النمط ، نمط الاب المطمئن ، الاب الذي يوليه الناس ثقتهم وحقوقهم ليمارس عنهم مسؤولياتهم ، هو نمط النظام الثقافي البورجوازي ، حيث نجد صورة « رب العمل الطيب » ، والمسؤول القائد ، والاب الكلي القدرة في العائلة · هذا النظام الثقافي يتطابق كليا مع البنى الاقتصادية الحالية » · (٣)

من هنا ، وبعد ان نوهنا بالمركز الخاص الذي يتمتع به فرنسوا ميتران ، نصل الى التيارات ، او الاجنحة الموجودة في صفوف الحزب الاشتراكي الفرنسي حاليا ·

صراع الاقلية والاكثرية في الحزب الاشتراكي

لدى الرأي العام الفرنسي صورة مبسطة ، بشكل عام ، عن أجنحة الحزب الاشتراكي · وقوام هذه الصورة ان الحزب الاشتراكي يقسم الى قسمين او الى تيارين ، او جناحين : **الاكثرية** ويسمونهم بالميتراندیست اي تيار فرنسوا ميتران **والاقلية** بزعامة جان بيار شوفنمان وتعرف **بالسيريس** (CERES) · غير ان الواقع هو اكثر تعقيدا مما يبدو ويقال عن وجود اقلية واكثرية فقط · فالحزب، بالفعل ، يتجمع ، عند الاقتراع واثناء التصويت على المقترحات في مؤتمراته السنوية ، حول هذين التيارين ، انما هو يتضمن اتجاهات اخرى ، لاسيما في صف تيار الاكثرية ·

لا مجال هنا للدخول في التفاصيل حول خصوصيات هذه الاجنحة · نكتفي بالتنويه عنها لنؤكد على تعددية الحزب الايديولوجية · **فالاكثرية** تشكل ما بين (٧٠ و٧٥٪) من المنتسبين · وما يجمع الحزب ، في اقليته واكثريته ، هو البرنامج العام · وتقع الخلافات في اعطاء الاولوية لبنود البرنامج ، وخاصة في منهجية تطبيقها ، وبالاخص في طريقة التحليل السياسي وبالتالي في الرؤيا وفي الايديولوجية السياسة ·

فلئن كانت الاكثرية تجتمع ، في النهاية ، اي عند اخذ القرارات الهامة ، حول شخصية ميتران ، لكنها تضم اتجاهات مختلفة يمكن حصرها بأربعة · وهي تتمحور حول اشخاص ، بشكل رئيسي ، اكثر منه حول مفاهيم وطرائق تحليل · لذا سنعدد فقط هنا التيارات ، عند الاكثرية ، بذكر الاشخاص دون التوقف عند المواقف المبدئية لكل منها ·

ـ **الاتجاه الاول** : هو الذي يتصل مباشرة بميتران السكرتير الاول الحالي ·

واهم اعوانه هم ليونيل جوسبين ، وكلود استيه (الذي تميز بوقوفه مع جبهة التحرير الوطنية الجزائرية اثناء حرب التحرير الجزائرية) ، ولويس ميرماز (وهو عضو بارز في الحزب) ٠

ـ **الاتجاه الثاني** : يمثله خاصة بيار موروا (عضو بارز ايضا في الحزب) وغاستون ديفير (الذي ترشح في انتخابات رئاسة الجمهورية سنة ١٩٦٩ ولم ينل الا (١٠ر٥٪) من الاصوات) ٠٠ هذا الاتجاه يكمل اتجاه غي موليه ٠

ـ **الاتجاه الثالث** : واهم ممثليه ميشال روكار ٠ من المهم الاشارة الى ان روكار كان يشكل نموذجا في الحزب ، فهو قد كان سابقا في PSU ٠ ولا ينفك الصحافيون يسمونه « ولي العرش » (مما يغيظ ميتران) وتعطيه مؤسسات الاستقصاءات اكبر نسبة مئوية بين الاشخاص المعدين لخلافة ميتران ٠ وفي الواقع انه يتصرف وكأنه يعد باستمرار معركة انتخابية ٠ محترف في السياسة ٠ اختصاصي في الاقتصاد ٠

ـ **الاتجاه الرابع** : يمثله جان بوبرن (وقد كان هذا الاخير ، سابقا ، عضوا في الحزب الشيوعي ، ثم انتقل منه الى حزب PSU واليوم هو في الحزب الاشتراكي) ٠ يقع هذا التيار على يسار يمين الاكثرية ٠ يعتمد الاطروحات الماركسية وخاصة ما سمي **بجبهة طبقة** العمل المأجور (او جبهة العمال) ٠

ويشدد اصحاب هذا التيار ، على صيغة المفرد : جبهة « **الطبقة** » وليس جبهة الطبقات ٠

أما **الاقلية** ، اي **السيريس** ، فانه يمكن اعتباره بالجناح اليساري في الحزب الاشتراكي ، ويشكل عددا يتراوح ما بين (٢٥ر٣٠٪) من مجموعة اعضاء الحزب وعلى رأسه جان بيار شوفينمان ، ومن شخصياته البارزة دميريه موتشان ، وجورج سار ، وبيار غيروني ، وجيل مارتينيه ٠

ـ للتيار هذا تأثير كبير ، لاسيما وانه يضم مجموعة شباب مناضلين وفعالين وعددا كبيرا من المثقفين ٠

ـ قواعده متواجدة اقوى ما يكون في اتحاد باريس ولقد كان جورج سار مرشح اليسار لبلدية باريس في الانتخابات الماضية ، ضد شيراك ٠

ـ يشدد على اولوية تطبيق الادارة الذاتية ٠

ـ يدعم سياسة الاستقلال الوطني ٠

ـ يدعو بشدة الى مناهضة الامبريالية والى الانفصال عن ايديولوجية « الاشتراكية ـ الديمقراطية » ٠

ـ منظم بشكل جيد ، مما يجعل الاكثرية تتهم نزعته « الانفصالية » وسلوكه

الذي يؤدي الى خلق حزب ضمن الحزب ٠

ـ يصدر مجلة فصلية رصينة بعنوان ريبير Repérs

تكوين الاقلية (السيريس) ووزنها النسبي ، واطروحاتها سببت ازمة داخل الحزب ٠ وانفجرت الازمة في مؤتمر الحزب الاخير في منتصف حزيران المنصرم في مدينة « نانت » ٠

مطالب (السيريس) ، وهي بالوقت ذاته نقاط خلافه مع الاكثرية كانت ما يلي :

أ ـ تعتقد الاقلية انه اولا **يجب تحاشي** الامور التالية : تحاشي تأخير تطبيق البرنامج المشترك في حال وصول اليسار الى السلطة ـ تحاشي افراغ سياسة التأميم من مضمونها الحقيقي التغييري ، وذلك اذ تكتفي الاكثرية بتغيير الجهاز الاداري فقط ـ تحاشي التوقف عن احداث التغيير الاجتماعي بعد اخذ بعض التدابير الظاهرة بادىء الامر ـ تحاشي الابتعاد عن التحالف المستمر مع الشيوعيين ـ تحاشي المساومة مع الرئيس ديستان بحجة ان هناك امكانية تلاق بين الليبرالية المتقدمة والاشتراكية « الليبرالية » ـ تحاشي تقوية التعامل والتضامن مع جمهورية المانيا الفدرالية في الخضوع للشروط السياسية التي تضعها هذه الاخيرة ، عبر الحصار الاقتصادي ٠

بهذه « التحذيرات » من قبل (السيريس) يسعى هؤلاء الى وسم سياسة الاكثرية في الحزب الاشتراكي (لا سيما سياسة ميشال روكار) بسمة « النيو ـ عمالية » ، اي « العمالية الجديدة » ٠ « في الصميم ـ يقول احد اعضاء هذه الاقلية ـ لقد حللنا طويلا انطلاقا من الخبرة الشيلية (لتحاشي الوقوع فيها) ، ونكتشف اليوم ان ما يهددنا هو حل يفضي بنا الى النمط البرتغالي » ٠

وتذهب الاقلية هذه بتفصيل نقاط خلافها : من مسألة الارتباط مع الحزب الشيوعي ، الى مسألة الادارة الذاتية ، الى مسألة الاستقلال القومي ، الى مسألة التنظيم الحزبي ٠

لقد سعت الاقلية الى ان تدخل مؤتمر « نانت » بتوصيات موحدة تشكل تأليفا يكون حصيلة دمج توصيات الاكثرية وتوصيات الاقلية ٠ رفضت الاكثرية فكرة التوصيات الموحدة ٠ ويبدو ان الرفض جاء خاصة من ميتران ٠ وبالطبع اقرت توصيات الاكثرية ، ومع هذا لم تترك الاقلية الحزب بل بقيت فيه ، ولو انها خسرت المقاعد في هيئة الامانة العامة للحزب ٠

بدا للمراقبين ان النزاع كان بشكل مباشر نزاعا على السلطة داخل الحزب ٠ كما ظهرت بوضوح نية ميتران برفض المساومة ، وهي الا يرى الرأي العام فيه

فريقا بين متنازعين ، بل سيدا يفرض شخصيته ويتجنب وجود « مزعجين » حوله ، في حكومته العتيدة ٠٠٠

الصراع بين الاشتراكيين وبين الشيوعيين

غير ان ميتران ، مع هذا ، لم يبدد كل الصعاب امام تدعيم زعامته اليسارية ٠ فما ان انتهى مؤتمر « نانت » بانتصار وحدة الحزب الاشتراكي وبتثبيت دعائم زعامة ميتران حتى بدأ الشيوعيون يشنون حملاتهم ، ويعربون عن مخاوفهم من تسلط ميتران وانفراده في فرض السياسات ومن تصرفه وكأنه وصل الى سدة الحكم معرضا عن حساسيات ومطالب وآمال حلفائه ٠

وبدأ النزاع ٠ اما موضوع النزاع ولئن كان في العمق موضوع نزاع على السلطة وعلى طبيعة التحالف (تكتيك ام استراتيجية !) ، فانه اتخذ له « البرنامج المشترك » كوسيلة للتحقق من جدية التحالف ، ومن سلامة نية كل من المتحالفين ٠

« فالبرنامج المشترك » الذي وضع سنة ١٩٧٢ ، قد مر عليه زمن ليس بقصير ٠ والاحوال قد تبدلت منذ ذلك الوقت ٠ اذن يجب عصرنة وتحديث هذا البرنامج في جميع النقاط التي تتضمنه ٠ وراح الجدال يدور ، تارة ، حول هذه او تلك النقطة من البرنامج ، وطورا ، حول هذا او ذاك التصرف من قبل كل فريق ٠

وتألفت لجنة من ١٥ عضوا شكلوا من بين الاحزاب اليسارية الثلاثة لتدرس مسألة عصرنة وتحديث البرنامج المشترك ٠ واذا بنقاط الخلاف يكبر عددها لتبلغ اكثر من عشرين نقطة ٠ اهمها : اتساع عدد الشركات المنوي تأميمها ـ مسألة الدفاع الوطني والقوة النووية ـ السياسة الخارجية ومنها مسألة الشرق الاوسط ـ الحد الادنى للاجور ـ سلم الاجور ـ التربية الوطنية ٠٠٠ الخ ٠٠٠

لم يتم حتى الآن الاتفاق على جميع نقاط الخلاف ٠ فقد انسحب من قمة اليسار في ١٤ ايلول الحليف الصغير اي حركة الراديكاليين اليساريين ، وتأجل الاجتماع ، وراح البعض يتساءل عما اذا كان الاتفاق حول ما تبقى من نقاط مختلف عليها سوف يتحقق في الاسابيع القادمة ٠

في بحثنا القادم سنتطرق الى هذا الموضوع مركزين على بعض نقاط الخلاف الاكثر نموذجية عن اختلاف المواقف والمواقع السياسية والايديولوجية ٠

خلاصة

مما تقدم ، يمكننا ان نتبين الاستنتاجات التالية :

أ ـ بقدر ما ان الظروف الموضوعية في السياسة الفرنسية الحالية والسياسة العالمية تشير الى ان امكانية وصول اليساريين الى الحكم في فرنسا تصبح يوما بعد يوم مسألة جدية ، بقدر ذلك :

ـ يستشرس اليمين ليعطل التحالف اليساري ٠

ـ وتنشط الامبريالية الاميركية ، مباشرة وعبر محطاتها الاوروبية ، في افشال وصول اليسار الى الحكم ٠

ـ ويصبح تحالف القوى اليسارية ، عبر « البرنامج المشترك » مسألة رصينة يجب اعدادها بدقة لئلا تبقى النقاط الغامضة مصدر خلاف في المستقبل ٠

ـ وتكشف عملية تحديد البرنامج ـ برنامج الحكم ـ بدقة وبموضوعية وبعلمية وبواقعية قدرة كل فريق الفعلية في التسليم بالحد الذي يعتبره الحد الاقصى في عملية التحول الاشتراكي ٠

ـ واخيرا تنكشف ايديولوجية ، ونوايا ، وسياسة كل من اعضاء الحلف اليساري ٠

ب ـ ما قدمناه ، اعلاه ، من وصف وتحليل لسمات المرحلة الراهنة ، وللقوى المتصارعة على هذه الساحة ، وخاصة لطبيعة كل من المحاور اليسارية يحملنا على الاعتقاد بأنه ، اذا ما توصل اتحاد اليسار الى تحاشي انفراط صفوفه ، تبقى عقبات كبيرة امامه عليه ان يذللها ٠ اهمها امكانية تطبيق ما يكون قد اتفق عليه ، لدى وصول اليسار الى الحكم ٠ وامكانية استمرار التحالف ما بين الاقطاب اليسارية ٠

ج ـ وعلى كل حال فان توصل اليسار الى قاسم مشترك ، اي الى مبادىء اساسية واضحة لخطة حكم فان « البرنامج المشترك المستحدث » نفسه سوف يعكس طبيعة الحكم اليساري المرتجى ٠ هذه المسألة لن تتوضح نهائيا الا بعد ان تكون قد تمت صياغة « البرنامج المشترك المستحدث » ٠

نقاط الخلاف الحاصلة حتى الآن تشير الى دلالات عديدة فيما يتعلق باصلاحية ، وثورية ، وواقعية التغيير المطروح والاشتراكية المنوي اقامتها ٠ هذه الدلالات سوف نحاول اجلاء بعض معالمها في البحث القادم ، منتظرين ان تكتمل العناصر الاخرى لنجرؤ على تقديم بعض التوقعات المستقبلية ٠

١ ـ الهوامش

(١) جريدة « اللوموند » الفرنسية — Le Monde 21 Juin 1977

(٢) مجلة « لو بوان » الفرنسية — Le Point, No 249, 27 Juin 1977 PP. 34 — 35

(٣) راجع مجلة — PSU — Documentation No. 119, Mars 1977 P. 5.

٢ ـ بعض المراجع

ا ـ كتب

1) François BORELLA : Les Partis Politiques dans la France d'aujourd'hui , Seuil , 1973 .

2) Christiane HURTIG : De la S. F. I. O. au Nouveau Parti, collection : « Dossier U2 » , Aramrand colin .

3) Pascal SEVRAN : Le Guide du Socialisme , Guy AUTHIER, 1977 .

ب ـ مجلات (اعداد خاصة)

1) Regards sur :
No. 3, 1977 : Le Parti Socialiste.

2) Le Monde (Dossier et documents)
— Avril 1976 No. 30 « Le Parti Communiste Francais »
— Juin 1977 No. 42 « Le Parti Socialiste Francais » .

معين بسيسو

دفاتر فلسطينيّة ٣

الى جوار بيتنا في الرمال ، صحونا ذات يوم ، وكانت عائلة قد لجأت الى شجرة توت · كانوا جيرانا بيتهم شجرة · واقمت لهم بيتا من البطاطين · اكتفت امي بلحاف واحد لنا وقدمت كل البطاطين وبعض الطناجر والصحون ، وقسمت بيديها كل ما كنا نملك من التموين بيننا وبين تلك العائلة المهاجرة ـ عائلة ابو نحل ـ كانت عائلة ابو نحل ـ تتألف من أخوين متزوجين واولادهما ·

واصبحنا عائلة واحدة ، وقبيل انتفاضة مارس بأيام ، كان « ابو نحل » ، قد كلف بمراقبتي ، فلقد اصبح شرطيا سريا في المباحث ··؟

أريد أن أقول ، انه حينما يتحول احدهم الى شرطي مباحث او مخابرات ، فهو على استعداد ، لكي يحلب ثدي امه ، ويقدم حليبه كأس عرق ·

وكل ما توقعته أمي قد حدث ، فالشرف العسكري للمباحث والمخابرات ، قد أخذ شكله النهائي ، في منتصف ليل ٨ـ٩ مارس ١٩٥٥ ، حينما بدأت الغارة البوليسية من رفح حتى بيت حانون ، على بيوت الشيوعيين والوطنيين وحتى المستقلين في قطاع غزة ، على بيوت المسلمين الوطنيين وعلى بيوت الشيوعيين معا ، وعلى رأس القوة البوليسية التي هاجمت بيتنا في منتصف ليل ٨ـ٩ ١٩٥٥ من مارس كان امباشي المباحث : أبو نحل ·

فوجىء ابي ، بالغارة البوليسية ، فطلب من ـ آمنة ـ كانت في بيت جدي لابي ، وجاءت الى بيت أبي ، وهي التي ربتني وربت اخوتي ، وكانت من جباليا ·

طلب أبي منها ان تقدم القهوة (لابو نحل ـ ابو قنيبة) ، وبقية أفراد عائلتهما من شرطة المباحث · ولا أزال أذكر « آمنة » وفوق يدها صينية القهوة وهي تدخل الى حجرتي وقد احتلتها شرطة المباحث وكان معي اخوتي : س·ب ، ص·ب ، أ·ب · وجاءت أمي وضربت الصينية بيدها ، فتطايرت الفناجين فوق رؤوس شرطة المباحث وهي تصرخ :

ـ لن اقدم القهوة في بيتي للذين جاؤوا لكي يعتقلوا اولادي ، ونظرت امي الى « ابو نحل » ، شرطي المباحث ، الذي كان يريد ان يختبيء من عينيها وراء اي شيء وصاحت :

ـ جئت تعتقل « معين » ··· لماذا ؟؟ لقد كان يدافع عن اطفالك ··· لم يبق الا ان يسلخ جلده ويقدمه لك لحافا ·

كنت انظر الى « ابو نحل » ، ولكنه كان يريد ان يخبيء عينيه ، فنظر الى قدميه دون ان يدري · دائما المباحث ، ينظرون الى اقدامهم الكبيرة ، الاقدام التي كبرت من فرط متابعة وملاحقة الايدي التي تكتب ·

□

أنا وأخوتي الثلاث ، طلبوا منا ، الذهاب الى مركز البوليس ، لكي نجيب على بعض الاسئلة ونعود ··؟ كنت اعرف : انه تم الاعتقال ، ولكن لم أكن أصدق ، انهم سوف يقومون باعتقال اسرة بأكملها · أن يعتقلوا اربعة ابناء لاب وأم ـ ولكنهم اعتقلونا جميعا ·

جندي سوداني كان يقود عربة الجيب العسكرية ، حينما صعدت وقلت له ، ولا ادري لماذا :

ـ نحن اربعة اخوة ·

كان يعرف ، ولا ادري كيف · فقط وضع وجهه بين كفيه ثم مضى وهو يكتم شيئا في عينيه ·

□

في اسطبل الخيول ، أيام الانتداب البريطاني ، الذي حولته المخابرات الى زنازين ، وحجرات تعذيب في سرايا الحاكم الاداري العام لقطاع غزة ، القوا بي وبأخوتي الثلاثة في وسط طابور من المعتقلين ·

اولا جاء مصطفى حافظ مدير المخابرات ليتفرج علينا وراء القضبان ،وبعده

جاء سعد حمزة مدير المباحث وبعدهما جاء آخرون ... كانوا يريدون ان يتفرجوا على اولئك الفلسطينيين الذين كانت لهم جمهوريتهم الفلسطينية ولمدة سبعة ايام ...؟

□

ـ أربعة اولاد من عائلة واحدة ...؟

ـ لنترك واحدا منهم ... ولنعتقل الثلاثة ...

لم يستخدموا القرعة ، ولكنهم قبيل الفجر اطلقوا سراح اخي : ص٠ب ٠ ولم يكن يريد أن يخرج ويتركنا ... ولكنهم جروه الى الخارج فمضى وهو يجهش ٠

□

في لوريات مغطاة تماما ، والحرس كانوا من الجنود السودانيين ٠ مضينا من سجن غزة المركزي الى محطة العريش ٠

« محمد يوسف النجار » كان في عربة لوري ، « فتحي البلعاوي » كان في عربة ثانية ، وفي عربة ثالثة كنت مع بعض الرفاق من المدرسين والطلاب والعمال الزراعيين ٠

□

ـ الجماهير ... الجماهير ...؟

الرفيق (ح٠أ٠ش) ٠ كان يطل برأسه من تحت غطاء اللوري ... وما اكثر ما كان ، يتصور ان أعمدة الكهرباء والتلفون هي مجموعات من الناس ...

وكان يهتف :

ـ عاش كفاح الشعب الفلسطيني ٠

وكنا نهتف معه ، حتى وصلنا محطة العريش ٠

كان الرفيق (ح٠أ٠ش) يحسدني ، لان معي اخوتي : س٠ب : أ٠ب ٠ وكان يدمدم :

ـ لو كان اخي شعبان معي ، لتعلم خبرة كفاحية ...؟

□

ووصلنا محطة العريش ، وطيلة الطريق كان الجنود السودانيون يشعلون السجائر ويقدمونها لنا ، كان هناك قطار في انتظارنا ، وفي عربة نقل خيول ... دفعونا والكلبشات في ايدينا ...

ومضى القطار بنا ...

ومن صرير عجلات القطار فوق السكة الحديد ... من خشخشات الكلبشات في ايدينا ، من الليل الذي كان يسقط حولنا ، كأنه الحجارة ... رحت اصيح:

هناك ... هناك ... بعيدا بعيد ...
سيحملني يا رفيقي ... الجنود ...

□

المعتقلون في عربة اللوري ، راحوا يرددون ورائي مقطعا .. بعد مقطع ، اول نشيد كتبته والكلبشات في يدي .

ويمضي الصوت :

سيلقون بي في الظلام الرهيب
سيلقون بي في جحيم القيود
لقد فتشوا غرفتي يا اخي ..
فما وجدوا غير بعض الكتب ..
وأكوام عظم همو ... اخوتي ..
يئنون ما بين ام ... وأب ..
لقد ايقظوهم ... بركلاتهم ..
لقد اشعلوا في العيون الغضب ..

□

أنا الآ بين جنود الطغاة .. ،
أنا الان أسحب للمعتقل ..،
وما زال وجه أبي ماثلا ..
أمامي ... يسلحني بالامل ..
وأمي ... وأمي ... أنين طويل ..
ومن حولها اخوتي يصرخون ..
ومن حولهم .. بعض جيراننا ..

وكل لـــه ٠٠ ولـد في السجـــون ٠٠
ولكنني رغـــــم بطش الجنـــود ٠٠
رفعـت يـــدا أثقلتهـا القيـــود ٠٠
وصحت بهـــم : اننـي عائـــــد ٠٠
بجيش الرفـاق ٠٠٠ بجيش الرعود ٠٠

□

هناك أرى عامـلا فـــي الطريـــق ٠٠
ارى قائـــــد الثـــورة المنتصر ٠٠
يلوح لـي بيـــد مـــــن حديـــد ٠٠
وأخـــرى تطايـــر منهـــا الشرر ٠٠

□

انا الآن بيـــن مئـــات الرفـــاق ٠٠
أشـد لقبضاتهـــم ٠٠٠ قبضتي ٠٠
أنـــا الآن أشعـر أنـي قـــــوي ٠٠
وأنـــي سأهـــزم ٠٠٠ زنزانتـــي ٠٠

□

نعم لن نمـوت ، نعـــم سوف نحيا ٠٠
ولو أكـل القيـد مـــــن عظمنـــا ٠٠
ولـو مزقتنـــا سيـــاط الطغـاة ٠٠
ولو اشعلوا النـــار في جسمنـــا ٠٠
نعـم لـــن نمـــوت ، ولكننـــــا ٠٠
سنقتلع المـــوت مـــن ارضنـــا ٠٠

□

(أحس بالفرح الان وقد عرفت ان هذه القصيدة التي كتبتها في فجر ٩ ـ مارس ١٩٥٥ في لوري عسكري ، والكلبشات في يـــدي ، هي الان نشيـد الزنازين في سجون الارض المحتلة ٠)

□

ووصلنا محطة مصر ٠

كانت محطة مغلقة ، ولم يكن يرى على الارصفة غير الشرطة ٠

ومن محطة سكة حديد القاهرة ، تم شحننا في لوريات مغطاة الى مكان عرفنا فيما بعد أنه سجن مصر العمومي ٠

أمام البوابة الخشبية لسجن مصر العمومي توقفت العربـــات العسكرية ، وبدأنا ننزل الواحد بعد الآخر ٠ اوقفونا في طابور ٠ ثم صدر الامر الينا بالعبور من خلال تلك النافذة الخشبية ٠

كان ورائي الرفيق (ح٠أ٠ش) ووراء البوابة الخشبية ، كان صفان مـــن بوليس السجن في استقبالنا بالعصي ٠

وحينما انهالت العصي فوق رأسي ، صاح الرفيق (ح٠أ٠ش) محتجا :

ـ انه الرفيق القائد ٠

وعرفوا أنني الكبش ، رأس هذا الطابور من المعتقلين الفلسطينيين ٠

وأغمي علي من هول الضرب وصحوت ، فاذا برأسي بين يدي ، ممنـــوع عليك ان تلتفت الى اليمين او الى اليسار ٠ الى الامام او الى الخلف ٠

كان على الرأس الفلسطيني ان يدخل ثقب الابرة ٠

ودخل الرأس الفلسطيني الى ثقب الابرة ٠

تحس كأن محراثا يدور في رأسك ٠ ماكينة الحلاقة تدور ٠ ويسقط شعرك هذا الصوف الفلسطيني المطلوب دائما ٠

سبعة سبعة كنا نمضي محلوقي الرؤوس ، بثياب السجن الى الزنزانة التي أعدوها لنا ٠ وفي حجرة طولها متران ، وعرضها ثلاثة امتار ، دفعوا سبعـــة معتقلين كنت بينهم الى زنزانة في العنبر الاول في سجن مصر العمومي ٠

فوق اسفلت الزنزانة تكومنا ، رأس كل واحد منا فوق رأس الآخر ٠

كنت أريد أن أنام ٠

سبعة ايام وأنت تريد ان تعلن ان الليل ليس هو العدو ٠

الآن كل الذي تطلبه ، ساعة نوم واحدة ٠ لقد اقفلوا باب السجن ٠ وفـــي الخامسة صباحا سيعودون ٠ في ذلك اليوم تماما من صباح العاشر من مارس ١٩٥٥ ، تجمع الطلاب في ساحة مدرسة جباليا الاعدادية ورفضوا ان يذهبـــوا

الى حجرات الدراسة :

لا تعليم بدون معين ٠

ثلاثة ايام تمر والطلاب في مدرسة جباليا الاعدادية يتظاهرون ٠ كانـــوا ككرسي يقاتل طاحونة ، كعصفور يقاتل ضد الف حائط ، كأطفال يحتفلون بعيد ميلادهم الجماعي تحت عامود من الكهرباء ٠

□

بعد الفجر بقليل ، أيقظني جاويش العنبر (حسن المشرف) وهو يصيح :
ـ استيقظوا أيها الجواسيس ٠

قالوا للسجانين اننا مجموعة من الجواسيس المحكوم عليهم بالاعدام ، ولهذا ضربنا كما لم يضرب سجين من قبل في سجن مصر العمومي ٠ فما دمنـــا سنموت فقضية التعذيب تصبح سؤالا خاصا لمترين من التراب ويرتفع الصوت:

ـ عاش كفاح الشعب الفلسطيني ٠

كان هو الصوت الصعب ، وكان الجواب عليه :

ـ اضرب فوق الظهر الفلسطيني الحنين ٠

وكان صوت اللواء ـ اسماعيل همت ـ ٠

الدفتر الخامس

اسماعيل شموط كان يحمل صينية الكعك ودفاتره المدرسية ويمضي يبيع السكر لاطفال اللاجئين في مخيم خان يونس · فلسطيني يبيع السكر · فلسطيني في أيام البحر الميت يبيع السكر للبحر الابيض المتوسط ·

في اكاديمية روما للفنون الجميلة كان اسماعيل شموط يرسم نار الشتاء الفلسطيني للشجر القادم من أضلاع ـ سبارتاكوس ـ ·

آه ···

يد معتقل فلسطيني في الزنزانة تصطدم بظهر رفيقه المسلوخ ·

لماذا يسقط ـ هوارد فاست ـ ويكتب ـ الهي العاري ـ ؟

في مسجد « الست رقية » في الشجاعية كنت أقفز فوق ظهور المصلين · امام المسجد كان يقول :

ـ هاتوه لانفخ في اذنه أو فمه وبعد ذلك لن يقفز فوق ظهور المصلين ·

لعاب كل الآلهة كان في فمي · دائما كنت أظن أن أذني شجرة تين ، وفميّ دالية ورفضت ·

تحس أنك تسقط الى قاع بئر · الفلسطيني يقتل وهو نائم · ولكن الحلم كان دائما يقول للفلسطيني :

ـ سوف تصحو ·

يد محمد يوسف النجار التي لم يكن يستطيع استخدامها كانوا يضربونه فوق أصابعها ٠

كمناقير الطيور تدخل في حواصلها ، كانت أصابع يد محمد يوسف النجار تدخل في حواصلنا جميعا ٠ كنت أمضي مع عبد الرحمن الشرقاوي لنراقب مجلة الكاتب ــ صوت حركة انصار السلام المصرية ــ في اعقاب ثورة ٢٣ تموز ٠ كان الرقيب العام اسمه : انور السادات ٠ وكنا نخرج ومجلة الكاتب منديلا من الكرتون الابيض فوقه بقع من الحبر ٠ المساحات البيضاء في الجرائد اغنية قديمة ٠

تسقط أكثر في البئر ٠ ترتطم بسطح الماء ٠ تصحو ٠

ماذا قد فعلوا بالوجه الفلسطيني ؟ لقد حلقوا شعر الرأس وحلقوا الحاجبين٠ وعريان أمام رفاقك كانوا يحلقون ذلك العشب الآخر ٠

ماكينة الحلاقة التي دارت في الرأس الفلسطيني ، كانت تدور كالمحراث في الارض الفلسطينية المحتلة ٠ لم أكد أعرف أولئك المكومين معي في الزنزانة ، ولكن حينما استيقظنا في السادسة صباحا على مفتاح وكرباج السجان ، عرفنا أننا لا يمكن أن نكون غير فلسطينيين ٠

فلسطيني يصحو ويوقظ كل الفلسطينيين في الزنزانة ٠

□

العنبر يضم الشيوعيين المصريين والاخوان المسلمين ٠ أسكنوا المعتقلين الشيوعيين الدور الثاني ٠ الاخوان المسلمون سكنوا في الدور الثالث والرابع ، ربما ليكونوا أقرب الى الله ٠ أما نحن المعتقلين الفلسطينيين فلقد سكنا في الدور الارضي لنكون أقرب الى الكرابيج ٠

من خلال الرفاق المصريين عرفت ــ رابطة الطلاب الفلسطينيين في مصر ــ بوجودنا في سجن مصر العمومي ٠ وهكذا وصلت الاخبار الى عائلات المعتقلين في قطاع غزة ٠ حيث لم يكن أحد يعرف اسم السجن الذي أسكنونا فيه ٠

امتنعت شرطة المباحث والمخابرات تماما عن تزويد عائلاتنا بأية معلومات عنا ٠

سقطت هراوة على فم أحد المعتقلين فتحطمت أسنانه ٠

يبتسم ضابط العنبر ويصيح :

ــ وما حاجتك الى أسنانك ، أنت ذاهب للموت ٠

اللواء اسماعيل همت قبل وصولنا الى السجن جمع الضباط والسجانين وقال

لهم : انهم طابور من الجواسيس سوف ينفذ فيهم حكم الاعدام ٠

بالكرابيج المجدولة من أسلاك التليفون كانوا يضربوننا ٠ الفلسطيني الذي بلا تليفون ، يضربونه بأسلاك التليفونات ٠

منعوا عنا كل شيء : الاتصال بالمعتقلين الآخرين ، كتابة الرسائل والفسحة اليومية في ساحة السجن وهي عبارة عن نصف ساعة مشي في الصباح ، ونصف ساعة اخرى عند العصر ٠ من خلال خروج طوابير الشيوعيين والاخوان المسلمين للفسحة ، كانوا يلقون لنا بعلب السجائر ويلوحون بأيديهم مشجعين ٠ ان تلوح لك يد في هذا الجحيم ، كمن يهز نخلة بين يديك ٠

سيد قطب يتوقف أمام باب زنزانتي ٠ طلبت منه أن يرسل لنا بعض السجائر فكان جوابه :

ـ اقرأوا القرآن ٠

كانت القراءة ممنوعة علينا ، لم يكن مسموحا للفلسطيني غير تدخين أصابعه ٠ ولكن فتحي البلعاوي كان لا يدخن وكان يرسل السجائر التي تصله لي ولمحمد يوسف النجار ٠

شكلنا لجنة لقيادة النضال اليومي في السجن وكانت مؤلفة مني ومن فتحي البلعاوي ٠ في كل زنزانة كان هناك مسؤول حزبي على الرفاق ، الكرباج كالثعبان اذا لم تقاومه ابتلعك ٠

وأخذنا قرار المقاومة ٠

الجاويش حسن المشرف يفتح باب الزنزانة وهو يصرخ :

ـ الى دورة المياه ايها الجواسيس ٠ ورفضنا مغادرة الزنزانة وارتفع صوت أحد الرفاق :

ـ عاش كفاح الشعب الفلسطيني ٠

فوجيء السجان بالهتاف ٠ بعض الرفاق راحوا يدقون بأغطية جرادل البول على جدران الزنازين ٠ استمر « كفاح الشعب الفلسطيني » في الدور الارضي خمس دقائق ٠بعدها اقتحمت مجموعات من بوليس السجن بالكرابيج والهراوات العنبر ٠ بدأوا يخرجوننا زنزانة بعد أخرى والعصي تنهال فوق رؤوسنا وصدورنا وأكتافنا ٠ كل زنزانة كان يطلب منها الركض بأقصى سرعة ووراءها كان يركض بعض السجانين وهم يلاحقون المعتقلين بهراواتهم ٠ تم تجميعنا في ساحة التأديب ، وهي ساحة ضيقة توجد فيها بعض الزنازين الانفرادية حيث يلقون فيها بالمعتقلين المشاغبين ٠

ـ العروسة ـ كانت منتصبة أمامنا · والعروسة ـ هيكل من الخشب يشبه المرأة ـ المرأة الخشبية بالنسبة الى اللواء السجان اسماعيل همت ـ امرأة من الخشب لها ذراعان مفتوحتان دائما ـ توجد في كل منهما فتحة لكي يدخل فيها السجين يده · أما الرأس فمقور يكفي لكي تدخل رأسك فيه · كان على كل واحد منا أن يتزوج هذه العروس من الخشب بعد أن يخلع قميصه ·

تتقدم من العروس · يدخل السجان ذراعيك في فتحة ذراعيها ، ويدخل رأسك في رأسها ·

يتقهقر السجان الى الوراء وبيده كرباجه الطويل ويقف في حالة استعداد · اسماعيل همت كان يشرف على عملية الزواج ·

كان ضبعا بعينين عسليتين ·

ـ اضرب على الظهر الفلسطيني الحنين ·

وتلفك حبال الكرباج · الجلدة الاولى تحس أنها قد اقتلعت ضلعا · كأنك قد ضربت بسيخ من النار · وتتوالى الكرابيج ، عند الكرباج العاشر تحس أنك سقطت فيبركة من النمل · كان معنا بعض الطلاب الذين لم يتجاوزوا السابعة عشرة من عمرهم جلدوا حتى الكرباج العشرين ·

كشجرة مضروبة بفأس في ظهرها يخرجك السجان من العروسة ويرغمك على ارتداء قميص السجن وظهرك مسلوخ · لقد تمت حراثة الظهر الفلسطيني ·

كل ثلاثة وعشرين معتقلا أسكنوهم في زنزانة واحدة هي معدة أصلا لسجين واحد · كنا نتبادل الوقوف في الزنزانة ·

وأنت واقف تحاول أن تتذكر شيئا ما يعاونك على الوقوف · تدخل شجرة الجميز ـ الشجرة الفلاحة ـ التي تحبل وتلد أكثر من مرة في العام · كنا نتسلقها والحبات من (البلمي) التي لم نكن نستطع الوصول اليها ، كنا نهز الفرع فيساقط ثمر الشجرة الفلاحة ·

أحد المدرسين المعتقلين يرفع صوته :

وانـي لمشتاق الـــى أرض غـزة وان خانني بعـد التفرق كتمانـي

سقى الله ارضا لو ظفرت بتربهـا كحلت به من شدة الشوق اجفاني

كتب عن غزة ذات يوم الامام الشافعي ·

ولكن غزة بعيدة كشجرة الجميز ·

في صباح اليوم التالي التصقت القمصان بظهورنا ، فكان انتزاعها يشبه

عملية سلخ الجلد· كانت مشكلة الاعتناء بظهورنا هي قضية الطبيبين الشيوعيين المعتقلين : د· يوسف ادريس ، د· حمزة بسيوني · أعادونا الى الزنازين · كنا كمن أفرج عنه · السجان الجاويش حسن المشرف انكسرت عينه كالبيضة فوق بلاط السجن بعد عملية العروس الخشبية · حينما يكون وحيدا ولا أحد من السجانين يراقبه كان يتمتم لنا :

ـ كنتم أشجع من رأيته يتزوج تلك العروسة الخشبية ·

بعد شهر وصلتنا الطرود من غزة ومع كل طرد رسالة من أم او اب او زوجة· سجائر وأسبرين وملابس داخلية وشباشب وبيجامات وصابون ·

بعد ارتداء البيجامات أصبحنا شيئا مختلفا تماما · منعوا عنا البنطلونات والقمصان ·

أحد الرفاق حينما ارتدى بيجامته قال :

ـ سوف يطول نومنا في سجن مصر العمومي · واضفت :

ـ والزنزانة هي حجرة نوم الفلسطيني ·

□

المعتقلون الذين ينسون أعياد ميلادهم في الخارج يتذكرونها دائما في السجن· دائما يحاول السجين ان يفرح · وعيد الميلاد بالنسبة الى المعتقل او السجين هو فرح زنزانته · فالزنزانة تقدم له علبة كاملة من السجائر · والزنازين الاخرى تقدم هدايا : السكر والشاي ·

وهكذا احتفلنا في سجن مصر العمومي بعيد ميلاد الدكتور يوسف ادريس · كان في الدور الثاني ودعاني لحضور عيد ميلاده · وحملت هدية زنزانتي اليه : كانت علبة كاملة من السجائر تحتوي على عشرين عذراء تحلم كل واحدة بعود من الكبريت ·

عذراء بعد عذراء راح يوسف ادريس يدخن ·

نحن دخنا الكرابيج وهو يدخن العذارى ·

في أيام فيضان النيل ينتظر الصيادون في غزة على الشاطىء لكي يروا ذلك النهر من الطين الذي يشق البحر وهو يحمل سمك البوري لهم ·

مصر التي تحمل السمك للفلسطيني في غزة ، اصبحت تحمل الكرابيج له في سجن مصر العمومي ·

□

بدأت رسائل غزة والمخيمات تصل الينا كل خمسة عشر يوما · سمحت المباحث والمخابرات بكتابة الرسائل · كل مخيم كان يسلم علينا جميعا وكل رسالة كانت تختم دائما :

ـ وكل المخيم يسلم عليكم كبيره وصغيره ·

بدأوا يرحلون الاخوان المسلمين · في ذات يوم ذهب سيد قطب ولم يعد · وقبل أن يذهب مد يده وأعطاني علبة سجائر · ذهب سيد قطب ، ذهب الى حبل المشنقة ·

□

في زنزانة كان أحد المعتقلين يحكي لزنزانته قصة (مارتن ايدن) للكاتب الاميركي جاك لندن · وفي زنزانة أخرى يروي مدرس اخر لزنزانته قصة نسر ديستويفسكي في رواية « يوميات بيت الموتى » ·

مسجونون يعثرون على نسر مكسور الجناح ، يعودون به للسجن · يطعمونه لقم اللحم التي هي كل ما يملكون · النسر ظهره الى جدار العنبر ومنقاره في سقف الزنزانة · يرفض أن يلتقط بمنقاره لقم اللحم · بعد ان أشتد الهزال على النسر يخرجه المسجونون من العنبر · خارج بوابة السجن يطلقونه · يظل النسر يركض ويركض دون ان يلتفت الى الوراء حتى يختفي ·

ولكنك واضح تماما أمام السجانين · في زنزانة ثالثة ، كان الرفاق يحررون في الهواء الجريدة اليومية للحزب ·

حينما تختفي معجزة اليد تظهر معجزة الفم ·

انقطع اتصالنا بالحزب في تلك الفترة ، فبعد اعتقالنا اشتدت الرقابة البوليسية الى درجة مراقبة الذين يشترون الكتب والمجلات من مكتبات غزة ·

من يشتري جريدة · يذهب اسمه الى اومباشي المباحث · من يشتري كتابا يذهب اسمه الى الجاويش ، من يكتب رسالة يذهب اسمه الى ضابط المباحث ، أما من يؤلف كتابا ، فان اسمه يذهب الى الحاكم الاداري العام ·

□

ـ في سجن القناطر الخيرية سوف تعاملون معاملة أفضل ؟

وخرجنا من فتحة بوابة سجن مصر العمومي واحدا بعد الآخر كما دخلنا ،

والكلبشات في أيدينا الى اللوريات المغطاة التي قامت بنقلنا الى سجن القناطر الخيرية ٠

من سجن الى سجن بلا تأشيرة مرور ولا شهادة صحية دولية ٠

□

حينما وصلنا سجن القناطر الخيرية ٠ كل الشيوعيين المصريين كانوا في استقبالنا ٠ ومن الدور الثالث والرابع انطلق صوتهم :

ـ عاش كفاح الشعب الفلسطيني ٠

اسكنونا في الدور الثاني ٠

لقد تقدم الفلسطيني درجات سلم الى الامام من الدور الارضي الى الدور الثاني ٠

منذ الرسالة الاولى على ورقة سجائر ، أرسلها بواسطة حبل (فخري مكي) رحت أشم رائحة ذلك الضبع ٠ منذ ١٩٤٨ كنا نناضل من أجل وحدة الحركة الشيوعية المصرية ٠ وفرحنا لاعلان الحزب الشيوعي المصري الموحد ٠ وكان علي ان ابتلع كل الحجارة التي يرسلها فخري مكي عبر رسائله بالشيفرة والتي كان يترجمها لي الرفيق (س٠ب٠) وأقول :

ـ يذبحون ألف دجاجة ويجمعون ريشها ولكنهم لن يستطيعوا أبدا ان يزوروا ويصنعوا ديكا يصيح ٠ فوجئت في دورة المياه حينما طلب مني الرفيق سعد بطرس عضو المنظمة الشيوعية المصرية أن أحدد موقفي فاما أكون معه او أكون مع مئات الشيوعيين المصريين ، كان يعتقد انهم جميعا من البوليس ٠ وبالطبع اتخذت قراري مع الشيوعيين المصريين ٠

□

الان صرنا نصنع الشاي بأيدينا ٠ كل زنزانة تخفي قروانة ٠ وبواسطة علبة بندورة او علبة سردين أو علبة لحم يتم ثقبها بالمسمار ، كنا نبل قطعة من القماش بالمازوت ٠ تشتعل الخرقة في العلبة المثقوبة وتبدأ رائحة الشاي تعبق٠ هذا البوتاغاز اسمه : التوتو ٠

□

الرفاق المصريون يستضيفوننا في زنازينهم · كنا نحتـال على السجانين · فالذي يهم السجان قبل اغلاق الزنزانة هو عدد المعتقلين في كل زنزانة · ومكان المعتقل الفلسطيني الغائب في زنزانة اخرى كان يحل محله أحد الرفاق المصريين·

في كل وثائق الحزب الشيوعي المصري كان دورنا كشيوعيين فلسطينيين في قطاع غزة من أجل وحدة المنظمات الشيوعية المصرية تحتل مكانها البارز · كنا نهز ساعد العامل المصري فتساقط الكتب ·

□

بدأ الهواء القادم من الزنبق في شاطىء غزة · من الزنبق ومن ريش طائر الفري ، من شجر السدر ومن شجر الخروب · من السمك الذي يلعب فـوق الرمل لعبة اليمامة التي تختفي في فم طفل · بدأ الهواء القادم من غزة يحمل لنا أخبارا طيبة ·

الحزب يقف على قدميه الان ويمد ذراعيه الى أبعد مصباح في مركب صياد يصطاد السردين في منتصف الليل · وكذلك كان الهواء القادم من شوارع مصر · الهواء القادم من المصانع ومن الارض · كان يحمل أخبار انتصارات جديدة · في سجن القنأطر الخيرية احتفل الرفاق المصريون باعلان جمال عبد الناصر كسر سلسلة احتكار السلاح · فم القاهرة على ذراع براغ · شامـة القاهرة على خد موسكو · في سجن القناطر يرفع جمال عبد الناصر يده ويعلن تأميم قناة السويس ·

اولئك الذين هتفوا بحياة الشعب الفلسطيني لمدة خمس دقائق في الزنازين وجلدوا عشرين جلدة ، يهتفون الان بحياة الشعب المصري وفي الزنازيـــن ايضا ·

كان عرسا في كل زنزانة · فالمعتقل لا يتزوج عروسا من الخشب الان ولكنه يتزوج امرأة اسمها : نهر النيل · الزنازين في تلك الليلة كانت تقدم الشاي والسجائر للسجانين الذين لم يفهموا أول الامر كيف يهتف معتقل بحياة سجانه وهو داخل الزنزانة ·

□

في الليل حيث لا قلم ولا ورقة يحاول المعتقل أن يكتب شيئا ما بأصابعه في الهواء · النجمة فوق البحر تتزوج بحارا ولكنها فوق السجن تحب معتقلا ·

كنا ننام ونحن نحلم بمحطة السكة الحديدية في غزة · كنا نحتضن صفارة

القطار ، نحتضن عجلاته بين اذرعنا ، نضع الفحم تحت رأسنا ، وتحس أن موسيقى أبعد نجمة تصل اليك :

يا سهير

انا في المنفى اغني للقطار

واغني للمحطة

اي هزه

حينما تومض في عيني غزه

صلاح خلف ـ ابو اياد ـ يزورني في سجن القناطر الخيرية · بواسطته تم تهريب قصيدتين مُكتوبتين على ورق السجائر ورسالة سياسية هامة · كـــل فلسطيني في تلك الايام كان يريد ان يتحول الى ساعي بريد لفلسطيني آخر · الفلسطينيون يحبون طوابع البريد ويحبون كتابة الرسائل ·

□

الرفاق المصريون تصل لهم القصائد والرسائل المهربة · ينسخونها ويهربونها للخارج ·

في يناير ١٩٥٧ ، كانت المفاجأة الكبرى · دخل أحد الرفاق المصريين الى الزنزانة وهو يلوح بكتاب في يده ، وكان ديوان شعر يتضمن القصائد التـــي كتبتها في الزنزانة بالاشتراك مع شعراء مصريين : زكي مراد ، محمد خليل قاسم ، محمود توفيق ، كمال عبد الحليم ·

صدر الديوان بعنوان (قصائد مصرية) رسمه المصور المناضل (زهدي) واصدرته (دار الفكر) وكان الاهداء :

« الى بطل التحرر الوطني جمال عبد الناصر » ·

كان هو الديوان الثاني الذي أرى فيه قصائدي مطبوعة ، ولكن هذه المرة يلقي الديوان بمراسيه كسفينة في الزنزانة ·

في ذلك الوقت أتم صلاح جاهين كتابة ديوان (كلمة سلام) ، قصيدة في الديوان كتبها عني وعن تظاهرات مارس ١٩٥٥ :

ـ يا معين يا صوت الضحايا

ارعد بصوتك معايـــا

ارهب عـــدوي وعـــدوك

حننتصر فـــي النهايـــه

حينما مضى صلاح جاهين الى الرقابة ، طلبوا منه حذف القصيدة ، ورفض صلاح جاهين وخرج الديوان يحمل القصيدة ٠

□

خرج (فخري مكي) من السجن بعد أن انهى مدة الحكم عليه ، قبيل العدوان الثلاثي ٠

بعد تأميم قناة السويس ، وصفقة الاسلحة التشيكية ، ووقفة جمال عبد الناصر في وجـه حلف بغداد ، تم العـدوان الثلاثـي على قطـاع غـــزة وبورسعيد ونحن في السجن ٠

كان جمال عبد الناصر قد أصدر قراره باطلاق سراح الشيوعيين المصريين٠ أما نحن فالى أين نمضي بعد احتلال القطاع ٠٠٠ ؟

ونقلونا الى عنبر اخر في سجن القناطر ٠ كنا كمن يفرج عنه داخل السجن ٠ في ذلك الوقت جاء مندوب عن المخابرات المصرية ليبلغنا قرار الموافقة علـى الافراج عنا الى أي بلد نريده ، وكنا نعرف لعبة المخابرات وقد اتضحت هذه اللعبة فيما بعد ، فحتى حينما حملت الجماهير في قطاع غزة سيارة الفريق (محمد حسن عبد اللطيف) وادخلته غزة ، بعد ان حطمت بيدها مؤامرة التدويل ، جاء مندوب من المخابرات ليبلغنا أن لا نفكر بالعودة الى قطاع غزة ، وعلينا أن نختار اي بلد للرحيل اليه ٠

هؤلاء الذئاب لم يتعلموا شيئا ولن يتعلموا ابدا ٠ وأعلنا الاضراب عـن الطعام واستمر الاضراب سبعة ايام حتى جاء مندوب من ادارة الحاكم الاداري العام لمقابلتنا وطلب منا فك الاضراب على أساس الافراج عنا على دفعـــات واعادتنا جميعا الى قطاع غزة ٠

نديم نحوي ــ مسؤول الطلبة الشيوعيين الاردنيين في القاهرة في ذلـــك الوقت ، رفض تقديم حتى الدواء لنا :

ــ ولماذا تضربون عن الطعام ٠٠؟

كان قد أنهى اقامته في القاهرة وقرر العودة الى الاردن ٠ وحينما طلبت منه عندما زارني في السجن أن يرسل آلة رونيو كان الحزب الذي قاد النضال ضد الاحتلال الاسرائيلي في أشد الحاجة لها قال :

ـ لقد مضى عهد آلة الرونيو في قطاع غزة ٠

بعد ذلك بوقت استنكر نديم نحوي الشيوعية وخرج فيما بعد مع المخرب فهمي السلفيتي في أول انقسام ضد الحزب الشيوعي الاردني ٠

□

زارنا منير الريس رئيس بلدية غزة في ذلك الوقت وقال لنا أمام السجانين وضباط السجن :

ـ انتم الذين علمتموني الوطنية ٠

رغم موقف نديم نحوي ، فلقـــد كـان دائمـــا يزورنا شيوعيون أردنيون وفلسطينيون ٠

خلية شيوعية من الطلاب الفلسطينيين والاردنيين جاءت تزورنا وأيديها مثقلة بالفاكهة والورق ٠ كان من بين الخلية رفيقة عمري صهباء البربري ٠

□

خلا السجن من كل المعتقلين السياسيين ٠ وحدنا مع المسجونين العاديين وعشرات من اليهود تم احتجازهم خلال العدوان الثلاثي تمهيدا لترحيلهم الى فرنسا وايطاليا ٠

بعضهم كان يأتي ويسألنا لماذا نحن في سجن القناطر ؟

المخابرات تطلب منا الرحيل الى أي وطن ، وهؤلاء اليهود المحتجزون يرحلون الى وطننا رغم ارادة الكثيرين منهم ٠

في الصيف يأخذك القطار الى البحر ، وفي الشتاء يأخذك المطر الى الشجر ، ومن بعيد كان يأتي الينا صوت احد المسجونين العاديين وهو يصرخ في الليل يحمل البشارة :

ـ عنبر فلسطين

كله يسمع

ما سجن انبنى على سجين

ولا مستشفى انبنت على مريض

أخوكم المعلم عبد الباسط عبد العال

طالع من عشرين سنة أشغال

عقبال عندنا وعندكم يا حبايب

سجين يرفع صوته بالبشارة بالنيابة عن السجين المفرج عنه ، فيعم الفرح السجن · مع الحارس الليلي نرسل تحيتنا : سكرا وشايا وعلبة سجائر ·

علاقتنا بالمسجونين العاديين قدمت لنا الكثير ، فقد كانوا يحبوننا ويحترموننا بعد أن وقفنا معهم · أحد المسجونين العاديين كان يعمل في بيت مأمور السجن، واكتشفت زوجة المأمور ضياع بعض الاشياء واتهمت السجين بالسرقة · ربطه مأمور السجن في عامود في ساحة التأديب · طلاه من رأسه حتى قدميه بالعسل الاسود · حدأة بعد اخرى كانت تهبط وتنقر رأس السجين وترتفع وفي منقارها لقمة من الدم والعسل · هددنا بالاضراب اذا لم ينزل السجين من العامود ورضخت ادارة السجن · من يومها احبنـــا المسجونون واطلقوا على العنبر الذي كنا نقيم فيه : عنبر فلسطين ·

□

في تلك الايام زارني أحد الرفاق وقال لي : ان شفيق الحوت كتب مقالا في رثائي في مجلة الحوادث البيروتية · عام ١٩٥٢ حول شفيق الحوت قصيدة ـ السيل ـ قصيدة من قصائد ديوان المعركة الى مسرحية قدمها على مســـرح الجامعة الاميركية في بيروت · في الوقت نفسه كان عبد الكريم الكرمي ـ ابو سلمى ـ يرثيني من اذاعة دمشق ·

ولكن السجن لا يبنى على سجين ، ولا تبنى المستشفى على مريض فقد خرجت الدفعة الاولى من المعتقلين الفلسطينيين وتلتها الدفعة الثانية · بدأنا نحس اننا نقترب أكثر من عجلات القطار التي كنا نراها كالطواحين نلقي فيها بأيامنا فتدور لتخرج رغيف الوطن ·

الاخبار بدأت تأتي الينا من القطاع ، أخبار الحزب الذي كان يناضل بالمصباح ضد الدبابة الاسرائيلية ·

الحزب الذي تمكن رغم كل الاسلاك الشائكة من اقامة الجبهة الوطنية في قطاع غزة · هذه الجبهة التي رفض أن ينضم اليها (بعض العقائديين ؟) بحجة أن الحزب أعلن خلال الاحتلال الاسرائيلي عن أهمية النضال المشترك مع القوى اليهودية التقدمية ·

احتاج قرار الحزب حول النضال المشترك مع القوى اليهودية التقدمية اكثر من عشرين عاما لكي يأتي المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الاخيرة عام

١٩٧٧ ويتبنى ما قاله الحزب الشيوعي في قطاع غزة عام ١٩٥٦ ٠

تقارير المخابرات كانت تقول لجمال عبد الناصر : ان القطاع يتجه الـــى التدويل ٠

يعذبون الشعب ويوجهون له الاهانة ٠ بعد التظاهرات التي اجتاحت قطاع غزة وأسقطت مؤامرة التدويل ورفعت يدها تنادي جمال عبد الناصر ، أرسل جمال عبد الناصر الفريق محمد حسن عبد اللطيف كحاكم اداري عام للقطاع ٠ وفي سلة القمامة سقط صوت المخابرات ٠

كانت الاخبار تأتي الينا عن عبدالله عوض الله ، وطعمه مشتهى المناضليـن الشيوعيين المعتقلين اللذين ضربا حتى الموت من قبل البوليس الاسرائيلي ، وكان كل الذي نطق في فم كل واحد منهما هو خيط الدم الذي سال من شفتيه ٠

□

في اوائل تموز ١٩٥٧ ، صدر قرار الافراج عنا ٠ القطار هو أجمل ما اخترعه الانسان ، والفحم الحجري تشتهي ان تقطعه بالسكين وتأكله بالشوكة ٠

تركنا وراءنا سجن القناطر الخيرية وحملنا اللوري الى محطة القاهرة ٠ كان الحرس من المباحث يظهرون الفرح بعودتنا ؟ ربما لثانية واحدة كل خمس سنوات يتذكر شرطي المباحث الفلسطيني انه فلسطيني ، ولكنه بعد ذلك يمضي في كتابة التقارير ضد الفلسطيني ٠

دخلنا رفح الفلسطينية ٠ اختلف الهواء تماما ، اصبح يأتي من البحر مشبعا برائحة شجر التين وشجر السمك وشجر الخروع ٠

في رفح انزلونا من القطار وأركبونا أحد اللوريات الى غزة ، فوصلناها عند العصر ٠ اخترق اللوري شوارع غزة الخلفية حتى بلغ سراي مركز البوليس في الرمال ٠ من هناك ذهب كل واحد منا الى بيته ٠

ومضيت الى بيت عمي عاصم ٠ صرة الثياب في يدي وكان فيها كل ما أملك : قميص وفرشاة اسنان وقطعة صابون ٠

اول ما دخلت حسبوني بائعا جوالا ٠ لم يكن لدي ما ابيعه ـ خالتي وظيفـة عرفتني ـ فتحت ذراعيها وسقطت بينهما وايقظتني في مساء اليوم التالي ٠ تركت باب الحجرة مفتوحا وفتحت كل النوافذ ونمت ٠

كانت المرة الاولى التي انام فيها بعد عامين وشهرين من الاعتقال وهدير البحر يصل الي ٠

طوبى للبحر ٠

اليزابيت ماتيو

اسرائيل وجنوب أفريقيا

تمهيد :

اذا القينا نظرة على الوضع الدولي في بداية عام ١٩٧٧ ، فاننا نجد بؤرتين رئيسيتين للتوتر ٠

ـ **الشرق الادنى** ، حيث يصر القادة الاسرائيليون على رفض مبدأ الانسحاب من الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ ٠ كما يرفضون الاعتراف بالحقوق القومية للشعب الفلسطيني ، وبمنظمة التحرير الفلسطينية بوصفها ممثلا شرعيا ووحيدا لهذا الشعب ٠ على الرغم من جميع القرارات الدولية ٠

★ صدرت هذه الدراسة بالفرنسية ، ككراس مستقل عن منشورات « فرنسا ـ البلاد العربية » باريس ١٩٧٠ ٠ والمؤلفة ، اليزابيت ماتيو ، هي زوجة قسيس ووالدة لاربعة اطفال ، شاركت في مقاومة النازي خلال فترة الاحتلال الالماني لفرنسا ٠ ومن خلال هذا النضال اكتشفت ان تحرير فرنسا ، لا يمكن فصله عن النضال في سبيل استقلال الشعوب ، الاخرى الخاضعة للسيطرة الاستعمارية ، وقد شاركت في الحركات التي تدعو الى استقلال الشعوب ، خلال فترتي حرب الهند الصينية وحرب الجزائر ٠

وبعد حرب ١٩٦٧ ، انتسبت اليزابيت ماتيو الى جمعية الصداقة الفرنسية ـ العربية ، وهي عضو في مكتبها الوطني ٠ وهي تعتبر تضامنها مع العالم العربي موقفا مؤيدا لقضية الشعب الفلسطيني ٠

الى جانب ذلك ، فاليزابيت ماتيو ، هي منذ سنوات عديدة ، امينة سر اللجنة الفرنسية ضد نظام التمييز العنصري في جنوب افريقيا ٠ في وقت كانت فيه هذه المشكلة شبه مجهولة في فرنسا ٠

شاركت ماتيو في لقاءات دولية عديدة ، بوصفها مندوبة اللجنة الفرنسية ضد نظام التمييز العنصري ، او مندوبة جمعية الصداقة الفرنسية ـ العربية ٠ وبهذه الصفة

افريقيا الجنوبية ، حيث تلجأ الاقلية البيضاء ، الى العمل بجميع الوسائل ، من اجل الابقاء على نظام التمييز العنصري · في مواجهة التغيرات التي نشأت في المنطقة بعد انهيار الاستعمار البرتغالي ·

تعود شروط النزاع في كلتا الحالتين ، الى فرض دولتين تحددتا منذ تأسيسهما بوصفهما دولتين « منفصلتين » · جنوب افريقيا البيضاء في جنوب القارة الافريقية ، ودولة يهودية صهيونية في فلسطين العربية ·

ومنذ عام ١٩٤٨ ، تاريخ انشاء دولة « اسرائيل » ، وتاريخ وصول « القوميين » الى السلطة في جنوب افريقيا ، بنيت علاقات ثنائية تزداد توطدا مع الزمن ، كلما ازدادت عزلة هاتين الدولتين دوليا ، وكلما نمت مقاومة السكان المضطهدين ·

لقد تحولت هذه العلاقات الى تحالف حقيقي ، لم يبرز حجمه الا بعد زيارة فورستر ـ رئيس وزراء جنوب افريقيا ـ لاسرائيل في نيسان ١٩٧٦ ، والاتفاقات التي عقدت نتيجة هذه الزيارة ·

ان لهذه العلاقات ، جذورا عميقة ، ترتبط ببعض اوجه الشبه الايديولوجية والتاريخية ، التي سنحاول في دراستنا ، دون الاصرار على ادخال جميع ظواهر الواقع المعقد في ترسيمة تبسيطية لهذا الواقع · لذلك يبدو مهما ، التذكير ببعض الوقائع ـ المجهولة بشكل عام ـ التي تثبت صلة القرابة بين النظامين ، في ممارستها السياسية تجاه السكان المحليين ، وفي استراتيجيتها · الى جانب التبادل الاقتصادي بينهما · (دون ان ننسى ان اسرائيل لا تحتكر التبادل مع جنوب افريقيا) لاجل هذه الغاية ، سوف نعود في دراستنا الى وثائق ودراسات صدرت في السنوات الاخيرة · فالرأي العام العالمي لم يلتفت الى هذه القضية الا عام ١٩٧١ ، حين نشرت صحيفة « النيويورك التايمز » في عددها الصادر في ٣٠ نيسان ١٩٧١ مقالا للصحفي الاميركي الشهير سولز برغر يقول فيه : « ··· صلات وثيقة ، رغم انها شبه مجهولة ، تجمع بين اسرائيل وجنوب افريقيا · هذه الصلات بين بلدين ، احدهما يسيطر على الجزء الشرقي من القارة الافريقية ، والاخر يملك مفتاح القارة من الشمال ، لها دلالات سياسية ، اقتصادية وعسكرية · ولدى افارقة الجنوب ميل لمقارنة وضعهم بوضع الاسرائيليين · اذ يجدونهم محاطين بالاعداء كما هي الحال بالنسبة لهم · وفي هذه الحالة ، يبدو لهم من الطبيعي ان يعتبروهم رفاق طريق · ويتجنب البلدان الضجيج الاعلامي حول علاقاتهما لاسباب دبلوماسية » ·

١ ـ المقدمة ـ التحالف الغريب

للوهلة الاولى ، يمكن ان تبدو العلاقات الوثيقة بين اسرائيل وجنوب افريقيا مستحيلة ·

المزدوجة ، شاركت في تشرين الثاني الماضي في ندوة بغداد حول الصهيونية ·

صدر لها ايضا :

الصهيونية ونظام التمييز العنصري في جنوب افريقيا · منشورات « الشهادة المسيحية » · اوائل ١٩٧٣ الاستيطان الصهيوني في الارض المحتلة بعد ١٩٦٧ · ١٩٧٤ ، ومقالات عديدة اخرى ·

اذ اننا نعلم عن التعاطف النشط مع النازية الالمانية ، الذي أبداه القادة الافريقيون المختلفون ٠

عام ١٩٣٩ ، صرح رئيس الوزراء هرتزوغ ، ان مقولات النازية « مطابقة للرؤيا الافريقانية الاخلاقية والدينية (١) » ٠ كما كان فير فورد وسترايدم ، اللذين خلفا هرتزوغ في منصبه ، قد اجريا دراستهما في المانيا ٠ وقد اجرى فير فورد ،وهو المنظر الاكبر للتمييز العنصري ، اتصالات وثيقة بالاوساط النازية ، دعمت مفهومه لل « HERNVOLK » (الشعب المختار) و « لخاصية الصدق وطهارته » ٠ خلال الحرب العالمية الثانية ، لم يخف قادة حـــزب « القوميين » في جنوب افريقيا، امنيتهم في ان تسترجع المانيا نفوذها في افريقيا، وتستعيد سيطرتها على مستعمراتها القديمة ٠ جمهورية جنوب غرب افريقيا (نامبيا حاليا) وكشف فورستر ، رئيس الوزراء الحالي ، عام ١٩٤٢ التقارب بين النازية والفاشية من جهة ، والقومية المسيحية الخاصة بالافريقيين من جهة اخرى ٠ وبما ان الاعلام الصهيوني يركز اساسا منذ ١٩٤٨ ــ وذلك تبريرا لانشاء دولة يهودية مستقلة ــ على الابادة الجماعية الهتلرية خلال الحرب ٠ فاننا نفهم انزعاج بعض الاسرائيليين من الاستقبال الرسمي الذي حظي به فورستر في نيسان ١٩٧٦ ٠ وهذه الرسالة التي نشرتها صحيفة هآرتس تشير الى ذلك :

« ان الاستقبال الذي اجري لرئيس وزراء جنوب افريقيا عند نصب الضحايا ، يكدر الهيبة المعنوية لهذا النصب ، ففورستر كان عضوا في « الاوسادا براندواغ » ، المنظمة المؤيدة للنازية ، حيث كان يحمل رتبة عميد ٠ وكان ايضا عضوا في تشكيلة « الستور جائرز » العسكرية ٠ لهذا السبب اوقف عام ١٩٤٢ واعتقل مدة ١٧ شهرا ٠٠٠ واصبح ، بعد الحرب ، احد اهم مهندسي نظام التمييز العنصري ٠ نحن الذين ندقق في تصرفات شخصيات لا تقارن اهميتها بفورستر ، كيف يجوز ان نبقى غير مكترثين امام تاريخ هذا الرجل ؟ هل ان مصلحة اسرائيل القومية ، هي اهم من الذكرى المقدسة لستة ملايين من ضحايا المجزرة النازية ؟ (٢) »٠

لقد اثبتت الوقائع ، ان العوامل التي دفعت الى توطيد العلاقات بين اسرائيل وجنوب افريقيا قد تجاوزت هذا « التناقض » ٠ ولكن ، الا يقدم هذا مثلا بالغ الدلالة على التوافق التام بين لا سامية مستترة وتأييد نشط للصهيونية ؟ يقول الصحفي الاسرائيلي آمون كابيليوك اثر جولة في جنوب افريقيا : « ان المعجبين الاكثر حماسا بدولة اسرائيل هنا هم احيانا من اللاساميين ٠ وهذه الظاهرة ليست مقتصرة اطلاقا على جنوب افريقيا (٣)»٠

وفي مقابلة خاصة ، اجراها اسحق اونا ، سفير اسرائيل في جنوب افريقيا ، مع مجموعة صغيرة من الصحفيين الاميركيين ٠ تكلم السفير ، عن التضامن الحقيقي بيـن البلدين :

« نلاحظ وجود شعور ــ ولو سطحي ــ بأن اسرائيل وجنوب افريقيا هما على سفينة واحدة ٠ بوصفيهما ، تجمعات صغيرة يحيط بها جو معاد ، وعليها بالتالي ضمان وجودها » ٠

واضاف ، مستبقا بعض الاعتراضات التي كان يتوقعها : « نحن لا نتدخل في شؤون جنوب افريقيا الداخلية (٤)٠ »

٢ ـ التعاون بين اسرائيل وجنوب افريقيا امام المجتمع الدولي

منذ عام ١٩٥٢ ، وخاصة ، منذ نيل معظم الدول الافريقية لاستقلالها في الستينات ، والجمعية العامة للامم المتحدة ، تضع بانتظام في جدول اعمالها ، مسألة دراسة المشاكل الناجمة عن سياسة حكومة جنوب افريقيا العنصرية · نشير هنا الى القرار رقم ١٧٦ الصادر في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٢ والذي :

« يطلب من جميع الدول الاعضاء قطع علاقاتها الدبلوماسية مع جنوب افريقيا · ومقاطعة انتاجها ، والامتناع عن التصدير اليها ، وخاصة تصدير الاسلحة والمعدات العسكرية » ·

واعلن الامين العام للامم المتحدة عام ١٩٦٨ :

« لم تكتف حكومة جنوب افريقيا بمتابعة سياستها · بل اخذت في بث نفوذ عقيدتها العنصرية في المناطق المجاورة ، لاسيما في ناميبيا وروديسيا » ·

لقد واجهت حكومة جنوب افريقيا ، توصيات الجمعية العامة وقرارات مجلس الامن الدولي ، واحكام محكمة العدل الدولية ، بموقف الرفض والتحدي · وقد ادى هذا الموقف الى عدم اعتراف الجمعية العامة بوفد جنوب افريقيا · وتم عزله عن اعمال المنظمة الدولية ·

الى جانب ذلك ، كانت المباحثات بين حكومة تل ابيب والمجتمع الدول يتتابع مجراها منذ عام ١٩٤٨ (تاريخ قبول عضوية اسرائيل في الامم المتحدة) · فقد اتخذت الجمعية العامة قرارها رقم ١٩٤ بتاريخ ١١ كانون اول (ديسمبر) ١٩٤٨ ، بعد الاطلاع على تقرير وسيطها حول التخريب وتدمير البيوت بشكل منظم ، والتي كانت تمارسها اسرائيل في المناطق التي تحتلها ، والتي تتجاوز الحدود المعينة للدولة اليهودية ، في قرار التقسيم :

« يجب السماح للاجئين بالعودة الى بيوتهم · على ان تدفع تعويضات لقاء املاك الذين يقررون عدم العودة ·»

تلقت حكومة تل ابيب هذا القرار باحتقار تام · تماما كما سيكون موقفها من جميع القرارات التي سيجري التصويت عليها فيما بعد · والتي تتعلق بضم القدس ، واحتلال اراض جديدة عام ١٩٦٧ · او تغيير معالم هذه الاراضي · او غارات القصف على البلاد المجاورة · او القمع الذي يمارس ضد السكان الفلسطينيين ·

يجب ان نشير هنا ، الى ان الجمعية العامة للامم المتحدة . ومنذ عام ١٩٧٣ ، **لم تعد تدين التصرفات الخاصة بحكومتي بريتوريا وتل ابيب فقط ، بل اصبحت ترى في توطيد العلاقات بين الحكومتين مؤشرا خطيرا يهدد السلام العالمي ·**

فالقرار رقم ٣١٥١ الصادر بتاريخ ١٤ كانون اول (ديسمبر) ١٩٧٣ يندد بـ ··· « التحالف بين الفاشية الجنوب ـ افريقية والامبريالية الاسرائيلية » ·

وفي القرار رقم ٣٣٢٤ . بتاريخ ١٦ كانون اول (ديسمبر) ١٩٧٤ ، تدين الجمعية العامة : « توسيع نطاق العلاقات السياسية والاقتصادية والعسكرية وغيرها ·· بين اسرائيل وجنوب افريقيا » ·

اما القرار رقم ٣٣٧٩ الصادر بتاريخ ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥ ، والذي يعتبر الصهيونية شكلا من اشكال العنصرية ، جاء ليؤكد الصلة بين هذين النظامين · وقد جاء هذا القرار كمحصلة لمجموعة من الادانات الدولية ·

بيان مكسيكو (المؤتمر النسائي للتقدم والسلام ـ ١٩ حزيران ، ٢ تموز ١٩٧٥ ـ) الذي يؤكد على ان « ··· المشاركة والسلام يتطلبان الاستقلال الوطني والغاء الاستعمار والاستعمار الجديد ، والاحتلال الاجنبي ، والصهيونية ، ونظام التمييز العنصري ، وجميع اشكال التمييز العنصري · »

القرار ٧٧ الذي اصدره رؤساء دول وحكومات منظمة الوحدة الافريقية المجتمعين في كمبالا (٢٨ تموز ـ ١ آب ١٩٧٥) والذي يعتبر ان « للنظام العنصري في فلسطين، والانظمة العنصرية في زيمبابوي وجنوب افريقيا مصدرا امبرياليا واحدا · فهي تتسم بالبنى العنصرية نفسها · وهي ترتبط عضويا بسياسة مشتركة تستهين بكرامة الانسان » ·

بيان وزراء خارجية الدول غير المنحازة المجتمعين في ليما (٢٥ ـ ٣٠ آب ١٩٧٥) والذي « يشجب بشدة الصهيونية التي تشكل خطرا على السلام والامن الدوليين · ويطلب من جميع الدول مواجهة هذه الايديولوجيا العنصرية الامبريالية » ·

كما اصدرت الجمعية العامة للامم المتحدة قرارا جديدا (رقم ٣٤١١ ، ١٠ كانون اول ١٩٧٥) يؤكد من جديد على ان « التعاون المستمر بين بعض الدول والمؤسسات الاقتصادية وغيرها مع النظام العنصري في جنوب افريقيا ، يشكل عائقا كبيرا امام الجهود المبذولة لاسقاط نظام التمييز العنصري » · ويدين « توطيد العلاقات والتعاون بين النظام العنصري في جنوب افريقيا واسرائيل في المجالات السياسية والاقتصادية وغيرها · »

ينشر الاعلام الصهيوني فرضية تقول ان هناك الان في الامم المتحدة اكثرية اوتوماتيكية الى جانب العرب · وهي تتألف أساسا من انظمة « غير ديمقراطية » · تفوح رائحة العنصرية من هذه الفرضية · لانها تحمل في داخلها اسفا على مرحلة ماضية ، حين كان هناك اكثرية اوتوماتيكية تملكها القوى الغربية وخاصة الولايات المتحدة ·

٣ ـ جذور التعاون بين اسرائيل وجنوب افريقيا ·

« ما هو الفرق بين الطريقة التي يتبعها الاسرائيليون من اجل البقاء ضمن السكان غير اليهود ، والطريقة التي يتبعها الافريقيون للبقاء على ما هم عليه ؟ يرتكز الاسرائيليون على التوراة من اجل تفسير قرارهم بعدم الاندماج بالشعوب الاخرى ، وكذلك يفعل الافريقيون (٥) » ·

يحدد وضع الفرد القانوني في جنوب افريقيا حاليا . حسب لون بشرته · (علما ان هناك حوالي اربعة ملايين من البيض و١٨ مليونا من الافريقيين السود ، وثلاثة ملايين من الملونين والهنود) · اما في دولة اسرائيل الصهيونية ، فيحدد وضع الفرد القانوني على أساس كونه يهوديا أو غير يهودي · علما أن مسألة الانتماء الى اليهودية ـ وهي غير محددة بشكل واضح ـ يجب اثباتها بشهادات اصلية تعود الى الام والجدة من الام ·

في الحالتين نجد المفهوم نفسه « خصوصية » « الشعب المختار » · والتي تنعكس على المستوى الاخلاقي بضرورة « الانفصال » وعلى الصعيد السياسي بضرورات « البقاء » و « الامن » ·

في الحالتين ، ايديولوجيا قومية منغلقة · تستند في أساسها الى التوراة (العهد القديم) · والغريب ، ان السفير الاسرائيلي في جنوب افريقيا هو الذي يذكر هذه الناحية المشتركة في المقابلة التي اشرنا اليها :

··· نملك ارثا مشتركا هو التوراة · ولا اريد ان اخفف من أهمية هذه المسألة · ونلاحظ ان الافريقيين يقارنون عادة بين « التريك الكبير » الذي قاد اجدادهم من المنطقة التي كانت تحت السيطرة البريطانية الى الترنسفال وبين خروج اليهود من مصر (٦) » ·

تكونت « القومية المسيحية » الخاصة بالافريقيين ، خلال الملحمة التي عاشها هؤلاء الفلاحون الهولنديون الذين ينتسبون الى مذهب الكالفين · والذين نقلوا معهم مجتمعهم البطريركي الى افريقيا الجنوبيـــة · فتبنوا بعض مفاهيم التوراة الخاصة « بالشعب المختار » و« ارض الميعاد » · واتخذوا لانفسهم لغة خاصة بهم · وهم يفسرون بقاءهم هناك ، رغم التجارب العصيبة التي مروا بها ، « بالهبة الالهية » التي ينعمون بها ، بوصفهم امل الحضارة الغربية في افريقيا (مالان ١٩٣٨) ·

يحلل البروفسور فيركويل هذه الظاهرة كما يلي : « تستند عقيدة التمييز العنصري Aperthied على اندفاع ايديولوجي اتخذ شيئا فشيئا شكلا شبه ديني بما فيه من اساطير وطقوس واخلاق وثقافة خاصة به · وهذا يعود الى مفهوم « القومية الافريقانية المنفصلة » التي تتماثل بالحضارة الغربية · تتغلب الاعتبارات القومية في هذه النظرية بشكل واضح على الاعتبارات المتأثرة بالمسيحية (٧) » ·

لقد ادت هذه « الهرطقة » ، وخاصة في نوعية المجتمع الذي تجسدت فيه ، ادت الى الانفصال عن الكنيسة « الهولندية ـ الاصلاحية » ، التي شكلت سابقا الضمانة الايديولوجية لنظام جنوب افريقيا · ومع مجلس الكنائس العالمي في جنيف ·

يجب ان نشير هنا ، الى ان ممثلي الكنائس المسيحية الاخرى الموجودة في جنوب افريقيا (الميتودية ، اللوثرية ، الانكليكانية والكاثوليكية) يتعرضون للاضطهاد والمنفى والسجن ومنع النشر ، نتيجة موقفهم المعادي للايديولوجيا العنصرية · ويتزايد القمع حاليا على هذه الاوساط ، وخاصة على « المؤسسة المسيحية » ، التي كانت ضحية القمع منذ تأسيسها عام ١٩٦٣ ·

لن نذكر هنا بالنصوص والروايات التوراتية التي يستند الصهاينة الى تأويلاتها لتبرير « حقوقهم التاريخية » على ارض فلسطين · هذه التأويلات التي تتجاهل النظرة الكونية التي للدين اليهودي · ودون الدخول في نقاش حول صحة هذه النصوص التاريخية · يكفي ان نذكر بما يقوله روجيه غارودي عن الروايـــة التاريخية التي تلقن للشبيبة الاسرائيلية · (ندوة بغداد حول الصهيونية · ٨ ـ ١١ تشرين ثاني ١٩٧٦) ·· « كيف يمكن ان لا نستبقي من تاريخ هذه المنطقة ـ منطقة مرور واختلاط شعوب عديدة ـ الا مراحل منها فقط · هجرة ابراهيم بين هجرات عديدة اخرى ، مملكة داوود من ضمن ممالك عديدة اخرى او ثورة المكابيين من ضمن ثورات عديدة اخرى » ·

حتى لو قبلنا ، يقول العالم اللاهوتي دو بوري ، مواقف الاصوليين التي تستند على النصوص الحرفية ، وحتى لو سلمنا بصحة جميع روايات التوراة ، فهل يمكننا الاستشهاد بها لتبرير العنصرية · وينهي دراسته هذه قائلا : « لا يمكننا ان نفهم الكيفية التي يعتبر فيها بعض المسيحيين ان وعود العهد القديم هي دليل على شرعية المطالب التوسعية الاسرائيلية (٨) ·»

اعتراضنا موجه اساسا الى المسيحيين الذين يساندون الصهيونية استنادا الى قراءة « اصولية »للكتاب المقدس · ولكن في المقابل ، مقاومة الصهيونية السياسية داخل اليهودية كانت ولا تزال بالغة الاهمية · ففي عام ١٩١٧ كانت اكثرية اليهود معادية للصهيونية ، باعتبار ان مشروع انشاء دولة زمنية هو مجرد هرطقة ، (ولا تزال بعض المجموعات اليهودية الارثوذوكسية تتبنى هذا الرأي) · او مغامرة خطيرة · في ذلك الزمن ، يكتب مدير الرابطة اليهودية العالمية : « لم نغير رأينا حول مخاطر الصهيونية ولا نزال مقتنعين بأن هذه الحركة سوف تنتهي الى الفشل او ربما الى الكارثة (٩) » ·

منذ ذلك التاريخ ، والمنظمة الصهيونية العالمية ، تعمل على احاطة الطوائف اليهودية المختلفة بتنظيم نشط ، وتوجيهها للتفاني المطلق والتماثل مع الدولة اليهودية · ـ عبر الجباية المالية ، والتأييد المطلق دون شروط للسياسة الاسرائيلية ، التنبيه من خطـــر الاندماج والحث المتواصل على الهجرة الى اسرائيل ـ ولكن ، حتى في اسرائيل نفسها ، بدأ الكثيرون في التساؤل حول حقيقة ايديولوجيا هذه الدولة ، دون ان يعيدوا النظر في وجودها ·

ولكن ، الذي يهمنا هنا ، اكثر من المضمون الايديولوجي للصهيونية وللتمييز العنصري، هو استنادهما الى سياسة تمييز واحتقار تجاه البيض وغير اليهود · هذا « التمايز » يبرر دائما بعبارات « التفوق » و « عدم الاندماج » · فدستور اتحاد جنوب افريقيا لا يأتي الى ذكر الافريقيين · ووعد بلفور لا يشير الى وجود الشعب الفلسطيني الا تلميحا· « السكان غير اليهود » يعترف رئيس المجلس اليهودي العالمي ناحوم غولدمان ·· « ان احدى نقاط الضعف الاساسية في الحركة الصهيونية منذ انشائها ، هي تجاهل اهميـة المشكلة التي يطرحها العالم العربي (١٠) » ·

عندما يجري الحديث عن « السكان الاصليين » ، تأتي اللهجة احتقارية أو ابوية في افضل الحالات · فهم اناس « بدائيون » و « دونيون » · وفي الادبيات الجنوب ـ افريقية « نجد الصفات التي تستخدمها العنصرية ، مؤكدة هنا الاف المرات · فابن البلد كسول ، ضعيف ، جبان ، ساذج ، لص ، داعر ، ويملك بالتالي جميع المؤهلات كي يصبح قاتـلا لاسياده البيض (١١) » ·

يردد صدى هذا الازدراء في صفوف الاجيال الشابة · ويدين تقرير للاونيسكو تأثير نظام التمييز العنصري في المجال المدرسي · حيث الكتب المدرسية تؤدي الى نشوء مشاعر عنصرية تجاه الافريقيين عن طريق العبارات المستخدمة ·

منذ فترة وجيزة ، ابدى بعض الاسرائيليين قلقهم تجاه المضمون العنصري للكتب التي يأخذها اطفالهم من المكتبات المدرسية · وعادة يدور موضوع الكتاب حول مهارة شاب اسرائيلي يهودي لا يملك غير الذكاء · لكنه يتمكن من احباط مؤامرة يدبرها بعض العرب من ذوي الطبيعة الغادرة والاغبياء · ووثيقة « كينيغ » التي صدرت حديثا ، تأتي برهانا على نمط التفكير هذا : « الطبيعة العربية الشرقية ، السطحية ، غير المتعمقة ، والتي تتميز بعمل الخيال اكثر من عمل العقل (١٢) » · وحول الموضوع نفسه ، يلاحظ معلق اسرائيلي: « هذه الايديولوجيا عنصرية تماما · وهذه الطريقة في وصف مجموعة بشرية على انهـا متخلفة ومختلفة ، استعملت دائما لتبرير سياسة تمييزية · ولا يوجد اي فرق بين هذه العموميات والتعريفات التي كان يدلي بها اللاساميون » ·

اسرائيلي ليبرالي هو آمون كابيلوك ، يقارن بين عقلية مواطنيه اليهود وعقلية البيض في جنوب افريقيا · فيلاحظ اثر جولة قام بها في جنوب افريقيا · « تسمع هنا احاديث اليفة بالنسبة للاسرائيلي · القاسم المشترك هو الثقة المطلقة في بعض التأكيدات · وغياب كامل لاي مجهود من أجل فهم الآخر ··· اعطاء الحقوق للسود ؟ هـــل تعرفـــون سيكولوجيتهم (١٤) » ·

وحتى لو وجدنا في دول اخـرى ، وفـي ظل انظمـة اخـرى ، اشـكالا مـن التمييـز العنصري ، يجب التأكيد هنا على « الشرعية العقائدية » لهذا التمييز الموجود فـــي ايديولوجية « التمييز العنصري » والايديولوجيا الصهيونية · وبناء على هذه العقائد ، تبرر الطبقة الحاكمة في اسرائيل قانون العودة ، واحتلال اراض جديدة ، والتمســك بالاحتلال واقامة مستوطنات يهودية في هذه المناطق التي تعتبر « ارض الشعب اليهودي الوطنية » · وباسم هذه العقائد تبرر جنوب افريقيا سياسة التمييز العنصري بين مجموعات واخرى · ووضع برامج تجعل من الافريقيين غرباء في بلدهم ·

الخلفية التاريخية

لم يكن الاندفاع الايديولوجي للمستعمرين الاوروبيين في جنوب افريقيا ، ولا اندفاع القادة الصهاينة ، ليؤدي الى انشاء دولة مستقلة ، لولا استفادتهما من مساندة قوى حماية اجنبية · وفي المقابل ، فقد رأى بعض القادة الاوروبيين في القرن التاسع عشر ، ان الطاقة التي تمثلها هذه التيارات القومية هي سلاح أساسي للمحافظة على امبراطوريتهم الاستعمارية · وفي الحالتين ، تم اللقاء تحت رعاية بريطانية ، القوة الاهم في ذلك الحين· والتي كان لها في المنطقتين مصالح استراتيجية واقتصادية كبيرة ·

ونلاحظ ، في دراستنا لتطور الحالتين ، نشاط نفس الاشخاص · فالصداقة التي ربطت ٣٣ عاما « ١٩١٧ ـ ١٩٥٠ » بين رجلين يملكان منصبا حساسا ، تبدو رمزا وفي نفس الوقت عاملا محددا في تاريخ فلسطين وجنوب افريقيا في هذه المرحلة · وهما الجنرال سموتس مندوب جنوب افريقيا الخاص لدى الحكومة البريطانية ، (وقد اصبح فيما بعـد رئيسا لوزراء دولة اتحاد جنوب افريقيا) وحاييم وايزمن رئيس الاتحاد الصهيوني في بريطانيه وزعيم الحركة الصهيونية ، والذي اصبح فيما بعد رئيسا لدولة اسرائيل · « لم يكن وعد بلفور ممكنا لولا وايزمن · ولا شك ان اتحاد جنوب افريقيا لم يكن ليتأسس عام ١٩١٠ لولا الجنرال سموتس » · ويضيف البروفسور ريتشارد ستيفنس : « اذا نظرنا الى مختلف قرارات الغرب التي اثرت سلبا على حياة شعوب العالم الثالث ، نرى ان القرارين المتخذين في لندن ١٩٠٩ و١٩١٧ ، هما الاكثر وضوحا في كشف جوهر النزعة المركزية الغربية ، والبرهنة على قدرتها في التمويه وتجسيد تسلطها ، عبر ترجمتها في الواقع تحت ستار القوانين الدولية · اول هذين القرارين عرف باسم قانون تأسيس اتحاد جنوب افريقيا اما الثاني فهو وعد بلفور ··· هكذا ، وباسم الليبرالية البريطانية ، لم تفقد شعوب فلسطين وافريقيا الجنوبية اراضيها ومنازلها وحقوقها الاساسية فقط ، بل فقدت هويتها · تبعد فلسطين مسافة ٥٠٠٠ كلم عن جنوب افريقيا · لكن هذين البلدين قد اخضعا لنظام واحد ، وقدما ضحية باسم مصالح الغرب » · (ريتشارد ستيفن ، الندوة العالمية حول فلسطين ، شباط ١٩٧١) ·

وفي دراسة مخصصة للعلاقة بين الرجلين ، يشير ستيفن الى انه : « في الحالتين ،

لقد عبر سموتس ووايزمان عن قدرة الحضارة الغربية على عقلنة دوافعها في السيطرة والاستغلال والاحتلال بعبارات مسيحية ـ حضارية ، وانتاج عرقي يهودي ـ مسيحي (١٥)٠»

لقد كان اكتشاف الماس (١٨٦٧) والذهب (١٨٨٦) في جنوب افريقيا ، مبررا جديدا للوجود البريطاني هناك ٠ بالاضافة الى ذريعة مراقبة منطقة رأس الرجاء الصالح ، طريق الهند البحرية ٠ وكان من نتائج تدفق المستوطنين الجديد ، والتوسع السريع للشركات ، نشوب صدام مع البوير * ٠ وقد وصل الصراع الى ذروته في حرب البوير التي نشبت في نهاية القرن الماضي ٠ الا ان هذا الخلاف الطارىء ، وجد حله في دستور اتحاد جنوب افريقيا الذي صدر عام ١٩١٠ ، وجمع ، داخل اطار الكومنولث ، الطائفتين الاوروبيتين حول هدف مشترك : **جعل افريقيا الجنوبية بيضاء** ٠

والحجج الحضارية ، تظهر واضحة في هذا الكلام للجنرال سموتس : « لقد اقام حوالي نصف مليون ابيض على الطرف الجنوبي من قارة شاسعة يسكنها اكثر من مئة مليون همجي ٠ وذلك ، ليس من أجل تحقيق قدرهم الخاص فقط ، بل ايضا ، من أجل رفع هذا الثقل الميت من الهمجية التي تعود الى ما قبل التاريخ نحو انوار وبركات الحضارة المنظمة ٠ واذا لم يرص الجنس الابيض صفوفه في هذا البلد ، فسيصبح الوضع لا يطاق في مواجهة اكثرية ساحقة من الهمج (١٦) » ٠

في الوقت الذي كانت تجري فيه العملية الاستيطانية في جنوب افريقيا ، كان الزعماء الصهاينة يتابعون جهودهم من اجل ايجاد رعاية اوروبية لمشروعهم ٠ يقول غولدمان : « لقد كانت الحركة الصهيونية تسعى الى هدفين : ـ بث الايديولوجيا في اوساط الشعب اليهودي واستقطاب اكثريته الى جانبها ٠ ـ اثارة تعاطف الدول الكبرى من اجل الحصول على تأييدها في تشييد الدولة اليهودية (١٧) » ٠

ومنذ عام ١٩٠٠ ، وبعد محاولات فاشلة مع تركيا والمانيا في ظل نظام غليوم الثاني ، قررت الحركة الصهيونية التوجه نحو بريطانية العظمى ٠ وبريطانية لها مصالح متعددة في منطقة الشرق الاوسط : فهي تشرف على قناة السويس منذ عام ١٨٦٧ وهي حريصة على ابقاء هذا الممر البحري تحت سيطرتها ٠ كما انها تملك منذ عام ١٩١٤ معظم اسهم الشركة النفطية التركية التي تملك جميع اسهم الشركات الاوروبية ٠ وبازدياد تفكك السلطنة العثمانية ، يزداد الطمع في الاستيلاء على فلسطين ٠

كانت خطوات الزعماء الصهاينة ضمن هذا السياق ٠ فبعد ان تكلم هرتزل عن «دولة خاصة باليهود » ، اشار الى « القلعة الاوروبية المتقدمة في مواجهة البربرية » ٠ ردد وايزمن هذه المفاهيم امام الحكام في لندن : « فلسطين اليهودية هي ضمانة لانجلترة ، خاصة فيما يتعلق بقناة السويس (١٨) » ٠ وبعد مساومات لا تحصى ، توصلوا الى الحصول على وعد بلفور الذي شكل الاساس الشرعي للاستيطان في فلسطين ٠ وهنا ، كما في جنوب افريقيا ، لا يذكر السكان الاصليون ٠ وقد اعلن اللورد بلفور في مذكرة قدمها في مؤتمر باريس (آب ١٩١٩) : « في فلسطين ، لا نطرح على انفسنا مسألة استشارة اهل البلاد الاصليين ٠ فالصهيونية ، أكانت على خطأ او صواب ، هي اكثر اهمية من رغبات ٧٠٠ الف عربي يقيمون في فلسطين ٠ وهي اكثر اهمية من الخسائر التي يمكن ان يتكبدها هؤلاء العرب (١٩) » ٠

(*) **البوير** هم أحفاد الهولنديين والالمان والفرنسيين الذين استوطنوا تلك الارض بين ١٦٥٢ و ١٦٥٨ ٠ وقد تبعهم فيما بعد اليهود والايطاليون والبرتغاليون ٠

لقد سمح القبول الرسمي بالوطن القومي اليهودي ، على غرار دستور جنـــوب افريقيا ، للنظامين بتثبيت شرعية استيطان الاراضي · (شراء ، استملاك وابعاد في فلسطين · وقيام « البانتوستان » * في جنوب افريقيا) ·

في جنوب افريقيا يمتد حاجز اللون ، الى جميع الميادين · ومع وصول الحزب القومي الى السلطة عام ١٩٤٨ ، بلور الافريقانيون نظرية التمييز العنصري · وفي فلسطين ، استمرت الهجرة المكثفة والاستيلاء على الاراضي وطرد الفلاحين · ولندن التي تحاول التلاعب في مواقفها بين العرب واليهود ، ترى ان سلطتها الانتدابية بدأت تتزعزع ، فتحيل القضية الى الامم المتحدة عام ١٩٤٧ · وساهمت النزاعات الداخلية العربية في انجاح الستراتيجية الصهيونية بعد فشل مشروع التقسيم · ودون الغوص في تفاصيل هذه المرحلة التاريخية الغامضة ، نذكر ، ان حوالي مليون فلسطيني اجبروا على اخلاء بيوتهم بين ١٩٤٧ وايار ١٩٤٨ ، نتيجة للحرب ولنشاطات المنظمات الارهابية الصهيونية · وعشية انتهاء الانتداب البريطاني ، اعلن بن غوريون نشوء دولة اسرائيل على ارض فلسطين ، وتمنع طبعا عن تعيين حدود هذه الدولة ·

كانت حكومة جنوب افريقيا ، قد عبرت عن تضامنها مع المنظمة الصهيونية منذ ٤ ايلول ١٩٢٦ : « ان حكومة جنوب افريقيا ، التي تتابع باهتمام وتعاطف ، جهود المنظمـــة الصهيونية في سبيل تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ··· تتمنى لهـــا النجاح التام في مشروعها ، وتؤكد انها ستساندها بكل قوة ، بواسطة مندوبيها في عصبة الامم او بأية وسيلة اخرى (٢٠) » ·

كما استقبلت حكومة جنوب افريقيا ، خبر انشاء دولة اسرائيل بحماس بالغ · وكانت من اوائل الدول التي اعترفت بها في الامم المتحدة · كما ان مالان ، رئيس وزراء جنوب افريقيا ، كان اول رئيس دولة يقوم بزيارة رسمية لاسرائيل · يقول الدكتور لسلي روبين ، مؤسس الحزب الليبرالي الجنوب ـ افريقي (والذي نفي فيما بعد) ان جذور هذا التعاطف تعود الى اعجاب الافريقانيين بهؤلاء الذين « رفعوا عنهم النير البريطاني » ، (وهذه امنية جنوب افريقية مبيتة) والى ان « انتصار اليهود على العرب ، يعتبر بمثابة انتصار للبيض على غير البيض (٢١) » ·

عام ١٩٦٠ ، رأت جمهورية جنوب افريقيا النور ، بعد ان خلفت اتحاد جنوب افريقيا · وعام ١٩٦١ خرجت من الكومنولث ·

ولكن في هذه الدولة البيضاء ، كما في الدولة الصهيونية ، لن يترجم الاستقـــلال السياسي الى استقلالية حقيقية · يبقى خاضعا اقتصاديا وسياسيا وعسكريا للقـــوى الغربية ·

٤ ـ الدور المفصلي للطائفة اليهودية في جنوب افريقيا ·

لعبت الطائفة اليهودية دورا محددا في اقتصاد جنوب افريقيا ، حتى قبل الحرب العالمية الثانية · وحتى اذا استثنينا اصحاب الشركات الضخمة مثـــل Central mining Red mines de F. R. Philipps. N. C. والشركة الانكلو اميركية لصاحبها ارنست

★ البانتوستان : هي المعسكرات الخاصة بالسكان المحليين ·

اوبنهايمر (الذي يرأس في الوقت نفسه مجموعة De Beers Consolidated Mines محتكر الماس) · فاننا نجد ان الطائفة في مجملها ممثلة على مستوى جيد جدا في الاوساط المنجمية والتجارية والمصرفية · وفي نهاية الحرب العالمية الثانية ، كانت الطائفة اليهودية في جنوب افريقيا ، اكثر الطوائف اليهودية في العالم ان لم تكن اكثرها ثراء (١٢٠ الف نسمة) · ولا عجب اذا لعبت هذه الطائفة دورا كبيرا في تثبيت العلاقات بين اسرائيل وجنوب افريقيا وتعميقها · فهذه الطائفة ، تؤيد الحركة الصهيونية في اغلبيتها الساحقة (٩٠٪) · تترجم هذه العلاقة عمليا ، عبر كميات باهظة من الاموال ونسبة هجرة مرتفعة ومساعدة مميزة خلال الحروب في الشرق الاوسط · وقد فهم الحزب القومي انه من الافضل كبح اهوائه اللاسامية خوفا من تهريب الرساميل اليهودية ، ولان القادة البيض يتوقعون : « ان الوعي العرقي لليهود يهيئهم لفهم حوافز الشعب الابيض المتشابهة في ميادين اخرى (٢٢) » ·

وقدايدت حكومة مالان ، بشكل رسمي ، سياسة عدم التمييز بين جميع طوائف البيض · وسرعان ما قبل اليهود في صفوف الحزب الافريقاني ، وشغل عدد منهم مناصب هامة في الحكومات المتعاقبة ·

وفي المقابل ، فقد التزمت الطائفة اليهودية ، عبر منظماتها التمثيلية (فيدرالية جنوب افريقيا الصهيونية التي أسست عام ١٨٩٥ ، ومكتب المندوبين اليهود) بعدم اتخاذ اي موقف من سياسة التمييز العنصري · (نشير هنا الى ان عددا كبيرا من الشخصيات اليهودية ، اختارت بشكل فردي تأييد قضية الشعب الافريقي المضطهد · وغالبا ما كان ثمن هذه المواقف هو النفي) ·

عرض الحاخام وايلد ، عام ١٩٥٣ اسباب هذا « الحياد اليهودي » : « قدرت الطائفة اليهودية عدم اتخاذ اي موقف حول قضية السكان المحليين ··· فمهمتها هي مساعدة اليهود في البلاد الاخرى · لا تستطيع الطائفة اليهودية ان تستأذن حكومة جنوب افريقيا بتحويل الاموال والسلع الى اسرائيل ، وان تنتقد في الوقت نفسه سياستها (٢٣) » ·

وحتى مجزرة شاربفيل ، التي اثارت العالم بأسره ، لم تنجح في تغيير هذا الموقف الارادي المتحفظ · وقد اجاب الكاتب اليهودي دان جاكوبسون على اسئلة رونالد سيغال حول المواقف التي تتخذها الطائفة اليهودية : « يوجد انغليكانيين وكاثوليك وميثوديين سود ، ولكن لا يوجد يهود سود ··· ان الطائفة اليهودية ترفع صوتها عندما تهدد مصالحها المباشرة (السياسة السوفياتية ـ المصرية في الشرق الاوسط ، او القوانين المحلية للهجرة ···) لكنها تفضل التزام الصمت حول المواضيع الاخرى (٢٤) » ·

تأزمت العلاقات الاسرائيلية ـ الجنوب افريقية في الستينات ·· وذلك عندما اتخذت الحكومة الاسرائيلية موقفا نقديا من سياسة التمييز العنصري (وخاصة عند تصويتها على قرار الامم المتحدة رقم ١٩٦١) بهدف بناء علاقات جيدة مع الدول الافريقية التي استقلت حديثا · ولكن ردة حكومة جنوب افريقيا كانت مباشرة فقد تساءلت صحيفة «دي ترانسفالد » المؤيدة لرئيس الوزراء فيرفورد : « ماذا يستطيع الاسرائيليون ان يقولوا حين تعلن جنوب افريقيا رأيها ، دون ان يطلب ذلك منها ، في وضع اللاجئين العرب الذين يعيشون ، منذ ثلاثة عشر عاما على حدود اسرائيل في شروط رديئة ، لانه لم يسمح لهم بالعودة الى منازلهم (٢٥) » · أما ردة فعل فيرفورد فكانت اكثر صراحة :

« لقد استولى اليهود على اسرائيل من العرب الذين كانوا يعيشون فيها منذ الف عام ٠٠٠ وانا اوافق معهم على هذا ٠ فاسرائيل هي مثل جنوب افريقيا ، دولة تمييز عنصري (٢٦)»٠ وفي رسالة الى « الصاندي بريس » ، يشير رئيس وزراء جنوب افريقيا الى ان الموقف الاسرائيلي هذا ، يشكل « كارثة على يهود جنوب افريقيا » ويتابع قائلا : « بدأت الناس تتساءل ٠ اذا كانت اسرائيل واربابها مضطرة الى مهاجمة سياسة التطور المنفصل هنا ، فلماذا لا تعتبر هذه السياسة سيئة حين تطبق في اسرائيل ٠ اذا كان « التمييز » ذنب ، فانه ذنب اذا قام على أساس العرق وعلى أساس الدين (٢٧) » ٠

اعلنت الطائفة اليهودية في جنوب افريقيا عن اسفها لموقف المندوب الاسرائيلي في الامم المتحدة ، الذي لم يكتف بالامتناع عن التصويت مثل ممثلي الدول الغربية الاخرى ٠ كما توسط ممثلوها لدى المنظمات اليهودية في مختلف البلدان ، من اجل التوقف عن نقاش موضوع التمييز العنصري في جنوب افريقيا امام الامم المتحدة ٠ لكن هذه الجهود ، لم تسفر الا على نجاح محدود ، فقد عبر المؤتمر اليهودي الاميركي اكثر من مرة ، عن تنديده بالسياسة العنصرية في جنوب افريقيا ٠

ساهمت الطائفة اليهودية ، رغم كل هذا ، في حل الازمات التي نشبت خلال هذه الفترة الدقيقة ، (والتي انتهت حين قررت معظم الحكومات الافريقية قطع علاقاتها الدبلوماسية مع تل ابيب) ٠ ثم جاءت الازمة الاخيرة عام ١٩٧١ ، حين عرضت الحكومة الاسرائيلية على منظمة الوحدة الافريقية هبة لحركات التحرر الافريقية ٠ هنا انفجر فورستر رئيس الوزراء حين وصله النبأ قائلا : « لا يمكنني ان افهم كيف يمكن لاسرائيل ، وهي التي تواجه مشكلة الارهاب ، أن تبرر اعطاء هبة لارهابيين اخرين (٢٨) » ٠

غير ان العلاقات الاقتصادية بين البلدين ، كانت تنمو بالرغم من هذه الصعوبات المؤقتة ، كما سنلاحظ في جزء اخر من هذه الدراسة ٠ وتعلل الصحيفة الافريقانية «دي برغر » هذا ، بالتضامن الواقعي الذي يربط الدولتين ٠ اما فيما يتعلق بالتنديد الاسرائيلي بسياسة التمييز العنصري تعلق الصحيفة : « اذا كان لنا ان نستخلص درسا من هذا الحادث المؤلم ، فان على البلدين ايلاء القضايا الخاصة بكل منهما انتباها اكبر ٠ فاسرائيل وجنوب افريقيا ، ليستا في حالة متشابهة بل ويحتاجان ايضا الى بعضهما (٢٩) » ٠

وتؤكد صحيفة « الجويش افيرز » على التكامل الستراتيجي ، مشيرة الى الخطر السوفياتي : « تعتبر جنوب افريقيا ان الشرق الاوسط ، حيث تلعب اسرائيل دور الحارس المتواضع الذي لا غنى عنه ، هو خط الدفاع الاول بالنسبة لها ٠ اسرائيل تحمي ويجب ان تحمي اطول مدة ممكنة مدخل الممر الذي يمكن ان يصبح طريق المرور الرئيسي في الاعتداء عليها ٠ ان مستقبل المرور بين البحر المتوسط والمحيط الهندي هو مسألة اساسية بالنسبة لاسرائيل ، توازي اهمية طريق رأس الرجاء الصالح بالنسبة لجنوب افريقيا ٠ فاذا سقطت هذه المنطقة في ايد معادية ، تصبح طريق رأس الرجاء الصالح معرضة في الشرق وتصبح القضايا الامنية بالغة الخطورة بالنسبة لجنوب افريقيا ٠ أما بالنسبة لاسرائيل ، فان وجود امة متيقظة وقوية اقتصاديا في أقصى جنوب القارة الافريقية ، يشكل عنصرا اساسيا في استراتيجية ضمان مؤخرتها » ٠

ان ولاء الطائفة اليهودية التام للسلطة العنصرية البيضاء ، يفسر القلق الذي ينتابها امام صعود المقاومة الافريقية ٠ وقد عكست الصحف الاسرائيلية حيرة يهود جنوب افريقيا الذين يفكرون في الهجرة ٠٠٠ ولكنهم يترددون في الاقامة في اسرائيل « لانهم يخشون

الا يلقوا سبل الراحة التي ينعمون بها اليوم ، وبسبب الحالة الامنية في المنطقة (٣٠) » ٠

٥ ـ اوجه التشابه بين النظام الاسرائيلي ونظام جنوب افريقيا ٠

الهدف الاول والمشترك بين البيض في جنوب افريقيا ، والصهاينة ، في فلسطين ، كان تملك الاراضي التي يقيمون عليها بشكل كامل ٠ الارض الاسرائيلية ليست ارضا قومية بل « ارض يهودية » ٠ اما اراضي جنوب افريقيا ، باستثناء « الترانسكاي » الذي اعلن استقلاله في تشرين الاول ١٩٧٦ ، والبانتوستانات الثمانية الاخرى الى حد ما ، فهي تعتبر ملكا للبيض ، يمنع الافريقيون من التملك فيها او حتى **الاقامة الدائمة** ٠

لقد ادت عملية الاستعمار الاستيطاني في الحالتين ، الى ابعاد اكبر عدد ممكن من الاهالي غير البيض وغير اليهود ٠

وفي الحالتين ، تواصلت العملية **بشكل مستمر** ، انطلاقا من برنامج معلن ، وهي مستمرة حتى الان ، بشروط تتلاءم والاوضاع السياسية والجغرافية ، الخاصة بكل بلد ٠ هناك تشابه واضح بين مصير العمال الذين يأتون للعمل في اسرائيل من الارض المحتلة ، ومصير الافريقيين الذين يسكنون « البانتوستان » ، او حتى الضواحي السوداء لمدن جنوب افريقيا البيضاء ٠

وفي الحالتين ، لا تواجه الانظمة في سياستها الاستيطانية مقاومة متزايدة من قبل الاهالي الذين يتمثلون في منظماتهم فقط ٠ بل كذلك من الدول العربية والافريقية التي تتضامن مع هذا النضال ، وحتى من قبل الرأي العام العالمي نفسه ٠

جنوب افريقيا ٠

كانت مصادرة الاراضي مسألة سهلة بالنسبة للمستعمرين الاوروبيين الاوائل ٠ اذ لم تكن القبائل الافريقية قد عرفت الملكية الخاصة ، وكانت تنظر الى هؤلاء الغرباء دون عداء ٠ حتى اليوم ، الذي بدا فيه واضحا ، ان هدف البيض هو طردهم واستعبادهم ومصادرة اراضيهم ، حينئذ حاول الافريقيون المقاومة ٠ ولم ينته الصراع ضد « الزولو » على وجه التحديد الا عام ١٨٧٩ ٠

لقد سمح اندماج الطائفتين الاوروبيتين ، في اطار « اتحاد جنوب افريقيا » ، لهما ان يجعلا الاجراءات العنصرية شرعية ٠ عام ١٩١٣ ، صدر القانون الذي ينشيء «المعسكرات» الافريقية (Native Land act) التي خصص لها ٧٪ من مجمل اراضي البلاد ثم ارتفعت هذه النسبة الى ١٣٫٦٪ عام ١٩٣٢ ، **ولم يطرأ اي تغيير عليها منذ ذلك التاريخ** ٠ وهذا يعني ان المساحة الاجمالية للمعسكرات (البانتوستان) تمثل ١/٧ من مجمل مساحة البلاد ، هي مخصصة لـ ٧٠٪ من مجموع السكان ومع وصول الحزب الافريقاني القومي الى السلطة عام ١٩٤٨ ، اصبح النظام اكثر قسوة ، وتطور في اتجاهين رئيسيين :

١ ـ الاقتلاع المنظم للافريقيين ونقلهم الى « اوطان » ذات طابع قبلي ٠ يتناول هذا الاجراء في بادىء الامر « غير المنتجين » او « غير المرغوب فيهم » ٠ ويطبق هذا بشكل لا انساني الى حد انه اثار سخط بعض النواب البيض ٠ وقد اشار نائب الوزير لشؤون البانتو ، عام ١٩٦٨ انه سيتم ابعاد اربعة ملايين افريقي في السنوات القادمة ٠ « ان

مليونين من اصل الملايين الستة الذين يعيشون في المناطق البيضاء يتعاطون نشاطا اقتصاديا ٠٠»

٢ ـ اقامة تمييز حاد بين المجموعات الاثنية المختلفة التي تسكن في المدن والمناطق الخاصة بالبيض ٠ فالهدف هو ايضا التفريق بين غير البيض انفسهم ٠ هكذا تقتلع الاف العائلات من المناطق التي كانت تقيم فيها منذ اجيال ٠

وضع برنامج التمييز العنصري هذا ، وثبت ، من خلال جهاز بالغ التعقيد من المنوعات والقيود المختلفة ، والانظمة التي تحد من حقوق الافريقيين في الاقامة والتنقل ٠ واذن التجول « الباس » الشهير ، الذي يجب ان يحمله الافريقي باستمرار هو رمز لهذا الاستعباد ٠

وحتى عام ١٩٦٠ ـ تاريخ مجزرة شاربفيل ـ لم يكن للافريقيين حق المواطنية ليس فقط على مجمع اراضي البلاد ، بل ايضا في البانتوستان (المفردات) ولم يفكر رئيس الوزراء فيرفورد بامكانية اعطائها نوعا من الحكم الذاتي ، ولم يتحدث عن امكانية تحولها الى « دول منفصلة » لولا تصاعد الاستنكار الدولي تجاه سياسة التمييز العنصري ٠ « ليس هذا هو الحل المفضل بالنسبة لنا ٠ ولكن ، نظرا للضغوط التي تمارس على جنوب افريقيا ، سوف يترتب علينا الوصول الى هذا الحد دون شك ٠ ويكون هذا ، سبيل الرجل الابيض للحصول على حريته وحقه في ابقاء سيطرته على ما هو بلده (٣١) » ٠

وينعم « الترانسكاي » ، الذي يلعب دور الواجهة منذ عام ١٩٦٣ ، بما يشبه الحكم الذاتي ٠ بينما يمتد برنامج البانتوستان الى ناميبيا (وهي جزء من دولة جنوب غرب افريقيا ، وقد احتلتها جنوب افريقيا بشكل غير شرعي) ٠ وعام ١٩٧١ حدثت خطوة جديدة عبر اصدار قانون البانتوستان ، الاوطان ، وفي انشاء مجالس تشريعية ، تمثل مبدئيا القبائل المختلفة ٠ ولكن لم يستشر السكان في هذا بأي شكل من الاشكال ٠

وبقي احتمال استقلال البانتوستان ، احتمالا نظريا حتى عام ١٩٧٤ ، (ما عدا الترانسكاي ، التي قرر ان تنال استقلالها عام ١٩٧٦) ٠

ومع تصاعد النضال التحرري والاضطرابات التي نشبت على اثر سقوط نظام الاستعمار البرتغالي ٠ اضطر رئيس الوزراء فورستر الى تناول الموضوع ثانية والاسراع في تقديمه كشكل من اشكال الحكم الذاتي للافريقيين ٠ ويأمل في ان تؤدي خطوته هذه الى نزع شعلة المعارضة الدولية ، وشق صفوف الدول الافريقية ، حول مسألة الاعتراف بهذه الدول ـ المسخ ، وحرمان الافريقيين نهائيا من القاعدة الشرعية لمطالبتهم بقيادة سياسة بلادهم، حيث يصيرون غرباء بشكل رسمي ٠ ان اعلان استقلال الترانسكاي في ٢٦ تشرين اول ١٩٧٦ سوف يكون امتحانا لحكومة بريتوريا ٠ فاذا تم الاعتراف بالدولة الجديدة ، تكون العملية قد بدأت ٠ والدولة البيضاء استطاعت ازالة عواقب سياستها العنصرية ٠

لكنها خدعة فظة ٠ فاقامة البانتوستان ، هو الانجاز النهائي لنظام التمييز العنصري٠ ويظهر بوضوح ، أن هذه « الكيانات القومية » ، البائسة ، المتجزأة ، المزدحمة بالسكان ، والتي تفتقر للثروات الطبيعية والبنى الاقتصادية ، وحيث يتشكل موردها الرئيسي ، من اجور عامليها في المناجم والمصانع والمزارع « البيضاء » ، ستبقى خاضعة لبريتوريا بشكل وثيق ٠

لقد ادانت حركات التحرر والمنظمات الدولية (الامم المتحدة ، منظمة الوحدة الافريقية ، المجموعة الاقتصادية الاوروبية) هذه العملية ، باعتبارها طعنة لوحدة اراضي جنوب افريقيا · ولم يعترف اي بلد حتى الان ـ ما عدا جنوب افريقيا ـ بالترنسكاي كدولة مستقلة ·

ولكن حكومة جنوب افريقيا ، لن تتوقف عن محاولة احراز اعتراف امر واقع بالتوستان· وهذه هي وسيلتها الاخيرة لاطالة امد سيطرتها العنصرية ، وسحق الشعور القومي الافريقي ، عبر اعادة احياء النزعات القبلية القديمة ·

الدولة الصهيونية

« اعادة فتح » او « خلاص » ارض اسرائيل لمصلحة « الشعب اليهودي » وحده ، كانت الهدف الاول للزعماء الصهاينة · وقد انشأت المنظمة الصهيونية العالمية منذ عام ١٩٠١ مؤسسة خاصة بهذا الهدف : الصندوق القومي اليهودي ، واوكلت اليه مهمة مركزة شراء، او الاقتناء بطرق اخرى ، لاراضي فلسطين · وتصبح هذه الاراضي ملكية « غير قابلة للتصرف » للشعب اليهودي · وينتفع بها المستوطنون بنوع من الايجار الوراثي ، ويلتزمون بتشغيل اليد العاملة اليهودية فقط · (في المرحلة الاولى كان المهاجرون من اليهود الشرقيين يقدمون اليد العاملة ، من قطع الاخشاب الى حمل المياه) ·

وبانتظار « البراءة » التي سيقدمها وعد بلفور للحركة الصهيونية ، عمل الصندوق القومي اليهودي على تأسيس بنى سياسية ومالية واقتصادية من اجل تأطير عمل في بادىء الامر ، كانت تتم العملية عبر شراء الاراضي من الملاكين العرب الكبار ، وطرد الفلاحين الذين يعملون عليها · عام ١٩٤٧ ، كان الصندوق القومي اليهودي يملك ٩٢٨ الف دونم اي ما يعادل ١/٧ من اراضي فلسطين ، وكان الجزء الاكبر منها مخصصا للمهاجرين المستقبليين ·

اعطى قرار التقسيم عام ١٩٤٧ ، الاساس الشرعي الاول للاستيطان الصهيوني · وما ان اعلنت بريطانيا عن نيتها في الانسحاب من فلسطين ، حتى بدأت القوات الصهيونية بتوسيع البقعة المخصصة لها واخلائها من سكانها العرب بالحرب او الارهاب · (دير ياسين هو الرمز ، لكنه ليس المثل الوحيد عن الطرق المستخدمة) · وتكتمل هذه العملية الهجومية عبر منع اللاجئين من العودة الى ديارهم ·

هذه العملية المزدوجة في اقتناء الاراضي ، واقتلاع السكان المحليين من اجل انشاء مستوطنات يهودية ، استمرت بعد عام ١٩٤٨ على أسس « شرعية » ، انطلاقا من قوانين موروثة عن عهد الانتداب البريطاني ، او قوانين سنتها الحكومة الاسرائيلية نفسها · ونورد هنا أهم هذه القوانين ·

قرار الاستملاك باسم المصلحة العامة · والهدف العملي منه ، هو نقل ملكية الاراضي الى المحتلين اليهود ·

القرار الخاص بالمناطق المحرمة · الذي سمح بالاستيلاء على اراضي ٢٠ قرية ، بعد افراغها من سكانها ·

القرار الخاص بالارض البائدة · الذي كان الوسيلة الشرعية لتبرير احتلال القرى

التي اخليت من سكانها بعد ان اعلنت « مناطق محرمة » ٠

القانون المتعلق « بالغائبين ـ الحاضرين » ٠ الذي سمح بنزع ملكية عشرات الفلسطينيين المقيمين في اسرائيل ، ويعتبرون «غائبين » ٠ وعلى هذه الاراضي المصادرة ، انشئت مئات المستوطنات الزراعية بين ١٩٤٨ و١٩٥٣ ٠

عمليات النهب هذه ، التي بدا وكأن وتيرتها قد خفت بعد الغاء الحكم العسكري عام ١٩٦٦ ، اخذت في الازدياد منذ فترة قصيرة في اطار « تهويد الجليل » ٠ لقد خشيت السلطات الاسرائيلية من الخطر الذي يهدد « الدولة اليهودية » امام التزايد الديمغرافي والتأثير السياسي المتصاعد للسكان العرب في هذه المنطقة المتاخمة للضفة الغربية المحتلة ٠

لقد اظهر تحقيق جرى في اسرائيل عام ١٩٦٣ ، ان العائلة الفلاحية الواحدة كانت تملك عند انشاء دولة اسرائيل ما معدله ١ر٥ هكتار من الارض ٠ اما عام ١٩٦٣ فأصبحت تملك ٤٦ر٠ هكتارا ، ولا يزال هذا الرقم في انخفاض ٠ فقرية « ام الفحم » التي كانت تمتد على مساحة ١٤ الف هكتار لم يعد لديها الان سوى ١٢٠٠ هكتار ، رغم ان عدد سكانها تزايد بنسبة كبيرة (وردت هذه الارقام في مقال ا٠ كابيليوك ٠ صحيفة « الموند » ١ـ٦ـ٧٦) ٠

لقد اخذت عملية الاستيطان الصهيوني بعدا اخر بعد حرب ١٩٦٧ ، مع احتلال اراض عربية جديدة ، اعتبرها الفريق الاسرائيلي الحاكم جزءا من ارض الوطن ٠ فالجنرال دايان مثلا : « نادى بانشاء دولة اسرائيل الجديدة بحدودها الواسعة ٠ القوية ، المتينة والافضل من تلك التي فرضت علينا بعد حرب « الاستقلال » عام ١٩٤٨ ٠ واضاف : في تصرفنا الان شروط لم نحظ بمثلها في الماضي (٣٢) » ٠

اما رئيسة الوزراء غولدا مائير فتؤكد : « تنتهي الحدود في الاماكن التي يقيم فيها اليهود ، وليس في خطوط الخرائط (٣٣) » ٠

تطورت سياسة الامر الواقع هذه ، ووجدت تبريراتها الدينية والامنية ٠ فانشئت المستوطنات في مرتفعات الجولان والضفة الغربية وسيناء ٠ ولم تكن هذه الكيبوتزات والموشافات والناحالات متروكة للصدفة ٠ بعض هذه المستوطنات هي مراكز عسكرية حقيقية ، وبعضها الاخر منظم بشكل يحدد المناطق التي تنوي اسرائيل الاحتفاظ بها حتى في اطار التسوية السلمية ٠ والمشاريع المعدة حول هذا الموضوع على مستوى غير رسمي (مشروع ألون ، مشروع اوفر ٠٠٠) تفضح النية الغامضة : **الاحتفاظ باكبر مساحة ممكنة من الارض ، مع اقل عدد ممكن من السكان العرب** ٠

وقد رأينا كيف يمكن ان تعلن منطقة ما غير مأهولة ٠ جميع البيانات والتنديدات والانذارات الدولية حتى تلك التي تصدر عن الشيوخ الاميركيين ، اصدقاء ـ لم تمنع الوكالة اليهودية من الاعلان عن نيتها ، ومنذ فترة قصيرة ، في انشاء ٢٧ مستوطنة جديدة في الجولان والضفة الغربية ومنطقة رفح ، الى جانب المستوطنات الستين التي وجدت في الارض المحتلة وذلك قبل عام ١٩٧٢ ٠

لا تنحصر اطماع اسرائيل التوسعية في الارض المحتلة ١٩٦٧ ٠ فهي دائما تتطلع الى جنوب لبنان ، يقول بن غوريون في مذكراته (ايار ١٩٧٤) : « لبنان هو عقب اخيل

بالنسبة للتحالف العربي · ان السيادة المسيحية على هذا البلد مصطنعة ويمكن اسقاطها بسهولة · يجب اقامة دولة مسيحية ، تكون حدودها عند الليطاني ، ونتمكن من ابرام معاهدة تحالف معها » · ورد في صحيفة « دافار « مؤخرا (١٤ـ٤ـ٧٥) « اسرائيل مهتمة بمياه الليطاني ، الذي يصب ٧٠٠ مليون متر مكعب سنويا · وكان جونستون ، قد رفض الطلب الاسرائيلي لضم الليطاني الى مشروعه · وتعطي بيروت حاليا دفعة جديدة لمشروع التنمية الخاص بالليطاني · فعلى اسرائيل ان تقرر ، هل تبقى مكتوفة الايدي او تقوم بحملة من اجل هذا الموضوع » ·

صحيح ان جزءا هاما من مياه الليطاني تذهب هدرا في البحر · لكن اللبنانيين يشيرون الى ان احداثا طارئة تواجههم كلما استأنفوا بناء شبكة القنوات · ونحن نعلم ، ولو بشكل جزئي ، مدى تدخل اسرائيل المتعدد الاوجه في الحرب التيْ دارت مؤخرا في لبنان · واحتلالها الحالي (المباشر او بواسطة المجموعات الكتائبية المسيحية التي تسلحها) لجنوب هذا البلد ·

تختبىء الطموحات التوسعية الاسرائيلية ، حاليا خلف حجة « الحدود التي يمكن الدفاع عنها » · والتي تمر في نهر الاردن ومرتفعات الجولان ، محددة الاراضي التي تعتبرها الدولة الصهيونية ضرورية لامنها ، (اي ما يشكل ثلث الضفة الغربية) · يعترف المعلق الاسرائيلي ارئيل جيني (يديعوت احرونوت ٧ـ١ـ٧٧) انه هنا ، يكمن السبب الحقيقي لرفض القادة الاسرائيليين المتصلبين لقبول مبدأ الدولة الفلسطينية · اما الجنرال دايان ، منظر ومحرك سياسة الامر الواقع في الاراضي العربية المحتلة ، فانه لا يتردد في التأكيد على انه : :« يفضل حربا جديدة على مشاهدة انشاء دولة فلسطينية بين اسرائيل والاردن » · (جيروزاليم بوست ، ٧ـ١ـ٧٧ ، يشير اليه ا· كابيليوك في لوموند ديبلوماتيك اذار ١٩٧٧) ·

في الوضع الحالي ، وفي مواجهة الضغوط التي تمارس عليها · يبدو ان الهدف المشترك للمسؤولين الجنوب افريقيين البيض ، والاسرائيليين الصهاينة ، هو العمل على التأجيل والمراوغة ، من اجل ابقاء البنى العصرية ، والعمل في الوقت نفسه على تمديد الاستغلال · والاصرار على الخاصية العرقية او الدينية ·

استغلال اليد العاملة الافريقية والعربية

ان اجراءات الاغتصاب والعنصرية ، التي تحد من حقوق الاقامة والتنقل ، تحكم على الشعب الافريقي في جنوب افريقيا ، والشعب العربي في « اسرائيل » والارض المحتلة بالتحول الى نوع من البروليتاريا المهاجرة ، المضطرة الى بيع قوة عملها بأجور زهيدة للاقتصاد الابيض من ناحية والاقتصاد الاسرائيلي من ناحية ثانية ·

وفي الحالتين ، تخضع هذه اليد العاملة للتمييز المنسق : تخصص لها الوظائف الثانوية ، التي لا تتطلب مهارة عالية ، في مقابل اجور ادنى بكثير من أجور العمال البيض او اليهود للعمل نفسه ·

في جنوب افريقيا ، يمنع قانون تخصص الوظائف ، الذي يجعل افضل الوظائف من حق البيض وحدهم ، عمل الافريقيين في بعض قطاعات النشاط الاقتصادي وخاصة الوظائف التي تتطلب مبادرة ومسؤولية · وهناك مكاتب مهمتها تعيين عدد العمال السود

الذين يدخلون « المناطق البيضاء » حسب الحاجات التي يصرح عنها ارباب العمل البيض · لا يمكننا ان نتناول درس اوالية وشروط عمل الافريقيين في ظل نظام التمييز العنصري · لقد تمكن الرأي العام من اخذ صورة عن شروط العمل هذه ، من خلال الاشرطة التلفزيونية حول فقدنة سويتو SOweto الفيتو الاسود الضخم حيث يعيش مليون عامل على بعد ٣٠ كلم من جوهانسبرغ ، « المدينة البيضاء » حيث يعملون ·

في اغنى بلد في العالم بالمعادن الثمينة (الذهب ، الماس ، البلاتين ، المنغنيز الخ ··)· يعيش العمال في بؤس فظيع · معدل الدخل في معظم العائلات ، هو دون الحدالرسمي للفقر · فعمال المناجم مثلا : « محبوسون في مخيمات تشبه السجون ، يتكلمون لغات مختلفة ويخضعون للرقابة والتجسس ··· وكلما حاولوا تنظيم انفسهم ، يواجهون عذر ارباب العمال وعداء العمال البيض وقسوة القانون الذي لا يرحم (٣٤) » ·

اما تباين الاجور في العمل الواحد فكبير جدا · يتقاضى العامل الابيض بين ١٠ الى ٢٠ درجة اكثر مما يتقاضى العامل الافريقي · نشير هنا الى الارقام المتعلقة بأجور العمال في مناجم الذهب عام ١٩٧٣ :

معدل الاجر الشهري للشخص الواحد :

الابيض : ٨٩٨ راند ·
الافريقي : ٤٤ راند ·

(ارقام منظمة الامم المتحدة · ايلول ١٩٧٦) ★

اما نسبة حوادث العمل فمرتفعة جدا · اودت بحياة ١٩ الف شخص في مناجم الذهب بين عامي ١٩٣٦ و١٩٦٦ ، ٩٣٪ منهم من السود · ولا توجد ارقام تتناول الموت البطيء نتيجة الامراض الرئوية ، ولا توجد ارقام لحالات العجز (العاهات) النهائية · العامل الذي يمرض او يصاب بعجز ما نتيجة حادث عمل يعاد الى « معسكره » بكل بساطة · لقد دفع هذا الوضع الى نشوب حركات اضراب مهمة ، رغم ان الاضرابات محظورة على الافريقيين · وتقمع بوصفها جريمة · كما يعتبر فسخ عقد العمل من جانب العامل الافريقي جناية اجرامية على المستوى القانوني ·

ولن تساهم عملية انشاء « بانتوستانات » مستقلة ، الا في جعل الوضع اكثر دراماتيكية · فهذه المناطق متخلفة الى درجة انها لا تستطيع تأمين عمل سوى لـ ٢٥٪ من السكان · وفي الترانسكاي وحدها هناك ٣٨٠ الف شخص يبحثون عن عمل في « المنطقة البيضاء » · اما حكومة بريتوريا ، التي تريد المحافظة على هذا المخزون الذي لا ينضب من الايدي العاملة الرخيصة · فمشكلتها تكمن في زيادة مساعداتها ، حتى تتمكن هذه « البانتوستانات » من امتصاص جزء من البطالة التي تعم جنوب افريقيا حاليا · دون ان يتسنى لها الوصول الى مستوى اقتصادي يسمح لها بتوفير المعيشة لكافة السكان · واعلن السيد بوشا ، وزير شؤون ادارة « البانتوستانات » في حكومة جنوب افريقيا : « ان اقتصاد « البانتوستانات » مرتبط ارتباطا وثيقا باقتصاد جنوب افريقيا ، ومن الواضح ان تطور هذه « الاوطان » يجب ان لا يصل الى حد يصبح معه عائقا لاقتصاد البلد (افريقيا الجنوبية البيضاء) » ·

★ الراند هو الوحدة النقدية في جنوب افريقيا · وقيمتها دولار اميركي او اكثر ·

يواجه نظام جنوب افريقيا تناقضات عميقة داخل نظامه الاقتصادي · ويبدو انه غير قادر على تجاوزها الا بالقمع ، او عبر اجراءات شكلية غير فعالة · كل هذا من اجل المحافظة على مبادئه العنصرية وامتيازات البيض الاستثنائية · ومع ذلك ، ورغم جميع المحاولات التي اتخذت لشق صفوفها ، اكدت الجماهير الافريقية على وعيها الاجتماعي والقومي ·

العمال العرب في الاقتصاد الاسرائيلي ·

كان نظام **العمل العبري** ، احد الاساليب الرئيسية للاستيطان الصهيوني الى جانب مبدأ الملكية القومية للارض · والهدف هو الاستغناء عن اليد العاملة العربية في المؤسسات اليهودية ، وحماية الانتاج اليهودي عبر مقاطعة المنتوجات العربية · وكانت وظيفة الهستدروت هو العمل على تشييد المجتمع اليهودي وترسيخ النموذج الجديد للعامل اليهودي ·

لكن مثالية المساواة هذه ، لم تصمد امام المفارقات الاجتماعية الناتجة عن وصول دفعات ضخمة من المهاجرين اليهود الشرقيين ، الذين شكلوا في بادىء الامر « قطاعي قطع الاخشاب وحمالي المياه » · كما ان التصنيع الذي شجعته الهجرة الاوروبية ومساندة « الدياسبوار » الشتات ، ادى الى اندماج السكان العرب الذين بقوا في اسرائيل باقتصاد الدولة ، والذين بدأوا يشكلون تدريجيا الطبقة الكادحة ·

لكن القيود التي وضعت امام التنقل وحق التنظيم للعمال العرب ، ساهمت في كبح منافسة الايدي العاملة العربية ذات الاجور المنخفضة ·

يصف صبري جريس في كتاب « العرب في اسرائيل » ، الشروط المعيشية للفلاح العربي ، القابع في قريته المهددة بالاختناق (نقص في الاراضي والوسائل التقنية ، بيع المنتوجات بأسعار متدنية) · وللعامل العربي ، الذي يعمل في المزارع وورش البناء ومختلف الخدمات اليهودية · فهو « غير منظم » ومعرض بالتالي لخطر الطرد والبطالة ·

واذا كان وضع العمال العرب قد تحسن في السنوات الاخيرة · فالتعليلات الصهيونية موجودة في وثيقة كيننغ · يقول متصرف لواء الشمال : « الفارق الشاسع بين العرض والطلب على الايدي العاملة في الاقتصاد بكل فروعه وخاصة فرع البناء وورش اصلاح السيارات وكل الاعمال اليدوية بشكل عام · والتبعية التي تميز فروع اقتصاد كثيرة مرتبطة بهذه الايدي العاملة » · ويبدي قلقه « كثرة عدد العمال العرب في المصانع والمشاريع قد يؤدي الى الاسراع في عملية الاحتكاك بين اليهود والعرب · ومن شأن ذلك ان يتطور الى اصطدامات غير مسيطر عليها » · « وخوفا من سيطرة حزب راكح على لجان العمل » · ويقترح بالتالي : « وضع اتفاقات مناسبة مع كل ادارة مشروع او معمل خاضع « لقانون استثمار رأس المال » في المناطق الحساسة ، بحيث لا يزيد عدد العمال العرب فيها عن نسبة ٢٠٪ والتوصل الى تسوية مع مصادر التسويق المركزية للمواد الاستهلاكية على انواعها ، يكون من شأنها تحديد الوكلاء العرب ووضع العقبات امامهم بغرض منع اعتماد السكان اليهود على الوكلاء العرب وخاصة في اوقات الطوارىء (٣٥) »·

كما سبق وذكرنا ، فالتشابه صارخ بين مصير العامل الافريقي المقيم في البانتوستان ، والمواطن الفلسطيني في الارض المحتلة الذي يعمل في اسرائيل ·

كانت الاراضي المحتلة من قبل اسرائيل عام ١٩٦٧ ، مصدرا لارباح كثيرة · فالاحصاءات التي صدرت في تشرين الثاني عام ١٩٧٦ ، تشير الى ربح اجمالي بقيمة ٣٨٧ مليون ليرة اسرائيلية للمؤسسات المعنية ··· عبر التصدير والاستيراد ، والانتاج الصناعي للمقاولين العرب · لكن مصدر الربح الصافي يرجع الى التفاوت بين اجور العمال المقيمين في الارض المحتلة واجورهم في اسرائيل · ويقدر هذا الفرق بـ ٦١٥ مليون ليرة ★ · فمعدل الاجور في الحالة الاولى هو ١٠٨٥ ليرة في الشهر ، بينما يصل هذا المعدل الى ٢٤٦٦ للعامل الاسرائيلي · وقد وصل عدد الاجراء الذين يأتون من الارض المحتلة ، للعمل في اسرائيل (عمال زراعيون ، عمال بناء ، عمال غير مهرة) الى ٦٦٥٠٠٠ عام ١٩٧٤ · ٤٣ الفا منهم « منظمون » و ٢٣ الفا « غير شرعيين » · بعد ان كان لا يتجاوز ٤ الاف عام ١٩٦٨ · وانخفض هذا العدد الى ٦٣٩٠٠ عام ١٩٧٥ بسبب التردي الاقتصادي السائد في اسرائيل ·

وعدا عن كون هذه اليد العاملة تتقاضى اجورا زهيدة ، ففائدتها هي في سهولة تسريحها في مراحل التأزم الاقتصادي · يعترف معلق اسرائيلي علنا : « لقد اكدت الازمة الحالية اهمية عمال الارض المحتلة بالنسبة لاقتصادنا ·· فاذا كان امر تسريح عامل اسرائيلي او نقله دون موافقته وزيادة مرتبه شبه مستحيل · فمن السهل جدا نقل أي عامل عربي ، ومن الممكن تسريحه في أي وقت · لا يحق له القيام بالاضراب ، ولا تقديم مطالب العامل اليهودي · فاذا ساد الوضع في احد المصانع ، يكون العمال العرب اول من يسرحون · ازدادت اجورهم بنسبة ٤٠٪ منذ عام ١٩٧٥ ، لكن الفرق بين هذه الاجور واجور العمال اليهود بقي كبيرا (٣٦) » ·

والشروط المعيشية لهؤلاء العمال الدائمي الهجرة سيئة الى درجة دفعت احد الصحفيين الاسرائيليين الى الاعتراف بأنه صادف اكواخ « العم توم » في اسرائيل · وقد ادى حادث مأساوي اعترف الصحفي انه « عادي » في اسرائيل : عثر على ثلاث جثث لعمال شباب عرب احرقوا وهم على قيد الحياة في مستودع حيث اقفل عليهم رب العمل باب المستودع من الخارج طوال الليل · هكذا يتجنب ارباب العمل اليهود دفع الضرائب المتوجبة عن العمال العرب · ويقفلون عليهم ، تجنبا لضبطهم عند المساء من قبل رجال الشرطة ·

ان هذا الاستغلال الاستعماري ، بعيد جدا عن المثل الاعلى للرواد الصهاينة الاول ، رغم انه الثمرة البديهية والطبيعية لحركة صهيونية قاصرة وعنصرية ·

ورسائل النساء اليهوديات المرسلة للسيدة مئير ، تشهد على تفكك المجتمع الاسرائيلي ، تكتب احداهن : « لا توجد مشكلة ايد عاملة بالنسبة لزوجي · فاليد العاملة رخيصة ومتوفرة · لدينا اليوم خمسة عمال عرب في الموشاف · لقد وصلنا الى حد لا يحتاج فيه احدنا الى رفع خنصره · يقولون : « ليقم محمد بعمل كذا وكذا » · اولاد واولاد الموشاف يكبرون تحت عيني كأولاد الاغنياء من اسوأ نوع (٣٧) » · ويعتذر معلق اسرائيلي تتجاوز رؤيته الفوائد المادية الآنية للاحتلال قائلا : « لقد اصبح استمرار الاحتلال سرطانا ينخرنا ··· ادى الى بروز نظام شبه استعماري ، وطبقة من الطغاة تستمتع بقدرة كلية ، وتستبد بالشعب المسيطر عليه ·· ان وضعا كهذا سوف يجرنا بالتأكيد الى الفساد (٣٨) » ·

★ يساوي الدولار الاميركي عشر ليرات اسرائيلية ونصف ·

التمييز

ان اشكال التمييز والاضطهاد التي يعاني منها الافريقيون في ظل نظام التمييز العنصري في جنوب افريقيا ، معروفة بشكل عام (رغم ان الرأي العام لا يعرف في معظم الاحيان سوى جوانبها التافهة ، وليس جوانبها الاساسية) · اما التمييز والاضطهاد الذي تعاني منه الاقلية العربية في اسرائيل ، فلم يلمحها الجمهور الغربي عامة ، الا عبر تظاهرات « يوم الارض » في اذار ١٩٧٦ ، حيث مارست السلطات الاسرائيلية قمعا مكشوفا ·

لن نتناول هنا جميع اشكال التمييز ، بل سنتوقف عند الظاهرة الاكثر بروزا ودلالة ، والتي تكشف نوايا النظامين المعنيين · وهي ظاهرة التمييز في التربية والتعليم ·

عبرت حكومة جنوب افريقيا ، ومنذ زمن طويل عن المبادىء التي تستلهمها في هذا الشأن · فقد قدم رئيس الوزراء فورستر عام ١٩٥٣ لقانون التربية والتعليم في « البانتوستان » على النحو التالي : « تتلخص سياسة وزارتي ، في كون تربية المحليين يجب ان تكون اقدامها في البانتوستان ، وجذورها في روح المجتمع الافريقي ـ البانتو ـ ··· اذ لا يفسح المجتمع الابيض للافريقي اكثر من بعض المجالات للعمل ·· يجب ان لا نخدعه ، ونعرض عليه المراعي الخضراء الخاصة بالمجتمع الاوروبي (٣٩) » · ويؤكد وزير شؤون المحليين على هذا قائلا : « التعليم يجب ان ينشىء الناس ويثقفهم حسب المنافذ التي ستفتح امامهم ، وحسب الوسط الذي يعيشون فيه · وبالتالي ، يجب أن تتوافق تربية المحليين مع سياسة الدولة · فالعلاقات العنصرية لن تتحسن ، اذا قادت تربية المحليين الى الشعور بالكبت (٤٠) » ·

يتحدد النظام التعليمي ، ومستوى المدرسين وتدريبهم ، ومضمون المناهج والاعتمادات المخصصة انطلاقا من هذه المبادىء ·

فالعلم اختياري وغير مجاني بالنسبة للافريقيين · (بينما هو اجباري ومجاني للاطفال البيض حتى سن السادسة عشرة) والعائلات الافريقية هي اجمالا اكثر فقرا من ان تتحمل نفقات التعليم · يؤدي هذا الوضع الى هبوط نسبة الالتحاق بالمدارس بمقدار ٧٠٪ بعد السنتين الاوليين المنهجيتين في المرحلة الابتدائية · ومن اصل ٣٫٠٣٦ طفل مسجلين عام ١٩٧١ ، لم يلتحق سوى ١٣٩ الفا في المدارس الثانوية · ويصل هذا العدد الى ٢٨١٦ مسجلين في الجامعات البانتو (المنفصلة) · اما التعليم المهني فهو ضعيف بشكل خاص : لا يقبل الافريقي في الوظائف التي تتطلب اختصاصا · اذا كان الاقتصاد بحاجة الى اختصاص فانه يتلقى شبه مهارة · وتشير المصادر نفسها (منظمة الامم المتحدة) الى ان الحكومة تخصص ما معدله ٢٨٥ راندا في السنة للطفل الابيض ، و ٢٠ راندا للطفل الافريقي ، أي اقل من العشر ·

يعطى التعليم في احدى اللغات القبلية المتعددة : وهذه هي احدى وسائل النظام لمنع الاتصال بين المجموعات الاثنية المختلفة ، ولكبح تنامي الوعي القومي · كما ادخلت دراسة العرق في المناهج ويعرف الافريقيون للتلامذة على انهم « يهاجمون الابيض دون أي استفزاز ··· تهمل هذه الصورة الهجومات التي ارتكبها الاوروبيون ، والتحديات التي يتحملها الافريقيون ، وضياع اراضيهم ، وشجاعتهم في النضال دفاعا عن بلدهم ضد الغزو » · ويسجل تقرير الاونيسكو المشار اليه سابقا ما يلي : « لا تقتصر عدم

المساواة ، في وجود فرص غير متكافئة للاعراق المختلفة ، بالنسبة لامكانية الوصول الى مستوى من التعليم العام يؤهل لمتابعة التثقيف التقني أو الدراسات العليا ، ولا تقتصر كذلك على كون المؤسسات التعليمية الخاصة بغير البيض ذات مستوى ادنى بكثير من المؤسسات الاخرى · بل نلاحظ ايضا ، انه من الصعب جدا لغير البيض ان يشقوا طريقهم في الحياة ، بعد هذه الفترة من التأهيل ، نظرا لكون امكانيات العمل المتاحة محدودة جدا » ·

نجد في السياسة التربوية الاسرائيلية تجاه الاقلية العربية ، المبادىء الاساسية نفسها ، خاصة في مجال علاقة التعليم والوظيفة · تفسر السلطات : « ان دونية العرب الاجتماعية ناجمة عن انخفاض مستواهم التعليمي · وبالضبط ، على مستوى التعليم يتشكل اخطر نفي للعدالة (٤٢) » · ونجد ان احد اكبر اهتمامات الحكومة ، هو كبح وصول العرب الى التعليم العالي ، مثل جنوب افريقيا ، وللسبب نفسه · (رفض اشراكهم في السلطة) · وقد صرح ادري لوبراني ، مستشار رئيس الوزراء للشؤون العربية عام ١٩٦١ : « من المفضل لدينا عدم وجود طلاب عرب · اذ لو بقي العرب حمالي حطب ، لكانت مسألة اخضاعهم اكثر سهولة · لكن هناك امور كثيرة ، لا تتعلق بنا ولا يمكن تجنبها ، كما يجب العمل على تقليل الاضرار الناجمة عنها (٤٣) » ·

يرتبط عدد المدارس ونسبة التردد اليها بالوضع العام للسكان العرب ، بقدر ارتباطه بنوايا الحكومة · يقدم صبري جريس بعض الارقام لعام ١٩٦٣ : ٦٤ مدرسة عربية لاولاد العمال (مقابل ١٤٠ مدرسة يهودية) ، ٤ مدارس تقنية عربية (مقابل ١٣٨ مدرسة يهودية) الخ · ويشير الى حالة الفقر التي تعاني منها المدارس العربية (المباني ، التجهيزات ، النقص في الكتب ··) « ان مستوى التعليم في المدارس العربية منخفض جدا ، ليس فقط بالنسبة للتعليم اليهودي ، بل وايضا ، نسبة الى وضع التعليم الحالي في جميع بلدان الشرق الاوسط ، ونسبة للتعليم في فلسطين تحت الانتداب (٤٤) » ·

واذا كانت السياسة التعليمية في جنوب افريقيا ، قد ارتكزت على تشجيع استخدام اللغات القبلية ، فانها في اسرائيل ، وعلى العكس من ذلك ، تتجه نحو الحد من تعليم اللغة العربية قدر الامكان · لكن الهدف واحد في الحالتين ·

اما فيما يتعلق بتدريس التاريخ ، فانه يميل الى ابراز تاريخ العالم العربي ، بطريقة مغرضة بوصفه : « سلسلة من الانقلابات والنزاعات والسرقة والنهب · وهذا في سبيل التقليل من اهمية الانتصارات العربية عبر العصور · وفي المقابل ، يمجد التاريخ اليهودي ويجري تجميله (٤٥) » ·

وهكذا ، كما يقول صبري جريس ، يجهل التلميذ العربي فيالمدرسة الابتدائية كل شيء عن الفترة التاريخية التي تمتد من القرن الرابع عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر · اما في سنوات المرحلة الثانوية الاربع ، فهناك ٣١ ساعة مخصصة لتدريس تاريخ العرب ، مقابل ٣٨٤ لتدريس تاريخ اليهود ·

نشير هنا ، الى أن عددا كبيرا من اطفال الضفة الغربية وقطاع غزة ، يستخدمون بعمر مبكر جدا في الاعمال الزراعية (دون تقاضي اجور عمليا) منذ احتلال الاراضي عام

١٩٦٧ · ويفسر معلق اسرائيلي عدم وجود زيادة ملحوظة في الرقم الرسمي لاعداد العاطلين عن العمل ، رغم الازمة ، بقوله : « ··· ان معظم الذين كفوا عن العمل هم من النساء ، كن يأتين الى اسرائيل عندما تقتضي الحاجة ، ورجعن اليوم الى نشاطهن المنزلي ··· والوضع نفسه فيما يتعلق بالاطفال العديدين الذين كانوا يشكلون زيادة في اليد العاملة ، خاصة في الزراعة ، تبعا للحاجة ··· (٤٦) » ·

وفي هذا المجال ، كما في مجالات اخرى ، يقع النظام الاسرائيلي في تناقض لا يعرفه نظام بريتوريا : التقيد بالصورة « الديموقراطية » التي يتقنع بها امام الخارج · وفي الوقت نفسه ، الاستجابة للمتطلبات العنصرية اليهودية التي هي مبرر وجوده ··· اذا ، تطور وضع الاقلية العربية عبر السنوات وخاصة على الصعيد التربوي · ولكن العقلية التمييزية بقيت وظهرت جليا في وثيقة كيننغ المشار اليها · يأسف واضع الوثيقة لكون : « ··· التحسن في الوضع الاقتصادي والامن الاجتماعي لدى الفرد والعائلة ، دفع عددا كبيرا من الطلبة الى المدارس الثانوية ومعاهد الدراسة العليا » · ويفسر كيف ان صعوبة انطلاب العرب للعثور على وظائف تتناسب مع تحصيلهم العلمي ، ادت الى خلق قطاع من « المثقفين المتذمرين » الامر الذي يؤدي الى انضمامهم الى صفوف المعارضين ··· ينبغي اذا حسب رأيه « تخفيض عدد الطلاب العرب بنسبة ملحوظة » ويقترح لذلك عدة وسائل : وضع اسس تفضيلية لقبول الطلبة وتوزيع المنح الدراسية ، الخ · كما ينصح السلطات : « تسهيل السفر الى خارج البلاد بغرض التعليم ووضع العراقيل امام عودتهم وانخراطهم في العمل ، فمثل هذه السياسة من شأنها ان تشجع هجرتهم » ·

هناك اجراء آخر يذهب في نفس الاتجاه : « تجنب اعطاء المنح للعائلات عديدة الاولاد لدى السكان العرب··· بواسطة مصادرة هذه الاموال من التأمين الوطني واعطائها للوكالة اليهودية او المنظمة الصهيونية العالمية بحيث تكون مخصصة لليهود فقط » ·

« اليس مصير الافريقيين في جنوب افريقيا افضل من مصيرهم في بلدان افريقية اخرى ؟ » او « ان مصير العرب في اسرائيل هو بالتأكيد افضل من مصير المواطنين في البلاد العربية الاخرى ! ··· » تلك هي « الحجج » التي يرددها دائما اناس صادقون لا يملكون المعلومات الكافية ، ضحايا دعاية جنوب افريقيا والدعاية الصهيونية ···

يجيب رئيس بلدية الناصرة ، توفيق زياد ، على هذه الحجة بشكل ينطبق على الحالتين : « ليس علي ان اقارن وضع العرب الاسرائيليين بوضع العرب في البلاد العربية : فهذا امر محال ، لان الوضع يختلف تماما · اذا اردنا البحث جديا في مطالب العرب التي تتناول التمييزات التي يعانون منها ، يجب مقارنة تطور وضعهم منذ عام ١٩٤٨ الى **تطور الذي عرفه اليهود في الفترة نفسها** · وفي الحقيقة ، لا يوجد اي مجال للمقارنة ! ان في مجال الاقتصاد او الثقافة او التعليم ، او في مجال الخدمات العامة او المسؤوليات المحلية ··· **اينما كنا في هذا البلد** ، فاننا نشعر يوميا ، ساعة بعد ساعة ، بنتائج سياسة التمييز التي تتبعها الحكومة (٤٧) » ·

القمع

طرح بعض الجنوب افريقيين ، هذا السؤال على صحفي اسرائيلي : « كيف تتمكنون من ابقاء اكثر من مليون نسمة هادئين ؟··· » (٤٨) ·

فمن الواضح ان انظمة اسست على عقيدة وتشريع وممارسات تمييزية ، لا يمكنها ان تحافظ على نفسها الا استنادا الى جهاز تشريعي وبوليسي يشتد باستمرار ٠

ولكن اذا نظر عامة الى نظام جنوب افريقيا على انه دولة بوليسية ، فالامر يختلف تماما بالنسبة لاسرائيل وذلك لاسباب اشرنا اليها بصورة سريعة : دعاية المنظمات الصهيونية المكثفة والتي تغذي لدى الرأي العام استمرار الـ (Tabou)المنوعات ، وردات فعل المراقبة الذاتية عند مسؤولي وسائل الاعلام وسكوت المنظمات « المختصة » في فضح التعديات على حقوق الانسان والتعذيب الخ ٠٠ **والابتزاز بالاتهام باللاسامية** له تأثير خاص ضد الذين يجرؤون على فضح معاملة الاسرائيليين للسكان الفلسطينيين ٠

ونتج عن ذلك جهل عميق لدى الرأي العام الغربي ٠

واذا عارض البعض بقوله : ان دولة اسرائيل لا تطبق قانون الاعدام بينما تحتفظ جنوب افريقيا بالرقم القياسي في هذا المجال ٠٠٠ يمكننا الاجابة بالتالي :

١ ــ تطالب باستمرار بعض القوى في اسرائيل تطبيق قانون الاعدام ضد «المخربين» ٠

٢ ــ يرجع عدم تطبيق قانون الاعدام الى اسباب سياسية اكثر مما هي اسباب انسانية ٠٠٠ فدولة اسرائيل تعرف عن نفسها « ديموقراطية متقدمة » ولذلك يؤيدها جزء كبير من يهود الدياسبورا (خاصة في الولايات المتحدة) ٠ والجدير بالذكر هنا قول الجنرال أ ٠ شارون الذي اعلن في نفس المقابلة انه يجب « قتل جميع المخربين ، اينما وجدوا » ، ومع ذلك يعارض اعدامهم بطريقة شرعية : « ٠٠٠ اذا حكمنا عليهم بالاعدام ، ستخضع الدولة الى ضغوطات مستمرة من قبل « ذوي الاخلاق الكريمة » او ستندفق الوفود والعرائض ٠٠ واذا ما امتنعنا عن تنفيذ الحكم فيما بعد ، يفسر ذلك على انه دليل ضعف ٠٠٠ » (٤٩) ٠

ولكن هناك طرق اخرى للتخلص من الذين يقاومون القمع والاحتلال : **والتوقيف الاداري** يمارس على نطاق واسع في كل من جنوب افريقيا واسرائيل ، وكثيرة هي الوفيات (الموهة تحت شكل حوادث او انتحارات) في السجون نتيجة استنطاقات « معمقة » ٠ وحالة الشك الدائم بجميع السكان ــ المكبوتين على كل المستويات وحتى على مستوى حريتهم نفسها ــ انهم يغذون شعور او مشاريع فتن ، ادى بالقادة الحاليين في كلا النظامين الى اعطاء سلطات ضخمة لا رقابة عليها عمليا ، للاستخبارات وللشرطة **الامنية** (Boss ــ الـ بوس » ★ في جنوب افريقيا و « الشين ــ بت » Shin - Bêt في اسرائيل) ، والى الاستعانة الواسعة بالاجراءات الاستثنائية وبالاحكام الاعتباطية التعسفية ٠

جنوب افريقيا

« اغتنى » الجهاز القمعي المعقد في جنوب افريقيا بشكل ملحوظ بعد وصول الحزب الافريقاني القومي الى الحكم عام ١٩٤٨ ٠ وفي الوقت الذي كان يسن المديات الاساسية في حق التعبير والتجمع والصحافة ، الخ ٠٠٠ اعتمد النظام مجموعة من القوانين

★ البوس Boss هي شرط الدولة في جنوب افريقيا مؤسسة على الطراز النازي ٠

اهمها : « قانون الغاء الشيوعية » في ١٩٥٠ الذي يعتبر اي شكل من اشكال معارضة نظام التمييز العنصري على انه « تبن لاهداف شيوعية » · والحق هذا القانون فيما بعد بالقرار ضد التخريب (١٩٦٢) والقرار ضد الارهاب (١٩٦٥) · وقد تمت الوف التوقيفات والدعاوى استنادا الى هذه القوانين ، منها قضيةREVONIAريفونيا الشهيرة ، او قضية قادة الـ A.N.C (من ضمنهم الرئيس نلسن مانديلا Nelson Mandela) الذين حكموا بالسجن مدى الحياة ·

ولكن الوسيلة الاساسية التي تستخدمها الشرطة هي ما يسمى بقانون التسعين يوما مخالفة القوانين المتعددة حول شروط التنقل ، والاقامة ، والعمل ، يعادل ٢٠٠٠ يوميا ··· ويقدر عدد الافريقيين المحكومين بالنسبة لعدم حيازة « الباس » (اذن التجول) الاجباري الشهير الى ١١ مليون منذ ٢٥ سنة حتى اليوم ·

ولكن الوسيلة الاساسية التي تستخدمها الشرطة هي ما يسمى بقانون التسعين يوم (التي اصبحت ١٨٠ يوما فيما بعد ، ومن ثم مددت المهلة الى سنة كاملة) والتي تسمح لهم باعتقال اي شخص خلال هذه المدة (القابلة للتجديد) دون تهمة ودون مقاضاة ودون اي نوع من الضمانة القانونية ، اذا وقع عليه الشك انه ارتكب ـ او كان في نيته ان يرتكب ـ جنحة سياسية او اذا كان قابلا لادلاء اي معلومات حول هذه الجنحة · ويستخدم التعذيب بصورة عادية خلال فترة التوقيف الاداري · ومن المستحيل تقديم اي تقرير لعدد التوقيفات منذ الاحداث الاخيرة في سويتو Soweto وحركات الاضراب التي تلتها :

اجاب وزير العدل كروغر على سؤال حول عدد الانتحارات « المقلق » للموقوفين الافريقيين ، مؤكدا انها عمل « العناصر المحنكه في الـ A. N. C. » (صحيفة « لوموند » ٢٦ كانون الثاني ١٩٧٧) ·

وجهز النظام نفسه الآن **بوسيدتين جديدتين للقمع :**

١ ـ رفع مدة التوقيف في ايدي الشرطة من ١٨٠ يوما الى سنة ، وليس فقط بالنسبة « للمشبوهين » ، لكن ايضا بالنسبة للاشخاص الذين يحتمل ان يدلوا بشهادتهم امام المحكمة ، ذلك في سبيل قطعهم عن اي اتصال خارجي وفي سبيل تشريطهم ···

٢ ـ انشاء لجنة تحقيق (مؤلفة من عشر نواب معينين ومسؤولين امام رئيس الجمهورية فقط) · وهي مؤهلة لتكثيف مطاردة التقدميين واصدار العقوبات دون الرجوع الى المحكمة ·

وتعليقا على هذه الاجراءات الجديدة ، كتبت صحيفة « ستار » في جوهانسبورغ : « من الصعب جدا ان نتخيل حكومة ، مهما كان استبدادها ، تحتاج الى جهاز من القوانين الامنية اهم من الذي وضعه القوميون · ومع ذلك ارتأى وزير العدل ان يقدم الى مجلس النواب اجراءا امنيا آخر كي يتآكل ما تبقى من احترام لحقوق الانسان في جنوب افريقيا (٥٠) » ·

اسرائيل

باسم امن الدولة المقدس ، عادت الحكومة الاسرائيلية ، واعتمدت على الجهاز الشرعي المؤلف من قوانين الدفاع التي وضعت عام ١٩٤٥ · وهو مكون ، مع الاجراءات اللاحقة ،

من ١٧٠ مادة تنظم وتراقب تحركات ونشاطات السكان العرب · في بادىء الامر ، اعطي الحاكم العسكري جميع السلطات ـ حتى ١٩٦٥ حيث انتقلت الى يد الشرطة ـ لتطبيق البنود التي تهدف الى تحديد تنقلات الفرد (حتى اذا منعته احيانا كثيرة من التوجه الى عمله) ، واخضاعه لرقابة مستمرة ، وتوقيفه دون مبرر لمدة غير محددة ، وابعاده عن بلده ، ومصادرة بيته واملاكه ··· و « الاسباب الامنية » تبرر القرار مهما كان ، فاذا تذرعت الحكومة بهذا السبب ، لم يعد للضحية اي سبيل تلجأ اليه · يعبر عربي من منطقة الجليل عن شعور السكان العرب حين يقول : « يأخذون ارضنا · لماذا ؟ لاسباب امنية · يأخذون عملنا · لماذا ؟ لاسباب امنية ! وحين نسألهم كيف نهدد امن الدولة نحن واراضينا وعملنا ، لا يجيبون ··· لاسباب امنية ! (٥١) » ·

والقمع الذي يمارس ضد اهالي الاراضي المحتلة منذ ١٩٦٧ يتزايد همجية ، انه لا يحاول التستر وراء واجهة شرعية (فالحكومة الاسرائيلية تكن احتقارا كاملا لاتفاقات جنيف التي كان بامكانها وحدها ان تحمي هؤلاء الاهالي) · وازداد القمع ـ وهدفه احباط جميع انواع المقاومة ـ مع تصاعد المقاومة الفلسطينية وتوسع تأييد المنطقة والمجتمع الدولي لها ·

يوقف ويسجن ويبعد اهالي الضفة وغزة والقدس دون اي محاكمة · ولا ينعمون بحق التنظيم السياسي او الثقافي · دمرت منازلهم واملاكهم ، وصودرت اراضيهم واحرقت محاصيلهم وقطعت اشجارهم ·

سوف نشير هنا الى الخطوط العريضة لهذا الملف المفحم وشبه المجهول ، وارجاع قرائنا الى الاعمال التي صدرت حول هذا الموضوع بقلم رئيس الرابطة الاسرائيلية لحقوق الانسان ، الدكتور شهاك : « عنصرية دولة اسرائيل » ، وللمحامية فيليسيا لانغر : « (انا) محامية اسرائيلية ، اشهد » وايضا الى تقرير لجنة التحقيق للامم المتحدة حول الممارسات الاسرائيلية في الاراضي المحتلة (كانون الاول ١٩٧٦) · هذه الوثائق تشير الى :

التوقيف الاداري

ان اي شخص من اهالي الاراضي المحتلة يمكنه ان يكون موضوع اجراء توقيف دون سبب ودون محاكمة وذلك لمدة غير محددة · تشير الصحافة في هذه الايام الى الاضراب عن الطعام الذي يقوم به معتقلو سجون غزة والرملة وعسقلان احتجاجا على سوء المعاملة والتعذيب خلال الاستجواب ، واحتجاجا على شروط التوقيف ، مطالبين اعتبارهم سجناء حرب وليس مجرمين خاضعين للحق العام ·

تهديم البيوت

ان مجرد الشك في اي شخص انه يهدد امن الدولة ··· يعرضه الى نسف منزله · وذلك قبل ان يجري التحقيق في التهمة · يتم اخلاء جميع السكان في اي فصل من السنة ، ودون اعارة اعتبار لسنهم او لوضعهم الصحي ·

الابعاد

الى جانب القرويين او سكان المدن (ومن بينها مدينة القدس) الذين طردوا جماعيا من ديارهم لاسباب مختلفة ومنعوا من الرجوع اليها ، لا تزال تتم ابعاد شخصيات نحو الاردن ، مثقفين ، قادة فلسطينيين وبصورة اعم ارباب الاسر (على امل ان تتبعهم اسرتهم) · يأتون لتوقيفهم في الليل ، دون اي تفسير ، يمنع محيطهم من الاتصال بأي كان يأخذونهم الى مكان مهجور قرب الحدود ويجبرونهم على العبور ··· ومن ضمن الشخصيات التي كانت ضحية هذه الاجراءات مؤخرا ، يجب الاشارة الى الدكتور النتشي ، مدير مستشفى بيت لحم ، والدكتور عبد العزيز احمد اللذين ابعدا عشية الانتخابات في الضفة الغربية حيث كان كلاهما مرشحا (ربيع ١٩٧٦) ·

العقوبات الجماعية : منع التجول ، (وغيرها) الخ ·

ان قرار منع التجول الذي تدينه صراحة اتفاقيات جنيف ، هو من الاجراءات المحبذة لدى الجيش الاسرائيلي في الاراضي المحتلة : منع السكان في مخيم اللاجئين او في قرية او حتى في مدينة كبيرة عن الخروج من بيوتهم ولو لجلب المياه او الطعام · واذا خاطر البعض بانفسهم لاسباب اضطرارية ، فيجوز ان يقتلوا دون انذار ·

وفي رسالة مفتوحة موجهة الى رئيس الوزراء رابين ، يعبر يوري افنيري عن اشمئزازه امام « هذه الجرائم المرتكبة بتؤدة » على اشخاص ابرياء · ويعدد اربع حالات ، من ضمنها حالة امرأة شابة قتلت على الفور وهي تخرج لادخال طفلها الى البيت ···· (٢٥) ·

ونحتاج الى فصل كامل لايجاز الوثائق الموثوقة المصدر التي تشير الى تعذيب المعتقلين في سبيل « اجبارهم على الاعتراف » (وهذه الاعترافات تكون اساسا للمحاكمة في حال اجرائها) · ويرد دائما الوصف نفسه : الشنق من اليدين او الرجلين ، اللكمات على الجسد كله وخاصة على الاعضاء التناسلية ، عذاب المياه ، الكهرباء ··· والنتيجة ان بعض المعتقلين يموتون ، البعض الآخر يبقى عاجزا مدى الحياة : عمليا ، لا تنتهي طلبات التحقيق التي تقدمها العائلات او المحامين الى شيء في هذا الامر · هناك حالة استثنائية : في تشرين الاول الماضي ونتيجة وفاة احد المعتقلين خلال استجوابه ، اقر بذنب قائد اسرائيلي وحوكم على ذلك ··· (٥٣) ·

نشير الى شهادة الدكتور نتشي من ضمن الشهادات العديدة التي سجلتها لجنة تحقيق الامم المتحدة ، حول حدث في اذار ١٩٧٦ : « خطف المستعمرون اليهود في كريات ـ اربع ، قرب الخليل ، ثلاثة شبان عرب تتراوح اعمارهم بين ١٢ و ١٥ سنة ، وضعوهم في نوع من الملجأ ، خلعوا الثياب عنهم وافلتوا عليهم كلابا مدربة لهذا الغرض ··· ذهبت ، رأيت الاطفال · كان شيئا مريعا · اجسادهم مملوءة بالجروح والعضات · نقل الخبر في مجلة التايمز · اصطحبت شخصيا مراسل البي·بي·سي والنيوزويك لرؤية الاطفال في المستشفى ··· » (٥٤) وعندما سئل الدكتور نتشي لماذا اعترضت العائلات في بادىء الامر ، على نقل الاطفال الى المستشفى ، اعطى التفسير التالي : « عندما تعلم السلطات ان طالبا اشترك في مظاهرة ، يجري توقيفه على الفور ، ويقاضى امام المحكمة ـ هذه المحاكم الاستثنائية التي تعقد جلساتها حتى الساعات الاولى من الصباح ـ ويحكم

بدفع غرامة تتراوح بين ٣ آلاف الى ٦ آلاف ليرة اسرائيلية ، وهذا المبلغ يشكل عبئا كبيرا لهذه العائلات الفقيرة جدا ٠٠٠ ولا يمكن للاهل ان يقترحوا الذهاب الى السجن بانفسهم : فاذا امتنعوا عن الدفع ، يصادر كل ما له قيمة في منزلهم ٠٠٠ » (٥٤) ٠

وصلت اخبار الشروط اللا انسانية التي يعاني منها المعتقلون الفلسطينيون في السجون الاسرائيلية ـ ومعظمهم من الموقوفين « الاداريين » الذين لم يوجه لهم اية تهمة معينة ـ عبر الاضراب عن الطعام الذي قام به مئات المعتقلين في سجون عسقلان وغيرها ٠

هذا الاضراب الذي دام ٤٥ يوما في فترته الاولى (من ١١ـ١٢ـ٧٦ الى ٢٥ـ١ـ٧٧) اعيد استئنافه بعد ان انقطع ، لان المعتقلين لم ينالوا مطالبهم : تحسين شروط الاعتقال ومعاملتهم مثل السجناء اليهود العاديين ٠ وفي هذه المناسبة ، اعترف السيد دافيد ليفي ، حاكم السجون الاسرائيلية ، ان « التضخم في السجون الاسرائيلية وصل الى حد لا يطاق » ٠ وذكر : « هناك حاليا في اسرائيل ٥٨٨٢ سجينا منهم ٣٢٢٧ اتهموا بمس امن الدولة ـ اي بزيادة ٥٨٢ على العام الماضي ٠٠٠ يتصرف المعتقل الواحد بمعدل ٢ر٢ م٢ ، بينما يصل هذا المعدل الى ٩ر٩ م٢ في معظم البلدان الاخرى ٠٠٠

والمساحة الخاصة بالمعتقل الواحد في سجن الجليل هي اقل من متر مربع واحد ٠٠٠ » (صحيفة « لوموند » ، ١٥ـ٢ـ١٩٧٧) ٠

والمحامية الاسرائيلية ليا تسيمل (صحيفة « لوموند » ، ١٥ـ٢ـ١٩٧٧ ـ كتبت تقارير دورية حول تطور هذا الاضراب (الذي تسبب في وفاة عدد من المعتقلين) ، واكدت ان « بعض المعتقلين في سجن عسقلان ليس لديهم سرير او فراش منذ اكثر من ١٠ سنوات ٠ ينامون على الارض مباشرة ، في زنازين قاتمة ورطبة ، حيث يمضون من ٢٣ الى ٢٤ ساعة في اليوم الواحد وحيث يؤدون جميع حاجاتهم ٠ والجو خانق ٠

يشكو عدد كبير من المعتقلين من القرحة وسوء التغذية ٠ بعضهم اصبح عاجزا (شلل ، عمى ، خلل عقلي عميق) نتيجة « الاستجوابات المعمقة » ٠ ولا احد منهم يتلقى المعالجة الطبية المؤاتية ٠٠٠ » (مذكور في مجلة « تايمز » ١٠ـ٢ـ٧٧) ٠

والتصرفات العنصرية لدى رجال الشرطة الجلادين المعذبين الجنوب افريقيين والاسرائيليين هي ايضا واضحة ٠ وزيارة رئيس شرطة الدولة في جنوب افريقيا (الـ B. O. S.S) المشؤومة (وهي منقولة عن الطراز النازي) لزملائه الاسرائيليين ليست مجرد صدفة بالتأكيد بل لمناقشة مشاكله و « تقنياته » ٠

ترجمة جاكلين فرهود

الحواشي

١ـ العلاقات بين المانيا النازية وجنوب افريقيا ٠ **وثائق منظمة الامم المتحدة** ٠ العدد ١٢ ٠ ١٩٧٦ ٠

٢ ـ **هآرتس** ٢٦ نيسان ١٩٧٦ ٠

٣ ـ **لوموند** ٢٥ـ٢٦ نيسان ١٩٧٦ ٠ « اسرائيلي في جنوب افريقيا » ٠

٤ ـ ر٠ ستيفنس وم ٠ المسيري ٠ **اسرائيل وجنوب افريقيا** ٠ ص ٠ ١٧٢ ٠ (تشرين اول ١٩٧٦) ٠

٥ ـ هنري كاتزيو : **جنوب افريقيا : بلد دون اصدقاء** ٠ يذكره ستيفنس في **الصهيونية ، جنوب افريقيا ونظام التمييز العنصري** ٠

٦ ـ ستيفنس والمسيري ٠ المصدر السابق ص ١٧١ ٠

٧ ـ وثيقة من الامم المتحدة ٠

« الايديولوجيا وتطبيق نظام التمييز العنصري » · الدكتور فركويل ·

٨ ـ روجيه غارودي : **الجذور الدينية للصهيونية** ندوة بغداد ١٩٧٦ ·

٩ ـ مذكور في **مجلة الدراسات اللاهوتية والدينية** · **مون بولييه** · العدد الاول ١٩٧٦ ·

١٠ ـ ناحوم غولدمان : **جذور المرض** · في صحيفة « الموند » الفرنسية · ٢٩ ايار ١٩٧٠ ·

١١ ـ تيون : **السلطة الشاحبة** ص ١٧٤ ·

١٢ ـ **وثيقة كنينغ**· نشرت بالعربية في **شؤون فلسطينية** العدد ٦٠ ·

١٣ ـ يديعوت احرونوت · ١٥ ايلول ١٩٧٦ ·

١٤ ـ صحيفة لوموند · مصدر مذكور سابقا ·

١٥ ـ ستيفنس والمسيري : مصدر مذكور سابقا · ص · ٢٢ ·

١٦ ـ ذكر في تيون : **السلطة الشاحبة**· ص ٨٢ ·

١٧ ـ صحيفة الموند · ٢٩ ايار ١٩٧٠ · المقال المذكور سابقا ·

١٨ ـ حاييم وايزمن : **ولادة اسرائيل** ·

١٩ ـ ذكرها شابكس في كتابة **مفترق الطرق الى اسرائيل** · لندن ١٩٦٥ · ص ١٧ ·

٢٠ ـ ستيفنس والمسيري : المصدر المذكور · ص ٩١ ·

٢١ ـ لسلي روبين : **القومية الافريقانية واليهود** ، يذكره ستيفنس ·

٢٢ ـ وايزبورد : **مأزق يهود جنوب افريقيا** · يذكره ستيفنس ص · ١٣٢ ·

٢٣ ـ يذكره ستيفنس في « **اسرائيل وجنوب افريقيا** » ص ٥١ ·

٢٤ ـ دان جاكوبسون ورونالد سيغال : **نظام التمييز العنصري ويهود جنوب افريقيا** · ذكره ستيفنس ·

٢٥ ـ صحيفة وي ترانسفالد الافريقانية ·

٢٦ ـ صحيفة راند ديلي ميل · ٢٣ تشرين الثاني ١٩٦١ ·

٢٧ ـ مذكور في ستيفنس نقلا عن كاتزو ص ٥٤ ·

٢٨ ـ يذكره سيشابا · نشرة A.N.C. اب ـ ايلول ١٩٧١ ·

٢٩ ـ المصدر السابق ·

٣٠ ـ صحيفة يديعوت احرونوت · ١٦ آب ١٩٧٦ · ذكر في نشرة اورابيا عدد ٦٦ ·

٣١ ـ وثائق الامم المتحدة · برنامج البانتوستان · ٣٦ـ١٩٧٥ ·

٣٢ ـ ا · كابيليوك : **نهاية الاساطير** ص ٣٦ ·

٣٣ ـ المصدر السابق · ص ٢١ ·

٣٤ ـ وثيقة الامم المتحدة : « عمال المناجم في جنوب افريقيا » ٢١ـ١٩٧٦ ·

٣٥ ـ **وثيقة كنينغ** · مرجع مذكور سابقا ·

٣٦ ـ يديعوت احرونوت : ١٤ ايار ١٩٧٦ · مذكور في نشرة اورابيا العدد ٦١ ·

٣٧ ـ يديعوت احرونوت · ٦ تشرين الاول ١٩٧٢ ·

٣٨ ـ يديعوت احرونوت ١٤ ايار ١٩٧٦ · مذكورة في نشرة **اورابيا** العدد ٦٠ ·

٣٩ ـ مذكور في تيون · مصدر مشار

اليه سابقاً · ص ٢٠ ·

٤٠ ـ تقرير الاونيسكو حول آثار نظام التمييز العنصري في جنوب افريقيا · ص ٣١ ·

٤١ ـ المصدر السابق · ص ٦٤ ·

٤٢ ـ مجلة نيوزويك· ٨ شباط ١٩٧١ ·

٤٣ ـ هآرتس ، ٤ نيسان ١٩٦١ · وردت عند غارودي في ندوة بغداد ·

٤٤ ـ صبري جريس · **العرب في اسرائيل** · ص ٢٥٧ ، الطبعة الفرنسية ·

٤٥ ـ صبري جريس · المصدر المذكور· ص ٢٦٥ ·

٤٦ ـ صحيفة « دافار » ١٨ ايار ١٩٧٦ · مذكور في نشرة اورابيا العدد ٦١ ·

٤٨ ـ أ · كابيليوك · في المقال المذكور سابقا ·

٤٧ ـ صحيفة « معاريف » (مقابلة مع مسؤولي حزب « راكح ») · حزيران ١٩٧٦ ، مذكور في نشرة اورابيا العدد ٦٠ ·

٤٩ ـ صحيفة « يديعوت احرونوت » ٢٦ ايار ١٩٧٤ مؤسسة على الطراز النازي ·

٥٠ ـ صحيفة ستار ، جوهانسبورغ ، ٥ ايار ١٩٧٦ ·

٥١ ـ ولتر شوارتز ، العرب في اسرائيل ، ١٩٤٨ ، ذكره م· ادمس في بغداد ·

٥٢ ـ « هاعولام هازي » ، ٢٨ نيسان ١٩٧٦ ، مذكور في نشرة اورابيا · العدد ٥٨ ·

٥٣ ـ « لوموند » ٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٦ ·

٥٤ ـ شهادة الدكتور نتشي امام لجنة التحقيق التابعة لمنظمة الامم المتحدة حول « الممارسات الاسرائيلية في الاراضي المحتلة (١٩٧٦) » .A/AC. 145/RT (٧١و ٧٢) ·

محمد عبد الرؤوف سليم

التجارة اليهودية في فلسطين حتى قيام دولة إسرائيل

التجارة اليهودية في فلسطين حتى قيام دولة اسرائيل

أرسيت أسس التجارة اليهودية في فلسطين طوال ثلاثة عقود ابتدأت مع الاحتلال البريطاني للبلاد عام ١٩١٨ ، وانتهت مع قيام « دولة اسرائيل » في ايار (مايو) ١٩٤٨ · ترى ما هي اوضاع ميزان المدفوعات اليهودية آنذاك ؟ وما تأثير المقاطعة العربية ، والحماية الجمركية التي فرضتها حكومة الانتداب ، على التجارة اليهودية ؟ وما هي المحاولات التي بذلتها المؤسسات الصهيونية للتغلغل في أسواق الاقطار العربية المحيطة بفلسطين وهي محاولات تبذل حتى يومنا هذا ، حتى أنه يقال أن اسرائيل دفعت بقواتها العسكرية للحرب في عامي ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ من أجل فتح أسواق خارجية للبضائع الاسرائيلية ؟

التجارة الداخلية :

لم تنشأ حركة التجارة في فلسطين كجرم يدور في فلك الانتاج الزراعي والصناعي على أساس تسويق الانتاج سواء على مستوى السوق المحلية أم الاسواق الخارجية ، وانما كانت التجارة ، والواردات منها بالذات ، تكون مقوما أساسيا لنجاح العمل الصهيوني في فلسطين في المجالات الزراعية والصناعية ·

ذلك أن النشاط الزراعي والصناعي تطلب استيراد الآلات والمواد الخام والبذور وغيرها ولعل ذلك يفسر ارتفاع قيمة الواردات السنوية الى فلسطين طوال عهد الانتداب البريطاني ·

واختلف مسار حركة التجارة الداخلية في فلسطين في عهد الانتداب عما كان عليه طوال العهد العثماني · ذلـــك ان تدفق المهاجرين اليهود الى فلسطين ، والارتفاع الملحوظ في عدد السائحين القادمين سنويا الى البلاد ادى بالضرورة الى احداث تغييرات جذرية ناجمة عن ارتفاع القوة الشرائية ، سببها ما حمله القادمون الى البلاد من أموال ، وما صاحب ذلك من تغيرات في نوعيات المعروض للبيع ، وفي طرق العرض والتسويق تبعا للتغيرات الحادثة في أذواق السكان الذين كانوا ينتمون الى جنسيات متعددة · وقد أدت تلك العوامل الي اتساع نطاق السوق المحلية وتنشيط الحركة في داخلها ·

والحق أن توسع الوكالة اليهودية في تهجير اليهود الى فلسطين من كل حدب وصوب قد فرض زيادة في الطلب على انواع معينة من البضائع للاستهـــلاك المحلي ، وبخاصة أن قسما كبيرا من هؤلاء المهاجرين وفدوا من بلاد أكثر تحضرا وكان بعض هؤلاء يعيشون في مستوى عال نسبيا ·

كذلك كان قسم كبير من المهاجرين يتألف من أرباب الصناعات والصناع المهرة والحرفيين ، عملوا بعد هجرتهم في نفس المجالات الصناعية التي كانوا يعملون فيها قبل هجرتهم ـ أو المشابهة لها مستخدمين في ذلك رؤوس الاموال اليهودية التي تدفقت على فلسطين في شكل استثمارات وتبرعات ، ومستفيدين من الحماية الجمركية التي اصطنعتها حكومة الانتداب لحماية الصناعة ·

وكانت الوكالة اليهودية وراء ذلك الرواج في السوق المحلية في فلسطين ، سواء من خلال نشاطها في مجال الهجرة ، او من خلال اغراق الاسواق الداخلية في البلاد بمنتجات المزارع والمستوطنات التي عملت على انشائها ، والناتج مـــن حركة التصنيع التي خططت لها وتابعت تنفيذها · وكانت المقاطعة العربيـــة للمنتجات اليهودية محل شكوى الوكالة في اكثر من مجال · وكانت تجارة اليهود في السوق المحلية تقوم على نظام التعاونيات والاسواق الدورية ·

كما تخصصت شركات يهودية في تسويق الانتاج للمنتجين الزراعيين اليهود الاعضاء في الجمعيات التعاونية المحلية ، وقد بلغت قيمة الحاصلات الزراعية التي قامت شركة تنوفا على تسويقها خلال الفترة ما بين عامي ١٩٢٨ و١٩٣٥ حوالي ١٫١٧٢٫٦٠٢ جنيها فلسطينيا (١) ·

وقد عمدت ادارة الصناعة والتجارة التابعة للوكالة اليهودية الى الترويج للبضائع اليهودية بوسيلتين :

تمثلت الاولى في « وضع اليد » على السوق المحلية ومنافسة البضائـــع المستوردة · ولتحقيق هذا الغرض شكلت « اللجنة المركزية لتنمية منتجـــات فلسطين » ، و « مؤسسة الدفاع الاقتصادي وتنظيم الاستيراد » ·

وتمثلت الوسيلة الثانية في توسيع قاعدة تجارة الصادر عن طريق « مؤسسة التجارة الخارجية » التي قامت على عرض البضائع اليهودية الفلسطينية بالخارج ٠

وقد عملت اللجنة المركزية لتنمية منتجات فلسطين من خلال جمعياتها الاثنتي عشرة المنتشرة في خمس مدن وبعض المستوطنات الكبيرة ، على تسويق المنتجات الزراعية والصناعية اليهودية في السوق المحلية ، الى جانب الاشراف على جودة الانتاج بمساعدة الاجهزة الرسمية للوكالة اليهودية ٠ وكان على كل منتج ان يثبت العلامة التجارية على انتاجه بعد اختبارها بواسطة مندوب عن « اللجنة المركزية لتنمية منتجات فلسطين » ، التي اتسع نشاطها ليمتد الى مائتي منشأة في خطوط انتاجية مختلفة كانت تمثل ما يعادل ٨٥ في المائة من جميع مؤسسات المبيعات في فلسطين ٠ وكانت اللجنة المركزية ـ الى جانب ذلك ـ مرتبطة مع التعاونيات التجارية اليهودية بفلسطين بتعاقدات لبيع المنتج محليا من البضائع ، واتفاقيات بمحاربة تسويق البضائع الاجنبية التي تنافس الانتاج الفعلي من خلال الاتفاقيات الجماعية التي عقدتها اللجنة المركزية مع عديد من المستوردين التي كانت تقضي بعدم استيراد البضائع التي كانت تنافس الانتاج المحلي ٠ (٢)

وكثيرا ما كانت اجهزة الوكالة اليهودية تشعر بتحمل المسؤولية كاملة ، وتحس بالالتزام برعاية المنتجين قبل تسويق انتاجهم ٠ فعملت ادارة الصناعة على ممارسة نشاطها في حدود الظروف العامة السائدة في المجال الصناعي ، من خلال الادراك بأن نشاط الوكالة اليهودية في مجال الصناعة لم يكن مقتصرا على التوسع في تطبيق نظام السلفيات لصغار المنتجين ، وانما كان هذا النشاط مرتبطا بالتحركات السياسية في القدس ولندن ٠ ومن هنا كان السعي نحو حماية الصناعات الجديدة في فلسطين من منافسة الانتاج الاجنبي المناظر ، وبخاصة الانتاج الياباني الذي اغرق الاسواق العالمية ، وكان يعتمد على الايدي العاملة الرخيصة والانتاج الغزير ، الى جانب دفع حكومة فلسطين الى عقد اتفاقيات تجارية مع البلدان التي كانت قبل انشاء الوكالة خاضعة للحكم العثماني ٠ (٣)

ومع نشوب الثورة الفلسطينية الكبرى ، نشأ نوع من الضغط الاقتصادي على المجتمع اليهودي في فلسطين ، اثر بطريق مباشر على صغار الحرفيين والتجار الذين برزت حاجتهم الى تكوين مؤسسة يهودية مركزية تعنى بمشاكلهم الخاصة ٠ وقد أولت اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية عناية خاصة بهذا الموضوع للتخفيف من حدة الصعوبات التي صادفت هؤلاء ، فتقرر تكوين ادارة تابعة للوكالة لرعاية الحرفيين وصغار التجار (٤) ، تعمل في تنسيق مع ادارة الصناعة والتجارة في عام ١٩٣٨ ٠ وقد بدأت الادارة الجديدة عملها بدراسة

وضع الحرفيين وصغار التجار عملا على سد الفجـــوة بيـــن مطالـــب هؤلاء والاحتمالات المالية المتاحة ٠

وبعد تلك الدراسة ، اضطرت الادارة الى تعدي حدود ميزانيتها الاصليـة ، والاستعانة بجهود المؤسسات المالية لانشاء صنـــدوق مساعـــدة الطبقـــة الوسطى ٠ (٥)

وظل تطلع الوكالة اليهودية الى تعديل النظام الجمركي بشكل يحقق مصالـح المنتج اليهودي ، وقد تطرقت شهادة احد مسؤولي الوكالة ، (٦) أمام اللجنـة الانجليزية الامريكية الى ان سياسة الرسوم والمكوس الجمركي المطبقة حتـى بعد الحرب العالمية الثانية لا تزود الصناعات المحلية بالحماية اللازمة ، برغـم نجاح الوكالة اليهودية في دفع حكومة الانتداب الى زيادة الرسوم الجمركيـة في عام ١٩٣٩ ، وحتى وصلت في عام ١٩٤١ الى خمسة عشر في المائـة ثـم اضافة رسوم جديدة في عام ١٩٤٤ ٠ غير أن شكوى الوكالة كانت تكمن فـي ان زيادة هذه الرسوم الجمركية شملت المواد الخام اللازمة للصناعة اليهوديـة ، والمواد نصف المصنعة التي كان اليهود يستوردونها ، كما ان رخص الاستيـراد لم تكن تمنح لكل البضائع التي يطلب اليهود استيرادها ، ومن هنا كانت الوكالة اليهودية تدعي ان فلسطين هي البلد الوحيد في العالم الذي لا يستخدم نظـام الرخص الخاص به لصالح الصناعة المحلية وانما كان ذلك النظام مسخرا فـي خدمة الصناعات البريطانية ٠ (٧)

العلاقات التجارية مع دول الشرق الاوسط العربية :

على أن تركيز الوكالة اليهودية ، كان ينحو منذ وقت مبكر نحو خلق سـوق رائجة في سوريا لانتاج المراكز الصناعية اليهودية كخطوة اولـى ٠ ذلـك ان القائمين على أمر الوكالة اليهودية ، كانوا يرون أن قيام الحواجز السياسية بين سوريا وفلسطين في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، نتيجة لوضع سوريا تحـت الانتداب الفرنسي وفلسطين تحت الانتداب البريطاني ، لا يجب ان يكون لـه تأثير مباشر على العلاقات الاقتصادية بين البلدين ، لا سيما وأن بنود صـك الانتداب على كل منهما لم تمنع من عقد اتفاقيات جمركية من شأنها فتح ابواب البلد الواحد امام منتجات البلد الآخر ، بل تقوم على تقابل الحقوق بالمبادلـة وعلى حسن الجوار ٠ وترى الوكالة اليهودية أن الامر الطبيعـي ألا تؤثـر التقسيمات السياسية على علاقات بلدين كانا في الماضي مرتبطين اقتصاديـا برباط وثيق ٠ (٨)

وكانت الاتفاقية الجمركية المعقودة بين فلسطين وسوريا عام ١٩٢٩ خـطوة

ساعدت الوكالة اليهودية على تصريف الفائض من الانتاج الزراعي والصناعي اليهودي في السوق المحلية السورية دون حواجز جمركية كعامل مساعد على انماء الانتاج اليهودي الفلسطيني ، وانعاش الحركة الصناعية والزراعية في فلسطين ، برغم ان حركة الصادرات السورية الى فلسطين زادت على الوارد منها في اعقاب عقد تلك الاتفاقية وفقا للارقام التالية : (٩)

السنة	صادرات سوريا الى فلسطين بالجنيه الفلسطيني	واردات سوريا من فلسطين بالجنيه الفلسطيني	زيادة الصادر على الوارد بالجنيه الفلسطيني
١٩٣٠	١ر٠٣٥ر٠٠٠	٢١٠ر٠٠٠	٨٢٥ر٠٠٠
١٩٣١	١ر٠١٧ر٠٠٠	٢٢٣ر٠٠٠	٧٩٤ر٠٠٠
١٩٣٢	٨١٣ر٠٠٠	٢٣٠ر٠٠٠	٥٨٣ر٠٠٠
١٩٣٣	٩٤٣ر٠٠٠	٢١٣ر٠٠٠	٧٣٠ر٠٠٠
١٩٣٤	١ر٠٨٣ر٠٠٠	٢٢٣ر٠٠٠	٨٦٠ر٠٠٠
١٩٣٥	١ر١٣٠ر٠٠٠	٣٠٣ر٠٠٠	١ر٠٠٧ر٠٠٠
١٩٣٦	١ر١٩١ر٠٠٠	٢٦٤ر٠٠٠	٩٢٧ر٠٠٠
الاجمالي	٧ر٢١٢ر٠٠٠	١ر٦٦٦ر٠٠٠	٥ر٧٤٦ر٠٠٠

وتفسير ذلك ان فلسطين كانت تستورد من سوريا نوعيات انتاجية تدخل في نطاق منافسة البضائع الاجنبية ، بينما تصدر اليها انتاجا صناعيا يهوديا فائضا لم يجد مكانا لتسويقه في البلاد الاوروبية · هذا فضلا عن ان حركة التجارة بين فلسطين وسوريا تعتبر خرقا للحصار الذي اصطنعه عرب فلسطين على الانتاج اليهودي ، من خلال المقاطعة العربية الفلسطينية للبضائع اليهودية · ذلك ان تلك الاتفاقية كانت مثار جدل في مجلس العموم البريطاني ، تأكد فيه ان الصادرات الفلسطينية الى سوريا لم تكن تعفى من الرسوم الجمركية الا اذا كانت انتاجا فلسطينيا محضا ، او مصنوعة في فلسطين بمواد أولية فلسطينية دون تطبيق نفس الشروط على البضائع الواردة الى فلسطين من سوريا (١٠) هذا على الرغم من ادعاء الوكالة اليهودية أن السوق الفلسطينية كانت اكثر أهمية لسوريا من السوق السورية لفلسطين ، وان اتفاقية ١٩٢٩ افادت سوريا بالدرجة الاولى ، وضمنت لمحصولاتها الزراعية والصناعية سوقا رائجة · (١١)

ويوضح تقرير للوكالة اليهودية ان العلاقات التجارية مع سوريا كانت « تخلق المتاعب » في الدوائر الصناعية اليهودية في فلسطين برغم انعدام الحواجز الجمركية بين فلسطين وسوريا وبرغم ان ارباب الصناعة اليهودية في فلسطين استغلوا حركة التجارة مع سوريا لصالحهم · وتتمثل تلك المتاعب التي يشير التقرير اليها في ان الصادرات من سوريا الى فلسطين تزايد حجمها

الى اربعة اضعاف في عام ١٩٣٥ حسب تقدير الوكالة اليهودية · وربما نجم ذلك عن مقاطعة عرب فلسطين للبضائع اليهودية ، مما جعلهم يعتمدون بالدرجة الاولى على الوارد من سوريا لتوفير ما يلزم للاستهلاك المحلي · وبرغم ان تقرير الوكالة اليهودية لا يشير الى أن البضائع السورية كانت تشكل منافسا قويا للمنتجات اليهودية ، الا ان الدوائر اليهودية كانت ترى في السوق السورية مجالا حيويا لتسويق الانتاج اليهودي · (١٢)

وكثيرا ما كانت الوكالة اليهودية تستحث حكومة الانتداب على عقد اتفاق جمركي مع العراق ومراجعة اتفاقية ١٩٢٩ المعقودة مع سوريا وفتح مجال للتجارة مع مصر · وقد انصاعت حكومة الانتداب لضغط الوكالة فأوفدت وفدا مشكلا من مدير المالية في الحكومة ، (١٣) ورئيس « مؤسسة الصناعات اليهودية الفلسطينية » (١٤) ورئيس « ادارة التجارة والصناعة » التابعة للوكالة اليهودية (١٥) الى مصر في عام ١٩٣٥ بهدف عقد اتفاق تجاري « مفتوح » بين فلسطين ومصر ، غير ان مساعي الوفد الفلسطيني في القاهرة باءت بالفشل · (١٦)

وتشير مذكرة للوكالة اليهودية الى بعض الصعوبات التي كانت تقف في طريق النجاح الصناعي والتجاري في فلسطين ، ومنها المقاطعة العربية للانتاج اليهودي ، وان أمكن التغلب عليها بطرق غير مباشرة · لقد كان القائمون على أمر الوكالة اليهودية يطمعون في تحويل بلاد الشرق العربي الى سوق دائم للصادرات اليهودية الفلسطينية · ولم تكن المقاطعة العربية ذات فاعلية في مرحلتها الاولى · والدليل على ذلك ان المقاطعة العربية بدأت بفاعلية بعد عام ١٩٤٦ · فقد صدر اليهود ما يعادل احدى عشرة في المائة من انتاجهم الصناعي في فترة ما قبل الحرب العالمية ، وأمكن تسويق ما يقرب من ثلث تلك الصادرات الى بلاد الشرق الاوسط العربية ، بما يساوي ٢٩٠ر٠٠٠ جنيه فلسطيني · ثم ارتفعت نسبة الانتاج الصناعي اليهودي المصدر الى البلاد الاجنبية ، فبلغت قيمتها ٨ر٢ مليون من الجنيهات الفلسطينية في عام ١٩٤٥ بما يعادل ١٧ر٥ في المائة من اجمالي الانتاج الصناعي اليهودي في فلسطين ، وكان نصيب دول جامعة الدول العربية من هذه الصادرات اكثر من الثلث او بما يساوي ٢ر٧ مليونا من الجنيهات الفلسطينية · ثم انخفضت تلك النسبة في عام ١٩٤٦ كما يتضح من الارقام التالية (بالالف جنيه فلسطيني) : (١٧)

السنة	الصادرات الى البلاد العربية	الصادرات الى البلاد الاخرى	المجموع
١٩٤٤	٢ر٣٠٠	٥ر٩٠٠	٨ر٢٠٠
١٩٤٥	٢ر٧٠٠	٨ر٤٠٠	١١ر١٠٠
١٩٤٦	٥٠٠	٨ر٥٠٠	٩ر٠٠٠

وقد يبدو من تلك الارقام ان المقاطعة العربية حققت نجاحا كبيرا في عام ١٩٤٦ · غير أن الصورة الحقيقية تتضح اذا وضع في الحسبان تلك الزيادة الملحوظة في الصادرات الصناعية اليهودية من الماس والبوتاس وهي نوعيات لم تصدر الى البلاد العربية التي اشتركت في المقاطعة · بينما سوقت في الخارج بأسعار مرتفعة · واذا اسقطت تلك النوعيات من الحساب تصير الارقام كالتالي (بالالف جنيه فلسطيني) ويستنتج منها حجم الصادر الى البلاد العربية بالنسبة للصادر الى الدول الاخرى : (١٨)

السنة	الى البلاد العربية	الى البلاد الاخرى	الاجمالي	نسبة المصدر الى البلاد العربية
١٩٤٤	٢ر١٠٠	٢ر٠٠٠	٤ر١٠٠	١٠٥
١٩٤٥	٢ر٥٥٠	١ر٧٠٠	٤ر٢٥٠	١٥٠
١٩٤٦	٤٥٠	١ر٩٥٠	٢ر٤٠٠	٢٣

ويرجع التناقص الملحوظ في نسبة المصدر الى البلاد العربية في عام ١٩٤٦ الى انخفاض الاسعار بنسب تتراوح بين ٢٥ و ٣٠ في المائة نتيجة للانتقال الى أسواق اخرى بالاسعار العادية · هذا الانتقال للصادرات من الشرق الاوسط الى بلاد اخرى الذي تشهد عليه المقارنة بين الصادرات الصناعية اليهودية الى دول الجامعة العربية والبلاد الاخرى ·

وقد حققت الوكالة اليهودية انخفاضا مفاجئا في الميزان التجاري خلال فترة الحرب العالمية الثانية من ٦٣ في المائة عام ١٩٣٩ الى ٤٨ في المائة عام ١٩٤٥ ، يضاف الى ذلك انه حدث هبوط كبير في حجم الصادرات في السنوات الاولى للحرب ، بسبب التقصير في تصدير الحمضيات ، غير ان السوق المحلية ، استوعبت ثلاثة ارباع اجمالي الصادر قبل نشوب الحرب · (١٩)

وكانت حكومة الانتداب ترجع الزيادة المستمرة في حجم الواردات اساسا الى أن فلسطين غير قادرة على تحقيق الاكتفاء الذاتي في المواد الغذائية وغيرها من الواردات الضرورية الاخرى ، وانه لا مناص من استيراد الحاجات الضرورية من اي مكان حتى يتحقق الاكتفاء الذاتي المفقود · غير ان المسؤولين في الوكالة اليهودية كانوا يعتقدون في امكان تحقيق هبوط كبير في حجم العجز في الميزان التجاري بتحطيم المقاطعة العربية ، لو ان حكومة الانتداب اتخذت « اجراءات انتقامية » تجبر العرب على ايقاف مقاطعتهم ، خصوصا وان فلسطين تستورد منتجات غير ضرورية من البلاد العربية · (٢٠)

التجارة الخارجية :

مارست حكومة الانتداب في بعض الاحيان سياسة الباب المفتوح في مجال التجارة الخارجية بالنسبة لفلسطين ، تنفيذا لما جاء في المادة الثامنة عشرة من صك الانتداب التي توجب على الدولة المنتدبة عدم التمييز بين رعايا أية دولة تتمتع بعضوية عصبة الامم في الامور المتعلقة بالتجارة ، كما توجب تلك المادة عدم التمييز بين البضائع المصدرة الى اي من تلك الدول او المستوردة منها ، كما تطلق نفس المادة حرية مرور البضائع بطريق المرور (الترانزيت) عبر فلسطين بشروط عادلة · وفي مقابل ذلك اجازت المادة الثامنة عشرة من صك الانتداب لادارة فلسطين التشاور مع الدولة المنتدبة فيما تراه ضروريا من فرض الضرائب والرسوم الجمركية ، ويوجز لادارة البلاد ان تعقد بالتشاور مع الدولة المنتدبة اتفاقا جمركيا خاصا مع أية دولة من الدول التي كانت جميع املاكها في عام ١٩١٤ ضمن أملاك تركيا الاسيوية او شبه جزيرة العرب · (٢١)

غير أن حكومة الانتداب لم تفرض قيودا على استيراد الآلات والمواد الخام التي تطلبتها حركة التوطين في المجالات الزراعية والصناعية ، وفي نفس الوقت قامت سياسة الحكومة على بناء الاسوار الجمركية العالية حول الانتاج اليهودي الفلسطيني حماية له من المنافسة الاجنبية ، مع تسهيل حركة التصدير من فلسطين وتشجيعها ·

من ذلك أن حكومة الانتداب شجعت انتقال الاموال اليهودية الالمانية في شكل بضائع الى فلسطين خلال حكم النازية دون فرض رسوم جمركية عليها حتى يتمكن المهاجرون اليهود الالمان من نقل أموالهم الى فلسطين ·

وقد وضع قانون الجمارك رقم ١١ لسنة ١٩٢٩ احكام الاستيراد والتصدير (٢٢) بشكل يعمل على تنشيط حركة التجارة الداخلية والخارجية مع ربط المستعمرات اليهودية بشبكة من الطرق البرية تصلها بميناء حيفا الذي انشىء في عهد الانتداب (٢٣) ، واقامة المعارض الصناعية والزراعية سنويا في تل ابيب ، والعمل على فتح الاسواق الخارجية في الدول العربية المجاورة وبعض الدول الاوربية للمنتجات اليهودية الفلسطينية · (٢٤)

يضاف الى ما سبق (٢٥) ، ما استحدثته حكومة الانتداب على عهد هربرت صموئيل من تغييرات نسبية في التعريفة الجمركية المطبقة في العهد العثماني استهدفت خفض رسم الاستيراد على بعض مواد البناء ، واعفاء المقتنيات الشخصية للمهاجرين والآلات الزراعية والبذور من الرسوم الجمركية ، والغاء المعاملة الخاصة التي كانت البضائع المصرية والتركية الاصل تتمتع بها ·

قد اشترك عدد من اعضاء اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية في مباحثات

مع سلطات الانتداب بايعاز من اتحاد ارباب الصناعات في فلسطين في شأن الاتفاقات التجارية بشكل عام بهدف اعطاء الوكالة اليهودية حق الانفراد بعقد الاتفاقات التجارية استنادا الى ان المادة (١٨) من صك الانتداب التي يرى القائمون على أمر الوكالة اليهودية انها وضعت فلسطين في وضع « شاذ » بحرمانها من حق التفرقة في الامور الاقتصادية بين مختلف الدول الاعضاء في عصبة الامم ، وذلك يجردها من « السلاح الرئيسي » في التباحث مع البلاد الاجنبية ، مما يضع العراقيل في تطور الصناعة اليهودية في فلسطين ٠

وقد اشتركت الوكالة اليهودية مع الاجهزة المعنية بين يهود فلسطين في بذل الجهود من اجل التخفيف من حدة هذا الوضع عن طريق الانفراد بالمباحثات المباشرة مع ممثلي البلاد الاجنبية بصفة غير رسمية ، سواء من خلال انقاص التعريفة الجمركية على المنتجات اليهودية الفلسطينية او بتثبيت حصة نسبية لها ٠

وقد حققت الوكالة نجاحا ملحوظا في هذا المجال ، فقد عقدت اتفاقيات مع ممثلين عن تشيكوسلوفاكيا والنمسا وسويسرا لتثبيت حجم نسبي معين للتعريفة الجمركية للصادرات الفلسطينية ، كما دخلت في مباحثات مشابهة مع ممثلين عن تركيا ٠ (٢٦)

وظل القائمون على أمر الوكالة اليهودية يرون في النظام الجمركي الذي وضعته حكومة فلسطين قيدا على حركة الصادرات اليهودية ٠ فبينما كانت الوكالة تسعى لتحقيق بعض الامتيازات للبضائع اليهودية المصدرة الى الدول الاجنبية ، اغرقت البضائع الاجنبية فلسطين ، الامر الذي حول جزءا من القوة الشرائية الفلسطينية في السوق المحلية عن الانتاج اليهودي الفلسطيني ٠ وبرغم اعتراف تقرير للوكالة اليهودية بأن حكومة الانتداب كانت تتخذ الاجراءات في سبيل التخفيف من حدة المنافسة الاجنبية ، فان القائمين على أمر الوكالة كانوا يطالبون بوضع نظام جمركي يفرض الانتاج اليهودي على السوق المحلية بابعاد المنافسة الاجنبية عنها أو اضعافها ٠ (٢٧)

وكان الانتاج اليهودي يوجه في الاغلب الى السوق المحلية ، دون الاعتماد على الاسواق الخارجية حتى بداية الثلاثينات ٠ وقد صدرت للخارج بضائع مصنعة بلغت قيمتها ٣١٣ر٠٠٠ جنيه فلسطيني في عام ١٩٣٣ ، كانت تمثل ٨ر٥ في المائة من اجمالي الانتاج الصناعي في فلسطين في ذلك العام ، ثم ارتفعت قيمة المصدر الى ٣٢٠ر٠٠٠ جنيه فلسطيني في العام التالي بنسبة ٩ر٤ في المائة ٠ وتلقي الوكالة اليهودية بمسؤولية ضعف تلك النسبة على كاهل حكومة الانتداب متهمة اياها بالتقاعس عن السعي في سبيل خلق اسواق خارجية للانتاج اليهودي في فلسطين ٠ (٢٨)

وكان المسؤولون في الوكالة اليهودية يتوقون الى انشاء خط ملاحي يمر بالبحر الاحمر ، الى آسيا وشرق افريقيا · فيرى بن جوريون ان حدود فلسطين الجنوبية تمتد بعد بئر السبع لمساحة مائتين وخمسين كيلومترا جنوبا ، ويذهب الى ان البحر الاحمر « لعب دورا عظيما في التاريخ اليهودي منذ ان جرت اول محاولة لانشاء اسطول بحري يهودي في عهد سليمان » ، وينبه المجتمعين في المؤتمر الصهيوني لعام ١٩٣٥ الى انه « لا يجب ان توجهنا الاحداث الجارية ، وانما يجدر بنا ان نلاحظ الخط التاريخي ·· ان نشاطنا الاقتصادي سواء في المجال الزراعي او الصناعي والذي يعتمد على السوق المحلية بالدرجة الاولى ، يجب تدعيمه من خلال الاتصالات التجارية مع جيران فلسطين في مصر وسوريا والعراق وفارس والهند » · وطالب بن جوريون منذ ذلك الوقت المبكر بفتح الطريق البحري أمام التجارة اليهودية عبر قناة السويس حتى تصل الحركة التجارية اليهودية الفلسطينية الى « كل الاراضي الآسيوية » · (٢٩) وكان بن جوريون قد اصطحب في ربيع ١٩٣٥ اثنين من رفاقه من مسؤولي الوكالة اليهودية هما الياهو ابشتين وبيرل كاتزنلسون في رحلة الى ميناء العقبة وقرية ام رشراش العربية التي قامت ـ على حد زعم بن جوريون ـ على انقاض ميناء ايلات القديم الذي اتخذ منه الملك داود قاعدة بحرية تجارية انطلق منها اسطوله لنقل ثروات فلسطين القديمة الى الخارج ، وحيث استقبل نفس الميناء السفن التي بعثت بها ملكة سبأ محملة بالاخشاب والاحجار الكريمة · وبعد شهور قلائل من عودتهم من تلك الرحلة ، ارسل بن جوريون الى براندیس بأنه لن يمضي وقت طويل حتى تقوم لليهود دولة في فلسطين ، تلعب ايلات دورا اهم في شؤونها السياسية والاقتصادية مما لعبته في عهد داوود · (٣٠)

وتشير وثائق عصبة الامم الى المحاولات الحكومية البريطانية لايجاد اسواق جديدة لمحاصيل الحمضيات بعد أن تزايد انتاجها في فلسطين ، مما مكن من تصدير ٥٫٨٧٣٫٧٠٥ صندوقا خلال موسم ١٩٣٥ـ١٩٣٦ مقابل ٧٫٢٩٢٫٧٩٢ صندوقا في الموسم السابق ، وكانت الاثمان مقنعة · كذلك تشير تلك الوثائق الى تقدم المباحثات بين فلسطين والعراق في سبيل الوصول الى اتفاق جمركي · وكانت دوائر عصبة الامم ترى ان الوضع الاقتصادي في فلسطين في منتصف الثلاثينات لا يبعث على القلق ، برغم تأثر الصناعة المحلية في فلسطين بسبب الموقف الاقتصادي غير المستقر في البلاد العربية · (٣١)

غير أن الوكالة اليهودية شكت الى عصبة الامم من « المتاعب » التي باتت تواجه منتجي البرتقال والتي نجمت « في الاغلب » عن التعريفة الجمركية المفروضة على صادرات فلسطين من الفواكه الى العديد من البلاد الاوروبية · وقد تعددت وفود الوكالة الى كل من حكومة الانتداب وعصبة الامم بهدف تعديل المادة (١٨) من صك الانتداب على فلسطين بحيث توضع فلسطين في مركز

يسمح بتيسير حركة التجارة الفلسطينية مع البلاد الاجنبية مباشرة ، حتى تتحسن حركة الصادرات من الحمضيات ٠ (٣٢)

وقد حاولت الوكالة اليهودية اخيرا اقناع حكومة فلسطين بتبديل سياستها التجارية التي تغطي مختلف البلدان بحيث تعطي فلسطين الحق في التصدير غير المحدود الى تلك البلدان دون اي مانع مشترك ٠ وتأكدت الحاجة ـ خلال مناقشات جرت في القدس ولندن ـ الى اعادة تفسير المادة (١٨) من صك الانتداب على فلسطين حتى تتفق مع « المصالح الحيوية » اليهودية الفلسطينية ٠ ومن جهة اخرى ، حاولت الوكالة اليهودية دفع الحكومة البريطانية الى التخفيف من حدة القيود التي ادعى ارباب الصناعة اليهودية في فلسطين انها فرضت على تصدير منتجاتهم من خلال التباحث مع مختلف البلدان بهدف ادخال تلك المنتجات ضمن البضائع الانجليزية ٠ وقد استجابت الحكومة البريطانية ، فجرت محاولات لتحقيق هذا الهدف في الاتفاقيات التجارية البريطانية مع مختلف البلدان بما في ذلك الولايات المتحدة الامريكية ، ومن خلال جعل فلسطين في وضع اشبه بمقاطعة بريطانية ٠ كذلك حرصت حكومة فلسطين على تحقيق استجابة اساسية لمطالب الوكالة اليهودية ، فوضعت المصلحة اليهودية في اعتبارها حين اخذت تنظر في تنظيم حركة التصدير من فلسطين ـ وبصفة خاصة تصدير الحمضيات ـ فربطت بينها وبين الاتفاقيات التجارية التي عقدتها مع البلدان الاخرى ، والاتحاد السوفيتي بصفة خاصة ، كما أجرت مباحثات مع الدول الاوروبية بهدف تحقيق امتيازات معينة للصادرات الفلسطينية اليها في مقابل صادراتها الى فلسطين ٠ (٣٣)

وقد بلغت قيمة البضائع التي استوردتها فلسطين في عام ١٩٣٥ نحو ١٧٫٨٥٠٫٠٠٠ جنيه فلسطيني مقابل ٥٫٢٠٠٫٠٠٠ جنيه في عام ١٩٢٠ ـ ١٩٢١، اي بزيادة تفوق الثلاثة أضعاف ٠

كما بلغت قيمة البضائع التي صدرتها فلسطين الى الخارج في عام ١٩٣٥ حوالي ٤٫٢٠٠٫٠٠٠ جنيه فلسطيني مقابل ٧٧٢٫٠٠٠ جنيه في عام ١٩٢٠ـ ١٩٢١ ، اي بزيادة تفوق الخمسة اضعاف ٠ اي ان حركة الصادرات والواردات راجت بفضل نشاط الوكالة اليهودية ٠ وتزداد تلك الارقام اهمية بمقارنتها بأرقام تجارة البلدان المجاورة وبيان عدد السكان في كل منها ، وحساب نصيب الفرد في حركة التجارة كالآتي : (٣٤)

البلد	قيمة الصادرات والواردات عام ١٩٣٥ بالجنيه الفلسطيني	عدد السكان	نصيب الفرد بالجنيه الفلسطيني
مصر	٦٨٫١٠٠٫٠٠٠	١٥٫٣٥٠٫٠٠	٤٫٤٣٠
سوريا	١٠٫٩٠٠٫٠٠٠	٣٫٢٥٠٫٠٠٠	٣٫٣٥٠
العراق	١٠٫٩٠٠٫٠٠٠	٣٫٣٠٠٫٠٠٠	٣٫٣٠٠
فلسطين	٢٢٫١٠٠٫٠٠٠	١٫١٩٤٫٥٢٩	١٩٫٩٨٠

وتوضح هذه المقارنة بصورة عامة تقدم السوق الفلسطينية وتفوقها الواضح على أسواق البلدان المجاورة · وهذا أمر طبيعي نجم عن تدفق رؤوس الاموال اليهودية الى فلسطين لبناء اقتصاد جديد ناشيء ، فاتخذت الواردات في الاغلب شكل آلات ومواد خام ومواد بناء ، دون ان تسهم بشكل مباشر في رفاهية المجتمع ، واذا كان لهذا الاقتصاد الناشيء عائد ، فقد انفرد اليهود بالتمتع به دون العرب ·

ونظرا للتوسع في استيراد مواد البناء والآلات والمواد الخام وغيرها من متطلبات بناء الاقتصاد اليهودي في فلسطين ، ظل العجز في الميزان التجاري قائما طوال فترة بناء الوطن القومي اليهودي · وتوضح الارقام التالية الفارق بين قيمة الواردات والصادرات خلال الفترة ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ : (٣٥)

السنة	الواردات بالجنيه الاسترليني	الصادرات بالجنيه الاسترليني
١٩١٩	٣ر١٢٦ر٤٦٤	١٤١ر٨٥٣
١٩٢٠	٥ر٤٠٩ر٩٨٧	١ر٣١٨ر٦٢٠
١٩٢١	٥ر٨٧١ر٦٧٨	١ر٤١٦ر٣٦٨
١٩٢٢	٥ر٥٨١ر١٣٢	١ر٣٥٣ر٣٠٨

ويورد تقرير للقنصل الامريكي في القدس بيانا لحركة الصادرات والواردات موزعا على مختلف بلدان العالم خلال الفترة بين أول ابريل ١٩١٩ ، وآخر مارس ١٩٢١ · ويلاحظ اختلاف في التقديرات الواردة في التقرير عن التقديرات السابقة كالآتي : (٣٦)

البلد	الواردات (بالدولار الامريكي) السنة المنتهية في ٣١ـ٣ـ١٩٢٠	السنة المنتهية في ٣١ـ٣ـ١٩٢١	الصادرات (بالدولار الامريكي) السنة المنتهية في ٣١ـ٣ـ١٩٢٠	السنة المنتهية في ٣١ـ١٢ـ١٩٢١
استراليا	٣ر٥٧٣ر١٢٤	٣ر٧١٦ر٤٠٤	٣٨٢	٣٦٤
مصر	٣ر٩٩٧ر٧٣٢	٢ر٢٧٨ر١٨٤	٢ر١٨٧ر٠٣٦	٢ر١٣٧ر١٨٠
فرنسا	٤٦١ر٠٢٨	٩٧٤ر٠٠٨	٨١ر٩٣٢	٥٧ر٣٠٨
بريطانيا العظمى	٤ر٨١٨ر٧٢٨	٦ر٧٨٦ر٥١٦	٣٦٨ر٢٣٦	٣٧٦ر٩٧٦
اليونان	١٦٢ر١٢٠	٦ر٠٠٠	٨٠ر٠١٦	١٥ر٤٥٢
الهند	٨٤٤ر٢٢٤	١ر٦٢٦ر٣٣٢	٥٣٦	٦٧٦
ايطاليا	٣٢٥ر٩٤٨	٨٩٤ر٥٩٦	٦٠ر٥٠٠	٢٧ر١٩٦
اليابان	١ر٢٦٠ر٩٨٤	٤٧٤ر٢٠٤	٠٠٠	٠٠٠
هولندا	١ر٣٦٢ر٣٧٢	١ر٠٦٣ر٦٨٠	٣٧ر٨٩٦	٢ر٥٢٠
الولايات المتحدة	٧٩٠ر٣١٦	١ر٩٩٠ر٥٠٤	١٢ر٦٥٦	٤٦ر٧٢٨
بلاد أخرى	٩٧٨ر٣٧٢	٣ر١٤٧ر٤٠٤	١٥٥ر٢٤٨	٢٢٥ر٥٦٠
طرود بريدية	١ر١٨٩ر٢٩٢	٩٠٩ر٠٦٠	١٠٩ر٨٤٨	١٨٧ر١٤٤

ويقدر مصدر عربي قيمة الواردات الى فلسطين خلال الفترة ١٩٢١ـ١٩٢٥ بنحو ٢١ر٤٥٣ر٠٧٩ جنيها استرلينيا ، والصادرات خلال نفس الفترة ٤ر٨٣٠ر٤٨٥ جنيها ٠ وبذلك يكون العجز في الميزان التجاري ١٦ر٦٠٤ر٥٦٤ جنيها استرلينيا ٠ (٣٧)

واستمر العجز في الميزان التجاري ، فكانت قيمة الواردات ٦ر٧٧٠ر٨١٨ جنيها استرلينيا في عام ١٩٢٦ مقابل ٦ر١٨٤ر٤٥٤ جنيها في العام التالي ، بينما كانت قيمة الصادرات ١ر٤٨٧ر٢٠٧ جنيها استرلينيا في عام ١٩٢٦ مقابل ١ر٨٩٩ر٧٥٩ جنيها في العام التالي ٠ (٣٨)

وتسجل الارقام التالية ارتفاع قيمة الواردات على قيمة الصادرات خلال الفترة ١٩٢٩ـ١٩٣٤ : (٣٩)

السنة	الواردات بالجنيه الفلسطيني	الصادرات بالجنيه الفلسطيني
١٩٢٩	٧ر١٦٦ر٥٩٣	١ر٦٥٤ر٢٦٢
١٩٣٠	٦ر٩٨٥ر٢٥٨	١ر٨٩٦ر٠٩٥
١٩٣١	٥ر٩٤٠ر٠٠٠	١ر٥٧٢ر٠٦١
١٩٣٢	٧ر٧٦٨ر٩٢٠	٢ر٣٨١ر٤٩١
١٩٣٣	١١ر١٢٣ر٤٨٩	٢ر٥٩١ر٦١٧
١٩٣٤	١٥ر١٥٢ر٧٨١	٢ر٢١٧ر٥٦٢

ويلاحظ من تلك الارقام ارتفاع ملحوظ في قيمة الواردات ابتداء من عام ١٩٣٢ ، ويرجع ذلك الى ان اليهود الالمان المهاجرين الى فلسطين لجأوا الى نقل اموالهم في شكل بضائع وسلع تجارية ، بعد أن رفضت الحكومة الالمانية مبدأ نقل اموال الرعايا الالمان ، وقد ساعدت الحكومة البريطانية في الوصول الى اتفاق مع السلطات الالمانية ينظم نقل البضائع الممكن تسويقها عن طريق الاستهلاك المحلي في فلسطين ، كما أصدرت تعليماتها الى حكومة فلسطين باعفاء البضائع الالمانية من الرسوم الجمركية حتى لا يتأثر المهاجر الالماني ماليا ، كما تخصصت شركات يهودية معينة في تنظيم نقل تلك البضائع باشراف الوكالة اليهودية والمجلس المركزي لتوطين اليهود الالمان ٠ (٤٠)

وتسجل نفس الارقام ارتفاعا في قيمة الصادرات من فلسطين ، برغم الازمة المالية العالمية ، مما يوضح ان وسائل الانتاج اليهودية في المجالات الزراعية بدأت تحقق فائضا انتاجيا قابلا للتصدير بعد الوفاء باحتياجات السوق المحلية ، وبعد انتهاء عشرة اعوام من ممارسة الوكالة اليهودية نشاطها في فلسطين ٠ كما يلاحظ ان قسما كبيرا من الصادرات كان من المنتج

من الحمضيات ٠

وتوضح الارقام التالية نسبة قيمة الصادرات الى قيمة الواردات في حركة التجارة بين فلسطين وبعض دول العالم خلال عامي ١٩٣٥ـ١٩٣٦ ٠ (٤١)

الفترة	النمسا	بلجيكا	تشيكوسلوفاكيا	ايطاليا	رومانيا	يوغوسلافيا	لاتفيا	الارجنتين	الولايات المتحدة	بولندا	اليابان	تركيا
١٩٣٥	١ : ٣١	١ : ٩	١ : ١٣	١ : ١٣	١ : ١٣	١ : ١٧	١ : ٣٠	١ : ١٩	١ : ١٩٤	١ : ١٦	١ : ٦٥	٦٥
١٩٣٦	١ : ١١	١ : ٧	١ : ٨	١ : ٢١	١ : ١٦	١ : ١٧	١ : ٦	١ : ٤٧	١ : ٥٠	١ : ٣	١ : ١٣	٤

وتشير هذه الارقام الى انخفاض نسبي في الواردات من البلدان التي لم يتمتع اليهود فيها بالثراء ، مثل بولندا وتشيكوسلوفاكيا ولاتفيا وتركيا ، وانخفاض نسبي مماثل بالنسبة للواردات من البلدان التي لا يبدي اليهود فيها اهتماما كافيا بالمسألة الصهيونية مثل ايطاليا وبلجيكا ٠ ويقابل ذلك ارتفاع نسبي في البلدان التي تمتع اليهود فيها بالثراء ، وعمدت الاجهزة الصهيونية الى شن حملات متوالية لجمع التبرعات فيها ، مثل الولايات المتحدة والارجنتين ٠ وكان جزء من الواردات الى فلسطين بضائع في شكل هدايا ارسلها في تلك البلدان الى ذويهم وبني دينهم ٠ ويستمر العجز في الميزان التجاري مواكبا التوسع في الزراعة والصناعة كما يتضح من الارقام التالية :

السنة	الواردات		الصادرات	
	النصف الاول بالجنيه الفلسطيني	النصف الثاني بالجنيه الفلسطيني	النصف الاول بالجنيه الفلسطيني	النصف الثاني بالجنيه الفلسطيني
١٩٣٥	٨ر٦٠٨ر٠٠٠	٩ر٢٤٥ر٠٠٠	٣ر٢٢٠ر٠٠٠	٩٩٣ر٠٠٠
١٩٣٦	٦ر٧٣٣ر٠٠٠	٧ر٢٤٦ر٠٠٠	٢ر٢٦٣ر٠٠٠	١ر٣٦٢ر٠٠٠
١٩٣٧	٨ر١٣٩ر٠٠٠	٧ر٧٧٤ر٠٠٠	٣ر٧٥٥ر٠٠٠	٢ر٠٦٥ر٠٠٠
١٩٣٨	٦ر٦٤١ر٠٠٠		٣ر٢٥٩ر٠٠٠	

وقد ارتفعت قيمة انتاج شركة البوتاس من ٦٤ر٠٠٠ جنيه فلسطيني في النصف الاول من عام ١٩٣٧ الى ١٦٠ر٠٠٠ جنيه في النصف الاول من العام التالي ٠

ويواكب الارتفاع في قيمة الصادرات ارتفاع ملحوظ في دخل يهود فلسطين ٠ اذ تقدره النشرة الاقتصادية للصندوق القومي اليهودي في عام ١٩٣٧ بثمانية عشر مليونا من الجنيهات الفلسطينية ، منها ٤ر١٠٠ر٠٠٠ جنيه من قطاع الصناعة ، و ٣ر٩٠٠ر٠٠٠ جنيه من قطاع الخدمات ، ومليونان من الجنيهات الفلسطينية من القطاع الزراعي ، ذلك برغم ظروف الثورة الفلسطينية الكبرى ٠

كما شهدت تلك الفترة الارتفاع الملحوظ في حجم الوارد من أموال اليهود الالمان المهاجرين الى فلسطين في شكل بضائع المانية ٠

وكان تتزايد قيمة الواردات على قيمة الصادرات تأثير على محاولات تنمية الاقتصاد اليهودي في فلسطين ٠ وقد شغلت هذه المشكلة فكر القائمين على أمر المؤسسات الانتاجية والدوائر الاقتصادية بين يهود فلسطين لدرجة كبيرة ، فطفقت الاجهزة المعنية تبحث عن وسيلة لتنظيم الواردات بحيث تلائم اغراض « الدفاع الاقتصادي » ، مع احداث تغييرات في سياسة حكومة الانتداب ٠ وقد اجتمعت اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية والمجلس المحلي ليهود فلسطين في مايو ١٩٣٩ ، وتقرر تكوين « مؤسسة الدفاع الاقتصادي وتنظيم الواردات » ، من ممثلين عن « الاجهزة الوطنية » اليهودية لتعمل تحت اشراف اللجنة التنفيذية لـوكالة وتوجيه ادارة التجارة والصناعة التابعة للوكالة ٠ (٤٣)

وكانت الوكالة اليهودية توظف جزءا من الاموال اليهودية المتدفقة على فلسطين في تغطية العجز في الميزان التجاري سنويا ٠ وتوضح الارقام التالية العلاقة بين تشغيل رأس المال اليهودي بالالف جنيه فلسطيني ، وميزان التجارة خلال الفترة ١٩٣٢ـ١٩٣٩ : (٤٤)

السنة	١٩٣٢	١٩٣٣	١٩٣٤	١٩٣٥	١٩٣٦	١٩٣٧	١٩٣٨	١٩٣٩
رأس المال المستثمر	٣٫٠٠٠	٦٫٠٠٠	١٠٫٠٠٠	١١٫٠٠٠	٧٫٠٠٠	٦٫٠٠٠	٤٫٧٠٠	٥٫٠٠٠
العجز في الميزان التجاري	٥٫١٠٦	٨٫١٠٨	١١٫٦٨٣	١٣٫٣٤٦	٩٫٥٨٨	٩٫٦٢٠	٥٫٦٧٣	٩٫١٦٦

وتوضح هذه الارقام ان العجز في الميزان التجاري يزيد على رأس المال اليهودي الموظف في التغطية المالية غير أن مذكرة للوكالة اليهودية تشير الى ان ذلك امر كان متوقعا طالما ان رأس المال غير اليهودي (العربي والحكومي) لم يوضع في الحسبان ٠

على ان القائمين على أمر الوكالة اليهودية كانوا يتوقعون دائما ان الوارد « الكبير » من رأس المال اليهودي ربما يؤدي الى زيادة الانتاج المحلي بشكل يقلل الاعتماد على الواردات من الخارج ، كما ان التقدم في انتاج الموالح يزيد من حجم الصادرات ٠

وكانت الواردات الى فلسطين تتخذ شكل الاغذية (وبصفة خاصة القمح واللحوم والانتاج الحيواني) والمواد الخام والآلات وقطع الغيار اللازمة لتشغيلها ٠ (٣٥)

وقد أولت اجهزة الوكالة اليهودية اهتماما كبيرا بالتوسع في التصدير ، وتحققت خطوات ناجحة في هذا السبيل تظهر نتائجها في الارقام التالية : (٤٦)

نوعية الصادرات	القيمة الحقيقية المستوى قبل الحرب ١٩٣٧-١٩٣٩	بالجنيه الفلسطيني ١٩٤٥	النسبة المئوية ١٩٣٧-١٩٣٩	النسبة المئوية ١٩٤٥
الحمضيات	٣ر٩٧٥ر٠٥٠	٢ر٠٨٥ر٩٤٥	٧ر٧٤	١٥
مواد غذائية غير مصنعة	٩٠ر٠٠٢	٢٦٧ر٠٣٨	١ر٧	٢ر٦
بضائع اخرى غير مصنعة	٢٥٥ر٣٨٢	٣٢٧ر٢٩٨	٤ر٨	٢ر٤
منتجات البحر الميت	٣٢٢ر٤٥٠	٩٠٤ر٩٥٣	١ر٦	٥ر٦
الماس	—	٥ر٩٠٩ر٢٩٧	—	٤٢ر٧
مواد مصنوعة	٦٧٤ر٦٧٣	٤ر٢٦٠ر٤٥٨	١٢ر٧	٣٠ر٨
الجملة	٥ر٣١٧ر٥٥٧	١٣ر٨٥٤ر٩٨٩	١٠٠	١٠٠

وترجع بعض ملامح هذه الخطوات الناجحة الى مقتضيات ظروف الحرب العالمية الثانية ، غير ان الملامح الاخرى اتخذت صفة الاستمرار بعد الحرب كمقومات للتجارة الخارجية لفلسطين · وكان من المقرر ان تزول بعض علامات التقدم مع انتهاء الحرب في الصادرات الخاصة بمعمل تكرير البترول في حيفا ، والمواد المصنعة التي اعتمدت على المهارات الشخصية ··

وبعد ، فاذا كانت المقاطعة العربية قد اقتصرت على البضائع اليهودية فحسب ، فانها بعد قيام « دولة اسرائيل » شملت الشركات غير اليهودية المتعاملة مع اسرائيل · على ان اسرائيل نجحت في التحايل على المقاطعة العربية ، واوصلت بعض بضائعها لتباع في بعض الاسواق العربية تحت « ماركات » ايطالية ويابانية وغيرها ·

واليوم فان قاعات الامم المتحدة تشهد صراعا محتدما تطالب فيه الانظمة المحافظة « بتخفيف » القيود على الشركات الاجنبية المتعاملة مع اسرائيل ··· ولا تزال المعركة مستمرة ·

الحواشـــي

(1) Zionist Organization: Reports of the Executives of the Zionist Organization and the Jewish Agency for Plaestine, submitted to the Nineteenth Zionist Congress, 1935. P. 236.

(2) Zionist Organization; Reports of the Executives of the Zionist Organization and the Jewish Agency for Palestine, submitted to the XXI Zionist Congress, 1939. P. 412.

(٤) عملت بإدارة ج.ل. فيشمان ـ عضو اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية .

5) Z.O., Reports to XXI Z. Congress, 1939. PP. 424-425.

(٦) مستر برنشتاين .

(7) Jewish Agency for Palestine; Observations on the Supplementary Memorandum, Jerusalem, 1947. PP. 15-17.

(٨) مكتب المباحث الاقتصادية التابع للوكالة اليهودية لفلسطين ، نشرات الوكالة اليهودية : كلمة حول العلاقات الاقتصادية بين سوريا وفلسطين القدس ، مارس ١٩٣٧ . ص. ٢ .

(٩) المرجع السابق : ص.ص. ٣ ـ ٤ .

(10) Parliamentary Debates; Vol. 253. PP. 295-296.

(١١) مكتب المباحث الاقتصادية التابع للوكالة اليهودية لفلسطين ، مرجع سبق ذكره .ص. ٤ ـ ٨ .

(12) Z. O.; Reports to the XIX Z. Congress, 1935. P. 376.

(13) Mr. Johnson.

(14) Mr. Shanker.

(15) Mr. N. Tishky.

(16) Z.O.; Reports to the XIX Z. Congress, 1935. P. 377.

(17) Jewish Agency for Palestine; Memorandum on Reconversion in Palestine, submitted to the United Nations Special Committe on Palestine. Jerusalem, 1947. P. 14.

(18) Ibid. P. 15.

(19) Zionist Organization; Reports of the Executives of the Zionist Organization and the Jewish Agency for Palestine, submitted to the XXII Zionist Congress, 1946. P. 218.

(٢٠) من الأمثلة التي أوردتها الوكالة اليهودية دليلاً على ذلك ، الواردات التالية من الدول العربية عام ١٩٤٦ : التفاح : من سوريا ولبنان = ٧١,٥٤٣ ج.ف. ، ومـن الأردن = ١٣٩,٣٤٤ ج.ف. ، والبطاطس : من سوريا ولبنان = ٦٥,٦٦١ ج.ف. ، ومن مصر = ٢٥,٥٠٢ ج.ف. ، والتمر : من العراق = ١٥٧,٩٥٦ ج.ف. ، والسجائر : من مصر = ١٩,٧١٩ ج.ف. فضلا عن بضائع اخرى غير ضرورية منها الفخار والأواني الخزفية والحرير الصناعي المنسوج ، والمنسوجات والجلود . أنظر :

Jewish Agency; Observations on the Supplementary Memorandum. P. 18.

(21) U.N.; Document A-70, Terms of League of Nations Mandates — Mandate for Palestine.

(٢٢) للتوصل إلى تصور واضح لدور حكومة الانتداب على فلسطين في مساندة التجارة اليهودية انظر : عادل حامد الجادر : أثر قوانين الانتداب البريطاني في اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين . رسالة لنيل درجة الماجيستير ، أجيزت بمعهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٢ . ص. ٢٠٨ ـ ٨٥٧ .

(٢٣) بدىء في انشاء الميناء في عام ١٩٢٧ . أنظر : المقطم : ١٩٢٧/١٢/١٦ . ص. ٣ .

(٢٤) اتخذت حكومة الانتداب قراراً بإنزال العملة الفلسطينية إلى السوق اعتباراً من أول نوفمبر ١٩٢٧ ، واستعادة العملة المصرية ـ وقد صدرت العملة الفلسطينية على قاعدة الجنيه سترليني (٩٧٥ مليما) واعتباره ألف مل فلسطيني . أنظر : المقطم : ١٩٢٧/١٠/٢٨ . ص. ٥ .

(٢٥) للمزيد من التفاصيل ، أنظر : الفصل الخامس ـ التجارة والرسوم الجمركية في ظل الانتداب

في ، ابـراهيم رضـوان الجنـدي : سياسـة الانتـداب البريطاني الاقتصادية في فلسطين ١٩٢٢ ـ ١٩٣٩ . رسالـة لنيل درجـة الماجيستـير أجيزت بجامعـة الاسكندرية ، ولم تنشر بعد . الاسكندرية ، ١٩٧٥ . ص. ١٨٢ ـ ٢١١ .

(26) Z. O.; Reports to the XIX Z. Congress, 1935-PP. 376-377.

(27) Ibid. P. 378.

(28) Jewish Agency for Palestine; Report of the Executive of the Jewish Agency for Palestine, submitted to the Fourth Meeting of the Council at Lucerne, September 4th-5th, 1935. PP. 165-167.

(29) C.O. 733-281. Speech by Ben Gurion before the Zionist Congress, 1935. P. 8.

(30) John, Robert; Ben-Gurion, a biographic of an Extraordinary Man. New-york, 1959. P. 81.

وقد تحقق لإسرائيل فيما بعد انشاء ميناء إيلات ، وخفق العلم الاسرائيلي فوق السفن البحرية المارة عبر خليج العقبة في أعقاب العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ . وإذا كان الخليج قد أغلق في وجه الملاحة الاسرائيلية قبيل الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ بأيام قليلة ، كما أغلق مضيق باب المنـدب في وجـه السفن الاسرائيلية إبان حرب اكتوبـر عام ١٩٧٣ ، فإن الطريق أصبح الآن مفتوحاً امام حركة التجارة من إيلات وإليها .

(31) League of Nations; Permanent Mandates Commission, Minutes of the Twenty-Ninth Session, Held at Geneva from May 27th to June 12th 1936, including Report of the Council. Seventh Meeting Held on Monday, June 1st, 1936. PP. 60-62.

(32) Jewish Agency for Palestine, Memorandum submitted to the Permanent Mandates Commission, League of Nations, 30-5-1938. P. 30.

(33) Z. O.; Reports to the XXI Z. Congress, 1939. P. 4 13.

(٣٤) نشرات الوكالة اليهـودية : اقتصـاديات فلسطين ما بين العـرب واليهـود . نشرة رقـم (٣) القدس ، آيار سنة ١٩٣٥ . ص. ٤٣ ـ ٤٤ .

(35) The Zionist Review, June, 1923. P. 25.

(36) U.S., Department of Commerce, Special Reports - No. 83, Palestine, its Commercial Resources with particular reference to American Trade. By Addison E. Southard, American Consul at Jerusalem. Washington, 1922. P. 49.

وهذه الوثائق مصورة على الافـلام من مؤسسة الدراسات الفلسطينية ببيروت .

(37) C.O. 733-46. Report on the state of Palestine, Submitted to His Excellency the High Commissioner for Palestine, by the Executive Committee, Palestine Arab Congress, on 13th October, 1925. P. 11.

(38) Report by His Majesty's Government in the United Kingdom of Great Britain and Northern Ireland to the Council of the League of Nations on the Administration of Palestine and Transjordan for the year 1927. P. 42.

(39) The Economist, Commercial Section of the Palestine Post. Jerusalem, December, 16, 1935. P. 8.

(٤٠) محمد عبد الرؤوف سليم : نشاط الوكالة اليهـودية منـذ انشائهـا حتـى قيام دولـة إسرائيل ، (١٩٢٢ ـ ١٩٤٨) . رسالة لنيل درجـة الدكتـوراه أجيزت بجامعـة عـين شمس ـ ولـم تنشر بعـد ، القاهرة ، ١٩٧٧ . ص. ٤٠١ ـ ٤٠٤ .

(41) The Economist; 27-12-1937. P. 9.

(42) The Jewish Chronicle, 30-9-1938. P. 17.

(43) Z. O.; Reports to the XXI Z. Congress, 1939. P. 414.

(44) The Jewish Agency for Palestine, Jewish Economic Development: Facts and Prospects: Memorandum Submitted in March, 1946-to the Anglo American Committe of Inquiry in Jerusalem. Jerusalem, 1947. PP. 10-11.

(٤٥) أنظر نوعية رأس المال الموظف في تغطية العجز في الميزان التجاري في :

Report to the Genral Assembly by the United Nations Special Committee on Palestine. H.M.S.O., 1947. PP. 25-26.

(46) Jewish Agency; Economic Development. P. 12.

خليل بركات

المؤامرة مستمرة في الجنوب

على الرغم من مضي أكثر من ثلاثة اشهر على اعلان اتفاق شتورة الذي تم بين السلطة اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية وسورية ، فان هذا الاتفاق لم يجد طريقه الى التنفيذ في الجنوب بالرغم من استمرار الحديث عن قرب البدء بالتنفيذ ، مما حدا بقيادة قوات الردع العربية الى اصدار بيان يوم ١٣ تشرين اول ١٩٧٧ يتضمن نفيا للمعلومات الصحفية ٠٠ واعتبار « ان كل ما لا يصدر عن قيادة قوات الردع العربية في ما يختص بتنفيذ المرحلة الثالثة من اتفاق شتورة لا يعتبر واقعا ولا صحيحا » ـ جريدة السفير ـ ٠

ولقد بات من الواضح ان التحالف الانعزالي ـ الصهيوني يعمل على عرقلة تنفيذ اتفاق شتورة في الجنوب ، بعدما كان يلح على تنفيذه في بيروت وبقية المناطق اللبنانية ٠ ذلك ان تنفيذه في هذه المناطق ، كان ينسجم مع مصلحته ، بينما مصلحته في الجنوب ، تقضي بابقاء الوضع متوترا هناك من أجل الاستفادة منه لتحقيق الاهداف التي ما انفك يعلن عنها صراحة ، عبر التصريحات اليومية لاركان الجبهة الانعزالية ، واستخدام ذلك ورقة سياسية ضاغطة محليا وعربيا ٠

فعلى الصعيد المحلي ، يربط اركان الجبهة الانعزالية موضوع الحوار « بالوجود الفلسطيني المسلح » محاولين الضغط على الاطراف المحلية وبصورة خاصة الهيئات الاسلامية ، لدفعها للوقوف الى جانب الجبهة في موقفها من قضية « الوجود الفلسطيني المسلح » في لبنان ، كشرط لقبولها البدء بالحوار حول مستقبل لبنان السياسي والاجتماعي ٠ وعملية الضغط هذه تجري وفق تنسيق متفق عليه بين أركان الجبهة ، وهذا يبدو واضحا من خلال التصريحات والمقالات التي تصدر في صحف الانعزاليين بصورة تكاد تكون يومية ٠

فقد صرح كميل شمعون بتاريخ ٥ أيلول ١٩٧٧ ، ردا على سؤال : « قلت منذ البداية أن الحوار لا يمكن ان يبدأ والبنادق الاجنبية الغريبة لا تزال على ارض لبنان » ـ جريدة « الاحرار » ـ ٠

واوضح في اليوم التالي ، اي بتاريخ ٦ أيلول ١٩٧٧ ، انه « لا بحث في الاتفاقات

السياسية قبل ان ننتهي من الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان » ـ جريدة « الاحرار » ـ ٠

اما جريدة « الاحرار » الناطقة باسم حزب شمعون فقد كتبت تعليقا تقول فيه: « المطلوب ان يعود الفلسطينيون الى مخيماتهم دون قيد أو شرط ، ودون ان يكون لهم على ارضنا اللبنانية اي اثر عسكري او سياسي ٠ والا فلن تكون هناك خطوة واحدة نحو الوفاق الوطني » ـ جريدة « الاحرار » ١٠ ايلول ١٩٧٧ ـ ٠

وفي الوقت نفسه صرح بيار الجميل رئيس حزب الكتائب ، بشأن هذا الموضوع ، « اننا نرفض بعد اليوم ان نعالج شؤون لبنان الافضل والمنتظر ، وامـوره الكبـرى ، تحـت الضغط » ـ جريدة العمل ٣ ايلول ١٩٧٧ ـ ٠

كما صرح ايضا بتاريخ ٩ ايلول ١٩٧٧ ، بأن « امام التفاهم عائقان : السلاح الفلسطيني والتدخل الغريب » ـ جريدة العمل ـ ٠

اما جريدة « العمل » الناطقة باسم حزب الكتائب فقد كتبت حول هذا الموضوع بتاريخ ٢ تشرين اول ١٩٧٧ تقول : « اما اذا استمرت « العصابات الفلسطينية » تعيث فسادا في الجنوب وتمارس ابشع انواع « الاحتلال والعدوان والاذلال » بحق الجنوبيين واستمر الفريق الآخر صامتا ـ اي المسلمين ـ ازاء هذا الوضع ٠٠ فان الوفاق سوف يبقى بعيدا » ٠

اما على الصعيد العربي ، فان اركان الجبهة الانعزالية ، وبصورة خاصة بيار الجميل رئيس حزب الكتائب ، يتساءلون يوميا عن معنى « الوجود الفلسطيني المسلح » في الجنوب ، هذا الوجود الذي هو في نظرهم يلحق الضرر ، بل ويشكل « كارثة حقيقية ، فلسطينيا ، ولبنانيا ، وعربيا » ـ تصريح بيار الجميل ، نشرة جريدة العمل في ١٧ ايلول ١٩٧٧ ـ ٠

ومن الواضح ان مثل هذا القول يعني التحريض الصريح والواضح ضد الثورة الفلسطينية ، في الوقت الذي يبرىء « اسرائيل » من مسؤوليتها تجاه ما يجري في الجنوب ، كل ذلك من باب « الحرص » على الثورة الفلسطينية وقضية فلسطين التي هي « قضية مقدسة » كما لا يزال يعلن باستمرار ٠

التهرب من تطبيق اتفاق شتورة في الجنوب ، وتحميل الثورة الفلسطينية مسؤولية عدم التطبيق :

لقد بات واضحا ان تنفيذ اتفاق شتورة في الجنوب يتضمن سحب مقاتلي الثورة الفلسطينية من قرى الحدود ، والالتزام بما نصت عليه اتفاقية القاهرة المعقودة عام ١٩٦٩ بين السلطة اللبنانية والثورة الفلسطينية ، وسحب المسلحين الانعزاليين من المنطقة وارسال قوات من الجيش اللبناني اليها ٠

وعلى الرغم من وضوح بنود هذا الاتفاق ، فان الجانب الانعزالي يسعى الى التهرب من تطبيقه بل وتشويه مضمونه ، وبالتالي القاء تبعة الفشل في تنفيذ الاتفاق على عاتق الثورة الفلسطينية ٠ ومن اجل هذا ، وضعت الجبهة الانعزالية مخططا لتحقيق هذا الغرض يتمثل بالطروحات التالية :

اولا ـ اتهام الثورة الفلسطينية بعدم تنفيذ بنود الاتفاق ، ومطالبتها بسحب مقاتليها من الجنوب ٠ في حين ان الثورة الفلسطينية تلح على ضرورة الاسراع في تنفيذ بنود

الاتفاق كاملة ، وليس فقط بانسحابها هي من قرى الحدود · كما اعلنت ايضا عن وقف اطلاق النار من جانبها الا في حالة الدفاع عن النفس ·

ثانيا ـ تحوير بنود الاتفاق وتحميله امورا لا يتضمنها ولا يمكن القبول بها من جانب الثورة الفلسطينية ، لان قبولها يعني قبول الثورة الفلسطينية بتصفية نفسها ، وذلك من اجل التشويش على المقاومة ، واتهامها بالتالي بنقض الاتفاق وتحميلها مسؤولية تردي الوضع في الجنوب ·

ففي الوقت الذي يعلن فيه بيار الجميل رئيس حزب الكتائب ، ان انسحاب « المسلحين الفلسطينيين » مسافة ١٠ كلم عن الحدود ، بحسب اتفاق شتورة ، لا يكفي « وليس هو العلاج الفعال » ـ جريدة العمل في ١٧ ايلول ١٩٧٧ ـ ، نراه يعلن في تصريحه اليومي المنشور في جريدة العمل في ٧ تشرين اول ١٩٧٧ انه « في يقيننا ان الانسحابات تعني انسحابا الى المخيمات والى الدول العربية الاخرى التي منها اتت تلك الاعداد الكثيفة قبل الحرب او اثناءها » ·

ويبدو ان الجبهة الانعزالية استدركت الامر ، وحاولت من ثم ان تضيف الى اتفاق شتورة بنودا لا يتضمنها ، من اجل الايهام بان المقاومة تتهرب من التنفيذ · فتحت عنوان رئيسي في جريدة العمل بتاريخ ٢٩ ايلول ١٩٧٧ : « شمعون يكشف بنودا من اتفاق الجنوب » ، نشرت الجريدة تصريحا لكميل شمعون يقول فيه ان الاتفاق ينص على « انسحاب المنظمات الفلسطينية المسلحة ، قسم لخارج الحدود ، وقسم للمخيمات عزلا من السلاح » · وفي ٣٠ ايلول ١٩٧٧ يصرح كميل شمعون ثانية بان « المطلوب تطبيق الاتفاقات وبموجبها على الفلسطينيين ان ينسحبوا قسما الى خارج الحدود ، وقسما ثانيا أعزل من السلاح الى المخيمات · وطالما ان الوجود الفلسطيني المسلح سيبقى في الجنوب ، فان الامن والسلم في لبنان معرضان للخطر » ـ جريدة العمل ـ ·

ثالثا ـ التنصل من البند المتعلق بانسحاب المسلحين الانعزاليين من المنطقة ، والقول بان المسلحين الموجودين هناك هم من « اهالي القرى » ومن « قوات لبنانية تابعة للجيش » · فقد صرح كميل شمعون بتاريخ ٢٩ ايلول ١٩٧٧ ردا على سؤال : « هناك قوات لبنانية تابعة للجيش التي هي بامرة الرائد حداد ، وهناك شباب يقاتلون ، وهؤلاء الشباب موجودون هناك باعتبارهم من ابناء القرى ، ومنهم من ينتمي للاحرار ، ولكن هؤلاء يحاربون باعتبارهم اولاد الضيعة فانهم يحاربون دفاعا عن الضيعة خوفا من ان يصير بضيعتهم مثل ما صار بالعيشية · انضموا للجيش اللبناني وانهم يقاتلون مثل السباع هم والجيش » ·

والجدير بالذكر ، اننا كنا قد توصلنا الى هذا الاستنتاج لموقف الجبهة الانعزالية في المقال الذي كتب منذ شهرين ونشرفي مجلة شؤون فلسطينية ـ العدد ٧٠ ـ ، عندما ناقشنا ما بدأت ترددد اذاعة الكتائب وصحف الانعزاليين بعد اتفاق شتورة مباشرة ، من ان الاشتباكات تجري بين « اهالي » القرى وبين « الفلسطينيين وحلفائهم اليساريين » ، بعدما كانت تذكر في الماضي « اسم القوات اللبنانية » ، وقلنا بأن هذا القول « يحمل في طياته بذور التملص من الاتفاق وعدم تنفيذه » · ذلك ان « الجبهة الانعزالية سوف تدعي مستقبلا بانها سحبت قواتها من المنطقة ، وان الاهالي هم وحدهم موجودون هناك ، ولهم حق الدفاع عن انفسهم ، وانه لا يعقل ان يطلب من الاهالي ترك قراهم » ·

ولقد جاء التصريح الذي ادلى به شمعون يشهد على صحة ما توصلنا اليه في حينه ،

ذلك ان الجبهة الانعزالية تصر على البقاء في المنطقة من خلال المسلحين التابعين لهـــا والذين ترفدهم باستمرار بقوات اضافية ، عن طريق فلسطين المحتلة وبتسهيل من العـــدو الصهيوني الذي يمدهم بكافة اشكال المساعدة ٠

ومن جهة اخرى ، فان اعتبار الرائد حداد ومن معه على انهم قوات تابعة للجيـــش اللبناني ، يعني اضفاء الشرعية على وجودهم هناك ، وعلى الدور الذي يقومون بـــه ، بالاضافة الى شرعية تعاملهم مع العدو الصهيوني ٠

اما الرائد حداد قائد القوات الانعزالية في منطقة مرجعيون ، فقد صرح بتاريـــخ ١٠ تشرين اول ١٩٧٧ لمراسلي اذاعة العدو الصهيوني ، بان « قوات الجيش اللبناني التـــي تنوي الذهاب الى المنطقة يجب ان تنضم الى قواته ، ولن تكون بديلا عنها » ٠ ونقلت التصريح اذاعتا « اسرائيل » ولندن ٠

رابعا ــ معارضة ارسال قوات من الجيش اللبناني الى المنطقة قبـل حصول الانسحـاب من جانب مقاتلي الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية ٠ فقد صرح كميل شمعون بتاريـخ ٥ ايلول ١٩٧٧ انه « يجب اولا ان ينسحب الفلسطينيون من الجنوب ، وهذا مبدأ يفترض ان يتم قبل كل شيء ، وعندها يمكن ان تتوجه قوات نظامية لملء الفراغ الامنـــي فـــي الجنوب » ــ جريدة « الاحرار » ــ ٠ وكتبت جريدة العمل الناطقة بلسان حزب الكتائـــب تقول بتاريخ ٣٠ ايلول ١٩٧٧ : قر رأي الجبهة ــ اي الجبهة الانعزالية ــ « على ضرورة سحب الفلسطينيين قبل توجه قوة الجيش اللبناني الى الجنوب » ٠ ويعلل بيار الجميـــل رئيس حزب الكتائب هذا الموقف ، بانه خشية ان يواجه الجيش اللبناني « اسرائيل » مـــن الامام وعمليات الغدر من قبل « الفلسطينيين » من الخلف فيصبح بين « فكي كماشة » ٠

والواقع ان هذا الموقف الذي تقفه الجبهة الانعزالية مـــن موضوع ارسال الجيـــش اللبناني الى المنطقة ، يعني الضغط على الاطراف المعنية بالاتفاق ، اي سـورية والسلطة اللبنانية ، كي تضغطا بدورهما على المقاومة الفلسطينية بغية الانسحاب مـــن جانبها ، والتنازل عن البند المتعلق بانسحاب المسلحين الانعزاليين من المنطقة ٠ ذلك ان انسحـاب مقاتلي الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية من المنطقة الحدودية قبل ضمـــان انسحـــاب مسلحي القوى الانعزالية ، سوف يؤدي الى بقاء هؤلاء المسلحين في المنطقة ، وبالتالـــي تشديد هيمنتهم وتوسيعها لتشمل قرى الشريط الحدودي والقرى الاخرى القريبـــة مـــن الحدود ٠

الموقف العسكري في الجنوب من منتصف آب ١٩٧٧ وحتى منتصف تشرين اول ١٩٧٧ :

استمر قصف التحالف الانعزالي ــ الصهيوني بعد منتصف آب ١٩٧٧ علـــى جميـــع محاور القتال وبصورة خاصة محور « الخيام ــ مرجعيون » ، بالاضافة الـــى مدينـــة « النبطية » ٠ الا ان هذا القصف بدأ يخف تدريجيا في مطلع شهر ايلول ٠ واستمر علـى هذا النحو حتى منتصف شهر ايلول ،حيث شهدت المنطقة ما بين ١٢ ــ ٢٥ ايلول اعنـف عملية قصف حتى الآن من قبل التحالف الانعزالي الصهيوني ، وبصورة خاصة على محور « الخيام » ٠ كما اشتد القصف على المحاور القتالية الاخرى في « الطيبة » ، و « بنـت جبيل » ، و « الناقورة » ، والقرى المحيطة بهذه المحاور ، وتوسعت عملية النزوح بحيـث اصبحت قرى بكاملها خالية تماما من السكان في تلك الفترة ٠ وغطى القصف ، لاول مرة ، معظم قرى قضاء النبطية ، فوصل الى بلدة «جباع » وهي ابعد بلدة في القضاء ومحاذية

منطقة جزين · كما وصل الى بلدة « انصار »، وهي ايضا ابعد بلدة في القضاء من جهة الغرب · وقدر المراقبون الدوليون عدد القذائف التي سقطت في محور الخيام ، خلال اربعة ايام فقط ب : ١٩١٧ قذيفة اطلقتها مدفعية العدو الصهيوني فقط من داخل فلسطين المحتلة · والواقع انه سقط على هذا المحور بمعدل ٨٠٠ قذيفة يوميا ، طيلة الاثني عشر يوما ، مصدرها مدفعية التحالف الانعزالي ـ الصهيوني · ورافق هذا التصعيد في القصف من قبل العدو الصهيوني ، دخول آلياته وجنوده الى الاراضي اللبنانية وتمركزها في بعض المناطق كالمرتفع الذي يقع خلف بلدة « كفركلا » ، وفي خراج بلدة « دير ميماس » في قضاء مرجعيون ، وغيرها · وقد اعترف العدو الصهيوني لاول مرة بدخول جنوده ومدرعاته الاراضي اللبنانية ، وتمركزها في هذه المناطق ، كما سمح بنشر صور عن عبورها وانسحابها فيما بعد الى ما وراء الشريط الحدودي ·

ورافق عملية التصعيد والضغط العسكري ، من قبل التحالف الانعزالي ـ الصهيوني عدة محاولات للهجوم على محور « الخيام » ، بقصد تسجيل انتصار عسكري في هذا المحور ، واحتلال بلدة « الخيام » · الا ان جميع هذه المحاولات ، باءت بالفشل ، امام الصمود البطولي الذي سطرته قوات الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية في « الخيام » ، فارتدت القوات الانعزالية الى مواقعها ، بعد ان تكبدت خسائر جسيمة . علما بانها استطاعت بواسطة الدعم المدفعي الكثيف الذي قدمته لها المدفعية الاسرائيلية ، الوصول ، في احدى محاولات الهجوم ، الى تلة « الشريقة » المطلة على « الخيام » ، والامساك بها لمدة اربعة ايام فقط ، ما لبثت ان اجبرت على الانسحاب منها امام ضغط الهجمات المضادة ، وعمليات الاغارة التي قامت بها القوات المشتركة للثورة الفلسطينية والحركة الوطنية · والواقع انه لو قدر للقوات الانعزالية الاستمرار في الامساك بهذه التلة ، لاصبح وضع القوات المشتركة في بلدة « الخيام » صعبا للغاية · ذلك ان هذه التلة الواقعة في الجهة الغربية لبلدة « الخيام » ، والمستندة الى « مرجعيون » و « القليعة » من الخلف تشرف اشرافا كاملا على بلدة « الخيام » ، وتطل على الطريق الذي يربط « الخيام » بقرية « ابل السقي » ، وهو المنفذ الوحيد للقوات المشتركة في « الخيام » ، وهذا يعني وقوع الطريق تحت مرمى نيران القنص الانعزالي من تلة « الشريقة » ·

اما في المحاور الاخرى فقد انحصر النشاط العسكري بالقصف الكثيف فقط دون ان يرافقه محاولات للهجوم من الجانب الانعزالي · ولقد كان من الطبيعي ، ان ترد الثورة الفلسطينية على القصف بقصف مضاد ، بحيث شمل هذا القصف المستعمرات الصهيونية في فلسطين المحتلة · واطلقت الصواريخ البعيدة المدى لتطال « صفد » ثلاث مرات ، فضلا عن المستعمرات القائمة بالقرب من الشريط الحدودي · كما اطلقت الصواريخ على « عكا » لاول مرة منذ عام ١٩٤٨ فخلق ذلك حالة من الذعر في المستعمرات الصهيونية ، حيث اجبرت السلطات الصهيونية السكان على النزول الى الملاجىء · كما وقع عدد من الاصابات في صفوف العدو ما بين قتيل وجريح ، بينهم ضابط ·

وبعد مرور اثني عشر يوما على اشتعال جبهات القتال ، توقف القصف ومعه القتال في اليوم الثالث عشر ، ونشرت القوى المعادية خبرا مفاده انه حصل اتفاق على وقف اطلاق النار بين الثورة الفلسطينية والعدو الصهيوني · الا ان الثورة الفلسطينية كذبت الخبر الذي اعتبر مسيئا الى سمعتها ، واعلنت في بيان صحفي انها اوقفت اطلاق النار ، بعد ان اوقف الجانب الانعزالي النار من قبله ، واشارت الى انها مهتمة بوقف القتال في الجنوب ، شرط ان يلتزم الجانب الانعزالي بذلك ايضا ، وانها بالتالي سوف ترد على النار بالمثل من ضمن سياسة الدفاع عن النفس ، واعلنت ان لها حق حرية الحركة تجاه

العدو الصهيوني ، على النحو الذي يكفله لها اتفاق القاهرة ، وكذلك الامر بالنسبة الى تواجدها في المنطقة ٠

لقد ادى التدخل الاسرائيلي المباشر في القتال ، وانتقال آليات العدو ومدرعاته الى الاراضي اللبنانية ، الى احراج « اسرائيل » دوليا خاصة وانه استمر مدة اثني عشر يوما ٠ كما احرج في الوقت نفسه العديد من الانظمة العربية التي عمدت الى اصدار بيانات رسمية ومذكرات وجهتها الى هيئة الامم المتحدة ، واحرج ايضا الجانب الانعزالي ٠ وهذا الاحراج الى جانب الصمود البطولي الذي سطرته قوات الثورة الفلسطينية ، وما نجم عنه من عجز القوى الانعزالية عن تسجيل اي انتصار ولو محدود ، بالاضافة الى رد القوات المشتركة على العدو الصهيوني بقصف مستعمراته بالصواريخ وما نتج عن ذلك من حالة ذعر في اوساط سكان تلك المستعمرات ، كل ذلك شكل ضغطا على القوى الانعزالية ، ودفعها للقبول بوقف اطلاق النار ، كما شكل ايضا ضغطا على العدو الصهيوني ، فسحب مدرعاته التي كان قد ادخلها بصورة علنية ، واعلن عن اخلاء المناطق التي كان قد تمركز فيها ٠

ويبدو ان التصعيد الانعزالي ـ الصهيوني ، الذي كان يستهدف تحقيق نوع من الانتصار العسكري في هذا المحور الهام القريب من منطقة العرقوب التي تعتبر حيوية بالنسبة للثورة الفلسطينية ، يبدو انه كان يطمح لاحداث انهيار معنوي في اوساط الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية ، يدفع بهما الى القبول بتقديم تنازلات تقوي من مركز القوى الانعزالية ، التي تستعجل عندها ادخال الجيش الى المنطقة بحيث ينضوي في ظل تلك الظروف ، تحت مظلتها ويتأثر بها ، الامر الذي يؤدي الى احكام قبضتها على قسم كبير من قرى الشريط الحدودي والقرى الاخرى القريبة من الشريط ٠ ولما فشلت القوى الانعزالية في الوصول الى هدفها هذا ، قبلت بوقف اطلاق النار تحت ضغط الظروف التي سبق الاشارة اليها ٠

الا ان قوى التحالف الانعزالي ـ الصهيوني عادت فخرقت وقف اطلاق النار ولو بصورة خفيفة منذ مطلع الاسبوع الثاني لشهر تشرين الاول ١٩٧٧ واتهمت الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية بذلك٠

المؤامرة مستمرة :

ان النهج السياسي التصعيدي الذي تصر الجبهة الانعزالية على انتهاجه ، يشير بوضوح الى ان المؤامرة التي تعرضت لها الثورة الفلسطينية ، ومعها جماهير لبنان ، وبصورة خاصة جماهير الجنوب ، ما زالت مستمرة ٠ اذ لم يعد هناك من حاجة الى الاستنتاج ، بعد ان اصبح اركان الجبهة الانعزالية يصرحون بذلك يوميا وعلنا ٠ فهؤلاء يعلنون ، « بأن الحرب لم تنته بعد ، ولن تنتهي الا باذنهاء الوجود الفلسطيني المسلح على ارض لبنان ، وتوزيع الفلسطينيين على الدول العربية بحسب قدرة هذه الدول على الاستيعاب » ٠ وهم ماضون في تعبئة قواهم والتحضير عسكريا ، واقامة معسكرات التدريب ، الى جانب حملات التحريض الاعلامي يوميا ضد « العصابات الفلسطينية » ، و « الغزاة » و « البرابرة » ، كل ذلك بواسطة الصحافة الانعزالية التي تخضع للرقابة الرسمية ، في الوقت الذي تمنع فيه هذه الرقابة ، الصحافة الوطنية من الرد على اطروحات الانعزاليين ، وكشف نهجهم الفاشي والعنصري ، وتعاملهم مع العدو الصهيوني ، الامر الذي يعني بوضوح سيطرة الجبهة الانعزالية على اجهزة الرقابة ، وبالتالي موافقة بعض

اجهزة السلطة اللبنانية على ذلك · ففي مهرجان « لحراس الارز » ، جرى في « بيت مري » ، بتاريخ ٣ تشرين اول ١٩٧٧ ، القيت كلمة « ابو ارز » مسؤول هذا التنظيم الفاشي العنصري ، جاء فيها : « لقد خاضت القوات اللبنانية حرب بقاء لبنان كي تحرر التراب من الفلسطينيين والغرباء ، لكن هؤلاء لا يزالون في لبنان · اذن حرب لبنان لم تنته ولن تنتهي على حساب لبنان » ـ جريدة النهار ـ · واعلن كميل شمعون رئيس الجبهة الانعزالية ، في مهرجان اقامه حزبه في ٢ تشرين الاول ١٩٧٧ ، بان « الجبهة ماضية في استعدادها العسكري وفي تعبئة قواها حتى طرد الفلسطينيين من لبنان ، وهي تملك الان ١٢ الف مقاتل اي ثلاثة اضعاف العدد الحالي للجيش اللبناني » ·

وتلخص جريدة « العمل » الناطقة باسم حزب الكتائب الاهداف التي يسعى من اجل تحقيقها الانعزاليون لانهاء الازمة في لبنان بما يلي :

اولا ـ « سحب الوجود الفدائي من الجنوب بشكل نهائيوتام وحاسم » ·

ثانيا ـ « سحب الاسلحة على انواعها من المخيمات الفلسطينية » ·

ثالثا ـ « عودة السلطة اللبنانية بشكل كامل وناجز الى المخمات الفلسطينية من دون مبرر لما يسمى بالكفاح المسلح الفلسطيني » ـ ١ تشرين اول ١٩٧٧ ـ ·

وتعلن في اليوم التالي ، اي في ٢ تشرين اول ١٩٧٧ ، ان « الجبهة اللبنانية ـ الانعزالية ـ تصر على الغاء الوجود الفلسطيني المسلح في الجنوب ، تمهيدا لنزع السلاح الفلسطيني بشكل شامل من مختلف المناطق اللبنانية » ـ جريدة العمل ـ ·

من هنا يتبين بوضوح ان الجبهة الانعزالية لن تكتفي بانسحاب مقاتلي الثورة الفلسطينية مسافة ١٠ كلم من القرى الحدودية ، كما نص على ذلك اتفاق شتورة ، وبالتالي لن تسحب قواتها من المنطقة ، كما لن تمكن الجيش اللبناني من الانتقال الى الجنوب ، الا اذا ضمنت سيطرتها عليه وسخرته لتنفيذ اغراضها،وهذا يعني ان الوضع في الجنوب، لنيعرف الاستقرار ، طالما ان الجبهة الانعزالية مصرة على نهجها هذا ، وتعرب عن « شكها في جدوى اي خطوة تتخذ اذا لم تكن مقرونة بانسحاب الفلسطينيين المسلحين انسحابا كاملا من الجنوب ، وينزع السلاح الفلسطيني بوجه عام من سائر مناطق تواجدهم في لبنان والا فان الوضع سيظل يدعو الى القلق والريبة والحذر » ـ جريدة العمل في ٣٠ ايلول ١٩٧٧ ـ ·

ومن الواضح ان التهديدات التي تطلقها الجبهة الانعزالية لا تستند الى قواها الذاتية ، وانما تستند ، اكثر من اي وقت مضى ، الى قوى العدو الصهيوني حيث الاجتماعات مستمرة بين ممثلين عن الجبهة وبين مسؤولي العدو · وفي هذا المجال اذاع راديو العدو الصهيوني في نشرة الاخبار صباح يوم ١٣ تشرين اول ١٩٧٧ خبرا مفاده ، ان الرائد حداد قائد القوات الانعزالية في الجنوب ، ومعه وفد من ست قرى « مسيحية » اجتمعوا الى مسؤولين اسرائيليين وطالبوا « اسرائيل » بالاستمرار في تأمين الحماية والدعم لهم ·

تقارير

الندوة العالمية حول السلام والفلسطينيين

بدعوة من الفرع البريطاني لـ « رابطة البرلمانيين الاوروبيين من اجل التعاون العربي ـ الاوربي » عقدت هذه الندوة بين ٢٩ سبتمبر واول اوكتوبر ٧٧ لتتناول قضية السلام في الشرق الاوسط عموما والدور الفلسطيني فيها على وجه الخصوص · وكانت الدعوة قد وجهت الى قرابة مئة مشارك من المتابعين والمهتمين بقضية السلام في الشرق الاوسط ، وذلك من الولايات المتحدة واوروبا والشرق الاوسط · وقدمت الندوة خمس عشرة ورقة علاوة على اوراق اخرى هامة قدمت على هامش الندوة · وقد جرى تصنيف الموضوعات المطروحة على الشكل التالي : اليوم الاول ، احتوى على مناقشة لطبيعة الحل المقترح ووسائل العمل على احلال السلام · اما في اليوم الثاني فقد تناولت البعد الفلسطيني في عملية السلام وجرت مراجعة الاستخلاصات الرئيسية في الندوة ·

حول طبيعة الحل وضرورة توفير الشروط اللازمة ابتدأ دانيس واترز Dannis Walters ـ عضو البرلمان البريطاني ونائب رئيس مجلس التفاهم العربي ـ البريطاني CAABU الحديث داعيا الى وضع المناطق التي يتم الانسحاب الاسرائيلي عنها ، في الضفة الغربية وقطاع غزة تحت اشراف الامم المتحدة لفترة انتقالية ، وذلك تمهيدا لاقامة الحكم الخاص بالفلسطينيين فيها · وهذا من شأنه ان يؤدي الى تجنب المزيد من المشاكل والمداخلات سواء من الجانب الاسرائيلي او العربي حول مصير تلك المناطق ··

اظهر النقاش عدم حماس معظم المشاركين للفكرة التي طرحها والتزر فالدكتور بيلد Metityahu Pelid ـ الجنرال الاسرائيلي السابق والاستاذ في جامعة تل ابيب الان ، وعضو مجموعة شلي ـ رأى ان السلام مسألة تخص بالاساس طرفي النزاع ، الفلسطينيين واسرائيل · وانه ليس من المناسب فرض اي تصور لحل من الخارج · وذكر ان الصعوبة تكمن ايضا في التناقضات داخل المعسكر العربي حيث ان الملك حسين مثلا لم يكف عن مطالباته بالتحدث باسم الفلسطينيين ·

اما كريم خلف ـ رئيس بلدية رام الله ـ الذي دعي للمشاركة في الندوة فقد وجد في تعليقه على كلام Walters فرصة لشرح موقف الشعب العربي الفلسطيني تحت الاحتلال ، فقال ان حلا دون مشاركة الاتحاد السوفياتي لن يكتب له النجاح وان الشعب الفلسطيني يتمسك بـ م٠ت٠ف٠ باعتبارها ممثله الشرعي الوحيد والمتحدث باسمه ٠ وانه من اجل احلال السلام ، لا بد من انسحاب اسرائيل الى حدود ١٩٦٧، واقامة الدولة الفلسطينية المستقلة ٠

ابرز توفيق زياد ـ رئيس بلدية الناصرة ـ في مداخلته ثلاث نقاط : ان اسرائيل لم تتخل عن التوسع وساق كمثال على ذلك تعليق دايان عندما خير بين السلام والتخلي عن شرم الشيخ فاختار البقاء في شرم الشيخ ! واستبعد زياد وجود تبدل جدي في الموقف الامريكي المساند لاسرائيل ، ورأى ان فكرة وضع المناطق تحت اشراف الامم المتحدة غير محبذة بل يجب تسليم هذه المناطق الى الشعب الفلسطيني ليقيم عليها دولته المستقلة ذات السيادة الكاملة وتساءل لماذا توضع الشروط التي تحد من سيادة الفلسطينيين على ارضهم كأن تكون دولتهم منزوعة السلاح مثلا ؟

السفير البريطاني السابق في العراق والكويت John Richmond اثار السؤال حول وضع م٠ت٠ف٠ خلال الفترة الانتقالية ٠ وقد اوضح Walters في رده على الملاحظات التي اثارها المشاركون بأن المهم هو ضمان انسحاب اسرائيل اما مصير تلك المناطق فمسألة تخص العرب وان اقتراحه لا يلغي دور م٠ت٠ف٠ بل انها ستكون « احد العناصر الهامة عند اجراء الانتخابات الحكومية في الضفة الغربية وغزة » ٠

في الورقة الثانية تحدث ميخائيل ادامز Michael Adams رئيس تحرير M. E. I ومدير الاعلام في CAABU حول القدس ملفتا النظر الى ان الوضع الخاص بالقدس سواء لاسباب روحية او سياسية او اقتصادية يجعل منها القضية الاكثر تعقيدا وليس من الحكمة تأجيل البت في القضايا المعلقة الاخرى الى حين التوصل الى اتفاق بشأن القدس ٠ وذكر ادامز المشاركين بقرار الامم المتحدة عام ١٩٤٧ بشأن تدويل القدس ، هذا القرار الذي رفضته في حينه اطراف النزاع قبل ان ينتقل الى مناقشة كافة الحلول المقترحة بشأن القدس :

١ ـ ان تبقى القدس تحت السيادة الاسرائيلية مع اعطاء العرب حق ادارة شئونهم البلدية المحلية وهو حل لا يمكن ان تقبل به اي من الدول العربية ومخالف لقرارات الامم المتحدة ٠

٢ ـ تنفيذ قرار الامم المتحدة بشأن التدويل ومحاذير ذلك تكمن في التصلب الاسرائيلي في اعتبار القدس عاصمة لاسرائيل ٠

٣ ـ العودة الى اوضاع ما قبل ١٩٦٧ في تقسيم السيادة على القدس على ان تبقى حرية الحركة وادارة الشئون البلدية مشتركة ٠

٤ ـ خليط من الاقتراحين الثاني والثالث في وضع الاماكن داخل السور في المدينة تحت اشراف دولي وتقسيم السيادة خارج السور ٠ ويرى ادامز ان هذا الاقتراح الاخير يبدو الاكثر قبولا ازاء الظروف الحالية واصرار الطرفين على السيادة واعتبار القدس عاصمة له ٠

حول المناقشات على الورقة ابرز كريم خلف وتلاه الدكتور نافذ نزال الاخطار الكامنة وراء الاجراءات الاسرائيلية في تحويل طابع القدس الشرقية ضاربة عرض

الحائط بقرارات الامم المتحدة المتوالية .
ولم يجد اوري افنيري في التدويل فكرة مناسبة اذ ان السعي نحو السلام يجب ان يتم بين اطراف النزاع انفسهم ودعا افنيري الى العودة الى تقسيم السيادة مع بقاء الاشتراك في الشؤون البلدية. وكانت لداخلات هنري كتن القانونية ، اهمية خاصة في توضيح وضع القدس في القرارات الدولية المتعاقبة وذكر ان اعتبار القدس الغربية جزءا من اسرائيل هو مخالف للحقائق التاريخية وللقرارات الدولية التي دعا الى تطبيقها والتقيد بها . وكان كتن قد قدم على هامش اعمال المؤتمر مشروع اقتراح بشأن القدس .

اما توفيق زياد فذكر انه من الخطورة النظر الى القدس في معزل عن مصير باقي المناطق المحتلة ودعا الى العودة الى اوضاع ما قبل ١٩٦٧ مع امكانية ترتيب وضع خاص للاماكن المقدسة وركز على ضرورة مواجهة تلك المسألة الملحة في ايقاف التغييرات التي تجريها اسرائيل في القدس والا فان الحديث عن السلام يغدو مسألة تجاوزها الزمن . كما اعترض الدكتور الياس شوفاني على فكرة التدويل مذكرا بالاضرار الجسيمة التي جلبتها فترة الانتداب على فلسطين ، كما رفض فكرة التجريد من السلاح والوصاية الدولية .

قدم الجنرال اود بول الورقة الثالثة في الندوة ، فعرض من خلال خبرته الطويلة في العمل كقائد للقوات الدولية العاملة في الشرق الاوسط ، كيفية توفير الامن والسلام لكل الدول في المنطقة وكيف يمكن ان تساهم الامم المتحدة والقوات الدولية بذلك بأشكال مختلفة منها :

١ – الاشراف على مناطق عازلة منزوعة السلاح على طول الحدود بين الاطراف المتنازعة .

٢ – اقامة نقاط مراقبة في شرم الشيخ ومرتفعات الجولان ومرتفعات الضفة الغربية مجهزة بأدوات ورادارات متطورة وحديثة .

٣ – اشراف الامم المتحدة على ادارة المناطق في الضفة الغربية وقطاع غزة خلال الفترة الانتقالية .

٤ – توقيع اتفاقية سلام تضمنها الامم المتحدة والقوى الدولية العظمى .

اوضح بيليد في تعليقه على اقتراحات بول بأنه ما دام السلام يصنعه اطراف النزاع انفسهم ، فمن الافضل تسليم المناطق الى الفلسطينيين مباشرة . وكذلك ركز بمناسبة الحديث عن المناطق العازلة على اهمية سيناء وضرورة نزع السلاح منها كعنصر هام في احلال السلام .

وقد ساهم الجنرال Albert Marglen – عضو جمعية التضامن الفرنسي – العربي – في ورقته التي وزعت على هامش اعمال الندوة ايضا على توضيح بعض المسائل الفنية حول نفس الموضوع الذي تناوله بول في اجراءات الامن المطلوبة للسلام في المنطقة .

تقدم جون ريدوي John Redway مدير CAABU المفوض العام السابق لوكالة الغوث – بعد ذلك بورقته حول « اللاجئين » فدعا الى الالتزام بتنفيذ القرار رقم ١٩٤ لعام ١٩٤٨ للامم المتحدة حول اعطاء اللاجئين الفلسطينيين الحق في العودة الى اراضيهم وممتلكاتهم . وان اية محاولة لقراءة قرار مجلس الامن ٢٤٢ يجب ان لا تسقط من حسابها هذا الحق كما تعمد ذلك تقرير معهد Brooking اذ يبقى من العدل السماح لهؤلاء اللاجئين بالعودة او التعويض عنهم، وعلى اسرائيل ان تتحمل الالتزام الاكبر في ذلك . ورد

ريدوي على تلك المغالطة الكبرى التي ترددها اسرائيل في طرحها مسألة اليهود العرب الذين هاجروا اليها من البلاد العربية مقابل مسألة اللاجئين الفلسطينيين ، فذكر ان هجرة يهود البلاد العربية قد تمت في تواريخ مختلفة طويلة . وان قيام دولة اسرائيل في عام ١٩٤٨ هو المسؤول الاول عن تلك الهجرات التي تمت بصورة جماعية من العراق واليمن حيث كانت تلك المجموعات من اليهود تعيش بأمن وطمأنينة كباقي السكان .

في المناقشات حول الورقة تحدث عصام سرطاوي ليلقي بعض الضوء على ملابسات هجرة يهود البلاد العربية ودور الحركة الصهيونية فيها . وتحدث يوري افنيري مستهجنا طرح موضوع عودة اللاجئين الفلسطينيين ، اذ ان من شأن ذلك ان يطيح بمحاولات السلام الان قائلا : « ان علينا ان نميز بين العدل المطلق والحل الواقعي والممكن » . بينما توالت مداخلات بول عجلوني – رئيس تحرير صحيفة الفجر المقدسية – وهنري كتن وتوفيق زياد والياس شوفاني على ضرورة التمسك بحق اللاجئين في العودة وهو ما تضمنه القرارات الدولية . وذهبت ولتيير Robert Waltyer الكاتبة القادمة من هولندا الى اعطاء هذا الحق الاولوية على الحل السياسي .

الكاتب والصحفي الفرنسي كلود بورديه Claude Bourdet في ورقته حول « الوطن الفلسطيني ومسألة الاعتراف المتبادل » ابدى مخاوفه من امكانية نجاح الحل السياسي نتيجة الطابع التوسعي لاسرائيل وتصلبها وميز بين نوعين من الحلول « حل الامر الواقع » و « الحل القانوني والمعترف به مسبقا والذي يحميه القانون » . وقال انه ازاء الظروف القائمة ، علينا ان نسعى الى « حل الامر الواقع » الذي يجبر اسرائيل على الانسحاب واقامة دولة خاصة بالفلسطينيين تمهيدا لدولة المستقبل المشتركة بين الفلسطينيين والاسرائيليين التي تصبح اسرائيل بها دولة شرق اوسطية . وذكر بورديه ان توجيه محاولات الضغط الان لانتزاع اعتراف متبادل بين الفلسطينيين واسرائيل كشرط مسبق هو امر غير مجد ويلقى بالضرورة معارضة داخلية شديدة سواء لدى الفلسطينيين او في داخل اسرائيل . كيف يكون مطلوبا من الفلسطينيين الاعتراف باسرائيل التي لا زالت تحتفظ بطابعها العدواني ولم تتخل عن اهدافها التوسعية ؟ لقد اقترح بورديه ان يضع الفلسطينيون شروطا مسبقة على مسألة الاعتراف باسرائيل كعودة لاجئي عام ١٩٤٨ والغاء العمل بـ « قانون العودة » الاسرائيلي .

عند مناقشة ورقة بورديه تحدث حاييم دروخيم Dr. Haim Drohkim الكاتب الاسرائيلي ورئيس هيئة تحرير مجلة New Outlook – فقال ان هناك سوء فهم في معنى الاستقلال والسيادة . والاعتراف معناه ان الشعب الفلسطيني والشعب الاسرائيلي اختاراه ولم يفرض عليهما من الخارج . اما بيليد فقد تساءل لماذا يضع الفلسطينيون شروطا مسبقة على الاعتراف ؟ مؤكدا ان محاولات السلام لن يكتب لها النجاح الا بانجاز الاعتراف المتبادل .

وتحدث الكاتب والمخرج السينمائي البريطاني مونتاغو فائنى على السياسة التي تتبعها الان م.ت.ف. في تركها الابواب مفتوحة الى حين تبلور المواقف تجاهها ودعوتها للمشاركة في اعمال مؤتمر جنيف . وقد وجد عصام السرطاوي في ذلك مناسبة لشرح الموقف الفلسطيني تجاه مسألة الاعتراف فتساءل كيف يطلب

من الفلسطينيين الاعتراف باسرائيل وهي لم تخط بعد اية خطوة جادة في اتجاه الاعتراف بحقوقهم القومية ؟ ان موقف اسرائيل تجاه مسألة تمثيل الفلسطينيين في جنيف لهو دليل على حقيقة اتجاهات السياسة الاسرائيلية · واشار السرطاوي الى انه يتفق مع بورديه في ان الاعتراف يجب ان لا يكون شرطا مسبقا للتفاوض وتساءل من جديد « أية اسرائيل تلك التي يطلبون منا الاعتراف بها ، اسرائيل عام ٤٧ ، اسرائيل بعد رودس ، اسرائيل ١٩٦٧ ؟ · هل يقر بيغن نفسه بحدود ١٩٦٧ كحدود لدولة اسرائيل ؟· لقد قطعنا من طرفنا خطوات مشجعة فكانت لقاءاتنا مع الحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكاح) ومجموعة شلي هي خطوات هامة ولكن هذه القوى التي تنادي بالسلام لا زالت ضعيفة الشأن داخل اسرائيل · ان الاعتراف باسرائيل هو ورقة يجب ان يكون لها ثمن، تماما كما ذكر فاروق قدومي مسؤول الدائرة السياسية في م·ت·ف· »

لقد تناول المر بيرغر Dr. Almer Berger ـ الكاتب الامريكي اليهودي ورئيس المجموعة اليهودية البديلة عن الصهيونية ـ في ورقته المقدمة للندوة « عامل الزمن والتوقيت في الحل المنشود » · فذكر ان العقلية الصهيونية هي المشكلة اساسا وليس الاراضي · ان العقلية الصهيونية بما تضمنته من مفاهيم عنصرية وتوسعية هي التي تنسف فكرة التعايش والسلام في المنطقة · صحيح ان هذه المسألة لا يمكن حلها الان بما هو متوفر من وسائل الا انها تبقى هي الاساس · وانطلاقا من منطق مواجهتها يغدو مفيدا ان ندرك ان العقلية الصهيونية كانت في كل مرة تسعى الى تكريس انجازاتها العدوانية كأمر واقع تنتزع فيه اعتراف الاخرين ثم تنطلق للعمل الى مرحلة جديدة · لذا يصبح من الحكمة ايضا مواجهتها بنفس الاسلوب ، فاذا لم يكن السلام النهائي فلتكن التسوية · اذ من المهم ان لا تضم اسرائيل المناطق العربية المحتلة الان · ودعا بيرغر الى تبني برنامج زمني للتسوية المقترحة والى توجيه مزيد من الضغط من قبل المجتمع الدولي على اسرائيل وتوقيع العقوبات عليها · وابدى بيرغر مخاوفه من تأثير القوى الصهيونية في الولايات المتحدة على امكانية الرئيس كارتر والادارة الاميركية في حل القضية الفلسطينية كجزء من التوجه العام الجديد في التخفيف من بؤر التوتر في العالم · وذكر بيرغر بمسؤولية اوروبا التي يمكنها ان تلعب دورا اكثر ايجابية لحل النزاع في الشرق الاوسط باعتبار انها اقل تأثيرا في الدعاية الصهيونية بالمقارنة مع الولايات المتحدة وبحكم درايتها الاوسع بأمور المنطقة ·

في الفقرة الثانية من الندوة جرى عرض مواقف الاطراف المختلفة تجاه مسألة الحل فتحدث اوري افنيري ـ عضو الكنيست السابق ورئيس تحرير مجلة هعولام هازيه وعضو شلي ـ عن الموقف الاسرائيلي فذكر ان الحديث عن الصهيونية وعن اخطاء الماضي امر لا يخدم البحث عن حل الان · وانه من الاهمية رصد التحولات داخل المجتمع الاسرائيلي في نظرته نحو السلام ومعرفة قوانينها · ان تلك التحولات متوقفة الى حد بعيد عما يجري في الخارج ولو ادرك الرأي العام الاسرائيلي ان السلام قريب لما جرى انتخاب بيغن · ان مسألة الامن هي هاجس كل مواطن اسرائيلي ، ونظرا لصغر المساحة الجغرافية فان مسألة الامن تغدو جزءا من التكتيك وليس الاستراتيجية بالنسبة لاسرائيل ·

وقد اثنى افنيري على اهمية لقاءات

باريس مع بعض المسؤولين الفلسطينيين واعتبرها خطوة ثورية نحو تحقيق مزيد من الفهم على طريق السلام ، ولم يخف افنيري في نهاية حديثه من ابداء مخاوفه تجاه احتمالات السلام بعد ان اصبحت عناصر التفاؤل اقل واحتمالات الحرب امرا واردا مع الاسف ٠

تحدث الدكتور نافذ نزال ـ الاستاذ بجامعة بيرزيت ـ عن الموقف الفلسطيني فذكر ان هناك توجها عاما نحو ايجاد حل سياسي في المنطقة وان مسألة قبول الفلسطينيين بصيغة الحل على اساس انسحاب اسرائيل الى حدود ١٩٦٧ واقامة الدولة الفلسطينية المستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة لم يعد محل اجتهاد بعد اقرار البرنامج المرحلي في المجلس الوطني الفلسطيني ٠ واوضح موقف الفلسطينيين في المناطق المحتلة الذين يسعون الى التخلص من الاحتلال واقامة دولتهم الى جوار دولة اسرائيل ٠ وذكر نزال انه بعد قبول مبدأ اقامة الدولة الفلسطينية المستقلة يصبح من السهل التعامل مع القضايا الاخرى ، كمسألة الوحدة مع الدول العربية المجاورة ، ازالة المستوطنات ، القدس ، وكذلك عودة اللاجئين بعد ١٩٤٨ الى اراضيهم ٠ فالفلسطينيون يرون في دولتهم الخاصة امرا مفيدا في تحقيق باقي اهدافهم ٠

حول الموقف العربي تحدث الصحفي المصري محمد سيد احمد فأبرز ثلاثة عناصر اساسية للسلام :

١ ـ حل المسألة الفلسطينية والاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني ، اذ ان ذلك هو محور السلام في ازمة الشرق الاوسط واقترح لذلك اجراء تعديل على قرار ٢٤٢ بحيث يسمح لـ م٠ت٠ف بالاشتراك في مؤتمر جنيف كوفد مستقل ٠ واستبعد الصيغ الاخرى كاستمرار السيادة الاسرائيلية او التدويل او الوفد العربي الواحد على اعتبار انها هروب من مواجهة المشكلة الرئيسية ٠

٢ ـ مسألة الاراضي ، اذ لا بد من انسحاب اسرائيل الى حدود ١٩٦٧ واقامة حدود معترف بها ، وجلاء كافة المستوطنات التي بنتها اسرائيل في الاراضي العربية المحتلة٠ وذكر ان اقتراح اسرائيل بابقاء مراكز مراقبة لها في الاراضي العربية ، هو غير مقبول ويحد من سيادة هذه الدول على اراضيها اذ يمكن توفير اجراءات الامن اللازمة للحفاظ على السلام بمناطق منزوعة السلاح يجري ترتيبها بصورة تبادلية بين الاطراف وتنفذ على مراحل باشراف طرف ثالث ٠

٣ ـ السلام ٠ فقال ان علاقات السلام بعد الحل لا يمكن ان تفرض فرضا على الطرف العربي اذ ان ذلك يحتاج الى وقت طويل ولكنه عاد ليؤكد انه ن الافضل عدم تخوف العرب تجاه هذه لمسألة لتقوية موقعهم التفاوضي تجاه اسرائيل ٠

أما بالنسبة للقرى فان سيد احمد يرى انه لا مانع من تأجيل البت في مسألة القرى حتى المرحلة الاخيرة من مفاوضات السلام وان العرب مع تمسكهم في عودة الاوضاع الى ما كانت عليه قبل عام ٦٧ بالنسبة للقرى فمن٠الافضل ان لا يعارضوا استمرار حرية الحركة والتنقل فيالمراكز الدينية تجاه كل الطوائف ٠ أما بالنسبة لاجراءات تنفيذ السلام فقد اشار الى ما ورد في تقرير بروكنغ الذي يتخذه الرئيس كارتر مرشدا له في سياسته تجاه ازمة الشرق الاوسط من ان « اسرائيل تبحث في الحل عن السلام والامن والعرب يسعون بدورهم الى استرداد الاراضي وحقوق الفلسطينيين » ٠ لذا فان التنفيذ

المرحلي في الحل يعني ان يستوفي كل طرف قدرا من مطالبه في نهاية كل مرحلة واسرائيل تحاول القفز فوق ذلك عبر طرح مسألة عودة العلاقات والسماح بحرية الملاحة مثلا قبل انسحابها من الاراضي ، وقد اقترح سيد احمد مواجهة المطالب الاسرائيلية هذه بمطالب اخرى مقابلة كالاعتراف بحقوق الفلسطينيين · وحذر من اطالة عمر اجراءات السلام وتأخيرها اذ ان ذلك سيؤدي الى بعث القلاقل في المنطقة وان سلاما لا يرتكز على عناصر متينة من شأنه ان يعطي مبررا لتلك الاتجاهات « الرافضة » في المنطقة العربية ·

خلال النقاشات التي دارت اثر تقديم وجهات النظر الثلاث ، تحدث سيد احمد نافيا صحة المقولة التي ذكرها افنيري في تفسير قدوم الليكود الى الحكم وتحدث الدكتور شوفاني ـ هذه المرة بصفته الخاصة ـ فأبدى شكوكه من امكان نجاح التسوية وشرح مطولا الطبيعة الاستيطانية العنصرية لاسرائيل ، تلك الطبيعة التي لا تساعدها على التحرك باتجاه السلام بل الى محاولة كسب الوقت فقط · اما عصام سرطاوي فقد اثر توضيح بعض المعلومات التي ذكرها الدكتور نزال في موقف م·ت·ف فقال ان م·ت·ف ليس لها وجهة نظر معلنة تجاه مسألة الاعتراف وليس صحيحا القول الان ان اعتراف م·ت·ف باسرائيل سيأتي بعد اعتراف اسرائيل بها · وعاد افنيري ليرد على منتقديه قائلا ان تحليل شوفاني حول الطبيعة الاستيطانية لاسرائيل هو شبيه الى حد بعيد تحليل جابوتنسكي نفسه · واضاف انه على افتراض صحة هذا التحليل أليس هناك جيل جديد ينشأ داخل دولة اسرائيل ؟· واذا كان صحيح ان العقلية الاسرائيلية لا تسعى الى السلام فاعطوها فرصة للتجربة · ماذا يخسر العرب بذلك ؟ ربما ان الصهيونية مسألة تتعلق بالماضي او ربما ان اسرائيل تسير نحو التخلي عن الصهيونية ولكننا نحن دعاة السلام في اسرائيل نعتقد اننا صهاينة ولكن من طراز جديد ·

عن الموقف الامريكي والتحديات التي تواجه القيادة الامريكية تجاه قضية الشرق الاوسط ، تحدث جون ريتشاردسون John Richardson ـ مدير الشؤون العامة في الرابطة العربية ـ الاميركية وشرح جوانب المأزق الذي تواجهه خطط الرئيس كارتر بشأن حل قضية الشرق الاوسط نتيجة الضغوط التي يوجهها اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة · وابدى شكوكه في امكانية نجاح كارتر في ان يلعب دورا كبيرا للدفع باتجاه الحل · فالولايات المتحدة تقدم من الدعم العسكري لاسرائيل ما قيمته ٣ بليون دولار والكونغرس لن يتدخل الا اذا شعر بالفعل ان هناك تعارضا بين مصالح الولايات المتحدة والمصالح الاسرائيلية · واضاف ان سبعة الى ثمانية مشاكل رئيسية تشغل بال الرئيس كارتر ، كأزمة الطاقة ، نزع السلاح ، مواجهة التضخم والحد من البطالة والمشاكل الاخيرة تشغل بال المواطن الامريكي الذي لا يكاد يعرف شيئا عن الشرق الاوسط · لقد استبعد ريتشاردسون تبدلا جديا في الموقف الامريكي ما لم يستخدم العرب اسلحة عديدة للضغط كالنفط والمشتريات · كما ان الجالية العربية في الولايات المتحدة يمكن ان تلعب دورا بعد ان اصبحت اكثر ايجابية الان في تنظيم نشاطاتها · كما يمكن ان تلعب اوروبا دورا خارج دائرة الضغوط الاميركية · وذكر ريتشاردسون انه من الخطأ ان ننتظر من الولايات المتحدة وقف دعمها لاسرائيل وان نطالبها بذلك دون ان تسعى الدول العربية الى اشعارها بأن حل ازمة الشرق الاوسط هو أمر تتطلبه مقتضيات المصلحة الاميركية نفسها ·

خلال النقاش ساهم نورتون مزويسكي Prof. Norton Mezuisky ـ استاذ التاريخ الامريكي ـ في بعض التوضيحات حول الموقف الامريكي مستهجنا تلك الشروط القاسية التي تضعها الولايات المتحدة على م٠ت٠ف حيث ان اعترافها باسرائيل لا يعني الذهاب الى جنيف والحصول على دولة مستقلة ٠ وقد عطلت الولايات المتحدة الحوار العربي ـ الاوروبي ٠ وشرح ميكانيكية عمل اللوبي الصهيوني داخل الولايات المتحدة مستشهدا بـ « قضية بناما » وكيف سعت اسرائيل للاستفادة منها في توجيه ضغوط على الرئيس كارتر ٠ أما مدام ماتيا Matia ـ المشاركة من فرنسا ـ فذكرت بأن اوروبا هي المتضرر الاكبر من جراء تجدد القتال في المنطقة ولابد ان تعمل على دفع الولايات المتحدة لاتخاذ موقف اكثر حزما ودعت دول اوروبا الغربية الى الاعتراف بـ م٠ت٠ ف٠ والاصرار على مشاركتها في مؤتمر جنيف للسلام ٠ بينما تحدث بيرغر عن تحول طفيف في الولايات المتحدة من جهة اتخاذ مواقف نقدية صريحة تجاه نشاطات اللوبي الصهيوني ودعى الى تطوير اساليب التحرك العربي في الولايات المتحدة بحيث لا تكون كردود فعل للنشاط الصهيوني بل من خلال التوضيح للمواطن الامريكي في حقيقة مصالحه ٠

عصام السرطاوي اعتبر تصريحات كارتر خطوات ايجابية اذا الحقت بخطوات عملية ٠ وقال ان الامريكيين لا يزالون يرفضون الحوار معنا ومؤخرا منعت السلطات الاميركية بعض اعضاء م٠ت٠ف من دخول الولايات المتحدة ٠ اما الجنرال بليد فقد دعى الى تقييم الموقف الاميركي بصورة اكثر عمقا ففسر سياسة بيغن المترددة تجاه بناء مزيد من المستوطنات الى الضغوط الاميركية ٠ وقال ان الصراع لا زال قائما بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وبالتالي فان الولايات المتحدة معنية في عدم فقدان مواقعها في المنطقة واستبعد ان تتمكن اوروبا من ان تلعب دورا خاصا في الشرق الاوسط في معزل عن الولايات المتحدة ٠

عن دور اوروبا في احلال السلام تقدم كريستوفر ماهيو ـ الرئيس الفخري لرابطة البرلمانيين من أجل التفاهم الاوروبي ـ العربي ـ بورقته التي اعاد فيها الحديث من قدرة اوروبا على لعب دور خاص تجاه الشرق الاوسط وقال انه في الوقت الذي تجمع فيه الجهات العربية والدولية على صيغة لحل النزاع فان اسرائيل تنفرد الان بالمعارضة ولا بد لذلك من العمل على تحريك موقفها من خلال ما اسماه بـ « الحوافز » و بـ « الضغوط » وذلك بطمأنة اسرائيل بكل ما يسهل حصولها على الامن وقد دعا ماهيو م٠ت٠ف الى الاعتراف باسرائيل وبالموافقة على قرار ٢٤٢ مقابل ضمانات معينة من قبل الولايات المتحدة للاعتراف بالمنظمة ككيان سياسي ٠٠ واما عن « الضغوط » فقد ذكر ماهيو انه لا بد من توجيه ضغوط كبيرة بما فيها العقوبات الدولية الاقتصادية والمالية على اسرائيل في حال عدم انصياعها للحل ودعى العرب الى التحرك باتجاه الحد من تأثير اللوبي الصهيوني على سياسة الولايات المتحدة ٠

في اليوم الثاني من الندوة تقدم كل من بيتر مانسفيلد Peter Mnsfield ـ الكاتب والمذيع البريطاني ـ وسعيد حمامي ـ مندوب م٠ت٠ف في لندن ـ بورقته عن « البعد الفلسطيني في الحل » فأثار مانسفيلد عددا من التساؤلات حول الخيارات المفتوحة امام الفلسطينيين سواء تجاه احتمالات النجاح في تحقيق الحل في المدى المنظور

او فشله · وذلك بقدرة م·ت·ف اتخاذ المبادرة في محاولة الخروج من مأزق قرار ٢٤٢ بعد أعتباره ارضية صالحة للحل وكذلك بالنسبة لتشكيل حكومة في المنفى ·

اما في حالة فشل الحل فان تصعيد العمل العسكري للفلسطينيين سيواجه بتعقيدات الوضع العربي وضرورات التنسيق العسكري لدول المواجهة · وعلى صعيد النشاط السياسي سيكون امام الفلسطينيين خيارات عدة كنقل قضيتهم الى محكمة العدل الدولية · وعلى كل الاحوال يبقى ضرورة مواجهة سياسة الاستيطان الاسرائيلية في المناطق المحتلة وقد يكون ذلك مدعاة الى ان تبحث م·ت·ف بالتعاون مع الدول العربية عن اساليب لتحسين الظروف الاجتماعية والاقتصادية لسكان المناطق ودعم صمودهم للحد من هجرتهم ·

في مداخلة بيليد ابدى مخاوفه حول قدرة م·ت·ف نتيجة اوضاعها الداخلية على اتخاذ مواقف واضحة تجاه السلام ورد عليه السرطاوي ليبرز ان اسباب الخوف اكثر بالنسبة للموقف الاسرائيلي وقال ان م·ت·ف تقبل المبادىء الاساسية لقرار ٢٤٢ كأساس للحل وقد أعلنت ذلك وعقد دكتور دروبكين مقارنة بين الموقف الفلسطيني الان والموقف الاسرائيلي عام ٤٧ تجاه الموافقة على قرار التقسيم · هذا بينما رفض زياد محاولات البعض القاء الشكوك حول الموقف الفلسطيني والتحايل على تمثيل م·ت·ف·

سعيد حمامي حاول في ورقته الجديدة رسم خطوط عامة لتصوره لطبيعة العلاقة في مرحلة ما بعد الدولة الفلسطينية ، بين الفلسطينيين والاسرائيليين فدعى الى اقامة نوع من الدولة الكونفدرالية متعددة القوميات وذلك جغرافيا وفقا لقرار التقسيم عام ١٩٤٧ الذي قسم فلسطين الى ثلاث مناطق : اسرائيلية ، فلسطينية ، ومنطقة توضع تحت الاشراف الدولي · وحاول حمامي في ورقته تتبع بعض التفاصيل المتعلقة بالشكل الدستوري لدولة المستقبل وابرز في تقديمه للورقة جملة مسائل :

١ ـ ان السلام يكون بين الاعداء وليس بين الاصدقاء ، ونحن في حالة عداء مع اسرائيل وما بيننا ليس سوء تفاهم بل خلاف طويل ومرير ، والقيادة الفلسطينية لن تعترف باسرائيل كدولة يهودية صهيونية ·

٢ ـ ان الوقت لم يحن بالفعل الى افتراض ان هذا الحل ممكن في الظروف الحالية بسبب طبيعة المجتمع الاسرائيلي ·

٣ ـ لا بد من تحديد دقيق لبعض المصطلحات وعلينا ان نميز بين اليهودية كديانة وبين الشعب الاسرائيلي ·

وقد رد بيليد على ورقة حمامي معتبرا ان طرح هذه الامور لا يزال مبكرا ، وثمة اسباب عديدة تدعو للشك في نوايا حمامي من تقديم الورقة في مثل هذه الظروف · اذ ان من شأن ذلك ان يعطي المتصلبين في اسرائيل ورقة جديدة على اعتبار ان هذا الطرح يؤكد مخاوفهم من ان الفلسطينيين يعتبرون بناء الدولة هومرحلة مؤقتة يقفزون منها الى تقويض اسرائيل· وابدى مخاوفه من ان تعرض الصحف الاسرائيلية وجهة نظر حمامي بأنها دعوة الى العودة لحدود التقسيم فقط · وتمنى ان لا تعبر الورقة بالفعل عن موقف م·ت·ف· في محادثات السلام · وبمناسبة الحديث عن المصطلحات كرر بيليد تلك المقولة في اعتبار اليهود كشعب وان الحركة الصهيونية هي حركة تحرر قومي ·

وايد سيد احمد ضرورة التمييز بين نوعين من الحل « الحل الواقعي » و « الحل اليومي » وقال اننا نسعى الى تطبيق الحل

الواقعي لأن الوقت لم يحن بعد الى الحل الثاني لان الطرفين لم يتخليا بعد عن اهدافهم البعيدة · افنيري من طرفه ايد بيليد في ضرورة الوقوف عند المحتوى النفسي للكلمات وقال « انا افهم تماما ما يقصده حمامي ، ولكن اخشى ان تفسر الورقة بصورة خاطئة من قبل الاعلام الاسرائيلي » وتمنى على حمامي ان يقدر ذلك ويزيل اللبس والغموض فيما يعنيه ·

وعلق مازفنسكي ان الفهم الخاطىء لافكار حمامي ليس مسؤوليته · تماما كما حدث في العالم العربي عندما قرأت افكار انصار السلام في اسرائيل بطريقة خاطئة ايضا ·

جاءت الورقة الاخيرة التي تقدم بها كيث كيل Keith Kyle ـ من المعهد الملكي للشؤون الخارجية في لندن ـ حول « التوقعات في حال فشل التسوية » ، لتعكس بالحقيقة مخاوف الكثيرين من المشاركين ازاء التعقيدات التي تهيمن على طريق التقدم باتجاه الحل السياسي لازمة الشرق الاوسط · لقد استعرض كيل اسباب الفشل الممكنة ومسؤولية الاطراف فيها سواء من الجانب العربي والجانب الاسرائيلي · والنتائج المتمخضة على ضوئها وكان واضحا في استعراض كيل ان عوامل الفشل تجد اسبابها بالحقيقة في الموقف الاسرائيلي بعد ان قطع العرب شوطا كبيرا في عرض مطالبهم بصورة مقبولة ضمن اي مقياس · وانتهى كيل الى انه في حال تعثر محاولات السلام فان الحرب والتغييرات الثورية ستجد طريقها الى المنطقة ·

في مداخلته اوضح الياس شوفاني ان اسرائيل هي الرافض الاكبر في المنطقة وان الامبريالية الاميركية لا تسعى الى الحل وان ماتطرحه لا يشكل اساسا مقبولا لذلك،كونها ليست طرفا حياديا في الصراع واكد ان الحل لا يكون الا في طروحات الثورة · ودعا الى دعم مواقفها · أما ريدوي Redway فأكد على ضرورة خلق مناخ دولي افضل للسلام اذ انه لا يمكن التعامل مع السلام على أساس الخطوط القائمة الان · ومن الغريب ان العرب لم يفعلوا الكثير لاقناع الشارع الاميزكي بان السلام في الشرق الاوسط هو مصلحة حيوية لامريكا · حاولت اليزابيث كولارد Elisabith Collard ـ مديرة الرابطة العربية ـ البريطانية ـ لفت النظر الى انه في حال فشل محاولات السلام الى ضرورة الوقوف الى جانب الفلسطينيين في المناطق المحتلة بدعم مالي عربي للحيلولة دون نزوحهم وقالت ان سلاح النفط يمكن استخدامه ليس فقط بوقف الضخ بل ان هناك اشكالا عديدة أخرى وكانت كولارد قد تقدمت بورقة حول الاوضاع الاقتصادية للدولة الفلسطينية وذلك على هامش اعمال المؤتمر ·

اخيرا ، فان القرار الوحيد الذي اتخذ في الندوة كان في انشاء « الجمعية الاوروبية لتنسيق التعاون بشأن الشرق الاوسط » ·

عباس مراد

مراجعات

شفيق الحوت :

الفلسطيني بين التيه والدولة

بيروت · ايار (مايو) ١٩٧٧

تتسع المائتا صفحة (من الحجم الصغير) في « الفلسطيني بين التيه والدولة » لنحو ثلاثين عاما من تاريخ النضال الفلسطيني · كل عام منها مصنوع بكلمات شفيق الحوت ، التي تحمل في بلاغاته الخطابية المتدفقة ، عاطفة شعبية فلسطينية اصلها التراث الشعبي حيث « للصلح مطرح » في السياسة المعتدلة ، وحيث يصبح الامر منسوبا الى بلاد « الواق واق » عندما يصعب التفسير ـ تماما مثلما يحاول الاخ شفيق الحوت ان يختصر الكتاب بالقول انه « شهادة واحد من اهل البيت » · وشهادة شفيق الحوت مقدمة في سبع جلسات يغلب عليها الرغبة في الاسراع الى جلسة اخرى تاركا كل التفاصيل والمعلومات ، التي لا شك انه يمثل مخزنا كبيرا ونادرا لها ، ربما الى محاولات اخرى ·

يفرد شفيق الحوت الجلسة الاولى لينزع عن الفلسطيني الاقليمية الشوفينية · وهو يعيد ذلك الى ترابط المصالح الاقتصادية بين الفلسطينيين وغيرهم من العرب · كما يعيدها الى العلاقات الاجتماعية التي خلطت العائلات الفلسطينية والعربية · وعلى اهمية هذه الاسباب فان اثر المداخلات العربية (او الوضع العربي كما يقال الآن) في مراحل العمل الفلسطيني المختلفة ، كذلك الايديولوجية القومية التي سادت بين الفلسطينيين والقائلة بأنه لا تحرير الا بتحقيق الاهداف القومية في الوحدة ، يضاف الى ذلك انهيار كل المؤسسات الفلسطينية المستقلة عند النزوح ، والرغبة الفلسطينية المخلصة بتقديم عروبتهم على اي شيء آخر من اجل التعايش مع الشعوب الاخرى ، كل ذلك جعل من اية اقليمية فلسطينية شوفينية في وضع صعب جدا ·

ولقد لاحظ الاخ شفيق التوجه القومي عند الفلسطينيين بمعظم دلالاته السياسية ، خصوصا في فترة الوحدة سنة ١٩٥٨ · وقتها كان الولاء الفلسطيني لمسألة الوحدة سببه ان هذه الوحدة هي الخطوة الاهم في حشد القوى في طريق التحرير · وتحول الفلسطينيون الى حزب ناشط في رفع رايات الجمهورية العربية المتحدة · تماما مثلما تمكنت حركة التحرر العربي، التي قادتها الناصرية ، ان تنهض وتسود تحت رايات تحرير فلسطين والصراع ضد العدوانية الاسرائيلية · حتى انه لم يعد بمقدور « اي صوت ان يعلو فوق صوت المعركة » ·

ويدرك الاخ شفيق ان مسألة الوحدة لم تكن وعيا ثوريا في الايديولوجية

القومية التي سادت العمل الفلسطيني السياسي · كانت وعيا مرتبطا بمبدأ التحرير · واذا كان الاخ شفيق يتسلح بالوعي الجذري للمسألة (كما يغلب على كل شهادته) فهو يعرف ان الانفصال سنة ١٩٦١ بين الاقليم الشمالي والاقليم الجنوبي من الجمهورية العربية المتحدة ، تبعه انفصالات اخرى بين حركة القوميين العرب والتنظيم الفلسطيني التابع للحركة وكذلك حصل للتنظيمات الفلسطينية التي كانت تعمل في البعث والقوميين السوريين والشيوعيين · وتكونت بذلك بوادر الوطنية الفلسطينية المستقلة ·

المفارقة العظيمة في الوطنية الفلسطينية المستقلة التي نهضت مع انحسار وهزائم حركة التحر القومي العربي ، ان هذه الوطنية ، والتي تبلورت تماما بالعمل المسلح الشعبي ، وجدت نفسها وريثة شرعية لقيادة حركة التحرر العربي في صراعها ضد اسرائيل خصوصا بعد هزيمة القيادة الرسمية لحركة التحرر القومي سنة ١٩٦٧ · ولم يبد حتى نهاية الستينات اي شك في شرعية هذا الوريث · وتحول التيه الفلسطيني الى سلطة جماهيرية لا سلطة فوق سلطته ، لا في عمان ولا في بيروت · كما تحول الفلسطيني فدائيا قاعدته كل بيت عربي · المقياس في الامر كله : فلسطين والقدرة على اختراق جدار الامن الاسرائيلي ·

وبدا واضحا ان تطور العمل الفلسطيني خارج الوضع العربي الرسمي ، بعد ولادة منظمة التحرير الفلسطينية في مؤتمر الملوك والرؤساء العرب المعقود سنة ١٩٦٤ ، قاعدته هي عودة الفلسطينيين الى الوطنية الفلسطينية المستقلة · وربما يختصر الاخ شفيق انحيازه للوطنية الفلسطينية بحادثة ترك عمله في مجلة « الحوادث » السياسية العربية ، تماما مثلما انحاز آلاف من الشباب الفلسطيني الى العمل الفلسطيني المستقل من العاملين في مؤسسات عربية خاصة او المنضوين في احزاب قومية او امية · وباستقالة احمد الشقيري يوم ٢٥ كانون الاول (ديسمبر) من سنة ١٩٦٧ يعلن الاخ شفيق استقلال العمل الفلسطيني · اما تطوره خارج الاشتراطات العربية الرسمية فكان عند تسلم حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) قيادة العمل الفلسطيني وقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ·

وتكبر الوطنية الفلسطينية وتنتفخ · « بعد معركة الكرامة في ٢١ آذار (مارس) ١٩٦٨ ، لم تعد الثورة بحاجة الى شهادة ميلاد · ولا الى من يذكر الناس بالبلاغ رقم واحد الذي صدر عن قوات العاصفة عام ١٩٦٥ · واصبحت الثورة حقيقة قائمة · واصبح الثائر الفلسطيني هو البطل الذي وصل حد الاسطورة » · وبدأت الاسطورة تصطدم بالحقائق اليومية للسياسة العربية (مشروع روجرز) وبالمعايير الاجتماعية للجماهير وسيادة وقوانين الدولة (بما فيه انظمة السير في شوارع عمان ـ ص ٧٩) · واذا كان الاخ شفيق قد اشار الى حادثة تجاوز سائق سيارته لانظمة السير في عمان منذرا بأحداث ايلول ١٩٧٠ ، فانه اعاد ازمة العمل الفلسطيني المسلح ومأزق الفلسطيني الثائر الى حقيقته في الندوة التي عقدتها « شؤون فلسطينية » مع شخصيات لبنانية سياسية من بينهم الشهيد كمال جنبلاط · « السلطة اللبنانية (من السهولة اعتماد السلطة اللبنانية كرمز للموقف العربي الرسمي) غير حليفة للعمل الفلسطيني · كما ان الموقف الاستراتيجي للسلطة غير مطمئن » · واذا ما اضيفت هذه الاسباب الى دور العمل الفلسطيني في نهوض حركة الجماهير العربية (الاردنية واللبنانية اساسا)

وقواها الديمقراطية والتقدمية ، وكذلك اصرار النظام الاردني على حسم مسألة السلطة لمصلحته والعودة الى اقتسام ومصادرة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ، يصبح مأزق الثائر الفلسطيني موضوعيا بالاضافة الى التجاوزات · وتجربة الثائر الفلسطيني في لبنان اكثر تعقيدا · فلقد ظل الفكر التقدمي في لبنان يستبعد اي صدام مع السلطة اللبنانية من النوع الذي انتهى اليه الصدام في عمان ، لاسباب تتعلق بالتركيبة اللبنانية الطائفية ولاسباب تتعلق باقتصاديات الرأسمالية اللبنانية المصرفية والتجارية ونظام الخدمات وللضمانات التي يؤمنها الوضع العربي (سوريا اساسا) · وبالرغم من الواقعية الاستراتيجية التي اعتمدتها المقاومة الفلسطينية في لبنان ، مدركة ان الخروج من الاردن قد اجل الاستراتيجية الفلسطينية المسلحة العاملة من اجل الانتقال الى العمق العربي ، فان السلطة اللبنانية خاضت تجربة ايار (مايو) ١٩٧٣ بصدام مسلح مع الفلسطينيين · صحيح ان المحاولة كانت فاشلة · لكن نتائجها كانت درسا تعلمته القوى اللبنانية اليمينية جيدا · واصبحت هذه القوى الاحتياط الامبريالي في سياسات حروب الداخل والحروب الاقليمية المحدودة ·

ومثلما ورثت المقاومة الفلسطينية لقب البطل القومي لحركة التحرر العربي عند هزيمة ١٩٦٧ ، عادت القيادة واللقب للسلطة العربية الرسمية بعد حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ · واصبح الفلسطيني امام السؤال التاريخي المعروف : ما العمل ؟ وكان العمل الدبلوماسي العربي (ص ١٠٨) من جملة ما طرحته القيادة الفلسطينية في ندوة « شؤون فلسطينية » العدد ٣٠ (وليس ٢٠ كما جاء في الكتاب) · وباستثناء ما طرحه الدكتور جورج حبش من « ان الانسحاب (من الضفة الغربية وقطاع غزة) لا يمكن ان يتم الا لسلطة مستسلمة » ومن ان الاجابة عن السؤال التاريخي يكون « باستمرار النضال السياسي والاقتصادي والعسكري لتغيير ميزان القوى » ، فلقد كان هناك اتفاق على مرحلة النضال على طريق الهدف الاستراتيجي في اقامة الدولة الفلسطينية الديمقراطية العلمانية · وينهي الاخ شفيق شهادته عن الفلسطيني الدبلوماسي بموجة عارمة من المشاعر والآمال سببها الانتصار العظيم الذي حققه العمل الفلسطيني السياسي في « وقفة ابو عمار على منبر الجمعية العامة ، وسط عاصفة التصفيق وقوفا ، وقفة عز لا لشعب فلسطين وحده ، بل لكل شعوب العالم المقهورة ، وما تحمله من قيم ومثل وما تناضل من اجله من اهداف وامانى » · لكنه لا ينسى ان يقول بمرارة وخيبة امل شخصية انه « مثل كل الدنيا العربية لم يكن يتصور ، ولو للحظة ، ان يسجل هذا العام (١٩٧٥) بداية اقذر مؤامرة شهدها الوطن العربي ضد شعبي لبنان وفلسطين ، بل وكل العرب » ·

وفي نهاية شهادته ، يترك الاخ شفيق الحوت ملف الازمة اللبنانية مفتوحا · « ومن يدري ما تحمله الايام القادمة ؟ من يستطيع قراءة الغيب والتنبؤ بما سيحدث · ترى ·· هل سيصل الفلسطيني اخيرا وبعد هذا الشلال من الدم الذي سال بين الاغوار والعرقوب · وجبال لبنان وشوارع القدس والخليل ونابلس والناصرة ··· الى نهاية المشوار ··· الى دولته ؟ » والتخوف هذا سببه خيبة الامل في سنة ١٩٧٥ التي ارادها الثائر الفلسطيني سنة « التصعيد والتلاحم » · والاعتقاد في انه لا « اشق واصعب من ربع الساعة الاخيرة من مسيرة اي

ثورة · لا سيما ثورتنا الفلسطينية · ان كل ثانية من ربع الساعة الاخيرة قد تكون ساعة الصفر لحرب خامسة · » كما ان تخوف الاخ شفيق سببه ان القوى اللبنانية اليمينية ، حيث ساحة العمل الفلسطيني الاخيرة ، اختارت ركوب المغامرة ضد الثورة بقصد ضرب « الدولة الفلسطينية » (ص ١٩٦) « فلقد وجد هذا اليمين ان خلاصه من الكثافة الفلسطينية لا يمكن ان يتم عن طريق اقامة الدولة الفلسطينية · » اعتقد ان الاخ شفيق لا يرى الامر بهذه البساطة فقط · ذلك ان سياسات اليمين اللبناني ترتبط بالاستراتيجية الامبريالية الساعية الى اعادة صياغة الاتجاه الاساسي للمضمون القومي في نضال حركة التحرر العربي وصرفه عن مضمونه الوحدوي المعادي للامبريالية والصهيونية والقوى العربية الرجعية واستبداله بصراعات اقليمية عنصرية طائفية · وداخل هذه الاستراتيجية ، فان القوى اللبنانية اليمينية تعمل لاقامة دولتها الطائفية والمنفصلة عن نضالات حركة التحرر العربي ·

يبقى ان نسجل الملاحظات الاخيرة التالية :

* ما عدا السياق التاريخي ، الذي يحكم الشهادة ، فان الكتاب ظل ملتزما بما جاء في مقدمته : انه شهادة شخصية لواحد من اهل البيت من غير ان يدعي اي منهجية في المعالجة او التسجيل · وعلى اهمية السياق التاريخي فان المحاولة كانت ستكون اكثر اهمية لو اعطيت استعدادا اكبر وجهدا اوسع ·

* ان فشل الاخ شفيق في اكثر من مكان في الافصاح عن بعض المعلومات او الامتناع عن التفصيل والتوسيع (ربما لاسباب تتعلق بأمن العمل الفلسطيني الذي لا زال حيا وفاعلا) يضع القارىء امام خيبة امل حقيقية · فأنا واحد من الذين يعتقدون ان شفيق الحوت يمثل مخزنا كبيرا ونادرا من المعلومات والحقائق · واستطرادا لخيبة الامل هذه فان شهادة شفيق الحوت تترك القارىء في مرارة مشروعة بعد الانتهاء من محاولة رائدة للكلام عن تجربة العمل الفلسطيني المعاصرة من غير محاكمة (ولو اولية) جادة ·

* واخيرا فان امر طرح السؤال التاريخي المعروف ، « ما العمل ؟ » بعد هذه الشهادة التي امتدت من التيه الى الحروب العربية ضد الاستقلال والوطنية الفلسطينية يصبح لاغيا بالنسبة لملاخ شفيق الحوت · صحيح ان هذه الشهادة لا ينقصها الا ربع الساعة الاخيرة ، فان النهاية محكومة اما لحرب خامسة واما لدولة فلسطينية محققة · ولا يلغي هذه النهاية اي شيء حتى « ولو كان المشوار شائكا » في الكيلومتر الاخير · وعلى امل ان يتحقق احد الافتراضين ، لا بأس ان نشير الى ان الحرب الخامسة ربما تكون حتمية عندما تفشل حروب الداخل المستعرة بين الكيانات العربية او عندما تنهض من جديد قوى عربية تعيد الصراع المعادي للعدوانية الاسرائيلية الى طريقه · ذلك ان قوى الاحتياط الامبريالي والاسرائيلي لا زالت حية وفاعلة ·

ناشي طه

Chaim Herzog
The War of Atonement
Weidenfeld and Nicolson — London 1975

حرب يوم الغفران ، كما يرويها العدو الاسرائيلي ، لها أهمية خاصة · فهي ، ومهما كانت نوايا الكاتب ، لا بد وان تحمل اعتراف العدو بثقل هذه الحرب على التجمع الاسرائيلي والدمار الذي لحق به ·· دمار في الارواح والمعدات والمنشآت الحربية ، وايضا ـ ولعل هذا هو الاهم ـ دمار مجمل الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية وتحطم فلسفة متكاملة كانت قائمة لدى العدو بأنه قادر متى شاء وكيفما شاء على وضع القوانين ، قوانين الحاضر والمستقبل ·

ان الكتاب الذي نحن بصدده يبحث في اسباب نجاح العرب وفي نواقص المواجهة الاسرائيلية ، وهو ان كان يروي قصة الحرب فلكي يستخلص الدروس والعبر لحرب قادمة · ومن هذه الزاوية ايضا تتضح اهمية هذا الكتاب بالنسبة لنا ، فمعرفة اسلوب العدو في التفكير والعمل تشكل جانبا مهما في صنع النصر ، فهزيمة ١٩٦٧ وضعتنا ـ عندما درسنا اسباب النكسة ـ على طريق النصر في تشرين ١٩٧٣ ، ولا ريب ان دراسة عوامل عدم اكتمال النصر في تشرين ١٩٧٣ لها اهمية خاصة للاستعداد لمعارك المستقبل وتحقيق النجاح الكامل فيها ·

ولهذا الكتاب اهمية خاصة لان كاتبه هو الجنرال حاييم هرتزوغ ممثل اسرائيل حاليا في هيئة الامم ومدير استخباراتها السابق · وفي عرضنا لهذا الكتاب سنركز على التطورات العسكرية الاساسية للحرب آملين ان تسنح لنا الفرصة لاحقا لمعالجة الدروس السياسية التي يطرحها · وما دام هدفنا هو تحليل العقلية الاسرائيلية وردود فعلها ، لذا سنلتزم الى اقصى الحدود بنظرة الكاتب ولن نناقشها الا عرضيا ·

الوضع قبل اندلاع الحرب

يقول هرتزوغ : « يمكن العثور على جذور حرب الغفران في حرب الايام الستة ، فهي قد دفعت العرب الى استخلاص النتائج من كل ناحية من نواحي هزيمتهم، وبدأوا اعادة ترتيب منزلهم العسكري ، بينما اخفى الاسرائيليون تحت السجادة جميع الاخطاء التي برزت في الحرب وجرى تجاهلها في نشوة النصر » ·

ويقول ان « اسرائيل » كانت مجبرة قبل حرب ١٩٦٧ على شن « الهجوم الوقائي » ، اما بعد توسع رقعة الاراضي المحتلة فقد تكونت استراتيجية جديدة تقوم على عدة خيارات ، فاما « القيام بهجوم وقائي » ، او « السماح للعدو بتوجيه الضربة الاولى مع كل ما يترتب على ذلك من ردود فعل سياسية دولية غير ملائمة ومن ثم استغلال العمق الذي توفره صحراء سيناء للمناورة والحشد المضاد » ، فقد طالت المسافات الفاصلة بين الطرفين مما جعل الانذار الالكتروني المتاح لاسرائيل حوالي ١٦ دقيقة بدلا من ٤ دقائق فقط قبل حرب الايام الستة ·

ضمن هذه الافتراضات ولتمكين الدفاعات الاسرائيلية انشىء خط بارليف الذي بلغت تكاليف بنائه (٥٠٠) مليون دولار · ومع بدء حرب الاستنزاف التي لم يكن من الممكن تغيير مفاهيم اسرائيل العسكرية عشية حرب الغفران بدون معرفة تأثير حرب الاستنزاف على تفكيرها ـ كما يقول هرتزوغ ـ وبسبب الخسائر الجسيمة التي تكبدتها القوات الاسرائيلية خلال هذه الحرب ، ثار صراع عنيف في القيادة الاسرائيلية حول تقييم خط بارليف ، فالجنرال اسرائيل تال مثلا قد اشار الى « ان التحصينات قد اثبتت انها غير فعالة لان المصريين على اي حال كانوا يقومون بعبور القناة » واشار تال الى ان ٣٨٢ من الاصابات بما في ذلك ٦٢ قتيلا من مجموع ٩٤٨ اصابة اسرائيلية في سيناء بين كانون الثاني وتموز ١٩٧٢ قد وقعت داخل التحصينات او بسببها المباشر ، واقترح نظاما بديلا يجعل من خط بارليف نظاما للانذار فحسب · وقوبلت هذه النظرة بمعارضة شديدة حيث رأى الذين عارضوه ـ بما فيهم وزير الدفاع ورئيس الاركان ـ ان محاولة المحافظة على خط الدفاع دون تواجد مادي على الارض وعلى طول القناة سوف يشجع المصريين على الزحف الى الامام ، لذا دافعوا عن كون الخط خطا دفاعيا · ومع تعيين الجنرال اليعازر رئيسا للاركان في كانون الثاني ١٩٧٢ طرح حلا وسطا ادعى انه مزج بين وظيفة الانذار والنظام الدفاعي ، ويقول هرتزوغ ـ ليبرر انهيار الخط بسبب بطولات الجنود المصرين ـ ان عدم الوضوح هذا كان لا بد من دفع ثمنه في الساعات الاولى من القتال على قناة السويس ··

وبالمقابل ، درس العرب مفصلا وقائع عام ١٩٦٧ ووضعوا « لاسرائيل » اربع ميزات : التفوق الجوي،القدرة التكنولوجية المستوى العالي من التدريب ، الامدادات الامريكية المضمونة · ومقابل ذلك وجدوا ان « اسرائيل » كانت تعاني من عدد من الثغرات : خطوط المواصلات الطويلة، وعدم القدرة على تحمل الاصابات الكثيرة وعلى خوض حرب طويلة ، والسيئات الناجمة عن الثقة المفرطة بالنفس وعقدة التفوق ·

وفي دراسة اسباب فشل ١٩٦٧ وصل العرب الى ضرورة اخذ المبادرة في الحرب والتوقيت المناسب وشل الطيران الاسرائيلي والقيام بهجوم على جبهة عريضة يمنع اسرائيل من تركيز قواتها مما سيؤخر هجومها المضاد ، وفي نفس الاتجاه اهمية التنسيق بين الجبهات العربية لتشتيت القوات الاسرائيلية · من هنا بدأ التعاون السوري المصري الذي اشترك فيه ـ فيما بعد ـ الاردن ، كما ان منظمة التحرير الفلسطينية قد ابلغت بقرار خوض الحرب، لكنها وجدت فيه ـ كما يقول هرتزوغ ـ ان السادات يسعى فقط الى تحريك الولايات المتحدة للضغط على اسرائيل ·

يقول هرتزوغ ان المصريين ـ وكذلك السوريين ـ اعدوا انفسهم اعدادا ممتازا للحرب وراقبوا الاسرائيليين بدقة وتدربوا على كل عمل مئات المرات ولجأوا الى التخطيط العلمي والتدريب الدقيق المتواصل وحددوا اهدافهم بوضوح ، وبعد ان استكملوا الاستعدادات العسكرية واطمأنوا الى شبكة صواريخهم ، وبعد ان حل المصريون مشكلة الحاجز الرملي (خط بارليف) عن طريق استخدام خراطيم المياه الشديدة الضغط لتفتيت الجدار الرملي ، اخذوا طوال عدة اشهر بالتحرك نحو جبهات القتال مع اتخاذ كل الاحتياطات واللجوء الى كافة وسائل التمويه والخداع العسكرية والسياسية للحيلولة دون ملاحظة الاسرائيلين لذلك ، وانتظروا التوقيت المناسب وشنوا هجومهم بنجاح ·

ويقول هرتزوغ ، ان خطة التضليل المصرية كانت بارعة الى درجة انهم لم ينجحوا في تضليل اجهزة الدفاع الاسرائيلية وجميع اجهزة المخابرات الغربية فقط، وانما نجحوا ايضا في منع تسرب امر الذهاب الى الحرب في الجزء الاعظم من الجيش المصري ، فمن استفتاء لاكثر من (٨٠٠٠) من الاسرى المصريين تبين ان واحدا فقط كان يعرف ذلك منذ ٣ تشرين الاول ، ومن بين ١٨ عقيدا ومقدما من المصريين ، كان اربعة فقط يعرفون منذ ٤ تشرين الاول ان الحرب ستنشب فعلا ٠

لقد خصص هرتزوغ صفحات طويلة من كتابه ، وخصوصا الفصل الخامس الذي عنونه « لهم عيون ولكن لا يبصرون » ليشرح فيها فشل المخابرات الاسرائيلية في اكتشاف نوايا العرب ٠ وحتى عشية الحرب كان تقدير المخابرات (والمخابرات الامريكية ايضا) ان احتمالات الحرب اقل من ضئيلة، ورغم ان ذلك يعري اسطورة المخابرات الاسرائيلية العارفة بدقائق الامور والقادرة على صنع المعجزات ، الا ان هرتزوغ يرى نفسه مرغما للكلام عن هذا الفشل ليخفي فشلا اكبر ٠٠ فشل الجيش الاسرائيلي والتجمع الصهيوني ٠

ويضم الكتاب معلومات مثيرة حول الصراع الذي دار بين القيادات الاسرائيلية حول تقييم نوايا العرب وقدراتهم وقدرات اسرائيل وامكانياتها ، لكن المجال لا يتسع لنا الان للتطرق اليها ٠

الهجوم السوري

خصص هرتزوغ خمسة فصول (من السادس الى العاشر) لسرد وقائع الهجوم السوري ثم الهجوم الاسرائيلي المضاد ٠ وبعد وصف مكثف للتحشدات السورية ولخطط التمويه التي اتبعتها ، يبدأ الكاتب بوصف وقائع الحرب التي يظهر من خلالها جليا الارتباك الذي ساد القوات الاسرائيلية بسبب ضخامة الخسائر الناجمة عن الهجمات السورية ٠

كان اول هجوم ذو دلالات مهمة هو الهجوم السوري الناجح على جبل الشيخ والذي استخدمت فيه اربع طائرات هليكوبتر محملة برجال الصاعقة استطاعت بعد وقت قصير تصفية دفاعات الموقع والسيطرة عليه ، فلم ينج من (٥٥) جنديا كانوا مكلفين بالدفاع ـ كما يذكر هرتزوغ ـ سوى ١١ جنديا بينما اسر الباقون او قتلوا ٠

ويقول هرتزوغ ، ومثل المصريين كان السوريون على معرفة بالقوات الاسرائيلية المقاتلة فاستنتجوا بسرعة ان من الممكن التغلب على هذه النوعية عن طريق الكم ٠ لكن هرتزوغ ـ رغم ذلك ـ لم يستطع اثناء سرده للاحداث ان يخفي النوعية العالية للمقاتلين السوريين ٠

يقول هرتزوغ ان الهجوم السوري العام قد بدأ بقصف مدفعي استمر (٥٥ دقيقة) ثم توقف لمدة (٥) دقائق ليبدأ الهجوم المدرع المعزز بالمشاة ٠ وتطور الهجوم السوري بحيث اصبح واضحا في الساعة السادسة من اليوم الاول ان اكثر من (مئة) دبابة قد عبرت خط الدفاع الاسرائيلي في القطاع الجنوبي بينما زحفت مئة دبابة اخرى على طريق قطنا بمحاذاة خط التابلاين ، وفي الليل حطمت القوات السورية المدرعات الاسرائيلية حيث لم يبق منها سوى (١٥) دبابة بمواجهة (٤٥٠) دبابة سورية تتقدم ٠

وفي هذا اليوم تكبدت اسرائيل خسائر كبيرة في طائراتها حيث كانت القوات السورية تصيبها واحدة تلو الاخرى ٠ « وعند اول ضوء من صباح الاحد القى السوريون نظرات يعلوها الارهاق الى منظر

اخاذ هو منظر بحيرة طبريـــة ، ووقعت ابصارهم على مدينة طبريا والتهب الحماس، فهنا يتقدم السوريون وامامهم عدو ينهزم ٠٠ كان النصر في قبضة ايديهم » ٠

وفي وصف الحالة التي سادت بسبب اكتساح السوريين للجيش الاسرائيلي خلال اليومين الاولين يتساءل هرتزوغ على لسان احد الضباط قائلا : « هل يمكن ان يكون هذا هو جيش الدفاع الاسرائيلي ؟ فهنا امام ناظريه يرى وحدات مشردة لجيش مهزوم » ٠ وقال آمر احدى الوحدات في الكتيبة الخامسة في اليوم الثاني للحرب : « ان هذا يذكرني بالمعركة التي حدثت في فيام ـ ذهب مع الريح ـ ولكن هذه المعركة هي نسخة الكترونية حديثة عن تلك » ٠

كانت رئيسة الوزراء تجلس ورأسهـــا بين يديها وقد علت وجهها لمحة من الكآبـة وروت لحاييـم بارليف الـــذي استدعته للمشورة كيف جاءها وزير الدفاع دايان في ذلك اليوم بعد زيارة للجبهتين الجنوبية والشمالية وقال لها : « لقد كنت مخطئا في كل شيء ٠ نحن مقبلون على كارثة ، سوف نضطر الى الانسحاب من مرتفعـات الجولان الى حافة الجرف المطل علـــى الوادي والى الممرات في سيناء في الجنوب حيث يجب ان نصمد حتى الرصاصـــة الاخيرة ٠ » ، وقد وصفت مائير فيما بعد هذه اللحظات بأنها اسود لحظات حياتها ، عندها طلبت من بارليف ان يتجه الـــى الجولان وينصحها بما يجب ان تعمله ٠ وحسب رأي هرتزوغ ساهم ذهاب بارليف الى الجولان في تحسين الجو في القيادة الاسرائيلية ، اذ لم تكد تمضي (٣٦) ساعة على بدء السوريين لهجومهم وسحق القوات الاسرائيلية في القطاع الجنوبي من جبهة الجولان مندفعين الى مسافة لا تبعد اكثر من (١٠) دقائق عن بحيرة طبريـة ، حتى كانت الاوامر قد اعطيت في القيادة الاسرائيلية ببدء هجوم مضاد كبير في اليوم التالي ٠ وبعد ان عاد بارليف وطمأن مائير ان الوضع قد يتحسن علقت : « موشـي دايان العظيم يوما هكذا ، ويوما هكذا » ؟

ان اكثر ما يثيره وصف هرتزوغ هـو حالة الانهيار التي اصيب بهـــا الجيش الاسرائيلي ، فمجمل الجبهة كانت مهددة بالسقوط خلال اليومين الاوليـــن لولا ان السوريين لم يواصلـوا ضغطهـــم بسبب الخسائر التي تكبدوها ، ولم يقدروا جيدا حالة العدو حيث لم تبق من مئة دبابة للواء السابع الاسرائيلي سوى سبع دبابات ٠ ففي هذه اللحظة بالذات ـ والتي كان فيهـــا الاسرائيليون وهم على شفير الانهيـــار يفكرون بالانسحاب ـ ارتبـك الهجـــوم السوري وحدثت عدة انسحابات سمحـت للاسرائيليين باعادة تنظيـــم صفوفهـم واعطتهم وقتا لوصول القوات الاحتياطية والامدادات مما سمح لهم بالبدء بهجـوم مضاد نجح في صد الهجوم الســـوري واحداث اختراق في الجبهة ٠

ان الارقام التي يقدمها هرتزوغ لخسائر اسرائيل في جبهة الجولان (عدا الطائرات) هي كالاتي : اصيبت كل دبابة مرة واحدة على الاقل ، فقد اصيب حوالي ٢٥٠ دبابة اسرائيلية وتم اصلاح مئة منها ، وقتـــل ٧٧٢ جنديا وجرح ٣٤٥٣ جنديا ووقع في الاسر ٦٥ اسيرا بما في ذلك الطيارين ٠

ان كتاب (حرب يوم الغفران) يظهر العوامل التي ساعدت في نجاح الهجـوم السوري في الايام الاولى ، كما يمكن من خلاله جرد بعض السلبيات التي اتاحت للاسرائيليين القيام بالهجوم المضادواحداث خرق في الجبهـة ٠ ويمكننـــا تلخيص الايجابيات كما بدت في الكتاب بدقـــة الاعداد في التدريب والخطط ، وبدقة وضع المهام المحددة والنجاح فيالتمويه واستغلال عنصر المفاجأة ، وبحسن استخدام المدفعية

التي اصابت اهدافها بدقة ، وبتحييد سلاح الطيران الاسرائيلي ، وبالتقدم المدرع المدعوم بالمشاة على جبهة عريضة، وبالقيام بالهجوم لا بمحور واحد ـ كما تفترضه الخطط الاسرائيلية وهو محور القنيطرة ـ بل بمحورين : الاول نحو القنيطرة والثاني عن طريق مدخل الرفيد ، وكذلك بحسن القتال الليلي ، والعزم على الهجوم وتحقيق الانسحاب المنظم ٠

اما نواقص الهجوم ـ كما تظهر في الكتاب ـ فتتلخص بأن التدريب المكثف على المهام المحدودة وعدم التخطيط للمراحل التي تلي الهجوم الاول قد اضعفت من زخم الهجوم بعد ان وصل لاهدافه الاساسية في اليومين الاولين ، وكذلك عدم القيام بتقدير مناسب للاوضاع الجديدة ، فقدمت خسائر جسيمة امام بعض الجيوب الصغيرة لا لشيء سوى لتطبيق الخطة بحذافيرها ، كما حصلت حالة ضياع وعدم تقييم يستخلص النتائج من ارتباك العدو وانهياره ، فلو قدر هذا الامر بنظرة ثنائية الجانب لاستطاع السوريون تعزيز انتصارهم الاول والحفاظ عليه ٠

ومن النواقص التي ابرزتها حرب الجولان ايضا ضعف التنسيق بين الجيوش العربية التي تواجدت على الجبهة السورية مما سمح باضعاف تركز زخم الهجوم العربي وضياع جهود وخسائر مهمة ٠

الهجوم المصري

لقدبدا الهجوم المصري مستحيلا ، اذ ان خط بارليف وخزانات الوقود تحت الارض المتصلة بالقناة والكفيلة باشعال سطحها ـ والتي يدعي هرتزوغ انها اهملت فيما بعد ـ جعلت الاسرائيليين يعتقدون ان ذلك سيثني المصريين عن الهجوم ٠

وهنا ايضا يحاول هرتزوغ القاء المسؤولية على المخابرات وعدم تقديرها نوايا المصريين بشكل صحيح ، وحتى عندما تأكد الاسرائيليون من حتمية الهجوم، لكنهم قدروا انه سيبدأ في الساعة السادسة مساء ، ومهما يكن من امر فقد وقع الهجوم المصري كما كان مقررا ٠

ففي الوقت المحدد عبرت (٢٤٠) طائرة مصرية القناة وقصفت المطارات الثلاثة في سيناء وبطاريات الصواريخ الاسرائيلية ارض ـ جو من طراز هوك ، ودمرت ثلاثة مراكز قيادة ومحطات رادار ومواقع مدفعية ومراكز ادارية ٠ وفي الوقت نفسه فتح الفا مدفع نيرانه بقصف مركز موقعا خسائر جسيمة بالاسرائيليين علىطول خط الجبهة٠ وقام لواء صواريخ ارض ارض باطلاق صواريخه من نوع (فروغ) وتقدمت دبابات من المصاطب واطلقت نيران مدافعها الى داخل المواقع الاسرائيلية ٠

ويقول هرتزوغ ان القصف الذي استمر (٥٣) دقيقة حول الضفة الشرقية من القناة الى جحيم ٠ وبعد ان القي اكثر من ثلاثة الاف طن من المتفجرات على مجموع المواقع الاسرائيلية بدأ العبور بالجسور والطوافات من قبل الجيش الثاني والثالث ونجح في احتلال او تطويق حصون خط بارليف ٠ وقد ترافقت عملية العبور مع عملية اخرى هي عبور البحيرة المرة الكبرى بواسطة اللواء البحري (١٣٠) بهدف تجاوز القوات الاسرائيلية والالتحاق بوحدات الصاعقة التي انزلت بواسطة طائرات الهليوكوبتر خلف الخطوط الاسرائيلية في ممري المتلا والجدي ٠

وحتى غروب الشمس في السابع من تشرين الاول وسعت القوات المصرية عملية تمركزها على الجانب الشرقي من القناة حتى عمق ٦ ـ ٨ كيلومترا واستعدت

ودفنوا انفسهم في الرمال ، تبرز هذه القوات من مكانها وتتبع الدبابات ٠٠ وفي بعض الاحيان ، كان خط المشاة عندما يعاني من اصابات كثيرة ، يستبدل بخط اخر جديد دفن نفسه في الرمال وظل مختبئا طوال الليل ثم يبرز هذا الخط ويواصل الهجوم ٠

وعندما تولى بارليف القيادة كانت امامه ثلاث احتمالات :

١ ـ القيام بهجوم واسع ضد القوات المصرية ودفعها الى ما وراء القناة ٠

٢ ـ عبور القناة على الفور ٠

٣ ـ انتظار الهجوم المصري المتوقع وصده ، ومن ثم تقوم القوات الاسرائيلية بهجوم مضاد ٠ واقترح اليعازر انتظار الهجوم المصري والتعامل معه قبل عبور القناة ، اما دايان فقد كان متشككا وغير متحمس للعملية كلها ٠

في هذه الاثناء ، في صباح ١٤ تشرين الاول بدأت القوات المصرية هجومها المتوقع وكانت اكبر معركة دبابات عرفها التاريخ (باستثناء معركة كورسك بروسيا في الحرب العالمية الثانية) ، ففي هذا الصباح القيت في المعركة الفا دبابة من الطرفين ٠ ويقول هرتزوغ في وصفه للمعارك الطاحنة التي حصلت ان الجيش المصري منى بخسائر فادحة في هذا الهجوم وفقدت قيادته التوازن الذي ظلت محتفظة به طوال ايام الحرب وهو ما شكل نقطة تحول في مجرى القتال ٠ عندها قرر الاسرائيليون تنفيذ خطة العبور التي استطاعت بعد عشر ايام من بدء القتال استغلال الثغرة بين الجيشين الثاني والثالث في منطقة الدفرسوار والعبور الى الضفة الغربية والضغط على الجيش المصري من الخلف ٠

يصف هرتزوغ بالتفصيل عملية العبور ومحاولات الاسرائيليين الاتجاه شمالا على الضفة الشرقية للقناة والانتشار على الضفة الغربية ، وكذلك يصف محاولة احتلال الاسماعيلية التي منيت بالفشل وكلفت الاسرائيليين عددا كبيرا من الارواح وفي الكتاب عرض سريع لآراء القادة المصريين ، سواء رأي الشاذلي بضرورة التقدم نحو الممرات وعدم تقييمهم العبور الاسرائيلي بشكل مبكر ودقيق ، ويتكلم بصراحة عن التنسيق الامريكي الاسرائيلي الذي قام في فترة الحرب واطلاع الامريكان لحظة اثر لحظة على تفاصيل العمليات العسكرية الاسرائيلية ٠

ومهما يكن من امر، فان دراسة النظرات التي برزت عن الجانب المصري مأخوذة من وجهة النظر الاسرائيلية ، لا تخلو من فوائد ٠

فهرتزوغ يقدر شجاعة المقاتل المصري ودقة الخطط والاستعدادات والدور الذي لعبه المشاة والمدفعية وسلاح المدرعات والصواريخ في هذه الحرب ، كما يقدر ان الاستراتيجية المصرية في المستوى الاعلى كانت ممتازةللغاية حيث جمعت بين الهجوم الاستراتيجي والعمليات التكتيكية الدفاعية٠ كما ان دور الاستخبارات المصرية كان دورا مهما حيث ان المصريين حصلوا على معلومات فاصلة عن مجمل الخطة الدفاعية الاسرائيلية ، لا بل ان الخارطة الرمزية الاسرائيلية لا سيما المواقع في منطقة القناة والضفة الغربية قد وقعت بأيدي المصريين رغم ان اسرائيل لم تعد من هذه الخارطة سوى ٩ نسخ فقط في عام ١٩٧٣ ٠

ان السلبيات التي تبرز من خلال كتاب هرتزوغ ـ ضمنا او صراحة ـ فهي نفس ما وقع به السوريون اي الضياع عند مواجهة الظروف الجديدة وعدم استثمار نصرهم بالشكل المطلوب والتهيب في بعض مراحل الحرب من العدو رغم انه كان في تلك المراحل بالذات في حالة انهيار وانكسار ،

كما يشير الكتاب الى امور تفتح بابا للنقاش حول التنسيق بين الجبهتين وفعالية هذا التنسيق سواء بالنسبة للعرب او للاسرائيليين ٠

وفي نهاية الكتاب محاكمة يقوم بها هرتزوغ للقادة العسكريين الاسرائيليين ، لكن الاهم من ذلك محاكمته للعقلية العسكرية الاسرائيلية التي يقول انها كانت تعتقد ان بمقدور الدبابة والطائرة صنع كل شيء بمعزل عن المشاة والمدفعية ، ولذا يطالب باعادة تنظيم الجيش الاسرائيلي على اسس جديدة تأخذ العبر والدروس من خسائر حرب يوم الغفران ٠

ان هرتزوغ لا يسعه في ختام كتابه الا ان يشير الى اهمية المساعدات الامريكية قائلا : « ان الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة التي قدرت كفاح اسرائيل حق قدره » ٠

يقول هرتزوغ في محاكمته للرجال والسياسة : « ان الذين اخطأوا لا يمكن ان يلومهم التاريخ ، كما ان ثمن اهمالهم لم يسدد بكامله بعد ٠ فبسبب هذه الاخطاء فقدت اسرائيل مركزا فريدا من مراكز القوة في تاريخها ، كان باستطاعتها ان تفاوض من اجل المستقبل ، ومن يدري فقد تضطر اسرائيل الى دفع ثمن اغلى » ٠

رشاد راشد

PALISTINIAN ARAB POLITICS

Edited by Moshe MA'OZ

The Hebrew University , The Harry's TRUMAN Research Institute

Jerusalem Academic Press , 1975

الكتاب في الاساس هو مجموعة الدراسات المقدمة في الندوة المعقودة في معهد ترومان التابع للجامعة العبرية حول « الفلسطينيين » وذلك عام ١٩٧٣ ٠ والمشاركون هم من ذوي الاختصاص في القضايا العربية في « اسرائيل » ، وموطن اهتمام هؤلاء لم يأت من مواقع اكاديمية فقط فقد شغل العديد منهم مواقع رسمية في الجهاز الحكومي في اسرائيل تتعلق في التعامل مع الفلسطينيين العرب ٠ وهذا يكسب الكتاب أهمية خاصة بحيث يعكس عقلية هؤلاء الاختصاصيين وطريقة فهمهم لقضايا الشعب العربي الفلسطيني وبالتالي مدى مساهمتهم في خدمة قضية السلام في المنطقة ٠

تضمن الكتاب خمس دراسات تقدم **بالورقة الاولى** يهوشاع بوراث وتتناول « التنظيمات السياسية للفلسطينيين العرب تحت الانتداب البريطاني » وبوراث باحث جاد يشغل منصب مدير دائرة التاريخ في المعهد الاسيوي الافريقي التابع للجامعة العبرية ٠ نشر الجزء الاول من دراسته القيمة « حول نشوء الحركة القومية العربية الفلسطينية ١٩١٨ ـ ١٩٢٩ » ويسعى على اخراج الجزء الثاني ٠ وبوراث هنا

يلخص ما ورد في الجزء الاول من كتابه · الا انه في الدراسة المقدمة يسعى بصورة غير موفقة الى تكرار تلك المقولة التي طالما فتن بها الباحثون الغربيون في التقسيمات الطائفية للحركة الوطنية العربية · فهو يذكر انه مع تشكيل المجلس الاسلامي الاعلى احتكر المجلس العمل الوطني وجرى عزل للمسيحيين عن المشاركة . واتخذ العمل الوطني طابعا طائفيا (ص ١٥) · ان ذلك يبدو غير دقيق على الاطلاق وبوراث نفسه لم يثر تلك المسألة في كتابه السالف ·

ان بوراث أراح نفسه في الدراسة المقدمة من عناء الفحص والتدقيق لبعض النقاط فهو يعتبر مثلا ان «حزب الاستقلال» حزب محلي فلسطيني بينما هو بالحقيقة حزب قومي عمل على مستوى سوريا الطبيعية والعراق ولم يكن فرع الحزب في فلسطين سوى امتدادا له وقد ناضل الحزب في سبيل نيل الاستقلال عن العثمانيين وتحقيق الدولة العربية الواحدة · ومن الغبن الفادح تلخيص ظروف فرط عقد الحزب بعد ذلك على انه انقسام بين مؤيدي الهاشميين ومؤيدي السعوديين داخل الحزب كما يذكر بوراث (ص ١٦) ·

الورقة الثانية من الكتاب تقدم بها أمنون كوهين الذي عمل مستشارا في الشؤون العربية للحكم العسكري في الضفة الغربية وتعالج « الاحزاب السياسية في الضفة الغربية تحت الحكم الهاشمي » ولم تخل وظيفته هذه من فوائد ، فهو في دراسته المقدمة يستند بصورة رئيسية الى ملفات ووثائق المخابرات الاردنية التي وضعت السلطات الاسرائيلية يدها عليها في الضفة الغربية غداة حرب حزيران ١٩٦٧ · ان مشكلة كوهين انه استند الى مرجعين حكما دراسته التي جاءت ضعيفة وسطحية سواء على صعيد تقديم المعلومات والمادة او على صعيد المنهج والتحليل : فاستناده الى ملفات المخابرات الاردنية دعاه الى تقديم دراسة تشريحية بوليسية عن الاحزاب في الضفة الغربية باعتبارها « عصابات تآمرية » وليست حركات شعبية تتبنى ايديولوجيات ومطالب معينة كما هي الحال لدى كل الاحزاب السياسية في الدنيا · حتى عندما كان يرغب في الابتعاد عن هذا العرض التقريري البوليسي ليتقدم بشيء من التحليل ، كان يلجأ الى ذلك الكتاب « اليتيم » الذي كتبه سليمان الموسى ومنيب الماضي عن الاردن ، الذي كتب بالطبع تحت العصا الغليظة للحكم الهاشمي وبالتالي جاء يعكس مواقفه تجاه تلك الاحزاب باعتبارها « أدوات هدامة للتخريب » ومجموعة من « المتطفلين الكسالى » (ص ٢٣) ·

ان تلك المعلومات الهامة التي أوردها كوهين استنادا الى اوراق المخابرات الاردنية ، كيف ان الحكم الهاشمي في تعميم داخلي له على مخابراته في بداية عام ١٩٥٧ كان يعد لضرب الاحزاب السياسية ، وذلك قبل اربعة اشهر من اقالة حكومة النابلسي الوطنية في ابريل من نفس العام (ص ٢١) ، ثم انفجار الصراع بين الملك والاحزاب الوطنية ، كل ذلك لم يضعه كوهين في اطاره السياسي عندما كانت الاحزاب الوطنية تسعى الى تثبيت الديمقراطية والحفاظ على استقلال البلد وعدم الارتباط بالخطط الاميركية التي طرحت من خلال مشروع ايزنهاور · ان شيئا من هذا لم يستوقف كوهين ولا يعنيه ضمن اي تحليل، وفي تقديره فصراع الاحزاب الوطنية والملك كان مجرد صراع بين الشغب والفوضى وبين الرغبة في الاستقرار !··

كيف يمكن قبول ادعاءات العسف وضرب

الديمقراطية لدى اي مراقب او باحث مهتم بتسجيل التاريخ تحت شعار الاختلاف السياسي ٠٠ حقا انه ليس اسوأ على الامانة العلمية من دخول باب البحث العلمي والاكاديمي من مقتضيات الوظيفة السياسية وهذا بالضبط ما وقع به كوهين ٠

تقدم أوري ستاندل **بالورقة الثالثة** متناولا « النهوض السياسي لدى السكان العرب الفلسطينيين داخل اسرائيل ١٩٤٨ ـ ١٩٧٤ » وقد عمل ستاندل ايضا مستشارا في الشؤون العربية للحكم العسكري في الضفة الغربية حتى عام ١٩٧١ قبل ان يتفرغ لعمله في المحاماة ٠ وقد خصص معظم الورقة للحديث عن « الحزب الشيوعي الاسرائيلي » (راكاح) وكان في اندفاعه للهجوم على « راكاح » يعفي نفسه احيانا من الاشارة الى أي مصدر ويفسر التاريخ على طريقة كوهين المخابراتية ٠ فهو يذكر مثلا انه في نهاية ١٩٥٧ تكونت داخل راكاح جبهة سرية تسمى «جبهة التحرر الوطني» كان اهدافها تقويض اسرائيل وان تلك الخطة اكتشفها اعضاء « ماكي » المنشقون عن الحزب (ص ١١٤) ، وهو يذكر ذلك كمسلمة دون ان يتقدم بأي دليل او يشير الى اي مصدر ٠ وستاندل يرى في راكاح « حزبا قوميا وليس ماركسيا » (ص ١٢٨ ١٢٩) دون ان يرى اي خلاف بين راكاح واية مجموعات قومية اخرى بين العرب الفلسطينيين داخل اسرائيل ٠ ان ستاندل يرى ان راكاح ابتدأ يفقد نفوذه وشعبيته بين العرب الفلسطينيين بعد ان وصل قمة ما يمكن وصوله Reached » its Peak « ، وان العرب الفلسطينيين اخذوا يقبلون بواقع وجود دولة اسرائيل وانه قد زاد انضمامهم الى الاحزاب الصهيونية » ٠٠٠ ان اقوال ستاندل وتقييماته المفجعة هذه تأتي عام ١٩٧٣ ـ تاريخ تقديم الدراسة ـ لست ادري ان كان مهتما بمراجعة تقييماته هذه بعد مرور اكثر من ثلاث سنوات اثبتت خطل وضعف تلك التقييمات ؟ وعما اذا كانت الحكومة الاسرائيلية معنية اكثر في سماع « الكلام المريح » من مستشاريها في الشؤون العربية اكثر من سماع الحقائق الصلبة ؟

أما يهوشفاط هركابي والاكثر اختصاصا في الشؤون العربية ، قائد الاستخبارات الاسرائيلي السابق فقد تناول في **دراسته المقدمة** «النهوض الفلسطيني في الخمسينات من خلال الادبيات المنشورة للفلسطينيين»٠ وعرض معاناة الفلسطينيين وواقع تشردهم بعد الهجرة وشعورهم بالخذلان على يد الانظمة العربية من خلال ادبيات غسان كنفاني واديس القاسم ولطف غنطوس وغيرهم ٠

ان هركابي ينعطف فجأة عن هذا السرد ليتقدم لنا بتفسير عجيب للثورة بين الفلسطينيين فيذكر « ان البرجوازية الفلسطينية التي اندمجت في مجتمعاتها الجديدة ، تسعى على الدوام الى تحريض الفئات المسحوقة من سكان المخيمات على رفض الذوبان » ويدلل على ذلك بمثال نشوء حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) التي ولدت في اعتقاده « بين تلك الاوساط الغنية من الفلسطينيين في منطقة الخليج » (ص ٧٢) ٠

ان هركابي يتعامى مع سبق الاصرار عن رؤية الشعب الفلسطيني كوحدة قومية تناضل من أجل قضية واحدة هي استعادة حقوقها الوطنية اسوة بكل شعوب العالم ،

وهو لا يتقدم بأي تفسير لما اسماه « برفض الفلسطيني الغني قبول حالة الذوبان وعلى انخراط ابناء المخيمات في المقاومة » ٠ انه يسعى بحجج مبهمة الى اعطاء تفسير

خاص لتلك القوانين العامة التي تحكم حركات التحرر الوطني عموما ، حول دور المثقفين من البرجوازية المتوسطة والصغيرة في العملية الثورية · وهركابي يرفض دونما سبب وجيه رؤية وفحص دواعي بروز الشخصية الوطنية للشعب الفلسطيني التي فرضتها من جهة : الحقائق الجديدة التي أفرزها واقع نضال الشعب العربي الفلسطيني · حيث اصبحت تلك الدعاوى الصهيونية القديمة القائمة على انكار الوجود الوطني لهذا الشعب مسألة تجاوزها الزمن · عدا عن ان هركابي — وهو الخبير في الشؤون العربية — لا يرى في الشخصية الوطنية للشعب الفلسطيني وظهورها القوي على المسرح السياسي من جهة اخرى انسجاما مع مجمل التطورات في المنطقة العربية · بحيث ان اي متابع لهذه التطورات يمكنه فهم حقيقة بسيطة مؤداها انه لم يعد ممكنا كما في السابق اخفاء الشخصية الوطنية المتميزة للشعب الفلسطيني تحت شعارات قومجية قديمة ·

أما ورقة موشي ماعوز — محرر الكتاب — وهي الورقة الاخيرة في الكتاب فقد تناولت « العلاقة بين المقاومة الفلسطينية والاتحاد السوفياتي » ويبدو وكأن هذه الورقة اقحمت اقحاما على الندوة · ان ماعوز يجد فيها فرصة مؤاتية فقط لافهامنا بأنه لا ينصح بأن يكون للفلسطينيين دولة في الضفة الغربية وقطاع غزة ، اذ ان من شأن ذلك ان تصبح مثل تلك الدولة قاعدة للسوفيات !

المقاومة الفلسطينية

محادثات نيويورك :

كان موضوع التمثيل الفلسطيني في مؤتمر جنيف ، عقدة العقد في المباحثات الدبلوماسية التي جرت في دورة الامم المتحدة ، وشارك فيها الفلسطينيون والعرب واسرائيل والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، وحاولت الولايات المتحدة بوسائل شتى ان تخترع جملة من البدائل لتمثيل الفلسطينيين هربا من تمثيل منظمة التحرير ، كما حاولت اقناع الفلسطينيين بهذه الصيغ دون ان تلزم نفسها بتقديم ثمن مقابل ذلك ، ومارست في هذه الاثناء ضغوطا كبيرة على الحكومات العربية ، ومارس العرب بدورهم ضغوطا كبيرة على منظمة التحرير ، وكان الهدف الاساسي من ذلك كله ازالة العقبات الاجرائية التي تعترض عقد مؤتمر جنيف ، وتأجيل البحث في مضمون التسوية لازمة الصراع العربي ـ الاسرائيلي الى حين انعقاد المؤتمر . وبينما حاولت الولايات المتحدة ان تظهر بمظهر المحايد بين العرب واسرائيل في هذا الحوار ، الا ان كل مواقفها كانت تصب في النهاية الى جانب الموقف الاسرائيلي وتوافق على كل ما يصر عليه الاسرائيليون ، وكانت مواقفها السياسية تبدأ بموقف عام يظهر وكأنه اقتراب من الموقف العربي ، ثم تتلاحق التوضيحات التفصيلية التي تؤكد جوهر الموقف الاميركي الذي يسعى للتحايل على الموقف العربي والفلسطيني لصالح الموقف الاسرائيلي .

فبعد ان اعلنت الخارجية الاميركية ان مؤتمر جنيف لن ينجح الا اذا اشترك فيه الفلسطينيون . وبعد ان اعلنت في بيان اخر صدر في ١٥ ايلول انها تدرس اقتراح تشكيل وفد عربي موحد (يشارك فيه الفلسطينيون) ، اوضح الناطق الرسمي بلسان وزارة الخارجية ردا على سؤال حول مشاركة اعضاء من منظمة التحرير في الوفد الموحد « اننا تركنا ذلك للاطراف المعنية لكي تقرر بشأنه ، ونحن لا نحاول ان نفرض رأينا حول من سيشكل هذا التمثيل ، واذا وافقت كل الاطراف على اشتراك منظمة التحرير فسنوافق على القرار الذي يتوصلون اليه ، بيد ان ذلك يجب ان يكون بشروط ترضينا » .

ثم بدأت مرحلة توضيح هذا الموقف الاميركي العام وامتصاص مضمونه ، فأعلن سايروس فانس وزير الخارجية ان هناك بدائل لتمثيل الفلسطينيين في جنيف

اما ضمن وفد عربي موحد او ضمن الوفد الاردني (اي دون تمثيل مستقل) ، ثم ذهب الرئيس الاميركي جيمي كارتر خطوة ابعد في هذا التوضيح اذ اعلن في ١٧ـ٩ بعد الحديث عن ضرورة تمثيل الفلسطينيين في مؤتمر جنيف نقطتين : الاولى ان منظمة التحرير لم تكن الاختيار الاميركي لتمثيل الفلسطينيين ، والثانية انه لم يدع ابدا الى بلد فلسطيني مستقل ٠

ثم تراجعت الولايات المتحدة خطوة جديدة الى الوراء ، حين عادت مرة اخرى للحديث عن ضرورة اعتراف الفلسطينيين بالقرار ٢٤٢ ، فأعلنت الخارجية الاميركية في ١٩ـ٩ بأنها على استعداد لفتح حوار (حوار فقط) مع منظمة التحرير اذا اعترفت بالقرار ٢٤٢ ، وبعد يوم واحد فقط (٢٠ـ٩) قال ناطق بلسان البيت الابيض (بعد اجتماع كارتر ودايان) ان الولايات المتحدة لم تقل بأن منظمة التحرير يجب ان تمثل في مؤتمر جنيف اذا قبلت القرار ٢٤٢ ، وزادت الخارجية الاميركية على ذلك ببيان اخر يقول (٢٣ـ٩) انها ستعارض اي قرار يحاول تعديل القرار ٢٤٢ في مجلس الامن ٠

مع بداية اعلان هذه المواقف الاميركية وتراجعاتها المتلاحقة ، كان موشي دايان وزير الخارجية الاسرائيلي يعلن في بروكسل اثناء توجهه الى الامم المتحدة (١٥ـ٩) ان اسرائيل ترفض التفاوض مع وفد عربي مشترك يضم ممثلين فلسطينيين ، ويؤيد فقط ضم فلسطينيين غير اعضاء في منظمة التحرير الى الوفد الاردني ٠

أما منظمة التحرير الفلسطينية فقد اعلنت بعد انتهاء اجتماعات المجلس المركزي في دمشق (٢٠ـ٩) ان المجلس ناقش الخطوة الجديدة التي صدرت في بيان وزارة الخارجية الاميركية والتي اعترفت بأن الشعب الفلسطيني هو العنصر الاساسي لاي حل في الشرق الاوسط ، الا ان المجلس لاحظ ان البيان تجاهل الاشارة الى الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ، بما فيها حقه في العودة وتقرير المصير واقامة دولته المستقلة بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، وكانت هذه هي المرة الاولى التي ترد فيها عبارة دولة مستقلة بقيادة منظمة التحرير في محاولة لرفض صيغ التحايل الاميركية على موضوع التمثيل الفلسطيني ، وعلى الهدف من هذا التمثيل اذا تم ٠

وفي الوقت الذي صدر فيه بيان المجلس المركزي ، كان دايان يعلن بعد مقابلته الاولى مع كارتر «ان الفلسطينيين سيمثلون في مؤتمر جنيف ، على ان لا يتم ذلك بوفد منفصل ، ولا بوصفهم ممثلي دولة تقام في المستقبل ، ومنظمة التحرير لن تمثل في هذا المؤتمر بصفتها الذاتية » واضاف دايان ان « اسرائيل تفضل اشتراك وفود عربية منفصلة بينها وفد اردني يضم فلسطينيين بشرط ان لا يكونوا بأي حال من الاحوال ممثلين لمنظمة التحرير » !

وقد كان واضحا من هذه المساومات ان الولايات المتحدة تحاول اقناع اسرائيل بقبول فكرة الوفد العربي الموحد الذي يضم فلسطينيين ، وذلك ارضاء لطلب الوفود العربية ، وتحاول في الوقت نفسه اقناع العرب باستبعاد منظمة التحرير من التمثيل الفلسطيني مع ما يعنيه ذلك من استبعاد لبحث موضوع الدولة الفلسطينية ، تجاوبا مع طلبات اسرائيل ، على ان رؤساء بلديات الضفة الغربية وقطاع غزة هم الممثلون الفلسطينيون في مؤتمر جنيف ٠

وتجاوبا مع هذه المساومة اعلنت الحكومة الاسرائيلية في بيان رسمي (٢٥ـ٩) انها

توافق على وفد عربي موحد لجنيف شرط ان ينقسم الى عدة لجان ، ويكون الفلسطينيون جزءا من الوفد الاردني ٠ واستعمل البيان الاسرائيلي عبارة « عرب ارض اسرائيل الذين ليسوا اعضاء معروفين في منظمة التحرير الفلسطينية يمكن ان يشاركوا في هذا الوفد الموحد »٠ واضاف البيان « لا يشارك العرب الفلسطينيون في الدورة الافتتاحية كجسم مستقل ولكن كجزء من الوفد الاردني »٠

وقد صدر ردا على هذه المواقف الاميركية والاسرائيلية موقفان فلسطينيان الاول من رؤساء بلديات الضفة الغربية حيث اعلنوا رفضهم حضور مؤتمر جنيف ٠٠ الا اذا طلبت منهم منظمة التحرير القيام بالمهمة (حلمي حنون : طولكرم ـ بسام الشكعة : نابلس ـ فهد القواسمه : الخليل ـ كريم خلف : رام الله ـ عبد العزيز السويطي : اريحا) ٠ والثاني من الوفد الفلسطيني في الامم المتحدة الذي اعلن في بيان رسمي :

ـ نرفض المساومة على موضوع تمثيل المنظمة للشعب الفلسطيني داخل الارض المحتلة وخارجها ٠

ـ محاولات تقسيم التمثيل مجرد مناورة هدفها عرقلة السلام ، وليس لاي طرف اي حق او انتداب لمناقشة موضوع التمثيل ٠

ـ قرار ٢٤٢ غير مناسب للتعامل مع حقوق الشعب الفلسطيني ٠

ـ ضرورة صدور قرار جديد عن مجلس الامن يؤكد حق تقرير المصير وحق العودة٠

ويمكن القول ان هذه المساومات كلها مثلت المرحلة الاولى من المفاوضات التي جرت على هامش دورة الجمعية العامة للامم المتحدة ٠

البيان السوفياتي الاميركي

المرحلة الثانية تمثلت بعامل دولي جديد ، من خلال مفاوضات جرت بين اندريه غروميكو وزير الخارجية السوفياتي والرئيس الاميركي كارتر ، حيث صدر بعد المفاوضات بيان سوفياتي ـ اميركي (١ـ ١٠) يؤكد ضرورة عقد مؤتمر جنيف ، ويحدد اسسا جديدة لعقده ٠ وقد تضمن البيان اشارة الى ضرورة تمثيل الفلسطينيين في مؤتمر جنيف والى ضرورة البحث في الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، كما تضمن في المقابل تحديدا لطبيعة السلام المطلوب بين العرب واسرائيل من خلال « انهاء حالة الحرب واقامة علاقات سلمية عادية رسمية على اسس الاعتراف المتبادل بمبادىء السيادة وسلامة الاراضي والاستقلال السياسي »

وقد استقبل هذا البيان بردود فعل متناقضة ومتباينة :

ـ اسرائيل اعلنت رفضها للبيان بعد اجتماع لمجلس الوزراء ، واعتبرت انه يسعى لفرض التسوية ، ولوحت باعلان حالة الطوارىء ٠ وقال دايان انه يحد من حركة اسرائيل ويعطي الاتحاد السوفياتي ثقلا جديدا ٠

ـ سوريا قالت ان في البيان بعض النقاط الايجابية الا ان هناك غموضا حول فقرة الانسحاب ، اذ استعمل البيان كلمة « اراض » ولم يستعمل كلمة « الاراضي » المحتلة ٠

ـ منظمة التحرير قالت على لسان فاروق القدومي في الامم المتحدة ان البيان مساهمة في جهود دولية ، وتأكيد للحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، ويوفر قاعدة لصدور قرار جديد من مجلس الامن بدلا من القرار ٢٤٢ ٠

ـ مصر اعلنت على لسان اسماعيل فهمي وزير الخارجية ان البيان لا يحمل جديدا ، ولم يعلن ان منظمة التحرير هي الممثل الشرعي الوحيد ٠

ـ العراق اعلن ان البيان لا يمثل اي تغيير جذري لمصلحة الشعب الفلسطيني ٠

وفي هذه الاثناء تحركت قوى الضغط الصهيونية في الولايات المتحدة ضد البيان ونظمت ضده حملة اعلامية كثيفة ، ورد عليها البيت الابيض الاميركي بسلسلة من التوضيحات الرسمية وغير الرسمية التي حاولت كلها تأكيد الالتزام الاميركي بأمن اسرائيل وعدم التخلي عنها ٠ وفي نهاية هذه الحملة اعلن كارتر في خطابه امام الامم المتحدة (٤ـ١٠) ان الولايات المتحدة لا تنوي فرض حل في الشرق الاوسط ، والتزامها بأمن اسرائيل لا يمكن ان يكون موضع جدل ، والحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني يجب الاعتراف بها ٠ وكان هذا الخطاب خاتمة المرحلة الثانية من المفاوضات ٠

البيان الاميركي ـ الاسرائيلي

المرحلة الثالثة من المفاوضات تمثلت بتراجع واشنطن عن البيان السوفياتي ـ الاميركي ، عبر بيان اميركي ـ اسرائيلي جديد صدر يوم ٥ـ١٠ ، دعا لعقد مؤتمر جنيف على أساس القرار ٢٤٢ ، واوضح ان الاعلان السوفياتي ـ الاميركي المشترك ٠٠ ليس شرطا مسبقا لاستئناف واستمرار اعمال مؤتمر جنيف » ٠ واعلن بعد صدور هذا البيان ان هناك ورقة عمل اميركية وافق عليها دايان ، وسيقوم فانس بعرضها على الوفود العربية ٠ وقد برزت في هذه الاثناء فكرتان اميركيتان جديدتان حول موضوع التمثيل الفلسطيني ٠

الفكرة الاولى تدعو لاعلان حكومة فلسطينية تشكل على أساس التمثيل الجغرافي ، مع بقاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الى جانبها ، كتمهيد لاختيار الممثلين الفلسطينيين من اعضاء الحكومة (لاستبعاد منظمة التحرير) ٠ والفكرة الثانية تقترح ان يقوم رئيس اللجنة التنفيذية باختيار وتسمية اعضاء الوفد الفلسطيني الى مؤتمر جنيف ، على ان يتم ذلك بشكل سري (اي دون الاعلان الرسمي عن علاقة هذا الوفد بمنظمة التحرير) ٠ ولفت النظر بعد ذلك تصريحان فلسطينيان في بيروت ونيويورك ٠ الاول اعلنه محمود اللبدي (٦ـ١٠) وقال فيه « ان منظمة التحرير لن تصر على وجود ممثلين خاصين بها في مؤتمر جنيف ، طالما ان المنظمة مسؤولة عن اختيار المندوبين الى هذا المؤتمر ٠٠٠ والمنظمة قد تقرر ضم اشخاص غير اعضاء فيها ٠٠ ان هذا ليس قرارا خارجيا ٠٠ انه قرار داخلي متعلق بمنظمة التحرير» ٠ والتصريح الثاني اعلنه زهدي الطرزي باسم الوفد الفلسطيني في الامم المتحدة (٧ ـ١٠) وقال فيه « ان تصريح اللبدي قد اسيء تفسيره ٠٠ ان كل الفلسطينيين هم اعضاء في منظمة التحرير الفلسطينية ، وفي اطار هذا المفهوم فان رؤساء البلديات في مدن الضفة الغربية يمكن ضمهم الى وفد المنظمة في جنيف ٠٠ وسنصر على تلقي دعوة رسمية للمنظمة لحضور مؤتمر جنيف » ، بينما كانت اسرائيل تعلن انها « سترفض اي شخص في جنيف تعينه منظمة التحرير » ٠

وقد نشرت جريدة « السفير » اللبنانية يوم ٧ـ١٠ نص ورقة العمل الاميركية ـ الاسرائيلية والتي تتضمن انعقاد مؤتمر جنيف بجلسة افتتاحية يحضرها وفد عربي موحد ووفد اسرائيلي ، ثم ينقسم

المؤتمر الى لجان جغرافية واخرى وظيفية لجان العمل الجغرافيـــة هي : مصر – اسرائيل ، سوريا – اسرائيل ، الاردن – اسرائيل ، مع لجنة للضفة الغربية وقطاع غزة تضم مصر – الاردن – اسرائيل – الفلسطينيون (دون سوريا) · أما اللجان الوظيفية فهي اربع لجان : لجنة لمعاهـدة السلم وانهاء حالة الحرب ، ولجنة لبحث العلاقات الطبيعية بين دول المنطقة ، ولجنة لشؤون اللاجئين الفلسطينيين واليهود ، ولجنة التعويضات المتبادلة · أما التمثيل الفلسطيني فيكون من قيادات درجة ثانية او ثالثة من منظمـــة التحرير ومعهـــم مندوبون من الضفة الغربية وقطاع غـــزة والاردن ·

وفي ١٣–١٠ اذاع دايان نص ورقـــة العمل فجاءت مطابقة للنص الذي نشرته السفير ، مع تعديلات اجريت عليها بنـاء على طلب الحكومة الاسرائيلية اضافت اليها ان المؤتمر سيعقد على اساس قـرار مجلس الامن ٢٤٢ ، وان البيان الاميركي – السوفياتي لن يشكل اساسا لاستئنـــاف المؤتمر ، مع اشارة الى ان الفلسطينيين ضمن الوفد العربي الموحد يجب ان يكونوا من خارج منظمة التحرير ·

وقد عرضت ورقة العمل هذه علـــى الحكومة الاسرائيلية فوافقت عليهـــا بالاجماع في جلستها المنعقدة يوم ١١–١٠ وبعد هذه الموافقة اعلن كارتر (١٢–١٠) ترحيبه بها وقال : انني لم اؤيد علـى الاطلاق اقامة دولة فلسطينية مستقلة · واوضح هودينغ كارتر الناطق بلســان الخارجية الاميركية ان ورقة العمل لا تقدم تسوية لمشكلـــة تمثيل الفلسطينيين ··· ومسألة التمثيل الفلسطيني لا تزال تمثل عقبة كبيرة · ثـم عـاد هودينغ كارتـــر واعلن (١٣–١٠) ان احدا لا يذهب الى جنيف الا المشتركون الاساسيون والذين توافق عليهم الاطراف المعنية ·

وبينما اعلن عبد المحسن ابو ميـزر الناطق الرسمي بلسان منظمة التحرير ، في باريس ، ان المنظمة ترفض رفضا كامـلا ورقة العمل الاميركية – الاسرائيليـــة (١٤–١٠) اعلنت اللجنة المركزية لحركة فتح في بيان رسمي (١٦–١٠) ان «منظمة التحرير هي الممثل الشرعي الوحيد ·· وانها لا تقبل اي مناورة تستهدف النيل من هذا الحق او القفز عليه ·· وتؤكد قرارات المجالس الوطنية بالنسبة لحقوق شعبنـا الوطنية الثابتة بما فيها حق العـــودة وحق تقرير المصيـــر واقامة الدولـــة الفلسطينية المستقلة » · وفـــي ٢١–١٠ اصدرت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحـرير بيانا اعلنت فيه رفضها لورقة العمـــل ووصفتها بأنهـــا « تشكل بنصوصهـا ومضمونها محاولة جديدة لطمس حقوق شعبنا الوطنية الثابتة » ·

ازمـة الجنوب :

مع بداية انتقـال الوفود الى الامـــم المتحدة لاجراء جولة جديدة مع المجادثات حول امكان عقد مؤتمر جنيف ، انفجـر قتال جديد في جنوب لبنان ، ساهمت فيه اسرائيل هذه المرة بشكل مباشر وعلنـي وصل الى حد التمركز العسكري داخـل الاراضي اللبنانية ، وكان من الواضح ان هدف هذا التدخل هو الضغط علـى جو المفاوضات ، اضافة الى الاهداف المحلية له · وقد انفجرت الاشتباكات منذ يـــوم ١٤–٩ ، وحاولت اثناءهـــا القـــوات الانعزالية الخروج من المواقع المتمركزة فيها ، لاحتلال محاور الطرق والتـــلال الاستراتيجية التي تشرف على مواقـــع تمركز المقاومة الفلسطينية ، وساندتها في هذه الهجمات المدفعية الاسرائيلية فـــي البداية ، ثم الاليات والمشاة فيما بعد ·

وكان شمعون قد اعلن بعد بدء الاشتباكات بيوم واحد (١٥ـ٩) ان الجواب النهائي حول الضمانة الاميركية لعدم تدخل اسرائيل في الجنوب ، لم يأت بعد . وقد ادلى شمعون بهذه التصريحات بعد اجتماعين بينه وبين الرئيس الياس سركيس وعشية استعداده للسفر الى دمشق لاجراء مباحثات مع المسؤولين السوريين . وقد اجرت السلطات اللبنانية اثناء ذلك اتصالات عديدة مع الولايات المتحدة بواسطة السفير الاميركي ريتشارد باركر والقائم بالاعمال الاميركي جورج لاين .

وبحصيلة المحادثات السورية مع شمعون اعلن بعد جولة المباحثات الثالثة مع عبد الحليم خدام وزير الخارجية السوري (١٨ـ٩) انه « من الضروري وضع حد للموقف غير العادي الذي نشأ في الجنوب .. وان قوات الامن الداخلي تستطيع بمفردها اقرار السلام ، وتوقع انسحاب الفلسطينيين الى مسافة ١٥ كلم ودخول قوات لبنانية نظامية » . وفي اليوم التالي (١٩ـ٩) اعربت وزارة الخارجية الاميركية عن « قلقها من تصاعد العنف في لبنان » وقال ناطق رسمي ان الولايات المتحدة « تواصل جهودها من أجل وقف هذا التدهور .. ونحن على اتصال دائم بالحكومات المعنية لحملها على الاعتدال » . ويبدو ان هذه الاتصالات لم تثمر اذ قامت اسرائيل في اليوم نفسه بقصف مدفعي كثيف على منطقة الخيام وحاولت فجرا القيام بهجوم مدرع، واستمر القصف الاسرائيلي كثيفا وعنيفا لمدة يومين وفي ٢٠ـ٩ صدر بيان اميركي جديد يدعو جميع الاطراف لضبط النفس ازاء « الموقف المعقد جدا » في الجنوب ، كما وجه كورت فالدهايم الامين العام للامم المتحدة نداء الى جميع الاطراف لوقف القتال .

وفي الوقت الذي قامت فيه اسرائيل بالتمركز في سبع نقاط داخل الاراضي اللبنانية صدر بيان رسمي مصري يعلن ان « التدخل العسكري الاسرائيلي في جنوب لبنان يهدد بنسف جهود التسوية » (٢٠ـ٩) ، ثم صدر بيان سعودي (٢١ ـ ٩) يعلن ان السعودية « تتابع بقلق بالغ واهتمام كبير مجرى الاحداث في جنوب لبنان ، وتستنكر بشدة الهجوم الاسرائيلي المركز على مناطق الجنوب اللبناني » .

وبالمقابل اعلن سايروس فانس تأييده لعقد اتفاق فوري لوقف اطلاق النار في الجنوب ، وقال ان الموقف في جنوب لبنان لا يجب ان يتدهور ، وان يصبح بدون ضابط ، او ان يضر بالمفاوضات الجارية للسعي وراء تسوية للنزاع العربي ـ الاسرائيلي .

وقد حاولت اسرائيل بردها على الموقف الاميركي ان تجعل من نفسها طرفا معترفا به في تطورات الازمة اللبنانية الداخلية فأعلن مناحم بيغن (١٩ ـ ٩) ان « اسرائيل على استعداد للعمل من أجل اقرار وقف اطلاق النار الشامل » ، وقالت الصحف الاسرائيلية (معاريف) ان « الحكومة تقدمت باقتراح الى واشنطن باعلان وقف اطلاق النار في جميع انحاء لبنان » .

وجنبا الى جنب مع هذا الموقف الاسرائيلي برز تحرك لبناني قاده كاظم الخليل نائب رئيس حزب الوطنيين الاحرار دعا فيه الى « جعل المنطقة جنوب الليطاني منزوعة السلاح ومحايدة باشراف قوة دولية » (٢٢ـ٩) ، ولكن الخارجية الاميركية عادت واعلنت (٢٣ ـ ٩) ان « نداءات الولايات المتحدة حول الوضع في الجنوب بدأت تجد اذانا صاغية من جانب حكومات المنطقة » واعلن الناطق ان

بلاده تؤيد اتفاق شتورا · وفيما كانت الحكومة اللبنانية تعقد خلال ذلك كله اجتماعات عديدة مكثفة مع المسؤولين اللبنانيين وقادة المقاومة الفلسطينية وقيادة قوات الردع اعلن مساء ٢٥ـ٩ ان القتال توقف في جنوب لبنان بناء على اتفاق وضعه الاميركيون مع الاسرائيليين وتم ابلاغه للحكومة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية ، وبعد الاعلان عن هذا الاتفاق انسحبت القوات الاسرائيلية من مواقعها داخل الاراضي اللبنانية ، واعترف الناطق الاميركي لاول مرة (٢٧ـ٩) ان القوات الاسرائيلية كانت متواجدة بالفعل داخل لبنان · وكشف شمعون النقاب بعد زيارة للقصر الجمهوري (٢٨ ـ ٩) انه لا وجود لاتفاق خطي حول الجنوب ، وان لجنة الهدنة الدولية هي التي ستتولى مراقبة وقف اطلاق النار ، وان الخطوة التالية ستكون دخول الجيش اللبناني وانسحاب القوات الفلسطينية ·

وبتوقف هذه الجولة من القتال ، وبانسحاب القوات الاسرائيلية ، بدأ البحث من جديد بين السلطة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية حول تنفيذ المرحلة الثالثة من اتفاق شتورا في الجنوب ، وفي اجتماع عقد يوم ٥ـ١٠ بين الدكتور سليم الحص وقادة المقاومة وقائد قوات الردع تم البحث بتنسيق المواقف الاخيرة تمهيدا للبدء بالتنفيذ · وفي ١١ـ١٠ اعلن عاصم قانصوه ان الجيش اللبناني سيتوجه الى الجنوب يوم ١٧ـ١٠ ، فيما اعلن الرئيس الحص « اننا على أبواب تنفيذ المرحلة الاخيرة من اتفاق شتورا » · وقد كان الاتفاق ان يكون هناك حل متوازن في الجنوب يقضي بأن تكون هناك انسحابات متبادلة بين قوات المقاومة والحركة الوطنية من جهة والقوات الانعزالية من جهة اخرى · ولكن القوات الانعزالية اصرت في اللحظة الأخيرة ان تنسحب القوات الفلسطينية فقط من مواقعها وان يدخل الجيش اللبناني الى تلك المناطق ، كما اصرت على ان يكون هذا التنفيذ شاملا لقطاعات الجنوب الثلاث من صور الى العرقوب دفعة واحدة · وبتجميد موعد التنفيذ المقرر ، بدأت جولة جديدة من المباحثات وبقيت خاتمة اتفاق شتورا مفتوحة امام كل الاحتمالات ·

بلال الحسن

المناطق المحتلة

« البديل » الهزيل

لا زالت وسائل الاعلام الاسرائيلية تروج لمجموعة هزيلة ظهرت مؤخرا في الضفة الغربية ، واضعة نصب اعينها هدفا واحدا : معاداة م·ت·ف· على امل ان تحل محلها في تمثيل الشعب الفلسطيني والنطق باسمه ·

والحقيقة ان هذه المجموعة لا تشكل بحد ذاتها اي خطورة تذكر بالنسبة لنضال سكان المناطق العربية المحتلة ضد الاحتلال تحت لواء المقاومة الفلسطينية ، فهي عبارة عن ظاهرة مألوفة تحدث في اية منطقة تقع تحت الاحتلال الاجنبي ، ويمكن وضع حد

لها واسكاتها في اية لحظة ٠

سبق لنا وتحدثنا في العدد السابق عن شخصية مغمورة تحمل اسم حسين الشيوخي ، دفع بها اصحاب فكرة «البديل» للتبشير بولادة مجموعة مناوئة لمنظمة التحرير وتسعى للتحدث باسم الشعب الفلسطيني وتمثيله في المؤتمرات الدولية وتقرير مصيره ٠ وذكرنا ان « المبشر » لاقى استهجانا عاما في المناطق المحتلة ، ولم يتمكن من الاستمرار في نشاطه لاسباب عدة من بينها تخلي الواقفين وراءه عنه وحتى تبرؤهم منه ، تحت ضغط الاستنكار الشعبي ، كقولهم « لم اجتمع معه ، ولم انسق معه ٠٠٠ » واصابة الشيوخي بذبحة قلبية نتيجة الارهاق الذي عاناه خلال مغامرته ، والذي حدا به الى التراجع عن مواقفه والاعلان بأن « م٠ت٠ف٠ هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني » ٠

عند هذا الحد وجد الذين يطلق عليهم اسم « مجموعة البديل » انفسهم امام خيارين : الاستمرار فيما بدأه الشيوخي ، او التراجع نهائيا او لفترة عن مخططاتهم٠ ويبدو انهم فضلوا الخيار الاول ، حيث اخذ هؤلاء « يبشرون » بدعوتهم من خلال التلفزيون الاسرائيلي ووسائل الاعلام الاسرائيلية !

كل من يتابع الصحافة الاسرائيلية يجد امامه خمسة رموز تعتبر نفسها صدارة « البديل » وهذه الرموز هي مصطفى دودين في منطقة الخليل ، وزير سابق في الحكومة الاردنية ، والمحامي حسين الشيوخي ، ومحمد ناصرية وهو صحفي من اريحا ومن كتاب صحيفة الانباء الاسرائيلية ، وبرهان الجعبري ابن الشيخ محمد علي الجعبري رئيس بلدية الخليل سابقا المعروف بولائه للاحتلال الاسرائيلي والنظام الاردني معا ، والمحامي عزيز شحاده من رام الله ٠ وفيما يتعلق بنشاط الشخصين الاخيرين ، فقد خالفا في اوائل شهر اب الماضي اجماع الشخصيات الوطنية ورؤساء البلديات بمقاطعة الحفل الذي اقامه وزير خارجية اسرائيل موشيه ديان لوزير الخارجية الاميركي سايروس فانس ، ولبيا الدعوة ، واجتمعا بوزير الخارجية الاميركي ، وقدم له المحامي عزيز شحاده مذكرة لحل القضية الفلسطينية طالب فيها باقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة تكون مرتبطة بعلاقات خاصة مع الاردن ٠ وخلت مذكرة شحاده التي تحتوي على ستمائة كلمة من التطرق الى م٠ت٠ف٠ ومن الجدير بالذكر ان المحامي عزيز شحاده سارع بعد ان تسربت ونشرت مذكرته في الصحف الى اصدار بيان يعلن ويؤكد فيه ان « م٠ت٠ف٠ هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني » ٠ اما برهان الجعبري الذي رافق عزيز شحاده الى حفل استقبال فانس والاجتماع به ، فانه درج بعد ذلك على شجب وحتى شتم م٠ت٠ف في اية مناسبة٠ اما الصحفي محمد ناصريه من اريحا احد كتاب صحيفة الانباء الناطقة باسم سلطات الاحتلال والذي وصفته المصادر الاسرائيلية بأنه « ينتمي الى مجموعة تنظمت مؤخرا في الضفة الغربية وتعمل لتغيير القيادة الفلسطينية » فقد هاجم بشدة وعلى طريقة برهان الجعبري الفجة ، م٠ت٠ف ، منتقدا « الاعمال الارهابية » اي اسلوب الكفاح المسلح الذي تعتنقه المقاومة الفلسطينية ، ومتسائلا «هل انتم مسلمون ؟ اذا كان الامر كذلك ، فان الاسلام بريء من اعمالكم ! »

اما الشخصية الرئيسية في مجموعة ما يسمى بالبديل فهي مصطفى دودين الذي شغل في السابق مناصب وزارية في الاردن واصبح بعد ان « بشر » الشيوخي بولادة المجموعة لا يدع فرصة تفوته لاسماع صوته ضد م٠ت٠ف من خلال وسائل الاعلام الناطقة باسم سلطات الاحتلال ٠ فقد اعلن في

مقابلة بثها التلفزيون الاسرائيلي (انظر هآرتس ٩ـ٩ـ٧٧) ان مجموعته تجري اتصالات لتشكيل بعثة بغرض زيارة دول المواجهة ، وذلك بهدف اقناع هذه الدول بـ «ضرورة اعادة الضفة الغربية للاردن» · ولم يفته في هذه المناسبة شجب الاساليب الارهابية التي تنتهجها م·ت·ف والادعاء بأنها لا تمثل سكان المناطق المحتلة ·

ان جل ما تسعى اليه المجموعة في الوقت الحاضر ، عقد مؤتمر يحمل اسم فلسطين ، شبيه بمؤتمر اريحا الذي تزعمه الجعبري في عام ١٩٤٨ ، وايد الحاق الضفة الغربية بالاردن ، وقد بدأ هؤلاء يعملون وينشطون في هذا الاتجاه ، فقد افادت وكالة « عتيم » الاسرائيلية (انظر دافار ٨ـ٩ـ٧٧) ان « شخصيات مرموقة في الضفة الغربية تنظمت هذا الاسبوع بغرض اقامة مؤتمر ، سيعقد على ما يظهر في رام الله ، لاسماع صوتها حول القضية الفلسطينية » وافادت ان هذه الشخصيات تفضل في الوقت الحاضر ان تبقى مجهولة الاسم الا ان الوكالة الاسرائيلية ذكرت بأن هذه العناصر تتشكل من اعضاء في البرلمان الاردني سابقا ومن رؤساء بلديات سابقين ورجال اعمال معروفين · واعربت عن اعتقادها بأنهم « سينظمون مؤتمرا شبيها بمؤتمر اريحا الذي انعقد في ١٩٤٨ والذي قرر فيه وجهاء الضفة ضمها للاردن » ·

من الذي يقف وراء هذه المجموعة ؟

يمكن لاي شخص معرفة هوية الاطراف الواقفة وراء هذه المجموعة من خلال المواقف التي تطرحها ، على الرغم من زعم عناصرها بأن لا جهة تقف وراءها · ولا يسعنا هنا الا الاستشهاد بما يقوله المعلقون والمسؤولون الاسرائيليون · فقد ذكر الكاتب الاسرائيلي ي· بن حاييم (دافار ١٨ـ٩ـ٧٧) ان هذه المجموعة «تحظى بتشجيع كل من الاردن واسرائيل» وان « رجال الحكم العسكري ورجال الامن الذين يمثلون حكومة اسرائيل على اتصال دائم برجال المبادرة الجديدة في الضفة الغربية ، ولا يكتفون بتشجيعهم بل يمدون لهم يد المعونة » وكذلك الكاتب الاسرائيلي تسفى البيج (يديعوت احرونوت ١ـ٩ـ٧٧) الذي ذكر هو الاخر ان « الذين يمسكون بالخيوط في عمان قد عقدوا العزم على استخدام سياسيين من الدرجة الثانية في هذه المرحلة ، سواء لفحص ردود الفعل او لتمهيد الارض لموجات من النشاط في المستقبل · ويوجد في الضفة الغربية وقطاع غزة مؤيدون للعلاقة مع النظام الاردني ، وهؤلاء ارفع شأنا من المحامي الشيوخي ، ولكن يبدو ان ساعة شروعهم بالعمل لم تحن بعد » ونصح اسرائيل بأن لا تقف مكتوفة الايدي امام تطور «البديل» ولكن « من المجدي ان تكون هذه الايدي متواضعة » · ولم يخف عيزر فايتسمان وزير الدفاع الاسرائيلي سعادته من ولادة « البديل » ، فقد علق على ذلك بقوله (يديعوت احرونوت ـ٥ـ٩ـ٧٧) انه «ليسعد اسرائيل ان تشجع اية جهة فلسطينية تعرب عن معارضتها لطريقة واساليب منظمات التخريب » · ولكن ما يسعد اسرائيل واطراف عربية ، لا يسعد بطبيعة الحال سكان المناطق المحتلة · فقد تصدى سكان منطقة رام الله ، عندما بلغ الى اسماعهم اعتزام مجموعة « البديل الهزيل » عقد مؤتمر في مدينتهم ، الى ما تهدف اليه هذه الفئة من تكرار ما حدث في اريحا عقب النكبة في رام الله عقب النكسة ! بقالب جديد ، وقعوا على عريضة بهذا المعنى تنص (انظر الاتحاد ٢ـ٩ـ٧٧) :

« نحن الموقعين ادناه ممثلي المؤسسات الجماهيرية في مدينتي رام الله والبيرة واللواء ، نعرب عن استنكارنا الشديد لما يقوم به البعض ممن عرفوا بعدائهم

لقضايا شعبهم ، من محاولات مشبوهة لتزييف ارادة شعبنا الفلسطيني في الارض المحتلة ، والتفافه حول م٠ت٠ف ومحاولة خلق كيان عميل وهزيل ليكون بديلا عنها ، والادعاء بأن الشعب الفلسطيني يرضى بغير م٠ت٠ف بديلا ٠

« اننا نعلن ان ما يقومون به ان هو الا حلقة من التآمر الامبريالي الصهيوني الرجعي على شعبنا وكافة شعوب المنطقة والعالم ، ونعلن مجددا تأييدنا الواضح والمطلق لمنظمة التحرير الفلسطينية بوصفها الممثل الشرعي والوحيد لشعبنا الفلسطيني وان ربط الدولة الفلسطينية المستقلة بأية جهة كانت ، هو من صلاحيات هذه الدولة نفسها بعد قيامها ، ولنا كامل الثقة بأن شعبنا قادر على فرض ارادته وتفويت الفرصة على كل العابثين بمصيره ومستقبله ووحدته الوطنية » ٠

ووقع على هذه العريضة عدد من الشخصيات الوطنية في منطقة رام الله ، من بينهم ، كريم خلف رئيس بلدية رام الله امين شحاده رئيس بلدية بيرزيت ، احمد لطفي رئيس بلدية بيتونيا ، ابراهيم سليمان رئيس بلدية البيرة ٠ كما وقع عليها عدد باسم المؤسسات والهيئات في هذه المدن ٠

النشاط الاستيطاني :

اتسم النشاط الاستيطاني في المناطق العربية المحتلة بتكتم السلطات الإسرائيلية حوله ، حيث درجت في معظم الاحيان على عدم الاعلان عن الاحتفال بقيام هذه المستوطنة او تلك ، كما كان الامر متبعا في عهد التجمع العمالي ، مع الاكثار من الحديث حول المشاريع الاستيطانية المستقبلية ، وسط اجواء الخلافات التي نشبت مؤخرا بين جوش ايمونيم والسلطات الحكومية حول الاستيطان فقد اخذ اعضاء الحركة يطالبون حكومة الليكود بتنفيذ وعودها السابقة ، والانسجام مع مواقفها التي كانت تطرحها من خلال وجودها في المعارضة ، ودعوا الى تحقيق خطتهم الرامية الى اقامة ١٢ مستوطنة في الضفة الغربية قبل نهاية هذا العام ٠ وكان الاجتماع الذي عقده جوش ايمونيم في الرابع من شهر ايلول الماضي في الخان الاحمر وحضره رئيس الحكومة مناحيم بيجن مؤشرا واضحا لما وصلت اليه الخلافات في وجهات النظر بين جوش ايمونيم والحكومة ورأى فيه بعض المعلقين الاسرائيليين احد الاسباب التي يمكن ان تؤدي الى استقالة حكومة الليكود ٠ فقد هدد رئيس جوش ايمونيم الحكومة بالتخلي عن الصبر وضبط النفس، والبدء باقامة مستوطنات رغم انف الحكومة على سمع من بيجن الذي لم يستسغ هذا التهديد ، وغادر الاحتفال في جو متوتر دون ان يدلي بكلمة ٠

وتحت ضغوطات جوش ايمونيم ، وضغوطات الحسابات الدولية ، اقدمت السلطات الاسرائيلية التي لا تختلف في جوهرها عن جوش ايمونيم، على اقامة عدد من المستوطنات دون الاعلان عنها ٠ فقد ذكر وزير الزراعة ارئيل شارون (معاريف ٩ـ ٩ـ٧٧) انه « لم تذع على الملأ جميع الاعمال الاستيطانية التي تمت خلال الشهر الماضي في يهودا والسامرة ٠ لقد اقيمت مستوطنات هناك لم يذع عنها شيء » ٠

وردا على سؤال عما اذا كان بوسعه اعطاء مزيد من التفاصيل قال « لا ٠ لن افعل ٠ ان رجال جوش ايمونيم يعرفون ذلك تماما » ٠ وحول عدد المستوطنات التي ستوافق الحكومة على اقامتها خلال هذا العام ، اجاب « الكثير الكثير ٠ وبايقاع اكبر واسرع مما كان معهودا في السابق»٠

الا ان ما رفض الافصاح عنه شارون

يمكن استشفافه من التقارير الصحفية في اسرائيل ، ويمكن للمرء من خلال تجميعها وتمحيصها الوقوف على عدد من هـــذه المستوطنات ٠

١ ــ **كفار روث** : اقيمت في اوائل شهر اوكتوبر ، في منطقة اللطرون في المناطق المحتلة منذ ١٩٦٧ ٠ ومن الجدير بالذكـر ان بعض المصادر الاسرائيلية ذكر بأنهـا اقيمت داخل الخط الاخضر ــ اي داخـــل اسرائيل ــ والبعض الاخر ذكر بأنها اقيمت فوق الخط الاخضر تماما ٠ وافادت اخـر المعلومات في الصحف الاسرائيلية بأنهـا اقيمت خارج « الخط الاخضر » ٠

وبذلك تصبح فـــي منطقـــة اللطرون مستوطنتان اســـرائيليتان ، حيث كانت السلطات الاستيطانية ، قد اقامت قبل عدة سنوات مستوطنة تحمل اسم « موديعين » ٠ ومن المقرر اقامة مستوطنتين اخريين في المستقبل القريب ليصبح عدد المستوطنـات في منطقة اللطرون اربع ، تقع على طرفي الطريق الجديدة السريعة التي يجـــري اعدادها بين القدس وتل ابيب ٠

٢ ــ **مجدال عوز** : اقيمت خلال شهر اب في منطقة جوش عتسيون ٠

٣ ــ **بئيريم** : اقيمت في شهر اب على انقاض قرية مسحة العربة شرقي كفر قاسم٠

٤ ــ **ريمونيم** : في منطقة كوخاف هشاحر (مستوطنة) الى الشرق من رام الله ٠

٥ ــ **يتير** : بالقرب من قرية عيتر العربية في منطقة الظاهرية في جبال الخليل ٠

٦ ــ **مي عامي « ب »** : تقع بالقرب من قرية يعبد العربية ، ويطلق عليها ايضـا اسم ناحال ريحان ، ومن المقرر ان تصبح مستوطنة مدنية بعد نصف عام ٠

المشاريع الاستيطانية المستقبلية : الـى جانب خلق الوقائع الجديدة وفرضها علـى الاراضي العربية المحتلة ، تكاثر الحديث ونشط حول الخرائط الاستيطانية المستقبلية سواء منها قصيرة الاجل او بعيدة الاجل ٠ ومن الملاحظ في هذه الخرائط ان لا خلاف في التصور العام لاصحابها المنتمين الى الليكود واولئك المنتمين الى حزب العمل ٠ كما وانها الى جانب ما تستهدفه من ترسيخ للاحتلال الاسرائيلي ، فانها تسعى الـى جعل التجمعات السكانية العربية بمثابـــة جيوب محاطة باحكام بشبكة من المستوطنات الاسرائيلية ، تمهيدا لابتلاع هذه الجيوب في المدى البعيد ٠ وهذه المشاريع هي :

١ ــ مشروع الـ ٤ سنوات (١٩٧٧ ــ ١٩٨١) : يعتمد على اقامة ٢٧ مستوطنة جديدة ، ١٧ منها ستقام او سيشرع فـــي العمل لاقامتها خلال هذا العام وتتوزع على جميع المناطق المحتلة بحيث يقام في هضبة الجولان ٦ مستوطنات والضفة الغربية ٩ مستوطنات وقطاع غـــزة وشمال سيناء وخليج العقبة ١٠ مستوطنات ٠ وهـــذا المشروع هو جزء من مشروع الى ١٥ عاما٠

٢ ــ مشروع الـ ١٥ عاما (١٩٧٧ ــ ١٩٩٢) : يعتمد على اقامة ١٨٦ مستوطنة من بينها ١٣٧ داخل اسرائيل و٣٩ داخل المناطق المحتلة ٠ وتتوزع على المناطق على الشكل التالي : ٢٠ مستوطنة في مشارف رفح وقطاع غزة و١٠ مستوطنات في هضبة الجولان ، ١٥ مستوطنة في الضفة الغربية و٤ مستوطنات على شاطىء خليج العقبة ٠

٣ــ مشروع رعنان فايتس : اماط رعنان فايتس اللثام عن مشروع طويل الاجـل يشمل اسرائيل والمناطق المحتلة ، ويعتمد على تهويد الجليل والنقب بالاضافة الـى استيطان المناطق المحتلة ٠ ويقسم الى ثلاثة اجزاء ٠

١ ــ المشروع الشمالي ، ويغطي منطقة الجليل ، وستقام بموجبه ٥٠ مستوطنـــة

قروية تضم ١٢ الف عائلة اي قرابة ٥٥ الف نسمة ، ستعمل في مجال الانتاج الزراعي المعد للتصدير وفي الخدمات ٠

ب ـ المشروع الجنوبي ، ويغطي منطقة النقب الغربي الجنوبي وشمال سيناء واجزاء من قطاع غزة ، وستقام بموجبه حوالي ١٢٠ مستوطنة تضم عشرين الف عائلة (حوالي ١٥٠ الف نسمة) ٠ ومن شأن هذا المشروع عزل قطاع غزة عن الاراضي المصرية ، وجعله جيبا عربيا وسط سوار من الاستيطان الاسرائيلي ٠

ج ـ الاستيطان على امتداد الخط الواقع بين جبل الشيخ شمالا وحتى شرم الشيخ جنوبا ، حيث تقام ٥٣ مستوطنة ٠

وقال رعنان فايتس ، وهو عضو في حزب العمل وفي اللجنة المسؤولة عن الاستيطان ـ ان « جميع الخطط السابقة واللاحقة كذلك هي انعكاس لوجهات النظر السياسية تجاه شكل دولة اسرائيل وحدودها ٠ وفي خطتي هذه لا يوجد خط اخضر ، وهي تضم اجزاء من يهودا والسامرة والجولان وسيناء ، ولكن ليس كلها ٠ انني اعارض اقامة مستوطنات يهودية داخل مناطق مكتظة بالسكان العرب ٠٠٠ انني اقف الى جانب الاستيطان المترابط على امتداد الخط الشرقي من الجولان وحتى ايلات ٠ ويكون هذا الخط جزءا لا يتجزأ من دولة اسرائيل اليهودية٠ واذا ما اصبح هذا الخط وفق برنامجنا يهوديا ، فانه سيعزز امن اسرائيل من الشرق ، ويضمن بقاء السكان في يهودا والسامرة بدون سلاح ، ولا يتعرض امن وسلامة اسرائيل للخطر ٠٠٠ »

مشروع فوخمان : تبنى مؤخرا شارون في تصريحاته القائلة باقامة «عمود فقري» من المستوطنات على امتداد نهر الاردن تتسع خلال فترة العشرين سنة القادمة قرابة مليوني يهودي ، تبنى مشروعا كان قد قدمه البروفيسور ابراهام فوخمان من معهد الهندسة التطبيقية في حيفا ، ويعرف مشروعه باسم « العمود الفقري المزدوج » اي ان اسرائيل وفق مشروعه خلال العشرين سنة القادمة ، ستكون بمثابة جسر يتشكل من « عمودين فقريين » الاول وهو القائم الان على امتداد السهل الساحلي والاخر الذي سيقام على امتداد نهر الاردن ووسط هذين « العمودين » تجد الضفة الغربية نفسها كجيب عربي محاط بالمستوطنات الاسرائيلية التي ستضم وفق تقديراته ما بين ٧ ـ ٩ ملايين مستوطن يهودي ٠

ومن الجدير بالذكر ان صاحب هذا المشروع البروفيسور فوخمان الذي ابرزته الصحافة الاسرائيلية كرائد في الفكر الاستيطاني ، اضطرت مؤخرا الى ابرازه بشكل اخر ، فقد تحدثت عن فضائحه المالية ومثوله امام المحاكم الاسرائيلية ! ـ راجع حول الاستيطان ـ شؤون فلسطينية عدد ٧١ ـ

شركة هيمنوتا الاسرائيلية تحتكر الاراضي

اصدرت سلطات الاحتلال عند اواسط شهر ايلول الماضي امرا خاصا يحظر بمقتضاه على التجار والافراد اليهود استملاك اراضي في الضفة الغربية ٠ واصبحت شركة هيمنوتا ـ وهي شركة فرعية تابعة للكيرن كييمت ـ هي الهيئة الاسرائيلية الوحيدة التي يحق لها وفق هذا الامر استملاك الاراضي في المناطق المحتلة ، مباشرة من اصحابها العرب ٠

ومن الجدير بالذكر ان الهيئات الرسمية الاسرائيلية لم تقم حتى صدور القرار

الاخير بشراء الاراضي في المناطق المحتلة واستملاكها بشكل مباشر من اصحابها العرب ، بل عمدت الى توسيط تجار يهود في صفقات بيع الاراضي ، ومن ثم قام هؤلاء ببيعها ثانية الى شركة هيمنوتا الاسرائيلية ، التي تمكنت بواسطة هذه الطريقة خلال الاعوام العشرة الماضية من استملاك قرابة ٧٠ الف دونم في الضفة الغربية، واقيم على البعض منها مستوطنات اسرائيلية ومشاريع اخرى ٠

ويعود السبب في صدور هذا الامر الذي وقف وراءه وزير الزراعة ارئيل شارون وادارة اراضي اسرائيل ، الى الرغبة في تسهيل وتسريع استملاك مزيد من الاراضي العربية ، خاصة بعد ان تكاثرت صفقات البيع المشبوهة المطروحة امام المحاكم ، واصبح هم التجار اليهود والوسطاء الموكلة اليهم مهمة « انقاذ الارض » كسب القضايا في المحاكم ، وكسب اكبر قدر من المال في تلك الصفقات ، الامر الذي اعتبرته سلطات الاحتلال منافيا لمبدأ « انقاذ الارض » التي نمته وطورته الحركة الصهيونية منذ بدء غزوها للاراضي الفلسطينية ٠

وقد كشفت المصادر الاسرائيلية (انظر معاريف ١٩-٩-٧٧) عن اعمال غش وتهديد وعنف في معظم الاماكن التي تتم فيها صفقة بيع للاراضي ، يقوم باعمال الغش عرب ويهود على حد سواء ، وبالتهديد سماسرة يهود ، وباعمال العنف وطنيون فلسطينيون حيث قاموا اكثر من مرة باطلاق النار على اشخاص عرب وقفوا وراء عملية بيع ارض ٠ وكان من نتيجة ذلك ان ظهرت جملة من القضايا طرحت امام المحاكم الاسرائيلية ناجمة عن صفقات الاراضي تدور كلها حول التزوير ، كأن يقوم شخص عربي ببيع قطعة ارض ليست له من خلال تزوير وثائق واختام ، ويحدث في بعض الاحيان ان تباع قطعة الارض مرتين ، واحيانا اخرى تباع قطعة ارض غير موجودة البتة ، ويساعد اعمال التزوير تلك عدم تسجيل كثير من الاراضي في الطابو ، وحول التهديد ، حيث يقوم بعض التجار الوسطاء اليهود بارغام صاحب الارض العربي على بيع قطعة الارض بثمن زهيد ٠

وكان من نتيجة كثرة الشكاوى ، وخوفا من تعثر عملية « انقاذ الارض » اي نهب الاراضي العربية ، نتيجة طمع التجار اليهود ، وخوف الباعة العرب من كشف اسمائهم في المحاكم خاصة كونهم يواجهون خطر الموت في حال افتضاح امرهم ، ان اقدمت السلطات الاسرائيلية على اقتصار شراء الاراضي واستملاكها على شركة هيمنوتا التابعة للكيرن كييمت ، لتقوم بالاتصال بضعاف النفوس من اصحاب الاراضي العرب بغرض استكمال مهمة « انقاذ الارض » ٠

الدعوة لاقامة جامعة فلسطينية في القدس

للمرة الاولى منذ عشر سنوات ونيف على الاحتلال ، تعززت فكرة اقامة جامعة فلسطينية عربية في الضفة الغربيةواصبحت مطلبا وطنيا ٠ فقد حظيت بموافقة ودعم رؤساء البلديات ورجال التعليم والهيئات الوطنية في المناطق المحتلة ٠ حيث عقد هؤلاء اجتماعا في الثامن عشر من ايلول الماضي في بيت حنينا في القدس ، ومن بينالشخصيات التي حضرته والتي وصفتها وسائل الاعلام الاسرائيلية بأنها « معروفة بتعاطفها مع م٠ت٠ف » رئيس بلدية نابلس بسام الشكعة ورئيس بلدية رام الله كريم خلف ورئيس بلدية الخليل فهد قواسمه والدكتور عبد الشافي من غزة ٠ وتدارس المجتمعون فكرة اقامة الجامعة وخرجوا بقرارات اهمها (١) دعم المؤسسات العلمية فوق الثانوية القائمة (٢) تشكيل لجنة مقلصة لدراسة اوضاع التعليم في المناطق

المحتلة بشكل معمق وجذري ودراسة اقامة الجامعة الفلسطينية (٣) الامتناع عن تلقي مساعدات من اية جهة اسرائيلية سواء بالنسبة لاقامة الجامعة العربية في القدس او بالنسبة لدعم المعاهد القائمة في الضفة الغربية ٠

ومن الجدير بالذكر ان فكرة اقامة جامعة فلسطينية في المناطق المحتلة هي وليدة الواقع الصعب الذي يواجهه سنويا خريجو المدارس الثانوية حيث يجد هؤلاء انفسهم امام امرين : اما الالتحاق بالمعاهد الجامعية الاسرائيلية ، وهنا يصطدمون بعاملين ، الاول عامل اللغة والثاني العامل القومي ، او الالتحاق بجامعات الدول العربية ، وهنا يصطدمون بالمقاعد المحدودة العدد المخصصة للطلبة من المناطق المحتلة ومع مرور الزمن على الاحتلال اخذت مشكلة الخريجين الثانويين تتفاقم بشكل اشد ، ومع ان حل هذه القضية يكمن في اقامة جامعة عربية في الضفة الغربية ، الا ان هذا الحل اصطدم في المواقف المتباينة للاطراف الثلاث ذات العلاقة بالموضوع : اسرائيل والاردن والمقاومة الفلسطينية ٠ ففي عام ١٩٧٢ طرحت فكرة اقامة الجامعة، ودار حديث كبير حولها ٠ وتنازع الموقف الاسرائيلي وجهتا نظر ، الاولى ترفض الفكرة ويتزعمها وزير الدفاع حينذاك موشيه ديان باعتبار ان الجامعة هي بؤرة للنضال الوطني ، والثانية تؤيد الفكرة ويتزعمها يجال الون وزير الخارجية في ذلك الوقت ، باعتبار انها تضفي نوعا من الليبرالية على الاحتلال الاسرائيلي ٠ اما الطرف الاردني فقد عارض في ذلك الوقت اقامة جامعة في الضفة الغربية تمشيا مع سياسته في اقامة المؤسسات الرئيسية في الضفة الشرقية ٠ اما المقاومة الفلسطينية فقد تنازعتها هي الاخرى وجهتا نظر ، الاولى تؤيد اقامة الجامعة والاخرى تعارض !! وفيما يتعلق بالزعامة التقليدية في الضفة فقد كانت منقسمة على نفسها ، قسم يؤيد الاردن والاخر يؤيد اسرائيل وبالتالي فان موقفها كان يدور ضمن اطار الموقفين الاسرائيلي والاردني ٠

وبين المعارضة والتأييد للفكرة ، ازداد تفاقم مشكلة الخريجين الثانويين ، الا انها وجدت حلولا تخديرية على شكل اقامة مؤسسات ومعاهد علمية فوق ثانوية ارتقى بعضها الى مرتبة الجامعة ٠ ففي مدينة الخليل اقيم معهد ديني ، وفي بيت لحم اقيم معهد للدراسات العليا قبل حوالي خمس سنوات يضم قرابة ١٢٠٠ طالب ، وفي بير زيت تطورت الكلية هناك واصبحت جامعة بوسعها استيعاب قرابة الفي طالب ويتشكل طاقم التدريب الان من ٨٤ استاذا ، ويدرس بها موضوعات اللغة العربية واللغة الانجليزية ، وعلم الاجتماع وادارة الاعمال والاقتصاد وعلم الاثار وتاريخ الشرق الاوسط والفيزياء والكيمياء والرياضيات وعلم الاحياء والكيمياء الحيوية ٠ وفي نابلس تسعى كلية النجاح لتطوير نفسها ولتصبح معهدا جامعا ٠

الا ان هذه المعاهد شبه الجامعية ليس بوسعها حل قضية الخريجين الثانويين الذين يبلغ عددهم هذا العام قرابة ١٦ الف خريج ، وبالتالي بقيت القضية بدون حل ٠٠

ومن الجدير بالذكر ان الموقف الفلسطيني رسى في اخر المطاف على وجهة نظر واحدة موحدة تؤيد فكرة اقامة الجامعة فوق الاراضي الفلسطينية ، فقد اصدر المؤتمر الوطني الفلسطيني في دورته الاخيرة في القاهرة توصية بالعمل لاقامة جامعة فلسطينية في مدينة القدس ورصد الاموال اللازمة لهذا المشروع ، وقد تم بالفعل رصد مبلغ ١٢ مليون دولار خصصت لانجاز المرحلة

الاولى من اقامة الجامعة · وبناء على توصية المؤتمر الوطني الفلسطيني عقد الاجتماع التأسيسي في بيت حنينا في القدس ·

وفيما يتعلق بالموقف الاسرائيلي ، فقد التزم المسؤولون الاسرائيليون الصمت حتى الان تجاه الموضوع ، ولكن اذا ما اخذنا بعين الاعتبار وجهة النظر التي تزعمها ديان في السابق وسياسة الليكود المتشددة تجاه العرب ، فانه يمكن القول بان الموقف الاسرائيلي اقرب الى رفض الفكرة منه الى قبولها ·

عبد الحفيظ محارب

الياس خوري

حين تكتمل الدائرة

١ ـ

دائما تحدث الاشياء على هامش الاشياء · المؤتمر الحادي عشر للادباء العرب ، عقد على هامش المؤتمر · ولم تكن الديمقراطية غائبة · لكنها كانت تحاول ان تتسلق من الهامش ، فتصطدم في النهاية بواقع لا يمكن حذفه بسهولة · الطائرات القادمة الى طرابلس تطرح الاسئلة · منذ اللحظة الاولى احاط الغموض الشديد بالمؤتمر · وفي النهاية لم تسقط الطائرة وعقد المؤتمر · وجاء الامين العام القديم الجديد وهو يحمل الورقة نفسها · وانتهت المسألة في الكواليس · وفي ملتقى القصة ، طرح السؤال عن القصة الحقيقية · قصة الذي جرى في اللحظة الاخيرة ولم يعرف به احد · وكان الجواب من النوع القصصي · سبعة اصوات ليوسف السباعي وسبعة اصوات لشفيق الكمالي · ثم في دورة الاقتراع الثانية فاز السباعي بفارق صوت واحد · اخذ الامانة العامة معه بالطائرة وسافر ، وترك المؤتمر للمؤتمر ·

ماذا لو تسقط الطائرة ؟

لكنها لم تسقط · نتوقف في المدرج · يأتي الموظف بلباسه الابيض ، ومعه الطبيب والحبوب الصفراء · عليك ان تبتلع اربع حبات دفعة واحدة · التيتراسيكلين يقتل الكوليرا · نبتلع الحبات · الجميع ضد الكوليرا · نهبط الى قاعة المؤتمر · نستمع الى محاضرات لا تحصى نقرأ عن كل شيء · لم يقدم اي بحث عن الكوليرا · محمد برادة رئيس اتحاد كتاب المغرب يشكر المحاضر على كلمته وحماسته · وتختلط الازمنة · حتى التصنيف الاكاديمي لم يعد ممكنا · من محمود المسعدي الى حسين مروة · ومن عبد الكريم برشيد الى محي الدين صبحي · ازمنة الثقافة العربية تتداخل ، والنقاشات تتداخل ، كأننا

في دوامة حقيقية ، او في فيلم لا نعرف اين ينتهي باعتباره بدأ قبل ان نولد · كل شيء يختلط بكل شيء · الشعر والنثر ، القصة والبحث ، الماركسية والسلفية · والجميع يحبون فلسطين لكنهم لم يعودوا يحبون الفلسطينيين !

كانت تظاهرة طرابلس الثقافية حشدا من الازمنة وحشدا من الاسئلة · قرارات جديدة · جيل جديد او ما يشبه الجيل الجديد · ادباء رسميون وادباء صعاليك وادباء ادباء · اصوات تختلط · لكن السؤال الدائم كان عن جنوب لبنان · نخرج من القاعة بعد مناقشة حامية ، نشرب القهوة ونسأل بلهفة عن الجنوب · كأن تشابك الازمنة المعقدة يصبح لحظة في حرب يخوضها الجميع ولا يريدها احد · معركة الشعر الحديث حسمت ، يعلن حسين مروة · وآخرون يرفضون قصيدة النثر ويشيرون الى الاصابع المشبوهة !·

الاسئلة تتوقف في المساء · وصل الامين العام · وفي النهاية تبقى المؤسسة · تنتصر بقوة الاستمرار او بقوة عدم القدرة على ايجاد البدائل او بقوة القدر ·

ما عدا النقاش الجدي حول بحث حسين مروة « المضمون في الشعر الحديث » ، ونقاش محاضرة المسعدي ، توقف النقاش ، ولم تطرح سوى التفاصيل · عشرات الابحاث المطبوعة داخل الحقيبة القرميدية الجميلة · الجميع يبحث عن الحقيبة · وكانت الحقيبة هي الفراغ الذي امتلأت به اروقة المؤتمر · رؤساء الاتحادات في ترقب وحذر ، والادباء صرفوا الكثير من الجهد من أجل الحقيبة · حقيبة كبيرة وحقيبة صغيرة · ولم يجد احد متسعا من الوقت ليتساءل كيف تتسع الحقيبة لكل هذا الحشد من الازمنة · وكيف يتسع الفكر العربي لكل هذا الفكر · وفي النهاية ، الجميع في المطار يحملون الحقيبة الجميلة ، يستقلون الطائرة · منهم من يذهب الى السجن فور وصوله ، ومنهم من ينتظر ، ومنهم من تعب من الانتظار ·

الصورة الغامضة تبقى غامضة لحظة اشتعالها بالضوء · ثم وعن بعد نكتشف ان هذه الصورة لا تختلف كثيرا عن الصورة السابقة · هناك اختلاف واحد هو زاوية الرؤية · وحول الزاوية يدور الصراع الحقيقي · وكانت الزوايا في فندق « الشاطىء » تمتلىء بالنقاشات والافكار · وكان حجم قاعة اجتماعات المؤتمر لا يستطيع ان يوفر اكثر من اطار شكلي ·

لماذا يبقى الاطار القديم ؟ المؤتمر يوصي والمكتب الدائم يتخذ المقررات · لكن الموضوعات التي طرحت على اتساعها ، لم تستطع ان توفر ارضا للنقاش · فالنقاش الحقيقي يحتاج الى لقاءات وندوات متخصصة · حيث يستطيع الباحث ان يستمع ويناقش باحثين آخرين · وحيث تبلور النقاشات وجهات محددة · اما حين تبقى المسائل الفكرية والادبية التي يعقد المؤتمر في

ظل ابحاثها هي الهامش ، فان هذا يخلط الاوراق ، ويساهم في الايهام بأن الثقافة العربية قد غرقت في البلبلة ، ولم يعد من الممكن اكتشاف لغة جديدة ، بعد ان استطاعت القوى المهيمنة ان تفرغ اللغة من دلالاتها ٠

لم يجر التوقف عند الابحاث بشكل جدي رغم استثناءات قليلة ٠ ولم يكن مهرجان الشعر مهرجانا للشعر ٠ ولم يجر اعداد حقيقي وجدي لندوة القصة ٠ وبقيت المسألة الاساسية ، في كون هذه الارض التي يلتقي عليها الادباء العرب ، لم تقدم لهم اكثر من مجال لقاء هامشي وتعارف شخصي ، وهذا هام جدا ٠ لكنها لم تسمح لاكثر من هذا بالتبلور ٠ وحين طرحت الديمقراطية كممارسة ، طرحت امكانية خلخلة المؤسسة الاتحادية بشكل جدي ٠ لكنها كامكانية ، تتعدى اتحاد الادباء العرب نفسه ، وربما تتعدى المسألة الثقافية ٠

ـ ٢

في اللجنة الفرعية حول حرية الاديب العربي ، اتفق الجميع على مقولة صحيحة : حرية الاديب هي جزء لا يتجزأ من حرية المجتمع ٠ واكتشف الجميع ان حرية الكتاب ترتبط بحرية الرأي وحرية المعارضة ٠ ولم يعترض احد على ضرورة الربط بين الحريتين ٠ ولم ينس احد ان هذا الربط قد يعني ربطا بين عبوديتين ٠ ففي مجتمع تستلب فيه حرية الانسان كل يوم ، وتصادر الكلمات كما يصادر الفقراء ، تبدأ حرية من نوع آخر ٠ هي حرية الابداع خارج كل سلطة وكل تسلط ٠ حرية الثورة خارج كل اجهاض للثورة بأسماء تشبهها ٠

حين تكون الدائرة سجنا ، لا يكون في داخلها سوى اثنين : السجان والسجين ٠ وبين السجان والسجين تنمو لغة مشتركة ، او ينمو اضطهاد يصل الى حد سرقة كل شيء ٠ ابتداء من الطعام الذي يجلب للسجين من الخارج ، وصولا الى كلمات السجين نفسها ٠ خاصة اذا كان السجان سجينا سابقا ، او اذا اتقن اللعبة ، بعد ان استطاعت الهزائم المتتالية وخيبات الامل ان تعلن الخوف قائدا لمرحلة كاملة ٠ وهكذا استطاعت اللغة السلفية ان تسرق المصطلح اليساري ببساطة متناهية ٠ فأصبح ما يميز السجين عن السجان هو شيء آخر غير اللغة التي اختلطت ٠ او هو لغة اخرى يحاول السجين ان يكتشفها بعد ان تعلم وبتضحيات لا تحصى معنى هذا الذي يجري على المستوى الايديولوجي والثقافي ٠

ماذا تعني حرية الاديب ؟

انها تعني اشياء بالغة البساطة ٠ اشياء لا تحتاج الى صفات ٠ انها تعني حرية ان تبدع ٠ حرية ان لا تكون عبدا للبترو دولار الذي يملأ الاوراق

بألوانه · هكذا ، وببساطة ان لا تكون جزءا من السلطة او بوقا للسلطة او سلطة في السلطة · ما عدا ذلك ، تصبح الكتابة هي المقياس · طبعا لا بد من لضافة كلمات مثل المسؤولية الاجتماعية والانتماء والخ · لكن هذه الكلمات فقدت معناها ، عندما تصبح السياسة الراهنة السائدة ، وبمعناها المحدد اي ممارسة السلطة هي التي تقرر وتقيم وتكرس · هنا لا تبقى سوى حرية الجنون وانفصام الشخصية والموت ·

لا يوجد ابداع ادبي خارج ابداع فكري شامل · هذا صحيح · لكن المستويات لا تسير بشكل متساو · لذلك يستطيع الادب ان يسبق الفكر الى اعلان الازمة ، لكنه لا يستطيع حلها · هذه هي المسألة الجوهرية التي تمتد على مساحة ازمة الحرية · هناك شعراء في السجون · سجنوا ليس لانهم شعراء ، ليس لانهم كتبوا قصيدة · لكنهم لن يكونوا حقيقيين في شرطهم الملموس اذا لم يدخلوا السجن من اجل ان يعلنوا نهاية مرحلة كاملة · ليست المسألة هي حرية الكتابة وحرية النشر · رغم ان هذه الحرية بالغة الاهمية في زمن الاختناق هذا · انها حرية ايلوار التي كتبها على ايقاع رصاص مقاومة النازي ، او حرية نيرودا وهو يموت ، او حرية الذين سقطوا والدم هالات فوق رؤوسهم في الحرب الاهلية الوطنية · المسألة ليست في المطالبة بحرية النشر والتنفس · انها اولا واساسا ، مسألة اخراس اصوات المبشرين بالحرية وهم اكثر اعدائها شراسة · هؤلاء الذين عرفتهم بيروت كتاب مراث لحرية الكوميسيون ، ولم يفتحوا فمهم من اجل حرية الرأي وحرية الحياة ، حين كان القمع يغطي البحر بالسفن الاسرائيلية التي تحاصر مدينة قررت ان تكون · هذا هو جوهر المسألة · فالحرية التي يغتصبها القتلة واللصوص لا تطلب دفاعا مبدئيا عن وجودها · تعلن ان على المغتصبين كشف اقنعتهم · وعندها يستطيع الذين يعرفون معنى الحرية والحب ان يصنعوا الحرية والحب ·

ماذا يستطيع اتحاد الادباء العرب ان يفعل من اجل حرية الاديب وحرية المجتمع ؟·

السؤال يطرح اسئلة ·ماذا تستطيع حرية الادباء ان تفعل في هذا الاتحاد ؟

وبين السؤالين ركام من القرارات ، استطاع مؤتمر طرابلس ان يتقدم خطوة الى الامام في معالجتها ، وهي طرحه لتعديلات على النظام الداخلي ، تحمل في داخلها امكانية فتح باب اوسع للديمقراطية الداخلية في الاتحاد نفسه ·

وحين قررت لجنة حرية الاديب في احدى توصياتها ، اصدار بيان تفصيلي بأسماء الادباء المعتقلين والجهات التي تعتقلهم وتسميتها ، كان السؤال : اين سينشر هذا البيان ؟ ومن سينشره ؟ يبدو وكأن الحرية قد اصيبت بالعجز · او ان مسألة الكتابة نفسها صارت بحاجة الى فهم جديد واسلوبية جديدة ولغة جديدة ·

لكن الحرية لا تنتظر المؤسسات الرسمية او شبه الرسمية · تستطيع الحرية إن تقول خارج كل اطار ، ثم ترسم بنفسها اطرها الجديدة دائما ·

لكن استباحة حرية الرأي تبقى الظاهرة الاوسع في هذا الوطن المليء بالظاهرات · فلقد استبيحت الحرية الى درجة الهزائم الوطنية الشاملة · وها هي الهزائم تمسك براية الفكر التقليدي لتضرب آخر اللحظات الباقية من فتات المائدة الديمقراطية · ولا تكتمل المذبحة الا حين يكتمل الموت · ولا يبدأ الجديد الا بعد ان يكسر دائرة القديم ·

ـ ٣

في قصيدته المهداة الى صدقي اسماعيل ، كان سليمان العيسى هو نفسه · وحده بين الشعراء الذين اعتلوا المنبر كان واثقا من ماضيه وواثقا من احزانه · ففجر داخل القاعة كل هذا الحزن الذي لا يمسك به سوى الفرسان الذين جرحتهم الهزائم · كان سليمان العيسى في قصيدته العمودية كل الذكريات وكان يوحد القاعة كما لم توحد · ويعلن نهاية زمن شعري وثقافي بجرأة لا يوازيها سوى الحزن الحقيقي ·

ارتفعت اصوات الادب القطري · وتقدم الشعراء ممثلين لاقطارهم · وفي الصالة المطفأة ، حيث كان المسرح وحده مضاء على د· احسان عباس رئيس الجلسة ، كانت ازمة ملتقى الشعر تظهر على وجهه · وضحكاته وتعليقاته الطريفة · ولم يكن الشعر غائبا · كان الشعراء قوافل من الكلمات والازمنة · من احمد دحبور الى الشعر العمودي · ومن غسان زقطان الى فؤاد الخشن ومحمد علي شمس الدين ومريد البرغوثي ومحمد الفيتوري والاخرين ·

وحين أمسك حسين مروه في بحثه « المضمون في الشعر الحديث » بنقطة الانفصام ، كشف عن المسألة الجوهرية في حركة الشعر الحديث دون ان يمسك باسمائها · حسين مروة يصف الازمة بالازمة المضمونية ، ويسميها انفصاما وعزلة داخلية · ويرثي المرحلة الماضية : الخمسينات واوئل الستينات ، ويرى ملامح جديدة وانزواء ولغة ذاتية ·

كانت المناقشة واسعة وبالغة الغنى · لكن المسألة التي يراها حسين مروة ويعبر عنها بلغة النقد الواقعي التي يتقن اصولها ، مشددا على « العلاقة الجدلية بين الشكل والمضمون » ، تثير اكثر من سؤال وتؤشر الى احتمالات قادمة ·

ـ ما هو المعنى الحقيقي لتقسيم الشعر الى شعر الخمسينات والستينات والسبعينات · وهل هناك انعطافات شعرية داخل هذا التراتب الزمني ؟ ام ان

الشعر يؤرخ لنفسه من الداخل ؟ ما معنى « الانفجار » الحديث والتحول نحو الحداثة في بداية الخمسينات مع القصيدة الجديدة ؟ وكيف نؤرخ لمسار تطور هذه القصيدة ؟

ـ كيف يدرس النقد هذا الشعر ؟ وهل صحيح أن الحركة النقدية متخلفة عن دراسة تطور الشعر العربي الحديث ؟

ـ ما معنى علاقة الشعر العربي بالفكر العربي ؟

هذه هي بعض الاسئلة التي اثيرت او التي يمكن اثارتها · لكن الجواب الاساسي الذي قدم ، هو انه على الرغم من كل شيء ، توجد حركة شعرية عربية · اي ان التقسيم « الاقليمي » الذي تحاول الردات الانفصالية تكريسه في الثقافة ، بعد ان اوهمت نفسها انها كرسته في الواقع ، يسقط عند اول نقاش جدي للمسألة الثقافية العربية · وان ازمنة الثقافة العربية المتداخلة ، تتقاطع في زمن التغيير · والتغيير على مستوى الحركة الثقافية هو تغيير تتداخل عناصره وتتوحد وتنقسم على ارض ثقافية واحدة ·

لكن المسألة الاساسية في الادب العربي المعاصر، هي كون الشعر هو العلامة الاولى والمؤشر الاساسي لحركة ثقافية كاملة · انه ليس الاكثر تقدما ربما ، لكنه المختبر الاساسي للجديد في الثقافة العربية المعاصرة · وهذا يعود الى عوامل متعددة ، ربما كان اهمها عاملان :

ـ كون الشعر هو التراث الادبي التاريخي العربي بامتياز · وكون المعركة الاساسية التي تدور داخل الوضعية الثقافية العربية المعاصرة هي معركة اللغة ، اداة الابداع والاتصال· فعلى ارض اللغة الجديدة ، خرجت الصراعات التي تلخص زمنا جديدا يحاوله الزمن العربي · فاختراق عمود الشعر ـ النموذج ـ هو ايصال لمعركة قديمة حول اللغة والتعبير ، بدأت تتبلور مع جبران ، الى مرحلة بالغة التقدم · من أجل ذلك ، اتخذ الصراع حول الشعر هذا الحجم الكبير · انه صراع يدور اساسا حول اساس التجربة الابداعية العربية ·

ـ اما تراجع الحركة النقدية عن مركزها القيادي الذي احتلته مع طه حسين والعقاد · فهو يعود اساسا الى تراجع المرحلة الليبرالية المصرية وانهيارها ، مع انهيار « الاستقلال السياسي » الذي اثبت عجزه عن مواجهة التحدي الوطني · ان انهيار الحركة الليبرالية المبكر ، وانتقال مركز الثقافة العربية الى بيروت ، هو علامة على انهيار الليبرالية العربية · فبيروت لم تقدم ليبرالية حقيقية · قدمت جو صراع واطار توازن لقوى غير ليبرالية في الاساس· بيروت كانت توازنا ارهابيا · لذلك ، لم تستطع الثقافة العربية في مركزها الجديد استكمال المرحلة الليبرالية ودفعها الى الامام · ولذلك ايضا ، اصبح

النقد الادبي العربي نقدا للادب وليس حركة ثقافية لها شموليتها السابقة · تحاكم الادب وتحاكم الواقع وتنتج حركة فكرية · لكن تراجع الفكر لم يعن غياب النقد ، بل كان يعني تصدر الشعر بجميع تياراته ونزعاته للواجهة الثقافية · ومحاولة النقد الالتفاف على نقد الواقع بنقـــد النصوص · فقدمت الحركـة الجديدة النقد الذي تستطيعه · جبرا ابراهيم جبرا ، خالدة سعيد ، د· احسان عباس ، عز الدين اسماعيل ، رجاء النقاش ، غالي شكري ··

الشعر في الشرط الموضوعي الذي يعيشه الفكر العربي هو مؤشر لواقع الحركة الثقافية العربية · لذلك انعكست اثاره في القصة والرواية ، حيث نلمس اليوم تحولا حقيقيا وحركة ادبية تحاول ان تتوحد في لحظة التجربة الابداعية نفسها ·

لكن المسألة الاساسية تبقى في هذا التحول الشعري ، او هذا الارتجاج والانعطاف في بنية القصيدة · وجع ولادة شيء جديد او موت حالة قديمة ·

لم تستكمل المرحلة القومية البرجوازية نفسها الا ارهابا واخراسا لجميـع الاصوات ، وتفتتا اجتماعيا هائلا · فاللحظة التاريخية العربية الراهنة ، هي اكثر اللحظات تأزما · انها تشبه اللحظة التي اعقبت حرب ١٩٤٨ · لكنها في المقابل استنفدت قدرة البرجوازية وحلفائها على التحرك · لقد بدأت الاوراق تتساقط · وهزيمة حزيران لم تنته في حرب تشرين او في الحروب القادمة · لقد بدأت مرحلة جديدة كليا · انها مرحلة الانشطار الحقيقي داخـل الوطن العربي · مرحلة الصدامات الطبقية الحـادة ، مرحلـة الحروب والحـروب الاهلية ·

اللغة التي ترفض العالم القديم وهي تبحث عن مصالحة معه ، اصبحت لغة غير قادرة على اعادة انتاج نفسها · وفي ظل شبه الغياب القسري للحـركة الثقافية ، تصبح اللغة الجديدة هي محاولة تمرد على الاشكالية التي في النص الادبي · الثوابت التي تتكرر محدثة رنين الذاكرة ورخاوة الذاكرة ومتعـة الذاكرة · هذه الذاكرة التي تتعدد في ثوابت ، هي تعبير عن مصالحة ما ، او عن سعي الى مصالحة ، او محاولة لرسم الافق بعناصر الحاضر المهيمنة · لكن الحاضر يكشف ، في كشفه عن تناقضاته ، ضرورة تجاوزه جذريا · هذه اللغة الجذرية او التوجه الجذري هو اساسا توجه هدام · ان مرحلة البنـاء التي حاولها الشعر « الحضاري » او الشعر « التموزي » قد انتهت الى الابد · حتى المدهش الغريب بدأ يرتسم في افق من التكرار المجاني · ولم يعد امـام اللغة الشعرية سوى نبرة التجربة والنفي والتدمير ·

لا يستطيع الشعر ان يأخذ مكان الفكر · يستطيع فقط ، في زمن يموت وزمن جديد يولد ، ان يميت نفسه ، يهدم ادواته ، يعري لعبته · يكشف كل شيء

من أجل ان يستطيع قول شيء جديد · فمع تبلور زمن الهزائم ، يتبلور زمن الحروب · والحروب تعني عدم امكانية المصالحة · هذا هو التحدي الـــذي يصنعه الشعر · والذي يكشف به ، لا عن ازمة الحركة الفكرية فقط ، بل عن افقها ولغتها ، ارتباطا بلغة جديدة يصوغها زمن الحروب الاهلية والصراعـات الوطنية الطبقية المكشوفة القادم ·

لقد حسمت معركة الشعر الحديث · هذا صحيح نظريا · لكن المسألة ، هي ان هذه الاهتزازات التي احدثت داخل البنية اللغوية وداخل الحساسية العربية يجب ان تلتقي بمستقبلها · ومستقبلها هو المزيد من التوغل في البحث والمزيد من التوغل في أفق الثورة · هنا فقط ،لا تحسم معركة الشعر او القصة · بل تحسم معركة الحرية التي تنتج فكرا وشعرا وقصة ·

على هذا الاساس ، ومن هذا المنطلق ، يجب ان نقرأ القصيدة · لنكتشف ان الذاتي هو مؤشر موضوعي ، وان ازمة نمو القصيدة العربية ومخاضها الجديد هي مؤشر لمخاض اخر ·

٤ ـ

في النقاشات القليلة ، برزت نقطة محورية ، حين اثيرت اشكالية العلاقة بين الفكر السلفي والفكر التقدمي : وحين حاولت بعض المداخلات الدعوة الى قطيعة حقيقية مع سياسة اللعب على حبال مزج الماضي بالمستقبل ·

هكذا ، انكشف فجأة ان اللغة قد فقدت · فالزمن الراهن الذي لم يعد يستطيع الامتداد الى المستقبل يحاول ان يسرق لغة المستقبل ويفرغها من مضامينها · في هذا الانحدار اللغوي حيث يلعب السائد آخر اوراقه ، نكتشف ان اخـر الاوراق هي محاولة سحق حلم التغيير بأوهام التغيير · سحق الفكر العلمي بسرقة نتائجه وتشويهها واللعب بلغتها · هنا ، لا يعود القمع فكرة او مضمونا داخل النص ، بل يصبح القمع هو تحويل الواقع بأسره الى سجن والكلمـات الى سجـان ·

الخروج من اللحظة المهيمنة ، هو اكتشاف ادوات تدميرها : النقد المنهجي الذي لا يتوقف او يتراجع امام الاعتبارات الانية · فالمساومة التكتيكية تصبح في المستوى الايديولوجي مساومة تاريخية كاملة وسقوطا في الماضي · ولغـة المستقبل هي لغة اخرى ، لغة جديدة وليست نظيفة ، لغة التغيير اي لغـــة الثـــورة ·

لقد ظهر ما يشبه الانقسام داخل جلسات النقاش القليلة · لكنه لم يكن انقساما بين أجيال ، كان انقساما من نوع اخر · انه انقسام بين الخيارات ،

انقسام بين اللغات التي تستخدم · وفي هذا الانقسام وحده ، الذي يجب ان يتعمق ويزداد حدة ، يولد الجديد ·

ليست الحضارة العربية في مأزق · انها البرجوازيات في المنحدر · لكن الثورة تبحث عن بداياتها الجديدة · هل هذا مأزق ام مؤشر للخروج من المأزق ؟ وهل يمكن ان يولد الجديد العربي اذا لم يخرج من لغة الهاوية ؟·

المسألة ليست مشكلة ادبية · لكن الادب في هذه المرحلة ، حيث لا حرية تعبير حقيقية ، هو مؤشر الانفجار ·

ـ ٥ ـ

اكتملت الدائرة · لكنها هذه المرة لا تستطيع ان تتماسك · ففي داخلها تبدأ البراكين والاشكال الهندسية تخرج الى الضوء · وفي الضوء حرائق لا تحصى · وفي اللهب موت يتعدد حتى النهاية ·

في مهرجان الشعر وملتقى القصة انكشف الحقيقي · (الادب الرسمي . الارتجال الخ ··) فالادباء والكتاب العرب سئموا الكواليس · وهذا الاتحاد رغم الاختلال الذي حدث في جدران دائرته ، لا يزال دائرة مغلقة ·

الخيار امام الاتحاد هو خيار واحد · انه الديمقراطية · فالكتاب والادباء العرب يستطيعون في ظل الفضيحة الشاملة التي يتورط فيها المهيمن ، ان يفضحوا ادوات المهيمن ولغته ورموزه · وان يعلنوا انتماء الى المستقبل · لكن لا يستطيع ان يكون هذه المرة ، نصف انتماء · فأنصاف الانتماءات انتهت مع انصاف الفكر وانصاف الممارسة الجذرية ·

لكن في الواقع ، لا يستطيع اي اتحاد رسمي او شبه رسمي ان يكسر الدائرة · فمنطق المساومة والتسوية والتراجع سوف ينتصر في النهاية ·

وتبقى حرية الاحتجاج ، وحرية الابداع · وفي الحريتين يتشقق الجدار الذي يحيط بالدائرة · وفي الحريتين ، لن يستطيع احد ان يبقى خارج اصداء الانهيار · وفي الحريتين ، نؤسس زمنا جديدا ، مليئا بالخيبات ومتورطا بالدم والموت والكتابة التي يرفضها الجميع · في هذا الزمن تعلو الحرية ·

يحيى يخلف

الدمية (قصة)

قلت لها : اقضي النهار متنقلا ما بين مكاتب الفاكهاني وصبرا ، ومعسكر شاتيلا · وأجد وقتا اتصفح فيه الجرائد ذات المساحات البيضاء التي الغتها الرقابة · ازور مكتبة الطليعة ، واشرب فنجانا من القهوة في واحد من مقاهي المنطقة ، فأتمتع بمرأى العشاق من طلاب وطالبات الجامعة ، وارى عناصر الامن لمختلف التنظيمات وهم يتناقشون او اولئك الشبان الذين يتحدثون في الايديولوجيا ويمثلون حالة انتقالية ·

وايضا اشاهد ملصقات الشهداء ، وملصقات تل الزعتر ، وملصقات جديدة فوق ملصقات قديمة ·

ويضيق الشارع بالسيارات التي تصطف على الجانبين ·

هنا يفتتح محل لبيع الالبسة الجاهزة · وبانتظار الزبائن تقف البائعة الانيقة التي تملك شفتين مطليتين بلون الكرز ، تقف الى جانب الواجهة الزجاجية ، وتتأمل حركة الشارع ·

في المرة الاولى التي التقيت بها بنادية توقفنا امام هذه الواجهة · كانت نادية تلبس فستانا من الجينز الازرق اشترته بسعر مخفض ايام التنزيلات ·

قالت البائعة : عندنا في الداخل موديلات حديثة ·

كنت احدق في تلك اللحظة بالدمية الانيقة ذات الملامح الآسرة التي وضعوها وراء الزجاج ·

قالت نادية : هل اعجبتك الدمية (المانيكان) ؟

قلت لها : انها تذكرني بتلك الدمية التي عشقتها في القدس ٠

وعندما كنا نمشي شرحت لها حكاية الدمية التي عشقتها في شارع صـــلاح الدين ٠٠ قريبا من السور القديم وباب الزاهرة عندما كنت طالبا في معهـــد المعلمين ٠

ـ لكن ذلك كان في القدس ٠

هززت رأسي لها ٠٠

ـ من القدس الى عمان ٠ ومن عمان الى دمشق ٠ ومن دمشق الى بيروت ٠٠ ومن بيروت الى الاعوام القادمة الصعبة ٠

ابتسمت وقالت معلقة :

ـ نسيت انك من جماعة الرفض ٠

كان ثمة نقاش بين سائقين صدم احدهما سيارة الآخر ، وبائع ينشر صحفـه ومجلاته على الرصيف ولا يحفل بما يجري حوله ٠

وسيارة عسكرية مكشوفة تعبر الشارع وتحمل في صندوقها رشاش دوشكـا مع طاقمه ٠

وراديو لندن من مكان ما يتحدث عن اشتباك حدث ما بين الردع والمنظمات ٠

ـ الا تخرج من هذا المربع ٠

وعندما قررت ان اجيبها ، غطى على صوتي ضجيج طائرة الميـــدل ايست الجمبو التي مرقت من فوق العمارات العالية وهي تستعد للهبوط في المطار ٠

وعندما ابتعدت الطائرة وغابت قالت :

ـ الطائرات اصبحت تمرق فوق المربع ٠ انهم لا يستطيعون دخول المخيمـات فلا اقل من المرور في مجالها الجوي ٠

ثم كررت السؤال :

ـ الا تخرج من هذا المربع بين حين واخر ؟

أجبتها : ـ اخرج احيانا الى كورنيش المزرعة او الـى شارع الحمـــراء ٠ ولكنني لا احب المرور على الحواجز ٠

بعد ذلك بشهرين كانت نادية تقص شعرها على طريقة جان دارك ٠ كانت تبدو في بنطلون الكاوبوي والبلوزة نصف الكم مثل الصبيان ٠ وكنا نعيش معا ٠ في غرفة واحدة ٠٠ على الطابق السابع ٠ نصعد الدرج بسبب تعطل المصعد ٠ نلهث

ونتوقف ٠٠ نصعد ، ونفتح الباب ، ونرتمي ونندمج معا ، ونغمض جفوننا في رفق ، مثلما الطيور ذات الاجنحة المتكسرة ٠

□

بقيت ذلك الصباح اكتب واشرب الماء المثلج ، وامسح العرق ، واكوم امامي المحارم ، وادخن سجائر الجيتان ٠

واحيانا ، اخرج الى الشرفة ٠ نادية ذهبت الى عملها في مدرسة المخيم ولم تعد ٠ كانت تفصلنا عن المخيم ثلاث عمارات فقط ٠

وعندما عادت نادية ، كانت تصطحب معها امرأة عجوز ٠

قالت نادية :

ـ ام محمود ٠٠ قادمة من الارض المحتلة وتسأل عن ولدها المفقود ٠

ثم اضافت :

ـ وستقيم عندنا بضعة أيام ٠

كانت ملامح العجوز مطفأة ومثقلة بالتعب والارهاق ، فاقترحت عليها نادية ان تأوي الى الفراش ٠ وبعد ان ذهبت قالت نادية بحنق :

ـ لماذا لم ترحب بها كما يجب ؟

ـ كنت مشغولا بالتفكير في موضوع التعميم ٠

ازاحت الكرسي بحركة عصبية ، وقالت بغضب :

ـ ان ام محمود واحدة من الجماهير التي تتحدثون عنها في تعاميمكم ٠

ثم اشعلت سيجارة وخرجت الى الشرفة ٠

نادية مثل الحديد تسخن بسرعة وتبرد بسرعة ٠ ولذلك بقيت صامتا الى ان اتت على السيجارة ٠ فمازحتها : ـ تزاودين علي في حب الجماهير ؟

قالت : انك تغيظني ببرودة اعصابك احيانا ٠

وانتهى الحوار بقبلة طويلة ٠

ثم نزلنا الى الشارع لشراء ساندويشات ٠

□

مرة اخرى في الشارع ـ يحلو لبعض رفاقنا ان يسموه الشارع الاخير ـ كانوا يتحدثون عن سيارة موقوتة اكتشفها الكفاح المسلح عند مدخل صبرا · وكانت الصحف تتحدث عن اولى اصابات الكوليرا ·

وكانت نادية تشرب العصير في محل فهمان ، وتحمل على كتفها حقيبة من قماش الجينز ·

مشينا نستعرض الواجهات · ومرة اخرى توقفنا امام الدمية الانيقة التي البسوها فستانا جديدا بلون الجلاب ·

قالت نادية : بدأت اغار من دميتك هذه ·

كانت الدمية تخفي على شفتيها ابتسامة ما · واما عيناها فقد كانتا تذوبان عذوبة · شدتني نادية من طرف قميصي · شدتني · شدتني · وألحت في ذلك · وعندما وصلنا العمارة وجدنا العجوز بانتظارنا ·

ـ هل من جديد ·

قلت لها · فتنهدت العجوز ·

في الشؤون الاجتماعية اخبروها انه مفقود ·· ومقيد في سجل المفقودين · واخبرها شخص صادفته في احد المكاتب ان ابنها فقد اثناء حضوره من قبرص الى صور عندما هاجم الاسرائيليون القارب واغرقوه · وقيل لها انه موجود في المنطقة الشرقية ·

وأخبرها شاب من القوات ان ابنها وصل صور سالما واختفت اخباره بعد معارك صيدا ·

وكانت العجوز تنهار ·· وتبكي ·· وتنشج · وكانت نادية ·· تتعاطف معها ·· وتبكي ايضا ·

□

عدت مبكرا ·

نادية تمسح الارض بالمطهرات والديتول ·

الكوليرا تغزو بيروت · وعناوين الصحف تبعث على الرعب · وثمة اصابة في منطقة بير حسن · والعجوز لم تأت بعد · كان يتعين علي ان اغسل يدي ثلاث مرات بالصابون قبل الغداء · وكم كان طعم الماء كريها ·

ظلت تتحدث عن الكوليرا والموت ٠

وعبر الشرفة ، كان عناصر الكفاح المسلح يلاحقون البضائع المكشوفة ، وكان رجل يشتري صندوقا من زجاجات (صحة) ٠

قالت : العجوز لن تعود قبل المساء ٠٠ ذهبت الى الدامور تسأل عنه ٠

اقترحت عليها ان ننزل قليلا بعد القيلولة ، ونشرب الشاي في مقهى الزاوية ٠ فقالت انها لن تشرب شيئا خارج البيت ٠

حاولت ان اخفف من وساوسها ، فازدادت تمسكا ٠

قلت لها : ـ اذن نتسكع قليلا ثم اذهب الى مكتبي ٠

في الشارع حملة نظافة مفاجئة ٠ وسيارة تحمل مكبر صوت وتعطي ارشادات صحية ٠ وصيدلية بيروت تعلن عن الديتول والميلتون والبيرمنغنات ٠

قالت : اني ارتجف ٠

ـ لماذا ؟

ـ أخاف الكوليرا ٠

ـ لم تخافي من القذائف ايام الحرب ٠

ـ أخاف من الرعب الخفي الذي لا يرى بالعين المجردة ٠

ومررنا امام الواجهة ٠

كانت الدمية لا تزال تبتسم تلك الابتسامة الخفية ، ولكنهم في هذا اليـــوم يلبسونها باروكة شعر سوداء وفستان سهرة طويل ، فتبدو مثـــل سيـــدات الصالونات ٠

قلت لنادية : انهم يشوهون دميتي ٠

شدتني من قميصي ٠

شعرت بان نادية متوترة وصعبة ٠

حاولت ان امازحها : ـ الدمية هذا اليوم تنسلخ عن طبقتها وتنضم الـــى البرجوازية ٠

قالت بعصبية : ـ انت مدعي ٠٠٠ انك برجوازي صغير حتى العظم ٠

وعندما كنا نصعد الدرجات للطابق السابع ٠ قالت :

ـ انني اشعر بالغثيان ٠

وعندما فتحنا الباب قالت :

ـ اشعر برغبة في التقيؤ ٠

دخلت الحمام سريعا ٠ حاولت ان تتقيأ فلم تفلح ٠ عادت بوجه شاحب وملامح معقدة ٠ وخيم علينا جو من الصمت والحزن ٠

لم اجرؤ على ان اقترح عليها ان ننزل الى الطبيب ٠

طرق الباب ٠ دخلت العجوز ٠ حيتنا ٠ وجلست على الاريكة ٠

قلت لها للمجاملة ، ولكي اقطع الصمت : ـ هل من جديد ؟

وجهها داكن ، ولكنه محتقن بالتعابير ٠ اجابت بحرقة :

ـ من يرى مصيبة غيره تهون عليه مصيبته ٠

وحكت لنا عن سكان تل الزعتر الذين قابلتهم في الدامور هذا اليوم ، وحكت ٠٠ حكت ٠٠ ثم توقفت عن الحكي ٠

نظرت الى نادية وتساءلت :

ـ مالك يا ابنتي ٠٠ هل هنالك مكروه ؟

هجمت الوساوس ، ورفرف في جو الغرفة الرعب الخفي ٠

تدخلت وقلت :

ـ نادية زعلانة ، لانني احب واحدة غيرها ٠

نظرت العجوز الي في دهشة فأكملت :

ـ ولكن محبوبتي الجديدة دمية من البلاستيك تقف وراء واجهة من الزجاج ٠

خرجت العجوز عن صمتها ، ونسيت حزنها قليلا ٠

قالت اشياء كثيرة ٠ ثم حكت لنادية قصة الدمية والمرأة الغريبة ٠٠٠

□

امرأة غريبة تزوجها رجل ، ورماها في البراري ، في ارض مقطوعة لا يوجد فيها انس ولا جان ٠

وقال لها : ماذا تريدين ؟

فطلبت منه المرأة ان يشتري لها دمية على شكل طفلة صغيرة ذات ضفائر لكي تتسلى بها اثناء غيابه ٠

فاشترى لها الدمية وغاب ٠

وفي غيابه كانت المرأة تشكو همومها للدمية ٠

كانت المرأة تشكو والدمية تكبر وتهرم ٠

وكلما طال غياب الرجل وازدادت المرأة جوعا وخوفا كلما ازدادت شكواها ، وازدادت التجاعيد في وجه الدمية ٠ وبعد غياب عام عاد الرجل ٠ كان يركب حصانا فأردف زوجته على الحصان ، واخذها ٠٠ وراح ٠ وترك الدمية وحدها ٠

لم تستطع الدمية التي اصابها الهرم ، الاحتمال ٠

فانفجرت ٠٠ اي نعم ٠٠ انفجر قلبها كما تنفجر قنبلة ٠

□

التصقت نادية بي طوال الليل ٠ حلمت احلاما مزعجة ، وهاجمتها الكوابيس ورائحة الموت ٠ ظلت غرفتنا مضاءة ٠ وظلت تخرج الى الحمام بين حين واخر دون ان تتمكن من التقيؤ ٠

طمأنتها الى ان صحتها جيدة ٠ وانها واهمة ٠ الا انها ظلت ترتجف ٠

وجاءت العجوز ، فقرأت عليها تعاويذها التي لم تفلح في ان تجعل السكينة تتسلل الى الجسد ٠ اخر الليل ٠ نام الجسد المنهك ٠ الجسد المفعم برائحة العرق والرعب ٠ وعندما اشرق الصباح ، واندفعت اشعة الشمس عبر النافذة، افاقت نادية وقد ارتسم على وجهها الاعياء ٠ فاقترحنا ـ انا والعجوز ـ ان نأخذها لمقابلة الطبيب في عيادة الهلال ٠

□

باحة الانتظار في عيادة الهلال واسعة ٠ جدرانها مطلية باللون الابيض ٠ وثمة مقاعد لا تتسع للجميع ٠ يجلس بعض المرضى ، والبعض الاخر لا يجد مكانا يجلس فيه ٠

وجوه سمراء وصفراء ٠ حليقة وغير حليقة ٠ اذرع ٠ اقدام مبتورة ٠ وعكاكيز ٠ وشعارات العاصفة على الصدور ٠

وفي الايدي تقارير طبية ٠ وصور أشعة ، واوراق تحويل ٠

وعلى الحائط صورة ابو علي اياد ٠ وملصقات الانتفاضة ويوم الارض

وشهداء تل الزعتر ٠

باب الطبيب مغلق ٠ وممرضة تمرق مسرعة دون ان تجيب على استفسارات احد ٠

وقف اثنان من المقاتلين الجرحى ، وأجلسا نادية والعجوز ٠

وكان علينا ان ننتظر ٠

وفي انتظار الطبيب حكى ابو الليل عن اصابته ، ورزق الطيب عن سيخ الحديد المربوط الى عظام ساقه ٠ وابو عمر ـ على ما اذكر ـ حكى عن الطرف الذي ينز صديدا كلما احتك ببقايا عظام فخذه ٠ اما ابو النور الذي بتر اللغم ذراعيه واطفأ عينيه فقد كان يجلس على المقعد صامتا وقد غابت عيناه وراء نظارة سوداء ٠

قالت العجوز فجأة : ـ يا شباب ابني مفقود ٠٠ من منكم يتعرف عليه ٠ هذه صورته ٠٠ اسمه فهمي شبيطة من عزون ٠

رفع الحاضرون رؤوسهم وحدقوا بها ، فأكملت :

ـ عمره عشرون عاما ٠ يحمل الشهامة ابا عن جد ٠٠ ابوه مات في سجن الجفر على يد محمد رسول الكيلاني ، وجده استشهد مع جماعة عبد الرحيم الحاج محمد في يعبد ، وجد جده نادر شبيطه هزم جنود نابليون في معركة عزون ٠

سحب ابو الليل نفسا من سيجارته ثم زرعها بين شفتي ابو النور الذي كانت تستهلك النظارة مساحة كبيرة من وجهه ، فيما ترتسم تقطيبة كبيرة على ما تبقى ٠

مرقت الممرضة النحيفة ٠٠ النحيفة من قمة الرأس حتى كعب الحذاء ٠ فوقفت العجوز وقالت لها بضراعة :

ـ انت ايتها اللعبة الجميلة ٠٠ ايتها الحمامة ٠٠ الم تشاهدي هذا الوجه الجميل ٠٠ الم تشاهدي هذا الغزال يا بنية ٠

بكى رزق الطيب ، وظلت السيجارة تحترق ببطء تحت انف ابو النور ٠ وظل دخانها يتصاعد ٠ وكان ساهيا ٠ ولعله كان يفكر ٠٠ او يحاصر ٠٠ او يستمع الى اخر برقية يرسلها قبل ان يدمر الواسطة ، وينسحب ٠

صمتت العجوز فجأة ٠ اطرقت قليلا ٠ ثم عادت الى مقعدها وهي تقبل صورة الولد الذي ربت كل شبر فيه بنذر ٠

وقالت بصوت خفيض : ـ يحرسكم الله يا شباب ولا يفجع ام بولدها ٠

اقتربت نادية مني ٠ واظن انها قالت :

ـ لم اعد ارغب في مقابلة الطبيب ٠٠ هيا ٠

كانت تبكي ٠٠ او تشهق ٠٠ او تنهنه ٠٠ او تتكلم ٠

□

وصلنا الطابق السابع ٠ دخلت العجوز الى غرفتها ٠

صنعت لنادية عصير الليمون ٠ وبدأ وجهها يعود الى صفائه ٠

خرجت العجوز بعد ساعة تحمل بيدها صرة ٠

لم تكن بحاجة الى ان نسألها ٠٠

انه الرحيل ٠

حاولت نادية ان تثنيها ٠ ولكنها كانت قد قررت ٠

ـ يجب ان اعود ٠ البركة بمن بقي يحمل السلاح ٠

استبدلت نادية ثيابها على عجل ٠ كان علينا ان ننزل مع العجوز الى مكتب السفريات لتوديعها ٠

الشارع الاخير كما يسميه بعض رفاقنا ، يعج بالناس والسيارات والباعة ٠

تنحسر الكوليرا هذا الصباح ، وتتقدم اخبار اتفاقية شتورا ٠

وعلى الرصيف ٠٠ مطعم الشموع ، ومقهى الزاوية ، ومراسات ٠

ودعنا العجوز بحرقة ٠ وعبر زجاج النافذة ظلت تلوح لنا بصورة المفقود ٠

غابت السيارة عن اعيننا ٠ عدنا نسير على الرصيف في صمت ٠

□

مررنا امام الواجهة الزجاجية ٠

وراء الواجهة كان صاحب المحل يقف بجانب الدمية ٠ كان يخلع عنها الملابس ليضع على جسدها شيئا جديدا من بضاعته ٠

ظل يعري بها حتى النهاية ٠

شدتني نادية من قميصي ، وجذبتني لكي نبتعد ٠

كان صاحب المحل ينظر الى جسد الدمية ٠٠ الى نهديها وبطنها وساقيها ٠ كان يبدو كما لو انه يراودها عن نفسها ٠

ظلت نادية تجذبني بشدة لكي نبتعد ، فبعد قليل سوف تنفجر الدمية ٠٠ ينفجر قلبها كما تنفجر قنبلة ٠

صالح هوازي

وردة الجرح تشهد

تمد مناقيرها الاشرعه
والمراكب تطلب عشقا جديدا من البحر ،
ـ ما حالة الطقس في مرصد الانتظار ؟؟
: ضباب كحزن المحبين ، يشرب صحو النهار
ـ وما حركات الرياح ؟
ـ رياح من الغرب تنشط عند المساء
ـ وما درجات الحرارة في مرفأ الذاكره ؟
: اربع وثلاثون في الظـل ... ستون في الهاجره
ـ حالة البحر والصيد فيه ؟
: حزين وهائج .. داسوا على وجهه بعدما شبعوا منه صيدا
ـ وبيروت !!! كيف تنام على ساعديه ؟؟
: عروسا من الدم ... لا يشتهيها ولا تشتهيه
ـ وكيف الطيور التي شنقوها على رمل (صيدا) ؟
: تقمص في روحها البحر فاشتعلت بالمجاذيف والاجنحه
ـ والمخيم ؟؟؟
: يمشي على المذبحه
... ... : نشرة الطقس ملغومة ، وأغاني النوارس غامضة
وأنا المتشاغل بالحب يفتتح البحر باسمي
مناقصة خاسره
يا عصافير جرحي الى البحر عودي !!
تعبت من الرقص موتا
على خشبة المجزره

فمتى يا مغنى العروبة مزمارك المتورط بالعزف
ينهض من رغوة الثرثره ؟؟
أصرخ الآن : ليس دمي وحده يتقلب في قفص الجرح
كل العاصافير مطلوبة للصعود الى الجلجله
آه يا امرأة تتهيأ فيها المحبة للذبح
لا تفرطي بالغناء ، المواويل ملغومة بالبكاء
تطل وأبصرها من ثقوب الحناجر
تنسج لي كفنا باتساع الخناجر
قالت لنا الارض :
ان المخلص يسرج أحلامه الآن
شدوامراكبكم للدخول الى الصبح
باح لكم حارس الشمس بالاشتعال
وأصرخ : يا أمة اشعلت جوعها
تحت سقف الدماء !!
تعلمت العشق من شعر ليلى ومجنونها !!
أهذا هو الحب ؟!
هذا هو العشق !!
مروا سراعا على عربات التخفي
بأي رمال يوارون أعينهم ؟؟ :
وردة الجرح تشهد تشهد تشهد
والتل يصعد ... يصعد ... يصعد
والزعتر الصعب يولد ... يولد ... يولد
هذا زمان به يخرج الدم من دمه ... ،
يسقط الوقت من وقته
يهرب الموت من موته
لست وحدي أتوق الغناء على نخلة الريح
كل الزنابق تواقة للغناء ،
اسكني يا طيور دمي :
زعتر ... زعتر ... زعتر
جثتي تنهض الآن من موتها ... ،
وزغاليل بيروت تخرج من عشها الدموي ... ،
تمشط جرح المخيم بالزعتر الجبلي ... ،
النهار يعد مجاذيفه المشرعه ... ،
يرجع البحر من رقصة الموت ... ،
يقترح الرمل فصلا جديدا

تضيء الدماء ... وتخرج برقوقة الشمس عارية ... ،
تسقط القوقعه

□

زعتر ... زعتر ... زعتر ... يغلق الجرح شباكه ..
تفتح الارض محكمة النار ... ،
تبعث للشمس برقية ... ،
يرسل الله عسكره يحرثون جراح المخيم .. ،
رمح الفجيعة يثقب ذاكرة الشمس ... ،
لكن عين فلسطين تتسع الآن اكثر اكثر اكثر
وهم فلسطين يصبح اكبر اكبر ... اكبر
تهاجر من سكرها الذاكره
تستفيق على نزفها الخاصره
والقواميس تنشف في حضرة الموت ... ،
شيء وحيد يظل يسير على جرحه ...
اسمه في كتاب الهوى :
زعتر الناصره

□

أيها المتسكع في شارع الماء يا دمنا الخارجي !!!
تناقصت الارض ليمونة ... أنت ليمونتي ... ،
افتح الآن بيني وبينك باب الحوار
على شرط ان ترفع الان عني الحصار
واما اسلك من حبل قلبي
وأشرب نخبك فوق رصيف الغبار
هنا اشتعل النسغ في شجر القلب ،
والوطن المتورم علق أحزانه فوق صفصافة النهر .. ،
عادت تهز الطيور ثمار الشروق الجميل
علىصخرة الفاجعه

دخل العشب في العشب
والماء في الماء
دق نفير الضلوع
ومر الدم العربي على فرس الشمس
ممتشقا لونه ... لونه ... لونه
تستقيل الوجوه
وتحترق الاقنعه

اتيلا جوزيف ١٩٠٥-١٩٣٧
الشاعر الذي مرّ عليه قطار البيروقراطية

في قصيدة بعنوان ـ السابع ـ كتب « أتيلا جوزيف » :

ـ اذا ظهرت في هذا العالم
فمن الافضل ان تولد سبع مرات
مرة في بيت يشتعل
ومرة في فيضان يتجمد
ومرة في مستشفى وحشي للمجانين
ومرة في حقل قمح ناضج
ومرة في دير مهجور
ومرة في حظيرة خنازير
حيث يصيح ستة أطفال بشكل غير كاف :
أنت نفسك يجب أن تكون السابع

ويمضي « أتيلا جوزيف » ليكون ـ السابع ـ

ـ اذا أردت ان تكون شاعرا
دع سبعة رجال يكتبون قصيدتك
الاول يبني قرى من الرخام
والثاني كان نائما حينما ولد
والثالث يزن السماوات
والرابع يحس انه مطلوب حينما تنادي الكلمات
والخامس يلتمس روحه

والسادس يستطيع ان يشرح فارا
اثنان شجعان وأربعة حكماء ٠
وعليك أن تكون السابع ٠

دائما كان « أتيلا جوزيف » ينتهي من خلق الكون في ستة أيام ويعيدبنـــاءه من جديد في اليوم السابع ٠

في موسوعة الادب العالمي لمؤلفها ــ كاسل ــ ١٩٧٣ ــ كتبت الموسوعة تقول :

« أتيلا جوزيف هو شاعر البروليتاريا ، المناهض للفقر المهلك الذي وصفـه في قصائده ذات الجاذبية والقوة الفريدة ٠ ولقد واصل أصالته في أسلوبـــه حتى لحظة انتحاره ٠ حيث خسرت هنغاريا عبقرية من الصعب ادراكهـــا الا بشق الانفس » ٠

بعد كاسل في موسوعته العالمية يجيء ــ توماس مان ــ اعظم روائيي عصره ليكتب عن رفيق عمره « أتيلا جوزيف » :

« لقد هزتني بعنف تلك الانباء التي حملت مصرع شاعر هنغاريا العظيـــم وصديقي « أتيلا جوزيف » ٠ فالى دائرة اصدقاء الشاعر الصريع والى كافـة الشعراء في مختلف الاوطان أقدم مشاركتي الوجدانية بمناسبة هذه الخســـارة التي عانوا وعانى الادب الهنغاري منها ٠٠٠ » ٠

علاقة اتيلا جوزيف بتوماس مان بدأت عام ١٩٣٧ ٠ بدأت وانتهت ٠ ففي هذا العام ألقى اتيلا جوزيف بجسده على قضبان السكة الحديد ومرت العجلات على قصيدة هنغارية عظيمة ٠

في عام ١٩٣٧ كان توماس مان سيلقي محاضرة في بودابست واراد اتيلا ان يقدمه بقصيدة عنوانها : مرحبا توماس مان ٠ ورفضت الشرطة الهنغاريـــة قصيدة أتيلا ٠ كانت القصيدة قفازا يلقيه الشاعر في وجه البوليسية الادبيـــة والبيروقراطية التي كانت تمارسها شرطة الدكتاتور « هورتي » ٠

من بين رجال الادب الذين تعاملوا مع الاعمال الشعرية لاتيلا جوزيف وقاموا بنشرها باللغة الانجليزية : الدبلوماسي الاميركي ــ أنتـــون ٠ ن ٠ نيرغس ــ الذي كتب أهم دراسة حول أتيلا جوزيف ، وكانت الاكثر قربا لشخصيتـــــه ووجدانه الشعري ٠

في مقدمة الطبعة الانجليزية الكاملة يكتب انتون ٠ن٠ نيرغس :

« من وجهة النظر السياسية ترتكز عظمة أتيلا جوزيف على توفيره للبيـــت الشعري خصوصية وواقعية حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية لم تكـــن

موجودة في السابق · لم يكن الخيال دم الحياة لشعره · كان في قلب الدوامة· انه يوظف صورا اخاذة كان موقفنا الاستياء منها لانها تجعلنا نرتبك · ربما لان هذا هو موقف البشر منذ فجر الحضارة · » ···

ويمضي أنتون يقول :

« قدم أتيلا جوزيف ما بين عامي ١٩٣٠ ـ ١٩٣٥ جسدا رائعا بكل مقياس للشعر البروليتاري وربما اعظم شعر بروليتاري عرفه العالم البروليتاري ، فلقد واجه بلا هوادة قبضة القساوسة والجنرالات والطبقة المتوسطة » ·

أما ل · ن · مارتينوف المترجم والخبير في الشعراء الكلاسيكيين والمحدثين المنتمين للشعر الغنائي الهنغاري فلقد كتب يقول :

« انني أتيلا جوزيف المعاصر واكثر من ذلك فانني رفيقه المعذب · بينما كنت أترجم قصائده عشت مرة اخرى مأساة بلده ، مأساة اوروبا ومأساة كل البشرية · والاسى يفعل بي فعله لانه قد توفي في وقت مبكر جدا وانه الان لا يستطيع ان يكون بيننا ، ولا ان يرى اننا نعيش فيعالم جديد وتحت سماء جديدة ليست صافية تماما ولكنها براقة اكثر من اي وقت مضى » ·

ف · تزافادا وهو أحد الكتاب التشيك الذين عرفوا اتيلا جوزيف كتب:

« يختلف اتيلا جوزيف بشدة ليس فقط عن شعراء هنغاريا العظام ولكن ايضا عن جميع شعراء العالم · انه شاعر الوحدة والفقر ، ذلك الفقر اللئيم الذي ليس له مثيل في الادب العالمي » ·

□

ولد في بودابست عام ١٩٠٥ من عائلة تدين للكنيسة الارثوذكسية اليونانية ، هاجر والده آرون جوزيف وكان عمره ثلاث سنوات · ذهب ليعيش مع اسرة تبنته من خلال وكالة حماية الطفولة · حينما بلغ السابعة بدأ العمل في حظيرة للخنازير ككل الاطفال الفقراء في القرية · استرجعته امه بوربالا بوشي وأدخلته المدرسة الابتدائية،· وهكذا اصبح على الام الغسالة ان تطعم ثلاثة اطفال من خلال قطعة الصابون · كان يهرب من المدرسة الى الشوارع ، ثم انغمس بعد ذلك في قراءة الحكايات المشوقة عن أتيلا ملك الهون · وهكذا اصبح لأتيلا القادم من رغوة الصابون اسم « ملك » ·

حينما اشتعلت الحرب العالمية الاولى ، كان أتيلا في التاسعة من العمر ، كان يقف في الطابور أمام مخزن الطعام من التاسعة صباحا حتى التاسعة مساء ، وحينما يأتي دوره كانوا يقولون له ان الطعام قد نفد ·

كان يساعد والدته بكل ما يملك ، فيمضي يبيع ماء الشرب في دور السينما · يسرق الحطب والفحم من محطة القطارات · ثم اصبح يبيع الصحف وطوابع البريد · وعمل بعد ذلك كصبي خباز وانتقل الى المدرسة الثانوية في الوقت نفسه بعد أن ادى بنجاح المرحلة الابتدائية ·

توفيت والدته عام ١٩١٩ فأصبح الوصي عليه زوج اخته · في فصلي الربيع والصيف كان يعمل كاتبا في شركة بواخر المحيط الاطلسي وفي تلك الفترة قدم امتحانات المرحلة الرابعة للمدرسة الثانوية كطالب خاص · فيما بعد أرسله زوج اخته للتدريب كراهب مبتدىء ، ولم يمكث هناك غير أسبوعين · من الدير اشتغل كمراقب محاصيل وانهى دراسته الثانوية ، وفي ذلك الوقت حوكم بتهمة الزندقة التي وردت في احدى قصائده ، لكن المحكمة العليا لم تجد الادلة كافية لادانته ·

ها هو بعد كل هذا يبيع الكتب على أرصفة شوارع بودابست ثم يعمل محاسبا في بنك ويقرر للابد ان يعيش من كتابته · سجل نفسه في كلية الاداب وبدأت قصائده تظهر · في طفولته كان الرغيف يجيء اليه طافيا فوق رغوة الصابون التي تتدفق من يدي أمه ، وها هو في صباه يجيء اليه الرغيف طافيا فوق الحبر ·

في العشرين من عمره ترك بودابست متجها الى فيينا وسجل نفسه في الجامعة · سقط الرغيف في قاع البئر ، فكان يتناوله من بيع الصحف وتنظيف مبنى الكلية الهنغارية · بعد أربعة أشهر من النوم فوق بلاط الارصفة بدون غطاء ، اصبح قادرا على تغطية نفسه ·

بواسطة سيدة قرأت شعره واحبته قدمت له نفقات السفر الى باريس · هناك اصبح طالبا في السوربون · بعد السوربون عاد الى بودابست ·

البيروقراطية كانت تلاحقه أينما ذهب · كان البيروقراطيون يقولون : كيف نترك هذه السمكة المتوحشة على ضفاف نهر الدانوب · البيروقراطية من جهة وبوليسية هورتي من جهة اخرى · لم يعد له غير أن يكتب ويحاول ان يجد مجلة تنشر له حتى اصبح محررا لمجلة فصلية · ولكن كل ذلك لم يضع حدا لعذابه · في الليل حينما تضيق به الشوارع كان يمضي وهو يردد :

ليس لدي ام ولا أب
لا وطن ولا اله
لا محبوبة في سريري
ولا أريد ان ادفن حينما اموت ·
منذ ثلاثة أيام لم آكل شيئا

ان سنواتي العشرين هي قوتي
وسوف ابيع هذه القوة لاول قادم
فاذا لم يكن هناك من هو بحاجة الى أعوامي العشرين
فليأخذها الشيطان
فبقلب نقي سوف أحرق وأنهب ٠
وسوف أقتل أيضا
سوف يلقون القبض علي ، أحاكم واشنق
أخيرا يغطيني التراب الطيب
ومن ضلوعي سوف ينمو العشب ويغطي وجهي ٠

الى جوار القطارات الواقفة كان أتيلا يتمدد ، كأنه كان يرسم خطوط نهايته :

انني اعيش من الهواء القادم من الفحم الحجري
أراقب سفر القطارات ٠
تطير النافذة المتوهجة
في ظلام شجر الكتان المتمايل
وهذا هو كيف في الظلام الابدي
تنطلق الايام المشتعلة
وانا اقف في ضوء كل مقصورة قطار
اتكيء على مرفقي صامتا ٠

على شاطيء الدانوب حينما يشتد عليه اذى الشرطة الادبية في بودابست ، كان يرى امه وهي تشعل بنجمة مياه النهر وتسلق يديها في الماء لتقـــدم لـــه الحساء :

منذ أسبوع والافكار حول أمي
تشعل النار في عظامي
انها تقبض على سلة الغسيل بثبات
الى الامام ثم الى الاعلى تمر نحو « العلية »
كنت واضحا فأرخيت الحبل لنفسي
قدمت احتجاجي وضربت بقدمي السقف كي يهبط
ليأخذ شخص اخر السترات المتورمة
ولتأخذني هي معها عاليا الى « العلية »
بدون أن ترمقني بنظرة او تجلدني
تصعد الى اعلى وتنشر الغسيل بصمت ٠
الملابس المدعوكة تحدث حفيفا مبهجا
حيث بدأت تتأرجح وتموج في الهواء ٠

علي ألا ابكي ولكن كل الدموع في ضلوعي
الان استطيع ان ارى كم كانت عملاقة
تلك الام الغسالة
فعبر السماء يخفق شعرها الاشيب عاليا
وهي في بحار السماء تذوب الى اللون الازرق ٠

بلا وعي راح اتيلا يكتب قصيدة « الوعي » :

رأيت لوحات في احلامي
رشقت باللون الازرق والاحمر والاصفر
كنت اعتقد بأن هذه الالوان هي حالة العالم
وليست مجرد بقع غبار غير مألوفة
والان تبدو احلامي كظلال شاحبة في ضلوعي
وان عالم الحديد هو القاعدة
فخلال النهار يبزغ القمر في داخلي
وفي الليل تتدحرج الشمس من فمي
انني نحيف لانني لا آكل غير الخبز
وبين العقول الكسولة الثرثارة
ابحث بحرية دون ان يخالجني الخوف من اية تهمة
عن شيء اكثر يقينا من سقوط حجر النرد
اعترف انني لم آكل اللحم المشوي الا في بعض الايام النادرة
لم أضم طفلا صغيرا الى قلبي
ولكن حتى اكثر القطط مهارة لا يستطيع
أن يمسك مرة واحدة بفأر في الداخل
واخر خارج البيت ٠

من خلال كل تلك القسوة التي ربما لم يواجهها شاعر من قبل ، كانت روح اتيلا ترتفع لتشق طريقها في الأيام القادمة ٠ كان دائما يعرف كيف ينهض من تحت الانقاض :

لقد سمعت الحديد يبكي
ورأيت المطر يضحك
انني ارى الان الماضي وهو يتحطم
واعرف بأن الافكار وحدها يمكن نسيانها
وكل ما استطيع ان اصنعه هو الحب
وان استسلم الى هذه المسؤولية
ولكن لماذا علي ان اصنع سلاحا منك

ايها الوعي الذهبي ٠

لم يكن يعرف اين يمضي ، ولكنه كمياه نهر الدانوب كانت الموسيقى دائما في قدميه تدفعه لكي يكتشف المزيد من الجزر التي لم يرها قبطان ٠ كان نهر الدانوب يعطيه دائما الشجاعة لمواجهة الكذب والماكياج الزائف فوق وجوه القساوسة والعسكريين المطرزين بالنياشين والجراد المنتفخ الكرش :

لقد رأيت السعادة وجها لوجه
انها مترهلة شقراء وتزن اربعمائة رطل
في فناء المزرعة وفوق العشب الخشن
رأيتها تسقط في بركة موحلة فاترة
ومن أذنها كان يرتفع صوت الخنزير
تجاوبه أجراس كنيسة ٠

هذا العمر القصير لاتيلا ، كل ساعة فيه بعمر مستقل ٠ وبشفافية نادرة كان يحس حينما تضرب قدماه الارض أن نوافذ سوف تفتح في ارض جديدة قادمة ٠ الارض لا تهرم ، ولكن هورتي الدكتاتور تنخر اصوات المسحوقين عظمه كالسوس ٠ الحرية بالنسبة الى أتيلا كانت هي الحرية الشاملة لجميع الناس :

أنت ترى ان جذور الالم عميقة في الداخل
ولكن الغصون فوق الكتفين من الخارج
العالم هو جرحك يحرق وينبض
ترعش الحمى روحك
انك عبد طالما كان عليك ان تتمرد
وسوف تكون حرا حينما تتوقف عن بناء بيت لنفسك
من النوع الذي يريد المالك استيطانه

ها هو ذا عام ١٩٣٧ ٠ اتيلا جوزيف في الثانية والثلاثين من العمر ٠ انه يستطيع الان ان يتكلم عن العقل، فالتجربة التي مر بها وما اكثر ومضات الهذيان التي كان يسببها القهر والعذاب جعلته انسانا عاقلا من نوع جديد :

العاقل هو شخص لا اب او ام في قلبه
وهو من يعرف كيف يستقبل الحياة كشيء اضافي
الى جانب الموت
وكأن الحياة هي شيء قد تم العثور عليه
والعاقل يستطيع رد ذلك الشيء في اي وقت
وهذا هو سبب احتفاظ العاقل بحياته
انه لا يتبع الها او قسيسا ولا يتبع حتى شخصه

تقترب ساعة أتيلا جوزيف · امه تظهر له الان · على حبل من الهواء تعلق ثياب طفولته · وها هو الان على قضبان السكة الحديد يعلق اعوامه كلهـا · انكسرت المعادلة وكان عليه ان يعيد تكوينها من جديد ، ولكن فيما بعد ، حينما يأتي زمن لا تستطيع الخنازير البرية والداجنة ان تغرس انيابها في قلب الشاعر، حينما يأتي زمن تستطيع القصيدة فيه أن تصعق كالكهرباء قصاصات الاوراق الصفراء البالغة العفونة :

سكت الصمت ودقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل
بامكانك البحث عن طفولتك الان
حتى بين قوالب الرماد الرطبة
حيث من الممكن ان تتصور بعض الحرية
لذلك مارست التفكير ولكن حينما نهضت
اشتعلت الكواكب والنجوم مثل قضبان السجن
فوق زنزانة صامتة ·

□

كان العام ١٩٣٧ هو نهاية المطاف ، حيث مر قطـار البيروقراطية بكل ركابه من البوليس والقساوسة والجنرالات على جسد اتيلا جوزيف ·

كتب

« خربة خزعة »

وثيقة ادانة قديمة ـ جديدة

ان الطابع الذي الذي تركته حرب عام ١٩٤٨ في الادب « الاسرائيلي » ، هو طابع مشوه بشكل عام وذو طبيعة احادية الرؤيا ، وقيمة ادبية محدودة ، لا تزال مثار نقاش ادبي حاد حتى يومنا هذا · وهذا الادب يتمثل بنتاج مجموعة من الكتاب والشعراء الذين كانوا ابان الحرب في العشرينات من عمرهم ، وشاركوا فيها سواء كجنود مقاتلين او مفوضين سياسيين في وحدات مختلفة ، ومن أبرز هذا النتاج ما اقرته وزارة التربية والتعليم الاسرائيلية في الخمسينات في برامجها التعليمية ، سواء كانت الثانوية او الجامعية ·

واليوم وبعد ٣٠ عاما ، تثور الان في الاوساط الادبية الاسرائيلية ، بل والسياسية ، مشكلة ادبية ، تكاد تصل الى حد الفضيحة التي واكبت عرض مسرحية « ملكة الحمام » للكاتب حانوخ ليفين بعد حرب ١٩٦٧ ، حول رواية قصيرة ، لاحد ابرز كتاب هذا الجيل سميلنسكي يزهار بعنوان « خربة خزعة » ، كان قد نشرها عام ١٩٤٩ ، واقرت ضمن برامج وزارة التربية والتعليم الاسرائيلية للمدارس الثانوية عام ١٩٥٤ ·

وكان السبب في اثارة هذه المشكلة التي وصلت الى حد المطالبة ، باسقاطها من برامج التعليم ، هو قيام المخرج الاسرائيلي رامي ليفي الانساني النزعة بالمشاركة مع المخرج عوديد كوتلر مدير القسم الفني للتلفزيون الاسرائيلي ، بتحويلها الى حلقات تلفزيونية ، رفضت السلطات المسؤولة السماح لهما بعرضها ، لانها تشكل شهادة دامغة للسلب والنهب والحرق والتدمير والتهجير الجماعي الذي مارسته المنظمات الصهيونية الارهابية والجيش الاسرائيلي ضد العرب الفلسطينيين وقراهم التي دمرت من أجل تسهيل الاستيطان على انقاضها ، مما قد يجعل من هذا الفيلم وثيقة ادانة « يعرضها الفلسطينيون انفسهم على العالم » (معاريف ٦ـ٩ـ٧٧) ، في هذه الفترة التي تشهد فيها الارض المحتلة اكبر حملة استيطان وتهويد محمومتين ·

الا ان عوديد كوتلير جعل من قضية الحجر هذه ، قضية ادبية وسياسية ، مهددا بالاستقالة من منصبه اذا لم يسمح بعرض الفيلم هذا ، متهما السلطات بممارسة الارهاب الفكري على الحياة الثقافية والفنية في المجتمع الاسرائيلي ، سرعان ما انتقلت الى جميع الاوساط الصحفية والادبية والسياسية بين مؤيد لعرض الفيلم وبين معارض ، الا ان القضية لم تحسم بعد ، والفيلم لا يزال قيد الحجر ، اما سكان قرية « مدية » الفلسطينية المحتلة والمجاورة لانقاض « خربة خزعة » ، كانوا اول المبادرين لمعارضة تصوير الفيلم ، متصدين للطاقم السينمائي لمنعه بالقوة ، الا انهم عادوا فوافقوا على انجاح تصويره ، بعد لحظات من التصدي له ، اثر اطلاعهم على السيناريو ، الذي كان يحمله المخرج رامي ليفي ، مما دعا ايدوف كوهين ان يكتب في صحيفة معاريف ٦-٩-٧٧ « وهكذا كان من الممكن انهاء التصوير بسرعة ، بموافقة القرويين العرب الذين اظهروا حسا قوميا سليما وعقلا مواطنيا ثاقبا » ٠

هذه القصة ، هي ككل قصص الحرب الاخرى عند يزهار ، والتي ارضيتها حرب عام ١٩٤٨ ٠ فالحرب في مفهوم يزهار ، هي ستار لكل اولئك الذين يفرضون على الاخرين الذهاب مع التيار ، اذ ان الحرب تتطلب استعبادا كاملا ، وفي ظلها تشعر الشخصيات الانتهازية العديمة المثل بالراحة الكاملة « الحرب هي الحرب » ، ومن هنا كان الاذعان المفرط لافراد المجموعة في تنفيذ العملية الهمجية ضد أهالي « خربة خزعة » ٠

فأهالي« خربة خزعة » يشكلون تحديا وصرخة ضد الالتزام بالقاعدة السائدة في المجتمع الصهيوني القائم على الحرب ، الذهاب مع التيار ، ولكنهم يشكلون في نفس الوقت عند يزهار مؤشرا احمر للاخطار الكامنة في الحرب لروح الانسان ٠ فاذلال هؤلاء الابرياء العزل من السلاح ، يشكل نفيا لصورة مذليهم الانسانية ، اذ ان كل دفعة بعقب البندقية ، كل اهانة لهم وكل احتقار لانسانيتهم ، هو لطخة عار لمعذبيهم وانحدار الى الجريمة ، وكل تهجير لهؤلاء الابرياء ، هو بالتالي تهجير لروح مهجريهم ، وقذفها الى متاهات المنافي النفسية والعزلة ٠ وذلك من خلال رؤيته المطلقة ٠ اذ ان الصراع الدائر في ضمير يزهار ، يتكشف لنا في القصة من خلال اصواته الداخلية ، حيث يتضح لنا انه جندي ككل الجنود ، الا انه ذو مقاييس تختلف عما لغيره من أفراد مجموعته ، انه رسول المتحدث الخاص « الانا » ، وصدى لمفاهيمه وقيمه ، وملامحه تتحد مع الجندي الذي بدأ الحديث به ٠

ومن هنا تتحد الشخصيات الثلاث في القصة ، والتي هي في الواقع شخصية واحدة : الكاتب العارف بكل شيء والماسك بخيوط الحديث ، ومندوباه اللذان يبرزان كمحدثين ايضا، في البدء بصيغة الجمع ، وبعد ذلك بصوتين محاورين انت ـ أنا ، في الحاضر وفي الضمير الاول ، فالصوت الذي يتحدث الى « البطل » هو صوت الضمير ، وبصيغة تتنبأ بلغة الواجب ٠ وقد يكون الكاتب اراد التعاطف مع الصوت الاخر بالرفض ، ولكنه يستسلم ايضا بروح الحكم عليه ٠

أما الشخصية الثالثة فنستطيع ان نسميها بـ « الانا الجماعية » ، الخاضعة لاطار قيادي هرمي ، وتمثل جماعة اكبر ، فالقائد الذي « سلب وحرق ودمر وهجر القرية » ، خاضع للانطباع بأنه سيسقط فعلته على الاخرين ٠ وافراد المجموعة التى تنفذ العملية ، تعمل من خلال صلاحية الاطار بحجمه الكامل ٠ واعتقال اهل القرية على أيدي المجموعات الثلاث العسكرية المنقسمة عن المجموعة العسكرية الام المكلفة بتنفيذ العملية ، وتركزهم في أماكن منفصلة في البداية ضمن صلاحيات كل مجموعة ، ثم نقلهم وتركيزهم فى مكان

تركيز واحد ، لتنفيذ عملية التهجير فيإطار المجموعة الام ، حيث الصلاحية الاكبر ، توسع قاعدة « الانا الجماعية » ، بحيث لا تفارق « الانا » المشتركة البطل ، والافراد الذين يسلبون ويحرقون ويهجرون ويظهرون طبعا حيوانيا ، ينتمون للجمهور الواسع ، المجتمع الاسرائيلي الصهيوني ، منه يستمدون قوتهم ـ صلاحيتهم ، بحيث يتحول الفرد وببساطة الى « هؤلاء ـ نحن » ، لكي يجعل من عملية السير مع التيار اسهل لاستيعاب اعمال العنف والجريمة والمشاركة بها ، وهكذا تقع المسؤولية على كاهل هذه « الانا الجماعية » بالخطيئة ، فتكون هي المذنبة ٠

فهذه القصة ـ خربة خزعة ـ هي قصة خطيئة ، ولائحة اتهام للجنود الاسرائيليين الذين يشكلون في النهاية طائفة ، المجتمع الاسرائيلي ، وما الضحايا الفلسطينيون اهالي خربة خزعة ، سوى مثال لتشخيص الخطيئة ٠

والقصة تبدأ ب « أمر المهمة » الذي القي على عاتق فرقة من الجنود الاسرائيليين ، في « كذا لكذا من الشهر » من عام ١٩٤٩ كما نفهم من تاريخ نشر القصة ، وهذه « المهمة» هي « جمع جميع السكان ابتداء من النقطة الفلانية وانتهاء بالنقطة الفلانية ـ (انظر الخارطة المرفقة) ـ تحميلهم في الشاحنات وشحنهم خارج خطوطنا ، نسف البيوت الحجرية ، وحرق جميع البيوت الطينية ، اسر جميع الشباب والمشتبه بهم ، وتطهير المنطقة من قوات معادية » ٠

هذا هو الامر الذي تحمله الفرقة ، التي خرجت في صباح يوم شتوي في اتجاه « خربة خزعة » الفلسطينية العزلاء ، ثم انزلت بالقرب من القرية « الفلانية » الغير مرئية ، وتوزعت في ثلاث مجموعات : واحدة للاسناد ، واخرى للاقتحام ، والثالثة ، وهي مجموعة « الانا » القاص للالتفاف حول القرية ٠

ثم تسير المجموعة بين البساتين والحقول التي تحيط بالقرية وافرادها « يتحدثون ويحكون الحكايات ويغنون » بهدوء وبسلام نفسي ، اذ كان واضحا لهم بأنهم ذاهبون الى « يوم نزهة » ٠ ثم تصل المجموعة الى احدى التلال حيث يشرح لهم قائد المجموعة موشي طبيعة المنطقة وطبيعة المهمة الذاهبون اليها ، فيتضح لافراد المجموعة ان « حفنة البيوت التي ترى في منحدرات التلة المقابلة هي « خربة خزعة ما » وان « كل تلك البساتين والحقول تابعة للقرية » وان مياهها الغزيرة ، وارضها الطيبة وبساتينها الريانة ، قد اكسبتها الشهرة » كشهرة اهلها بأنهم« حقبرون » ٠

ومن هناك تنطلق المجموعة ، بعد الاطلاع على تفاصيل المنطقة والمهمة ، الى التلة المقابلة ، حيث بدت لهم القرية هذه المرة واضحة امامهم ، فاتخذوا مواقعهم ، وسلطوا مدفعهم الرشاش وسلاحهم في اتجاهها جاهزين للبدء في العملية ٠ الا ان عامل اللاسلكي شموليك المنكب على جهازه ، يخبرهم انه لا تزال امامهم فسحة من الوقت بعد ، لساعة الصفر ٠

في غمرة هذا « الانتظار الممل » يستعرض البطل « الانا » المتحدث ايامه السالفة ، وكيف انه كانمن الافضل"للجندي ، بمجرد ان يدخلوا القرى التي كانوا يحتلونها « ان يمشي طيلة النهار كي لا يجلس على هذه الارض الترابية المتعفنة الموبوءة الكريهة ، لانهم (العرب) بصقوا عليها طيلة اجيال ، والقوا فيها بولهم وبرازهم وروث ابقارهم وجمالهم ، بالاضافة الى سقائفهم النتنة ، المصابة بعفن انقاض مساكن انسانية متراصة وفقيرة » ٠

وما ان كانت الشمس تدورنحو الظهيرة حتى « يصبح ثمة حاجة للانتقام ، للتكسير ، للتفتيت للسحق بالاقدام على الاقل » ، مما كان يدفع بالجنود لعمل اي شيء « فيجلدون وبكل قواهم ، الجمل الذي يدور بالناعورة المصطكة الدالفة ، ويركلون ذلك العربي العجوز الذي آثر البقاء للنجاة ، فيعمل في سحب المياه (للجنود الاسرائيليين) » طيلة النهار ، او كانوا « يطلقون عشرات العيارات النارية على كلب ذاهل حتى اردائه قتيلا » ثم يعودون ويسقطون في الملل والبطالـــة ٠

هذا ما كان يحصل في السابق حين كان الجنود يضطرون للانتظار ، اما في ذلك الصباح الشتوي فوق التلة المطلة على خربة خزعة ، في انتظار ساعة الصفر للبـدء « في الحرق والنسف والتهجير » كان صبرهم ينفد شيئا فشيئا الى الحد الذي « لو طال الأكثر ـ فاننا سوف نبدأ بالاقتتال مع بعضنا » ولكي لا يقتتلوا فانهم يبدأون هذا الحوار الدموي الذي يبدأه عامل اللاسلكي شموليك ، والذي اشبه ما يكون برقصة شعائرية وثنية، لساحرات شكسبير حول قدر الشعوذة الذي يمور بالرؤوس المقطوعة والدم السائح ، والذي يرسم الطريق أمام المذبحة المقبلة :

ـ « ماذا تقول في هذه القوة الخارقة للحياة عند الحمار ؟

ـ كيف ؟

ـ لقد رميت البارحة واحدا ، بثلاث رصاصات ولم يمت !

ـ في أي مكان من جسمه غرستها ؟

ـ واحدة هنا في العنق ، وواحدة هنا في الرأس تحت الاذن ، والثالثة بجانب العين ٠

ـ ومـــاذا بعـد ؟

ـ لم يمت ٠ تابع مسيـره ٠

ـ مستحيـل

ـ اني اقسم ! البارحة ، بالقرب من المعسكر ٠ لقد خرجت لكي اجرب البندقية ، فرأيته يتمخطر عند السياج ٠ وحالا رميته ٠

ـ من أي مكان ذلك ؟

ـ عن قرب ٠ عشرة أمتار او أقـل ٠

ـ ولم يمت ؟

ـ أين ! لقد تابع سيره ، وبعد ذلك سقط ٠

ـ آه ٠٠٠

ـ عندما اصيب في عنقه ، رفع رأسه ونظر الي ٠ كان الدم يتدفق منه كما لو كان يتدفق من صنبور ٠ ثم عاد يقضم العشب ٠ رميته تحت الاذن ، فقفز قفزة واحدة ، وظل واقفا ينظر الي ، لقد كان ذلك مثيرا للغضب ، فرميته بجانب العين ، من مسافة أقرب ، فسار عدة خطوات الى الامام في العشب ، ثم ، رويدا ، رويدا ، وبدون اية رغبة ، سقط وتمدد ٠ قوة حياة خارقة أليس كذلك ؟

ويستمر الحوار حول قتل حيوانات اخرى ، ويستفيض يزهار وبموضوعية متناهية ، بماذا يختلف احتضار الجمل عن احتضار الحمار بعد تجربة السلاح عليه ، ومن هنا تكون المعاملة للانسان بشكل عام ، والعربي الفلسطيني بشكل خاص ، وللطبيعة والقرية واضحة تماما · السادية والمازوخية بأبشع اشكالها ·

ولكي تكون الصورة اوضح ، بالنسبة لمصير اهالي قرية خزعة ، فاننا نرى احد الجنود وقد استنفره الحوار للبدء في « زرع الالغام لهم » ، موقظا فيه حاســـة « الصيد » الانساني ، وخاصة بعد ان يلمس استحسانا وحماسا من القائد موشي لهذه الفكرة :

ـ « سيكون ذلك رائعا ، انظروا ، فاذا كانت القرية هناك ، فالى أين يهربون ؟ قبل كل شيء الى هناك · حسن · وهناك نزرع لهم الغاما قافزة · عربوش (اي عربي ـ والكلمة ليست عبرية وانما محرفة عن كلمة برعوش والتي تعني برغوث) · واحد يتفجر ، وعشرة يأخذون الارض · وحالا يغير الاحرون الاتجاه ويركضون الى هنا ، الينا ، الى فوهة المدفع الرشاش هذا مباشرة ، ويقعون في الشرك بكل بساطة » ·

ـ ليأخذهم الشيطان ، اي اماكن جميلة لهم ·

ـ كانت ! انها الان لنا ·· وحين نأتي الى هنا سيكون اجمل الف مرة ·

□

تتلقى المجموعة الامر ببدء العملية ، وبفتح النيران على اسفل القرية ، وعلى البيوت العالية المطلة عليهم ، مجموعة الاسناد تفتح هي الاخرى النار على القطاع المكلفة به ، بينما تتسلق المجموعة الثالثة التل وتتمركز في اعلى القرية ومن هناك تركبها تمامًا ·

مجموعة « البطل » تفتح نيران رشاشاتها على البيوت المطلية « بالازرق العربي » ، وعلى النوافذ الخضراء وفي الازقة ، الا ان احدا لا يجيب على النيران بالمثل داخـل القرية العزلاء ، قائد المجموعة يصرخ في اتجاه القرية ساخرا « صباح الخير يا جمعه ·· اليهود آتون اليكم » ·

افراد المجموعة يكتشفون فجأة ان ثمة مجموعات من أهالي القرية يفرون ، فيلهب ذلك « طبيعة الصيادين الكامنة » بأفراد المجموعة ، ويبدأون بقنص الهاربين ، والبطل الذي يتأرجح بين ضميره وجنديته ، يأخذه الحماس هو الاخر فيأخذ المنظار اليه ويراهم « مجموعة خلف مجموعة ، عائلة خلف عائلة ، نساء ورجالا » فيصرخ هو الاخر الى رامي المدفع الرشاش غابي يوجهه « الف ومئتان الى يمين الشجرة المنفردة ! يمكن اصطيادهم جيدا » ، ا انه يشعر بشيء من الغثيان لسبب ما ويده لا تزال ممـدودة نحوهم بحماس « احسست وكأن شخصا ما يصرخ صراخا مغايرا في داخلي ، كعصفور جريح » ثم يصمت ، ويستمر احتفال الصيد ·

المجموعة تقتحم بيوت الفلاحين المنتشرة داخل البساتين حول القرية ، حيث تـرك الاهالي كل شيء خلفهم ، كما كان ساعة هربهم من وجه الموت « فالفراش كان لا يزال ممدودا ، والنار بين الاثافي لا تزال متقدة ···· » وكانت الاشياء تغري بسلبها « لولا اننا احتلينا قرى كثيرة وجمعنا ورمينا وحرقنا ودمرنا الى ان عافت ذلك نفوسنا » ·

وفي تقدمهم يعثر افراد المجموعة على جمل محمل ، وحين يهمون باناخته ، يخـرج اليهم صاحبه العجوز ذو اللحية البيضاء ، يذلونه ، يسخرون منه ، ويطردونه ، وحين

يلح عليهم بالتوسل ان لا يقتلوا جمله، وان يسمحوا له باقتياده الا انهم يخيرونه : « روحك او الجمل » الا ان الاختيار كان صعبا ، فتند عنه صرخة يائسة « الله » ، فيطلق أرييه النار فوق رأسه ، وهو يطلب الى القائد « فلنتخلص منه » ، مما يدل على ما وصل اليه افراد هذه المجموعة ـ المجتمع « الاسرائيلي » برمته من انحدار الى الجريمة والامتثال الكامل للحرب ، القتل وانتهاز كل الاسس المنحطة للشعب الذي يمثله الجندي أرييه ، وهي المطالبة بعدم التمييز بين « العدو » الحقيقي ، وشيخ عجوز بائس ٠

وتتابع المجموعة تقدمها نحو القرية ، بينما تبدأ « فرقة الالغام عملها » والانفجارات داخل القرية تبدأ بالتوالي ، والدخان يتصاعد ، وجموع الهاربين من الموت ، تبدأ بالتقاطر خارجة من القرية فرارا من الموتالى شراك الموت المنصوبة لهم في الطرق ٠

ثم تدخل المجموعة القرية ويبدأون باقتحام « ساحات البيوت المقفرة يصرخون ويعلنون عن كل لقية ويصبون النفط من صفائح اعدت خصيصا داخل الجيب ، على متبن او باب خشبي او سقف قش منخفض ، ثم ينتظرون ليشهدوا كيف تتحول البيوت الى نيران ملتهبة ٠ مخرجين النساء والاطفال من البيوت » صارخين « يا لله ٠٠ يا لله » غير آبهين لتوسلات الشيوخ بأن « القرية خالية من الشباب تماما ولا يوجد فيها غير العجائز والشيوخ والنساء والاطفال » ٠

وفي ساحة صغيرة منالقرية ، كان الجنود يجمعون الاهالي فيأمر موشي القائد ، بسوقهم الى مكان التركيز ، تحت شجرة خارج القرية ، فيسوقهم الجنود « وهم يصرخون بهم بحدة ويلوحون بأيديهم وبنادقهم كرعاة بقر » ، ولكي تكتمل هذه الصورة المذلة « لقطيع » الاهالي ، يأخذ احد الجنود عصا من أحد الشيوخ « واكتتف بندقيته وراح يلوح بالعصا ، يدفع هذا بها تارة وتارة ذلك » ٠

وبعد ان يتم تركيز الاهالي ، وينتهي الجنود الاسرائيليون من تنفيذ عملية « السلب والحرق والتدمير » تبدأ عملية التهجير الجماعية « بأربع شاحنات كبيرة كانت تصطف صفا واحدا امام قناة من المياه » وحين لم تستطع الشاحنات عبور القناة ، يساق الاهالي اليها من القرية مشيا على الاقدام ، دون ان يأخذوا معهم اي متاع او غطاء او غذاء ٠ فيساقون جميعا غائصين في الوحل باتجاه الشاحنات حيث يتم « تحميلهم » ٠

يتم تحميل الرجال ، فيأتي دور النساء ، كي يشحنوهن بشاحنة اخرى مستقلة ، فتخرج احدى النساء من الطابور وهي « تحمل في حجرها رضيعة هزيلة ، تتأرجح كأداة لا نفع فيها ، رضيعة صغيرة ، هزيلة ومريضة ومتقزمة ، وكانت امها ترفعها بمزقها وترقصها أمامنا متوسلة ، بلهجة ليست هي بالساخرة ولا الحاقدة ، كما ليست هي بالبكاء المجنون وانما كلها مجتمعة : هل تريدونها ؟ خذوها ٠ خذوها لكم » الا ان احد الجنود يهوي عليها بيده كي يضربها وهو يصرخ « يالله ٠٠ يالله » فانسحبت وهي « بين باكية وضاحكة تغوص في السيل وهي لا تزال ترقص طفلتها بين يديها » ٠

وتستمر هذه المشاهد المأساوية اثناء عملية التهجير ، فيستفيق « الانا » الداخلي للبطل ، الجندي المشارك في هذه العملية القذرة ، ويململ « ما لنا ولكل هذه العملية » فيجيبه يهودا « كل ما في الامر اننا ننقلهم الى الناحية الاخرى ، وهذا جميل من جانبنا ، اذ لا يوجد مكان في العالم يعاملونهم فيه كما نعاملهم نحن » ٠

وحين تمر امرأة تمسك بيدها طفلا كانت « تبدو حادة ، متماسكة ، صلبة بحزنها ، ودموعها تسح على وجنتيها وكأنها ليست لها ، ودون ان تعيرنا اي انتباه ، كأم لبؤه لا تريد الانكسار امامنا » يخجل البطل ويخفض عينيه الى ان تنضم هي الاخرى الى قافلة المحملين بالشاحنات ٠

فينظر البطل « الانا » الى قائده موشي ، وهو لا يزال فريسة « الانا » الداخلي ، الرافض لكل مايجري ، ولكنه لا يستطيع الخروج عن التيار الجارف ، فيسأله موشي :

ـ « لماذا تنظر الي هكذا » ؟

فيجيبه بصوت مخنوق وكأنه صوت « الانا » الداخلي عنده :

ـ « هذه حرب قذرة » ؟

ـ « دخيلك ، ماذا تريد اذن ؟ فلتسمع ما أقوله لك ، لخربة ما اسمها هذه ، سيأتي قادمون جدد ، هل تسمع ، ويأخذون هذه الارض ويفلحونها ، وسيكون هنا مكان جميل »٠

يشعر البطل انه على حافة هاوية ، ولكنه يسيطر على نفسه و « كل ما في داخلي كان يصرخ : مستوطنون بالقوة ٠ صرخت مشاعري ، كذب ، صرخت مشاعري خربة خزعة ليست لنا ٠ ولم يمنحنا الشباندار (سجن مجرمي الحرب في برلين الغربية) اي حق ٠٠»

اراد ان يفعل شيئا ما « عرفت انني لا استطيع ان اصرخ ٠ لماذا بحق جهنم ، انني المتأثر الوحيد هنا ٠ لقد تورطت هذه المرة ٠ ثمة شيء متمرد في مكان ما في داخلي ، يفجر كل شيء ٠ لمن اتكلم ومن يسمعني ؟٠٠ »

قال للقائد موشي وهو يحاول السيطرة على صوته كي لا يرتجف :

ـ « موشي ٠٠ ليس لنا اي حق في اخراجهم من هنا » ، الا انه كان يعرف انه لن ينتج عن ذلك شيء ، وان ما قاله كان موجها الى « الانا » الداخلي العاجز عنده وليس لقائده

الشاحنة الاولى تحركت تصعد الطريق الترابي الكبير ، وتمنى في داخله لو يستطيع الذهاب اليهم واحدا واحدا ويهمس « عودوا الليلة ، فنحن ذاهبون وستظل القرية خالية »، الا انه لم يفعل واستسلم للتيار ٠ والشاحنة الثانية المحملة بالنساء ، تحركت هي الاخرى ، بينما راحت الشاحنة الثالثة تهدر ٠

ومن ثم ، « كان السهل هادئا ، وفي الطريق الترابي من بعيد ، وبالقرب مما كان يبدو كعاصفة ، كانت الشاحنة الثالثة تبتعد وتتلاشى ، تسود شيئا فشيئا ، وتتأرجح ، ككل الشاحنات الثقيلة المحملة بالفواكه او المحاصيل او شيء ما » ٠

وفي النهاية ،

يؤكد الكاتب يزهار ، وكأنه احد انبياء الخراب القدامى ، المقارنة بين نهاية خربة خزعة الحاضرة وبين الاحداث التي سبقت نهاية سدوم الخاطئة اذ « حين يطبق الصمت على كل شيء ، ولا يهتك الصمت احد ، وتضج الارض بهدوء ما خلف الصمت ، سيخرج الله عندها وينزل الى السهل ليتجول ويرى كيف كانت صرخته » ٠

توفيق فياض

العشاق

رشاد ابو شاور :

دائرة الثقافة والاعـــلام فـــي م٠ت٠ف٠

بين انهاء الرئيس عبد الناصر لـــدور البوليس الدولي في شرم الشيخ ، عـــام ١٩٦٧ ، وبين الاسابيع القليلة التي تلت هزيمة حزيران ، شهر ونصف الشهـــر تقريبا ، وفي هذه الفسحـــة الزمنيـــة المحدودة، يحرك رشاد ابوشاور شخصيات روايته « العشاق » ، على رقعة جغرافية محدودة نسبيا ، ايضا ، حيث لا تغـــادر شخصيات الرواية منطقة اريحا الفلسطينية الا لماما ، وبصورة جزئية تكاد لا تذكر ، فهل بمقدور زمان ومكان محددين ان يمنحا العشاق فرصة ان يحققوا روايتهم ؟ ربمـــا يرى الكثيرون مثل هذا الامـــر صعبـــا (وربما تطرف بعضهم فاعتبره مستحيلا) الا ان الزمان الروائي ـ كما يقول روجيـــه غارودي ـ يكون اقرب الى الحقيقة ، بمـــا هو تعبير عن مبادرات الانسان ، لا بمـــا هو ساعات وتقاويم محشوة بالاحداث ، وعلى هذا فان مبادرات « العشاق » بما تحمل من غنـــى وخصوبة هي المعيـــار ، فالاحداث ـ كما يقرر غارودي ايضا ـ هي في الرواية ما يحدث الانسان ويخلقهـــا وليست مجرد معطيات جامدة ٠

و « احداث » رواية العشاق تنبثـــق من اللحظة المهدة لفجيعة العرب الفظيعة في حزيران ، وتمتد لتغطي لحظة حزيران نفسها ترقبا وحدثا ونتائج اولية ، امـــا متلقو هذه الفجيعة ، فهم الفلسطينيـــون في اريحا ، هذه المدينـــة الجبـــارة بتضاريسها وناسها وقيظها ٠ اذن فالزمان ـ على محدوديته الوقتية ـ خصب خصوبة الارض التي تحمل قيمة العشاق ، ويأخـــذ الزمان والمكان فرصة مضاعفة من خـــلال الملحق الذي ثبته الكاتب في مدخل الرواية وعرض فيه ـ على امتداد سبع وعشرين صفحة ـ جوانب مدهشة من مدينة اريحا ، التي يجب ان يسميها مدينة القمر ، حيـــث يلتقط ببراعة لا تخفى ، احداثا منتقـــاة من تاريخ المدينة ، منذ الغزو العبـــري الاول الى سقوطها في ايدي الصهاينـــة ، مع تركيز على خصوصيتها الجغرافيـــة (من الصعب احصاء عدد المرات التـــي اورد فيها الكاتب ان اريحا اخفض نقطـــة في الكون) الى جانب الاستفاضة فـــي الحديث عن قيظها المجنون ، وشوارعهـــا وحجارتها ومائها وهوائها ، وهذا كلـــه شاهد على معاناة اهلها على ايدي الغزاة والحاكمين والمتنفذين ، هذه المعاناة التـــي لا يعبر عنها بالشكوى مطلقا ، وان كانت فياضة بالحـــزن والسخط والسخرية ، ويتعاظم دور هذا الملحق في الروايـــة مرتين : الاولى عبر الايماءات التاريخيـــة الذكية واسقاطها على اللحظة الراهنـــة (مثلا ، الاشارة الى جبل التجربة ومعناه في حياة السيد المسيح) والثانية فـــي التقاط الكاتب لعدد مـــن الشخصيـــات الحقيقية التي وردت في الملحق وزرعها ،

باسمائها الحقيقية ، في جسم الرواية ، بحيث يأخذ العمل بمجمله حالة من الحلم المتنقل بين الواقع والتخيل ، وهي حالة يسيطر عليها رشاد باقتدار مؤكدا حريته في الخلق الفني الذي يلغي التعارض بين شخصيات الواقع والشخصيات الواقعية ٠

بل ربما بدا لنا بعض المفارقة ، في ان شخصية مأخوذة من الواقع (مثل الشرطي عطوة) هي اكثر اقناعا فنيا من شخصية قررها الكاتب (مثل شخصية الاب الياس)، ففي الوقت الذي ينتقل فيه عطوة من صفحات الملحق الى جسم الرواية ليعزز واقعية العمل الفني ، نرى الاب الياس في الرواية مجرد فكرة جاهزة ، فهو قبل ان يظهر يقع تحت طائلة التقرير ٠ يقول محمد احد الاساسيين في الرواية عن الاب الياس : « انه يختلف عن رجال الدين ، فايمانه بالانسان هو جوهر حياته ــ ص ٨٣ » وتقول الام بعد سطر واحد : « لقد واسانا كثيرا ولم يتخلف عنا » ، اما الاب الياس نفسه فبمجرد ان يظهر يقول : « هذه رائحة فلسطين ، رائحة الطابون ، رائحة الطعام الطيب ، رائحة الالفة ، اتعرف يا محمود ، لو انني خيرت ان اكون من وطن من الاوطان لاخترت فلسطين ، لا اجد يعرف رائحة القدس القديمة ٠٠ ص ٨٧ » ٠

ان هذا الحوار لا يمكن ان يدور ، فنيا ، بين اناس يعرف بعضهم بعضا ، ان « المعلومات » التي يقدمها هذا الحوار عن الاب الياس هي برسم القارىء ، ويتدخل من الكاتب ، وهذا ما سيبدو اكثر وضوحا بعد ان نقطع في الرواية شوطا ، عندما يقول حسن عن الاب الياس ايضا «ما زال ينتظر عودة المسيح ليخلص العالم ــ ص ٢٠١ » وعندما يتحدث الاب الياس عن نفسه « لا تظن اني لا اؤمن بالعنف ، انا مع حمل السلاح في سبيل تحرير الوطن ــ ص ٢١٨ » ٠٠ في هذه الشخصية فقط ، يستعيض رشاد عن المبادرة الانسانية بالتقرير والمصادرة ، على ان ما يشفع له هو قرب شخصية الاب الياس من القلب ، وانتشارها بين الشخصيات الاخرى ، ذات اللحم والدم ، كاشعاع وجداني يستمد مشروعيته الفنية من خصوصيته اللاهوتية ٠

والاب الياس ، بخصوصيته هذه ، يبتعد عن التناظر المتقن بين مكونات الرواية ، والتناظر الذي اعنيه لا يأخذ شكلا سكونيا او نمطيا ، بل على النقيض ، يبدو غنيا بالحركة ويمنح كل شخصية تفردها الضروري ٠ فنحن نرى اولا شخصية محمود ، الشاب الفلسطيني الذي خرج من السجن حديثا ، انه يواجه النظام بشجاعة ومع ذلك لا يحتمل رؤية ذبح الارنب « بصراحة اكره رؤية الدم ــ ص ٨٥ » وعندما يواسيه اصدقاؤه بان الحبس للرجال ، لا يقع في شرك المزايدة ، بل يلعن السجن وساعته ، وهو يعي فاجعية الوضع الفلسطيني : « فعلا هذه رياح لا تشتهيها السفن ، لقد خلقنا لنعيش ، لنفرح ، لكننا ولدنا على اصوات القذائف ــ ص ٢١٢ » ولهذا فهو يختار الثورة : وهو حريص على ان ينجب الفلسطينيون ويكثروا : « كيف لا ننجب ؟ ذلك يعني اننا لا نستحق ان نكون مواطنين ــ ص ٢٥٤»٠

مقابل هذه الشخصية تماما نرى حسن. على الطريق نفسه ولكن بمواصفات مختلفة ، ففي الوقت الذي يلعن فيه محمود السجن وينزعج من رؤية الارنب المذبوحة ، يطالعنا حسن ، اول ظهوره في الرواية ، بعملية مغامرة ، اذ يقوم بحرق مزرعة المتنفذين واللصوص ، وهو يصل الى نصف الفكرة بينما يكمل محمود النصف الاخر ، مثلا عندما يتحدث حسن عن باسم العارف ، الفلسطيني البرجوازي، يقول : « الذي يحيا في هذا البيت ،وسط

هذا البستان لا يفكر في قتال العدو ـ ص ٢٣٥ » فيجيب محمود : « بل يمكن ان يفكر في قتال العدو اذا استطاع دحر ثقل هذه الامتيازات عن عقله » ، وحسن يعي دوْر محمود وقدرته النظرية والتنظيمية ، ولهذا فهو يقرر اثناء توزيع المسؤوليات ، وخلال حديثه مع محمود : « انت لا يجب ان تشارك في اي هجوم ، انت تبقى للتنظيم ، للتفكير ، للتخطيط ، فاذا مت انا فعليك عندئذ اما ان تدبر منفذا جيدا او ان تتقدم انت للتنفيذ ـ ص ٢٦٨ » ٠

ان هذا التناظر بين شخصيتي محمود وحسن يضفي على الرواية نوعا من التناغم المحكم البعيد عن اسار النمطية ، واذا كانت التباينات الطفيفة تبدو بينهما من خلال مواقف كل منهما ، ومن خلال النبض الداخلي لشخصيتيهما ، فان الوضع لدى الشخصيات النسائية لا يبدو هكذا تماما ، اذ ان التباينات الصارخة تبدو ، على الاغلب ، خارجية ، فماذا عن شخصية ام محمود مثلا ؟ انها ام فلسطينية طيبة ، ولداها وطنيان معنيان بالثورة ، وزوجها مناضل قديم استشهد في احدى المعارك ، واخوها مختار انتهازي متعاون مع السلطة ، في المقابل هناك ام حسن ، ام فلسطينية طيبة ، ولدها وطني معني بالثورة ، زوجها شرقي تافه مزواج ، واخوها شيخ طهراني يتعقب اللصوص وهو ذو ماض وطني طيب ، وتنفرد ام حسن بشخصية قوية باهرة ، فقد استطاعت ان ترغم زوجها على تطليقها ، كما انها امرأة منتجة تصنع الطوب بنفسها ، على انها رغم هذا التفرد لا تبدو ، في جوهرها ، مختلفة عن ام محمود ، فهما تعدان الشاي والطعام دائما لاولادهما وضيوفهما ، كما تستقبلان دون حرج علاقات الحب بين الشباب : ام حسن تستقبل في بيتها زينب حبيبة ابنها ، وام محمود تستقبل ندى حبيبة محمود ، وهذا التشابه بين الشخصيتين ينبع من محدودية عالم المرأة في بلدنا ، وان كان من حق الكاتب التنويه بالحاح على نجاحه في استخلاص شخصيتين نسائيتين (ولا سيما شخصية ام حسن) من هذا الجو المحدود ٠

ويتاح للكاتب فرصة اكبر في اظهار التناظر بين شخصيتين نسائيتين ، عندما يقدم لنا ندى وسعدية ، فهما صبيتان ، والتطور الذي ادركه جيلهما قياسا الى جيل ام محمود وام حسن يسمح لكل منهما بتفرد اوضح ، فماذا نرى ؟ نرى ، من جهة ، سعدية مسكينة خجولة مكسوفة تحب ابن عمها ولا تستطيع مصارحته ، ومن جهة ثانية تبدو ندى قوية ، شجاعة ، تخرج مع حبيبها الى الشارع ، على مرأى من الناس ، وحين ينفردان ، تطلب منه ان يقبلها ، ثم حين يبدأ العمل النضالي تجد لنفسها دورا ٠٠ هو دور بسيط على اي حال ، لكنه دور امين للواقع بلا تهويل ولا طنطنة ، واذا كانت شخصية ندى غنية ومقنعة ولصيقة بجسم الرواية ، فان سعدية لا تبدو ضرورية ، انها شخصية زائدة ، ولعل دورها لا يعدو ان يكون وظيفيا ٠ القول نفسه يصدق على شخصيتي زينب وسهام التي يرد اسمها مرة واحدة في الرواية ٠

ويدخل في سياق التناظر الذي تقدمه الرواية ، شخصيتان فريدتان : هما مدينة اريحا ، اخفض منطقة في الارض ، وجبل التجربة الشاهق ، واذا كانت المدينة قد شهدت تاريخا ملتحما بالحاضر ، فان الجبل شاهد على هذا التاريخ ، والمدينة في انخفاضها المريع موصولة بقمة الجبل الذي هو « تمثال للصبر الفلسطيني ، انه راسخ مهيب ، ثقيل وصلب ـ ص ١٢٦ »، بهذا التناظر يختلط الفلسطينيون بطبيعة

ارضهم وتختلط الارض بهم ليسهما معا في استكمال صناعة تاريخ المنطقة ٠

الى هنا يبدو التناظر تكامليا ، داخل الاسرة الواحدة ، لكنه لا يبقى كذلك في حالات التعارض ، والتعارض قاسمه المشترك اهل اريحا الفلسطينيون ، فهم من جهة يصطدمون مع السلطة الاردنية المتحكمة ، ومن جهة يصطدمون مع الاحتلال ٠ وفي حال التعارض مع السلطة ينجو الكاتب من ورطة وضع الجميع في كيس واحد ، فهو يميز جيدا بين شخصية عطوة الشرطي المسحوق صاحب الروح المرحة والهمة الوطنية العالية وبين شخصية الشرطي ادريس الحقير الذي يهين كرامة الشباب ، ويقص شعر محمد ليذله امام فتيات اريحا ، وعندما تبدأ الحرب يكون عطوة مع شعبه ، بينما يرتجف ادريس خوفا ويطلب السلامة ٠

اما في حالة التعارض مع العدو فليس هناك رحمة ٠ العدو هو العدو ، ولا حوار معه الا بالقتال ٠٠ ويخيل الي ان ذروة الصراع في هذه الرواية ، يرفعها رشاد ابو شاور في التضاد حتى الموت بين شخصيتي ابي خليل والخواجا داوود ، فأبو خليل الفلسطيني هو ابن الخضرة والارض ، هو امتداد الشجرة وحاميها ، لقد ظل يحرس الشجر خمسة عشر عاما ليكتشف فجأة ان هذا الشجر له وليس للاقطاعي البعيد : « انا منذ خمسة عشر عاما احيا تحتها ، اليد التي ستمتد لقطعها ستقطع ، هذه شجرتي ـ ص ٢٠٧ » وعندما يقع الاحتلال ، يظهر الخواجا داوود ، الصهيوني الدخيل ، المعني بالحجارة والعظام ، الباحث عن وهم تحققه الحجارة عله يثبت به حقا للصهاينة في اريحا ، ويطلب الخواجا داوود من ابي خليل ان يساعده ، لا في البحث عن حجارة بل عن اسماء المواطنين الفلسطينيين ، وعندها يحدث الانفجار الاهم في الرواية : يفقأ ابو خليل عيني الخواجا داود بعظمة من العظام التي يحلم الصهاينة ان تعطيهم حقا في فلسطين ٠٠ وعندما يبدأ الخواجا الاعمى بالتعثر بين الحجارة واطلاق النار على غير هدى، يتوغل ابو خليل في الخضرة ، فيحرسه الشجر الذي قام هو بحراسته طويلا ٠٠

□

يبدو مشروعا ان يبحث القارىء عن النمو الدرامي لهؤلاء « العشاق » ، ولكن قراءة متمهلة للرواية ستعفي الكاتب من هذه المهمة ، فشهر ونصف الشهر مدة اقصر من يتطور خلالها الناس ، ومع هذا فاننا لا نودع شخصيات هذا العمل كما استقبلناهم ، صحيح ان الفترة قصيرة ، ولكن الصحيح ايضا انها فترة بالغة الخطر والخطورة ، اذ لا شك ان هزيمة حزيران اختبار من النوع الذي يكفي ان يحدث مرة في تاريخ امة من الامم (ولا سيما اذا كانت على طريق التحرر الوطني) حتى يترك بصماته على ابنائها ويفتح امامهم باب المراجعة والحساب ، فكيف اذا كان هؤلاء الابناء من نوع « العشاق » الذين هم بغالبيتهم من المثقفين المشغولين بهموم الوطن والثورة ؟ على ان التأثير لا يقع على المثقفين فقط ، فالهزيمة شاملة ، والجميع يأخذ الدروس منها ، كل شخصية حسب وعيها واستعداداتها٠٠

في الفقرة الرابعة من قسم الحرب ـ في الرواية ـ يرتفع علم فلسطين ، للمرة الاولى منذ سنوات طويلة ، انها مفارقة فعلا فقد كان النظام يحول دون هذا العلم، وها قد سقط النظام مع الهزيمة ، والشعب يواجه الاحتلال ، ان ارتفاع العلم الفلسطيني فوق اريحا ، وفي وجه الاحتلال يعني ان تاريخا جديدا يبدأ ، ولقد عبر

الكاتب عن دخول شخصياته على هذه المرحلة من التاريخ بأناة ودقة ..

فالتاريخ الجديد لم يبدأ بفعل معجزة غيبية . ان قسم ما قبل الحرب كله يشكل بذرة لردود فعل الجماهير بعد الحرب ، ان عطوة ، الشرطي الذي التزم بالمقاومة بعد الحرب لم يفعل هذا نتيجة صحوة وطنية ميلودرامية ، فهو منذ البداية ضرب ابن الشيخ البدوي لانه يتحرش ببنات اريحا ، وهو ذاته الذي تساءل بزهو : « احيانا اتساءل لماذا خلقني الله فلسطينيا ؟ » فأتاه الجواب « هذا تكريم لا يحصل عليه جميع الخلق ـ ص ١١٦ »، وهكذا فان ما فعلته الحرب في عطوة ان نزعت السدادة عن وعيه الثوري فتدفق في جسم الثورة .

اما باسم العارف ابن الفلسطيني البرجوازي المدلل ، الذي كان ملتزما باحدى خلايا الثورة قبل الحرب دون اي فاعلية تذكر ، وجد بعد الحرب ان الامر جدي فعلا ، فاقترح تجميد التنظيم !

من الشخصيات التي كشفت الحرب عن جوهرها ايضا ، ندى ، فهذه الصبية الشجاعة التي تغلبت على خوفها ومشت في الشارع مع حبيبها قبل الحرب ، لم تجد حرجا بعد الحرب من ان تزوره في البيت ، على الرغم من انها ليست مرتبطة معه بخطوبة .

والاب الياس ، كذلك ، لم يكشف عن ايمانه بالعنف ضد الاحتلال الا بعد الحرب .

على ان التحول الاهم في تفكير محمود وحسن ـ وهما ضمير الكاتب كما لا يخفى ـ انهما قررا تصفية ضابط المخابرات احمد خطاب ، بعد الحرب مباشرة ، وهذا اول انتقال نوعي في تفكيرهما باتجاه مواجهة السلطة مباشرة بالعنف ..

يصوغ رشاد ابو شاور اريحا صياغة بين الرغبة والواقع ، فتأتي على هيئة اسرة واحدة ، في وجه اسرتين معاديتين : الاحتلال والسلطة .. على ان جو الاسرة ليس محكوما بالمتطلبات القبلية ، وان كانت تند احيانا ، وبشكل خاطف بعض الهنات التي توحي بشيء من الرواسب الشرقية ، وغالبا ما تبدو هذه الهنات عبر المزاج الذي وهبه رشاد للشخصيات التي يحبها ، مثلا يقول حسن : « لقد اكتشفت ان الحكومة مؤنث ـ ص ٢٥٠ » ، وكأن التأنيث عنصر انتقاص ، كذلك عندما يمزح محمود بشأن زواجه فيقول : سأتزوج من اجل الوالدة « .. ومن اجل غسل ملابس اخي محمد ... » .. ألهذا يتزوج الرجال ؟

استطاع رشاد ابو شاور ان يقدم ، من خلال « العشاق » ، عالما فنيا ينبض بزخم الحياة ويجتاز ، بالسلامة ، شعرة الصراط ، ولقد كان مهددا بالوقوع الى هذا الجانب او ذاك بين فترة واخرى ، الا ان وضوح ما يريد كان يعصمه دائما ، بل ان « ما يريد » كان من الوضوح بحيث يطفح احيانا ، فيصادر على الشرط الفني لحساب بعض الافكار والخواطر الجاهزة، ويمكن حصر هذه «التجاوزات» بالملاحظات التالية :

اولا ـ استسلام الكاتب ، في حالات نادرة جدا ، الى نوع من العفوية التلقائية بحيث يترك للقلم ان يسوقه الى هذه الشطحة او تلك

ثانيا ـ استباق الكاتب لشخصياته على افكارها ، ومرد هذه الملاحظة ، في معظم الحالات ، ان لم اقل دائما ، الى حماسة شديدة يصعب ضبطها

ثالثا ـ كان ضيق المسافة الزمنية سلاحا ذا حدين ، فمن جهة اعفى الكاتب من مسألة نمو الشخصيات دراميا ، وقد استعاض عن هذا ببراعة كما رأينا في رصد بداية تحولات هذه الشخصيات خلال الحرب وبعدها ، ومن جهة الزم الكاتب بمستوى من التكثيف لم يلتزم به دائما ، مما جعله يلجأ الى الحوار ، غالبا ،ليعبر عن افكار شخصياته وهمومها ، لقد اكتسح الحوار معظم العمل ، وقد يكون هذا مشروعا لو لم يكن ينوب عن الكثير من المبادرات والتحركات التي من شانها ان تغني العمل فنيا

رابعا ـ على الرغم من حذق الكاتب في استحضار اللقطات التعبيرية التي تحاكي دخائل شخصياته ، فقد كانت هذه اللقطات تنبو عن اماكنها ـ في حالات نادرة جدا ـ لتغدو مجرد محطات جمالية، مثلا لقطة العصفورين المتناجيين على مقربة من الشيخ ابي نعمان ، وهما يحكان منقاريهما بعضهما ببعض (ص١٩١) لا يمكن ان تلائم لسان حال شيخ عجوز ٠

على اننا مقابل هذه الملاحظات المحدودة ، نجد في الرواية عملا متكاملا منسجما يغلي بالحياة ، ويحقق تطابقا مدهشا بين زخمه الفني وحرارة جو المنطقة التي يصدر عنها ، بل انه يمكن القول دون حرج ان هذه الرواية استطاعت تقديم عدد من الشخصيات الفذة فنيا ، على الرغم من عفويتها البالغة ، وعلى الرغم من محدودية فرصها الاجتماعية والثقافية ٠ في طليعة هذه الشخصيات الشرطي عطوة ، وام حسن ، ومحمد ، وابو خليل ٠٠ وابو خليل بالذات يأخذ خصوصية عالية من خلال تقدمه كرمز (ولعه بالشجر والخضرة ، حتى ابنته اسمها ندى) ومن خلال اخلاصه للحياة بحيث يبدو فلذة فنية من لحم ودم طازجين ابدا ٠

على ان نجاح الرواية لا يقف عند حدود الشخصيات الفنية ، بل انه ينبع اولا من حجم المهمات التي اضطلعت بها ، فقد استطاع الكاتب ان يقدم ، اولا ، شهادة موثقة عن يوميات اريحا ـ والضفة كلها، بالتالي ـ سواء من خلال رصد شخصياتها الطريفة وغير الطريفة ، او من خلال احداثها ومؤشراتها الدقيقة ، كما استطاع ان يعطي ملاحظات ثمينة عن القوى والاحزاب والتجمعات ، سواء الوطنية كالشيوعيين والقوميين ، او المرتبطة كالماسونية او السلبية المحذوفة خارج دائرة الفعل كحلقات الدراويش ، واستطاع بالتالي ان يوفر لابطاله الاختيارات الوطنية الديمقراطية ، بحيث يدركون الثانوي والاساسي في الصراع ، ويعون متى يرقى التناقض الثانوي الى درجة التناقض الاساسي ، ومتى يتراجع مرحليا ٠

ان هذه الرواية هي الاولى من نوعها ـ على ما اعلم ـ من حيث اقتحام المخيمات وتصويرها بعيدا عن دموع ما قبل ١٩٦٥ وخطابات ما بعد ١٩٦٨ ، بل من خلال سير الحياة المتصاعد ، المنتكس احيانا ، ولكن المتصاعد غالبا ٠٠ وكون هذه الرواية تختط دورا رياديا لا يعني انها تطلب النظر اليها بالرفق الذي تؤخذ به ، عادة ، الاعمال الريادية ، بل هي عمل فني ناضج يبقى ، بعد الملاحظات الآنفة ، ناهضا متميزا بكل جدارة ٠ ٠

احمد دحبور

التراث الفلسطيني والطبقات

علي الخليلي
دار الاداب ـ بيروت
الطبعة الاولى
حزيران (يونيو) ١٩٧٧

درس الكاتب الامثال الفلسطينية ، على قاعدة الوحدة والصراع ، ورفض الفصل الميكانيكي بينها · واعطى اهتماما كبيرا، لدراسة حركة التاريخ المادي ، المتفاوت في الفعل والتأثير ، الذي اكسب المثل سمة الشمول ، وحاول اكتناه الطبقات التي افرزت الامثال ، ودرجة وعيها الاجتماعي ·

في الفصل الاول (مدخل الى المثل الشعبي) ، ثبت الكاتب ثلاث نقاط هامة ، وهي :

١ ـ المثل نتاج جماعي وليس من صياغة عقل فرد مجبول على صياغة الحكم والامثال · ولذلك فكل (مجموعة) متجانسة طبقيا لها امثالها وحكمها · ومن غير المعقول ساعتئذ ان تبدع البرجوازية امثال وحكم الطبقة العاملة ، او ان يبدع الاقطاع امثال وحكم طبقة الفلاحين ·

٢ ـ معظم دراسات التراث استندت الى اعتماد التراث العربي « الفصيح »، واهملت في البحث والتنظير قيمة الموروث الشعبي « غير الفصيح » ، في القصص والاساطير والحكايا الشعبية والامثال ·

واذا كان الموقف التقدمي من التراث ، يقوم على استنهاض كل جوانبه الايجابية وتطويرها ، وفق منظور وايديولوجية تقدمية راهنة ، فان هذا الموقف يرفض الاستعادة الشاملة للتراث كما هو · ويرفض في الوقت نفسه الانكار العدمي لكل الماضي واعدامه ، تحت حجة انه لم يعد يلائم عصرنا ·

هذا الموقف لا يقلل من قيمة الاعمال البحثية التي تتطلب اكبر عملية رصد لهذا الماضي ، بما يخدم تعميق المعرفة ونشرها حول مرحلة من مراحل التطور · وهذه الاعمال ـ التي تبدو محايدة ، وترصد المعرفة للمعرفة ـ هي بنظر التقدمي مادة اضافية للتحليل والاستنتاج · وهذا ما حاول تأديته الكاتب ·

٣ ـ بدقة درس علي الخليلي ، تطور المثل الشعبي ، واسباب انتشاره · فمضمون المثل ، وشكله ، يساعدان على انتشاره وتناقله جيلا وراء جيل ·

وفي الفصل الثاني (المجتمع الفلسطيني من ١٩٠٠ الى ١٩٤٧) ، دراسة سياسية ـ اجتماعية ـ اقتصادية، لطبقات الشعب الفلسطيني ، تتقاطع مع الكثير من الدراسات المنشورة · والقيمة الابرز في هذا الفصل ، هي للتحليل الاجتماعي المرتبط مباشرة بموضوع الدراسة (الامثال) · ويمكن استعراض ما هو جوهري ، عند كل طبقة ، مع امثلة دالة ·

الاقطاع

يقول الكاتب ان الارض عند الاقطاعي ليست (وطنا) او (تراثا) ، « بل هي وسيلة في الاستغلال ، تنتقل من شكل لاخر ، ومن صيغة لاخرى ، حسب توافقه الطبقي ، فهو يبيعها للاعداء ، ويطرد فلاحيها ، ويعرض الوطن لكارثة الضياع، دون ان يشكل له ذلك اي تعارض مع محتوى طبقته » ص ٤٧ ـ ٤٨ ورأى ان الدين الرسمي شكل سندا رئيسيا للاقطاعيين » ، في اخضاع الامثال للشمولية الغيبية ٠

وهذه عينة من امثلة الاقطاع : اللي بتزوج امي هو عمي ـ اللي باكل من خبز السلطان بضرب بسيفه ـ الناس على دين ملوكهم ـ العين ما بتعلاش على الحاجب ـ الله فضل ناس على ناس ـ الناس مع الواقف ـ الشاطر ما بموت ٠

الفلاحون

يرتبط الفلاحون ـ تاريخيا ـ بالارض ، لانهم على تماس مباشر معها ، ويشكلون تراثها ٠ ويقول الدكتور توفيق كنعان « الفلسطيني في الدرجة الاولى زراعي وعمله يجعله على اتصال دائم مع الطبيعة التي فيها ومنها يعيش » ٠ وشكل الفلاح (الفقير والمتوسط) والعامل الزراعي ، المادة الرئيسية للانتفاضات والثورات المتتالية ٠

عينةمن امثال الفلاحين : ما بحرث الارض الا عجولها ـ اللي ما الو ارض ، ما الو عرض ـ اعطي الزرع للزراع ، والارض لاصحابها ـ اتعب على ارضك ، تتعب عليك ـ انا بالي الباشا باشا ، اتاري الباشا زلمة ـ كلب الشيخ شيخ ٠٠ الخ ٠

التجار

شكلت المصارف المادة الاولى لاهتمامات الطبقة التجارية الناشئة ٠ ومن خلالها مارست السمسرة والوساطة بين الرأسمالية الغربية وبين استغلالها للعمال والفلاحين ٠ « وهكذا نمت المدينة الفلسطينية فوق جمر المال ، فانشئت الاسواق ، وبنيت بعض المصانع لتصنيع المواد المحلية ، وانتشرت متاجر الجملة والدكاكين ، ونشطت مجاميع الباعة المتجولين ٠ كل هذه الحركة التجارية محكومة بسلطة البرجوازية ، وبالتالي مفاهيمها واخلاقها » ـ ص ١٠١ ـ

أمثلة التجار : معك قرش تسوى اثنين ـ المال يجر المال ـ المال السايب بعلم الناس السرقة ـ الدراهم مراهم ـ نقطة على نقطة بتصير بحر ـ اجير يسرق ولا شريك يحاسب ٠

العمال

يقول الكاتب ان « المفهوم الشعبي ، هو في الاساس ، مفهوم الطبقة المسحوقة ٠٠٠ والعمال في المدينة يمتلكون كل شروط « الوجود الشعبي » ، كما يمتلكون في الوقت نفسه ، كل شروط التحدي والاحتجاج والرفض والثورة » ـ ص ١١٥ ـ ٠ واعتبر طوائف الحرف ، نقابات عمالية في شكلها الجنيني ، قبل وجود النقابات (تكونت ١٩٢٥) ٠

أمثلة عمالية : الحيط الواطي بتنطه كل الناس ـ مسكين اللي خدم وما تعلم ـ الكسل ما بطعم عسل ـ البطالة بتعلم الهمالة ـ الفاضي بعمل قاضي ـ قلة الشغل بتعلم التطريز ـ شو بهمه ٠ مصروفه من امه ٠

ملاحظات

☐ ان عنوان الكتاب لا يعكس مضمونة ، فبينما تجري الدراسة كاملة عن الامثال الشعبية ، انفرد الغلاف (بدراسة) التراث الفلسطيني ، ورغم صحة القول ، بان الامثال احدى مقومات الفلكلور (الذي هو احد مقومات التراث) ، فانها لا تنوب عن التراث ، ولا يستطيع اي دارس مدقق ان يضع التراث كله في وعاء الامثال الشعبية ·

كما يفترض بمن يدرس التراث بشمول ، ان يقدم صورة شاملة للبناء الفوقي في مرحلة محددة ، او عدة مراحل ، بما يشمل العادات والتقاليد والاعراف ، القيم والقوانين ، مختلف اشكال الثقافة (فنون ـ علوم ـ اداب) ، والمعتقدات الدينية · وهذا ما لا يدرسه الكاتب ·

اذن كان الاجدر ان يكتفي اسم الكتاب بمضمونه ، فيصبح « الامثال الفلسطينية والطبقات » ·

☐ يعتبر الكتاب محاولة تقدمية جريئة لدراسة الامثال طبقيا · وشاب هذه المحاولة اضطراب واضح في المنهج والتحليل ، نظرا لضعف الموقف النظري · فالعناوين الكبيرة التي وضعها في الفصلين ، الاول والثاني ، تصطدم مباشرة بالاقتباسات التي جمعها من قراءاته · تتصارع الاقتباسات ، دون منهج يربطها ، ويضعها في السياق الملائم ·

☐ غاص علي الخليلي في دراسة صفات المثل ، مقوماته ، وطبيعة انتشاره، وارتباطه بالواقع الاجتماعي والاقتصادي للشعب · وعلى اهمية نسب الامثال الى الطبقات ، فان هذه المسألة بحاجة الى دراسة وليس الى احكام « منطقية » · فالدراسة تحدد بالضبط حقيقة امثال كل طبقة ، وتقدم تفسيرا للامثال المختلطة بين اكثر من طبقة واحدة ، وتعطي اهمية بحثية للاصول والامثال تاريخيا · ولذلك، اعتقد ، ان تقسيمات الامثال ما زالت بحاجة الى تدقيق ·

☐ « لا تجلس في حضرة من هو اكبر منك » ، « رفيق الغبي غبي ، ورفيق الحصيف حصيف ، ورفيق الابله ابله » ، « تمثال من حجر خير من ولد احمق » ·

تبدو الامثال هذه ، للوهلة الاولى انها ضمن تقسيمات الكتاب، ومنسوبة الى واحدة من الطبقات · بينما هي تعاليم بتاح حوتب ، وامنموبي ، في الحضارة الفرعونية · (★)

اذن ، كيف نميز بين « فلسطينية » المثل ، اذا عزلناه عن المؤثرات المحيطة ؟ وكيف نستخلص من امثال وحكم عهد الرق العبودي ، ما يفيد الطبقة العاملة والفلاحين ؟

نعم ، المثل يتطور من جيل الى اخر ، ويتعرض الى عمليات الاضافة والحذف والتعديل · ولكن دور الباحث في هذا المجال ، ان يبحث عن اصول هذه الامثال ، والا يكتفي بسماتها في القرنين التاسع عشر والعشرين ·

فقيمة ذلك ، انها تحدد لنا السمات المشتركة في تعاليم ونصائح وامثال مرحلة بكاملها ، مع الفروقات المحلية ·

فمثلا :

الى اي حد تتضمن الامثال الفلسطينية الراهنة مخلفات عبودية ؟

والى اي حد تتضمن مخلفات اقطاعية ؟

وما اثر تبلور الاقطاع في اوروبا ، ولاحقا البرجوازية ، على امثال الاقطاع الفلسطيني ، والبرجوازية الفلسطينية

الناشئة انذاك ، والمتكونة راهنا في المنافي ؟!

هذه وغيرها ، ظلت دون اجابة ·

□ لقد تناول صليبا جوزي في « الفلاح الفلسطيني من الصرة الى الحفرة » ، التقاليد والعادات الفلسطينية ، بالوصف التقريري ، وتجنب التحليل والنقد والاستنتاج ، فقدم بذلك كتابا وثائقيا قيما يعتمد على الرصد والجمع · بينما حاول علي الخليلي تجاوز هذه الثغرة ، فاكتسب بذلك دورا رياديا ، تقع مسؤولية تطويره ، على عاتق كتاب الفولكلور في بلادنا ، والتقدميين منهم خاصة ·

علي حسين خلف

(★) للتوسع، راجع « التربية والتعليم في مصر القديمة » د · عبد العزيز صالح ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ ١٩٦٦ ·

جدول بالعمليات العسكرية
لقوات الثورة الفلسطينية
٩/١١ ـ ٩/١٠/٧٧

الرقم	تاريخ العمليات اليوم	الساعات	موقعهـــا	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العـــ قتيل
١	١١-٩-٧٧	١٥ر٠٥	بئر السبع محطة الباصات المركزيـــة التابعة لشركة ايجد	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد
٢	١٢-٩-٧٧	١١ر٠٠	مستعمرة رمات غان شارع « ديالت »	تفجير	عبوات ناسفة وحارقة	غير محدد
٣	٩-٩-٧٧	١٥ر٠١٥	نابلس - بنك ليؤمي	تفجير	عبوة ناسفة موقوتة	—
٤	٩-٩-٧٧	٢٠ر٣٠	نابلس - تجمع لافراد شرطة العـــدو الصهيوني	القاء قنبلة	قنبلة	—
٥	٨-٩-٧٧	بعد الظهر	منطقة نابلس - تجمع لجنود الاحتـلال الصهيوني	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	—
٦	١٨-٨-٧٧	١٤ر٠٠	حولون - حبوب تل ابيب بمصنـــع « تمبو » للمرطبات الخفيفة	تفجير	عبوات ناسفة شديدة الانفجار	—
٧	١٨-٩-٧٧	١ر٠٠	بئر السبع - مشاغل مادة البروم	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	—
٨	١٨-٩-٧٧	-	تل ابيب - محطة الباصات المركزية	تفجير	شحنة ناسفة شديدة الانفجار	١
٩	١٩-٩-٧٧	١٣ر٠٠	غـــزة	اشتباك	خنجر	١
١٠	٢١-٩-٧٧	٤ر٤٥	كريات ملاخي - الواقعة بين كريات جات واشدود احدى شقق رجال المخابرات	تفجير	عبوات ناسفة حارقـة	غير محدد
١١	٢١-٩-٧٧	١٧ر١٥	نابلس - شارع فيصل	هجوم	اسلحة اوتوماتيكية وقنابل يدوية	١
١٢ (١)	٢٣-٩-٧٧	٨ر٥٥	القدس - سوق محانيه يهودا احـــد المحلات التجارية بالسوق	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	—
١٣	٢١-٩-٧٧	٩ر١٥ صباحا	طريق بيت لحم - القـــدس الحاجـــز الرئيسي لقوات الامن	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة مشركة	١
١٤	٢٢-٩-٧٧	١ر٠٥	كريات اونو - مطعم جرعون الواقـع وسط المستوطنة	القاء قنبلة يدوية	قنبلة يدوية	غير محدد
١٥ (٢)	٢٣-٩-٧٧	١٩ر٢٥	القدس - شارع همشرون حي المصرارة	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد

العدو البشريه جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	البلاغ ـ المصدر العسكري رقم	تاريخ
غير محدد	١ ـ اصابة قسم الشحن باضرار بالغة وتحطم معظم محتوياته	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ٩٦	١٢ـ٩ـ١٩٧٧
غير محدد	تدمير جزء كبير من المبنى واشتعال النيران في الطبقات الثلاث ويعتقدبوقوع اصابات بين افراد المخابرات	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ٩٧	١٢ـ٩ـ١٩٧٧
ـــ	تدمير الواجهة والحاق اضرار كبيرة في محتويات واثاث البنك الصهيوني	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ٩٨	١٥ـ٩ـ٧٧
٤	ـ اصابة ضابط من الشرطة وجرح ثلاثة جنود بينهم شاويش باصابات بالغة	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ٩٩	١٥ـ٩ـ٧٧
٤	قامت سيارات الاسعاف باخلاء اربع اصابات من مكان الحادث ٠	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٠٠	١٥ـ٩ـ٧٧
٢	الحاق اضرار جسيمة بمعدات الشركة	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٠١	١٦ـ٩ـ٧٧
غير محدد	١ ـ اشتعال النار في المصنع ٢ ـ وقعت عدة اصابات داخل المصنع ٣ ـ اصابة احد الخبراء برئتيهوفقدبصره	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٠٢	١٩ـ٩ـ٧٧
ـــ	ـ اكتشفت العلبة ثم انفجرت مما ادى الى قتل الخبير	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٠٣	١٩ـ٩ـ٧٧
غير محدد	١ـ اصابة بعض الجنود بطعناتالخنجر ٢ ـ مقتل احد الجنود	١	ـ	ـ	٧٧ـ١٠٤	٢٠ـ٩ـ٧٧
غير محدد	١ ـ اصابة عدد غير محدد من افراد العدو بين قتيل وجريح ٢ ـ اصابة الشقة باضرار بالغة واحراق جميع محتوياتها ٠ ـ تضرر المبنى واندلاع النيران فيه	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٠٥	٢٢ـ٩ـ٧٧
٣	ـ مقتل قائد الدورية برتبة ملازم ـ جرح ثلاثة من جنود العدو ـ تمكن الثوار من الاستيلاء على رشاش عوزي	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٠٦	٢٢ـ٩ـ٧٧
٩	ـ اصابة ٩ من افراد العدو بجراح ـ تحطم المحل التجاري واتلاف جميع محتوياته				٧٧ـ١٠٧	٢٣ـ٩ـ٧٧
غير محدد	ـ انفجرت العبوات اثناء محاولةتفكيكها ـ مقتل احد خبراء المتفجرات ـ اصابة عدد من رجال الشرطة الصهاينة	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٠٨	٢٤ـ٩ـ٧٧
غير محدد	ـ اصابة عدد غير محدد من افراد العدو بجراح ـ اصيب المحل باضرار لم تحدد	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٠٩	٢٤ـ٩ـ٧٧
غير محدد	ـ اصابة عدد من المستوطنين بجراح شوهدت سيارات الاسعاف تنقلهم الى مستشفى هداسا	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١١٠	٢٤ـ٩ـ٧٧

١٦	٢٨-٩-٧٧	٧ر٣٠	القدس - نيفي يعقوب الباص رقم ٢٥ التابع لشركة ايجد	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	—
١٧	٢٦-٩-٧٧	٩ر١٥	بتاح تكفا - مركز الشرطة - فرع بنك لؤمي - محل تجاري	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد
١٨ (٣)	٢٠-٩-٧٧	١٥ر١٥	اللد - مصنع « كركال » للكرتون	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غير محدد
١٩	٢٥-٩-٧٧	١٣ر١٥	الرملة - منطقة بيت جبرين	تفجير	عبوة لاصقة	غير محدد
٢٠	٢-١٠-٧٧	٩ر٠٥ صباحا	القدس - شارع يافا - محطة الباصات المركزية	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد
٢١	٩-١-٧٧	١٥ر٠٠	القدس - باب الخليل احد المحلات التجارية	تفجير	عبوة ناسفة موقوتة	—
٢٢	٩-١٠-٧٧	١٤ر٠٠	دورا - قضاء الخليل مكتب العمل الصهيوني	تفجير	عبوات حارقة	—

(١) اعترف العدو في نشرته الاخبارية بهذه العملية وذلك بعد ان اتى على ذكر عملية حي المصرارة قائلا : « وهذه عملية « التخريب » الثانية في المدينة بعد أن انفجرت صباح اليوم عبوة ناسفة صغيرة في سوق محانيه يهودا » وادعى بانه لم تقع اية اصابات ٠

(رصد اذاعة اسرائيل ، السبت ٢٤-٩-١٩٧٧ ، العدد رقم ١٣٥١ ، الساعة ٢٠ر٠٠ ، ص ٢٤٧) ٠

(٢) اعترف العدو في نشرته الاخبارية بان عبوة ناسفة صغيرة انفجرت في حي المصرارة قرب احد المنازل (رصد اذاعة اسرائيل ، السبت ٢٤-٩-١٩٧٧ ، العدد رقم ١٣٠١ ، الساعة ٢٠ر٠٠ ص ٢٤٧) ٠

(٣) اعترف العدو في نشرته الاخبارية الساعة ١٩ر٠٠ بان حريقا هائلا اتى على مصنع للورق والكرتون « كرجال » في مدينة اللد (رصد اذاعة اسرائيل ، الجمعة ٣٠-٩-١٩٧٧ ، العدد ١٣٠٦ الساعة ١٩ر٠٠ ص ٣٠٧) ٠

ـــ	ـ اكتشفت العبوات قبيل انفجارها	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١١١	٢٨ـ٩ـ٧٧
غير محدد	ـ انفجرت عبوة واحدة واكتشفت بقيـــة العبوات ـ اصابة عدد غير محدد من افراد الشرطة ـ إتلاف معظم محتويات المركز	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١١٢	٢٨ـ٩ـ٧٧
غير محدد	١ ـ احراق جميع مخازن الكرتون والمواد الخام والات التصنيع ٢ ـ تدمير المباني التابعة للشركة تدميرا نهائيا ٣ ـ احراق اكثر من ١٥ سيارة نقل ٤ ـ اصابة عدد غير محدد من اطفائيـة العدو .	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١١٣	١ـ١٠ـ٧٧
غير محدد	ـ تدمير السيارة وتدهورها ـ مقتل جميع من فيها	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١١٤	١ـ١٠ـ٧٧
غير محدد	ـ اصابة عدد غير محدد من افراد العدو بين قتيل وجريح ـ تضرر عدد من باصات شركة ايجـــد كانت متواجدة داخل المحطة	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١١٥	٢ـ١٠ـ٧٧
ـــ	ـ اكتشفت العبوات من قبل قوات الامن المصهيونية	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١١٦	١٠ـ١٠ـ٧٧
ـــ	ـ اندلاع النيران في المبنى ـ احتراق جميع محتوياته من اثـــــاث وممتلكات	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١١٧	١٠ـ١٠ـ٧٧

مروان حميد

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor*, Mahmoud Darwish: *Annual Subscription* (airmail): Lebanon and Syria L L 60, other Arab countries L L 75 or equivalent, Europe L L 100 elsewhere L L 125: *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 65. *Address*: P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351261: Cables: MARABHATH.

السعر: ٥ ل.ل. في لبنان
٦ ل.س. في سوريا
٦٥٠ فلساً في الكويت والعراق
١٠ دراهم في دولة الامارات العربية
٦ ل.ل. في سائر الاقطار العربية
٨٥٠ درهماً في ج.ع.ل.